

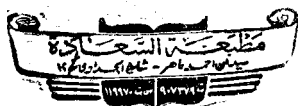
التفسير الوسيط
للقرآن الكريم

تفسير
سُورَةُ الزَّارِيَّاتِ

لفضيلة
الدكتور محمد السيد طنطاوى
عميد كلية الدراسات الإسلامية والعربية

(الجزء السادس والعشرون)

١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م



﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة وتمهيد

١ - سورة « الذاريات » من السور المكية الخالصة ، وصدد آياتها ستون آية . وكان نزولها بعد سورة « الأحقاف » .

٢ - وقد افتتحت هذه السورة بقسم من الله - تعالى - ، ببعض مخلوقاته ، على أن البعث حق ، وعلى أن الجزاء حق .

قال - تعالى - : « والذاريات ذروا . فالحاملات وقرأ . فالجاريات يسرا . فالمقصيات أمرا . إن ماتوعدون لصادق . وإن الدين لواقع ... »

٣ - ثم بينت السورة الكريمة بعد ذلك ، ما أعده - سبحانه - لعباده المتقين ، فقال - تعالى - : « إن المتقين في جنات وعيون . آخذين ما آتاهم ربهم ، إنهم كانوا قبل ذلك محسنين . كانوا قليلا من الليل ما يهجعون . وبالأسحار هم يستغفرون . وفي أموالهم حق للسائل والمحروم ... »

٤ - ثم ساق - سبحانه - بعد ذلك طرفا من قصة إبراهيم ولوط وهود وصالح وموسى ونوح - عليهم السلام - مع أقوامهم ، ليكون في هذا البيان ما يدعو كل عاقل إلى الاتعاظ والاعتبار ، بحسن عاقبة الأخيار ، وسوء عاقبة الأشرار .

٥ - ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة ببيان ما يدل على كمال قدرته ، وعلى سعة رحمته ، ودعا الناس جميعا إلى إخلاص العبادة والطاعة له ، لأنه - سبحانه - ما خلقهم إلا لعبادته ...

قال - تعالى - : « وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون . ما أريد منهم

من رزق وما أريد أن يطعمون . إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين . فإن
للذين ظلموا ذنوبا مثل ذنوب أصحابهم فلا يستعجلون . فويل للذين كفروا
من يومهم الذي يوعدون .

٦ - هذا ، والمتدبر في هذه السورة الكريمة ، يراها - كغيرها من السور
المكية - قد ركزت حديثها على إقامة الأدلة على أن العبادة لا تكون إلا لله
الواحد القهار ، وعلى أن البعث حق ، والجزاء حق وعلى أن سنة الله - تعالى -
قد اقتضت أن يجعل العاقبة الطيبة لأنبيائه وأتباعهم ، والعاقبة السيئة للكافرين
لرسولهم ، وعلى أن الوظيفة التي من أجلها خلق الله - تعالى - الجن والإنس ،
إنما هي عبادته وطاعته :

نسأل الله - تعالى - أن يهدينا جميعا إلى صراطه المستقيم . وصلى الله على
سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم ؟

د . محمد سيد طنطاوي

١٨/٥/١٤٠٦ هـ

٢٩/١/١٩٨٦ م

التفسير

قال الله - تعالى - : وَالذَّارِيَاتِ ذُرُوزًا (١) فَالْحَامِلَاتِ وَرِقًا (٢)
فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا (٣) فَالْمَقْسَمَاتِ أَمْرًا (٤) إِنَّمَا تَوَعَّدُونَ لِصَادِقٍ (٥)
وإنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ (٦) وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ (٧) إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ
مُخْتَلِفٍ (٨) يُؤَفِّكُ عَنْهُ مِنَ الْفِكِّ (٩) قَتَلَ الْخُرَّاصُونَ (١٠) الَّذِينَ هُمْ فِي
غَمْرَةٍ سَاهُونَ (١١) يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ (١٢) يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ
يُقْتَنُونَ (١٣) ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَمْتِعُونَ (١٤) .

والمراد بالذاريات : الرياح التي تذرروا الشيء ، أى تسوقه وتحركه ، تنقله
من مكانه .

فهذا اللفظ اسم فاعل من ذرأ المعتل ، بمعنى فرق وبدد . يقال ذرت
الرياح التراب تذرره ذروا ، وتذريه ذريا - من بابى عدا ورمى - إذا طيرته
وفرقة .

ومنه قوله - تعالى - : واضرب لهم مثل الحياة الدنيا ، كما أنزلناه من
السماء ، فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيما تذرره الرياح (١) ، . . ، أى :
تنقله وتحركه من مكان إلى آخر .

والمفعول محذوف ، و ذروا ، مصدر مؤكد ، وناصبه لفظ الذاريات
أى : وحق الرياح التي تذرروا التراب وغيره ذروا ، وتحركه تحريكاً
شديداً .

والمراد بالحاملات : السحب التي تحمل الأمطار الثقيلة ، فتسير بها من مكان إلى آخر .

والوقر - بكسر الواو - كالحمل وزنا ومعنى . وهو مفعول به .

أى : فالسحب الحاملات للأمطار الثقيلة ، وللبياض الغزيرة ، التي تنزل على الأرض اليابسة ، فتحولها - بقدره الله - تعالى - ، إلى أرض خضراء .

وهذا الوصف للسحاب بأنه يحمل الأمطار الثقيلة ، قد جاء ما يؤيده من الآيات القرآنية ، ومن ذلك قوله - تعالى - : « وهو الذي يرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته ، حتى إذا أقلت سحابا ثقالا سقناه لبلد ميت » (١) .

وقوله - سبحانه - : « هو الذي يرБКكم البرق خوفا وطمعا وينشىء السحاب الثقال » (٢) .

والمراد بالجاريات : السفن التي تجرى في البحر ، فتتنقل الناس وأمتعتهم من بلد إلى بلد .

وقوله : « يسرا » صفة لمصدر محذوف بتقدير مضاف ، أى : فالجاريات بقدره الله - تعالى - في البحر جريا ذا يسر وسهولة ، إلى حيث يسيرها ربانها .

وبصح أن يكون قوله « يسرا » حال . أى : فالجاريات في حال كونها ميسرة مسخرا لها البحر .

ومن الآيات التي تشبه في معناها هذه الآية قوله - تعالى - : « ومن آياته الجوار في البحر كالأعلام » (٣) .

(١) سورة الأعراف الآية ٥٧

(٢) سورة الرعد الآية ١٢ .

(٣) سورة الشورى الآية ٣٢ .

والمراد بالمقسمات فى قوله - سبحانه - : أمراء الملائكة، فإنهم يقسمون
أرزاق العباد وأمورهم وشئونهم ... على حسب ما يكافهم الله - تعالى - به من
شئون مختلفة .

و أمراء ، مفعول به ، لاوصف الذى هو المقسمات . وهو مفرد أريد به
الجمع ، أى : المقسمات لأموال العباد بأمر الله - تعالى - وإرادته .

وهذا التفسير لتلك الالفاظ . قد ورد عن بعض الصحابة . فمن أبى
الطفيل أنه سمع عليا - رضى الله عنه - يقول وهو على منبر الكوفة - :
لأنسألونى عن آية فى كتاب الله . ولاعن سنة رسول الله . إلا أنبأتكم بذلك
فقام اليه ابن الكواء فقال : يا أمير المؤمنين . ما معنى قوله - تعالى - :
« والذاريات ذروا » ، قال : الريح . « فالخاملات وقرا » ، قال : السحاب .
« فالجاريات يسرا » ، قال : السفن . فالمقسمات أمراء ، قال الملائكة

وروى مثل هذا التفسير عن عمر بن الخطاب . وعن ابن عباس ، (١)

ومن العلماء من يرى أن هذه الالفاظ جميعها صفات للرياح

قال الإمام الرازى : هذه صفات أربع للرياح فالذاريات : هى الرياح
التي تنشأ السحاب أولا . والخاملات : هى الرياح التي تحمل السحب التي
هى بخار الماء ... والجاريات : هى الرياح التي تجرى بالسحب بعد حملها .
والمقسمات . هى الرياح التي تفرق الأمطار على الأقطار ... (٢)

ومع جاهه رأى الإمام الرازى فى هذه المسألة . إلا أننا نؤثر عليه الرأى
السابق . لأنه ثابت عن بعض الصحابة . لأن كون هذه الالفاظ الأربعة
لها معان مختلفة . أدل على قدرة الله - تعالى - وعلى فضله على عباده ...

وقد تركنا أقوالا ظاهرة الضعف والسقوط . كقول بعضهم . الذاريات

(١) راجع تفسير ابن كثير ج ٧ ص ٣٩١

(٢) راجع تفسير الفخر الرازى ج ٧ ص ٦٢٨

هن النساء ، فلهن يذرين الأولاد بمعنى أنهم يأتين بالأولاد بعضهم في إثر بعض ، كما تنفل الرياح الشيء من مكان إلى مكان .

قال الألوسي : ثم إذا حملت هذه الصفات على أمور مختلفة متغايرة بالذات كما هو رأى الماعول عليه - فالقاء للترتيب في الأقسام ذكرًا ورتبة ، باعتبار تفاوت مراتبها في الدلالة على كمال قدرته - عز وجل - وهذا التفاوت إما على الترقى أو التنازل ، لما في كل منها من الصفات التي تجعلها أعلى من وجهه وأدنى من آخر . .

وإن حملت على واحد وهو الرياح ، فهي لترتيب الأفعال والصفات ، إذ الريح تذر الأبخرة إلى الجو أولاً ، حتى تنعقد سحباً ، فتحمله ثانياً ، وتجري به ثالثاً ناشرة وساقطة له إلى حيث أمرها الله - تعالى - ثم تقسم أمطاره ، (١) .

وقوله : : إنما توعدون لصادق ، جواب القسم . وما ، موصولة والعائد محذوف ، والوصف بمعنى المصدر . أى : وحق هذه الأشياء التي ذكرتها لكم إن الذي توعدونه من الجزاء والحساب والبعث . لصادق لا يحوم حوله كذب أو شك ...

ويجوز أن تكون ما ، مصدرية . أى : إن الوعد بالبعث والجزاء والحساب صادق .

وقوله : : وإن الدين لواقع ، تأكيد وتقرير لما قبله . أى : وإن الجزاء على الأعمال لواقع وقوعاً لا ريب فيه . فالمراد بالدين هنا : الجزاء ، كما في قوله - سبحانه - : يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق
ومنه قولهم : : كائندين ندان ، أى : كما تعمل تجازى . ومعنى وقوعه : حصوله .

ثم أقسم - سبحانه - قسمًا آخر بالسما ذات الحبك فقال : **وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحَبْكَ** . إنكم لفي قول مختلف . يؤفك عنه من أفك . .

والحبك : جمع حببكه ، كطريقة - وزنا ومعنى - ، أو جمع حبك - كمثل ومثال - ، والحببكه والحباك : الطريقة في الرمل وما يشبهه . أى : وحق السماء ذات الطرق المتعددة ، والتي لا ترونها بأعينكم لبعدها عنكم . . .

ويرى بعضهم أن معنى ذات الحبك : ذات الخلق الحسن المحكم . . . أو ذات الزينة والجمال . .

قال القرطبي : وفي الحبك أقوال ، الأول : قال ابن عباس . . ذات الخلق الحسن المستوى يقال : **حَبَبَكَ** فلان الثوب يحببكه - بكسر الباء - إذا أجاد نسجه . .

الثاني : ذات الزينة . . الثالث : ذات النجوم . . الرابع : ذات الطرائق . . ولكنها تبعد من العباد فلا يرونها . . .
الخامس : ذات الشدة (١)

وقوله : **وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحَبْكَ** ، جواب القسم . وقوله : **يُؤْفَكُ عَنْهُ** ، من الأفك - بفتح الهمزة وسكون الفاء - بمعنى الصرف للشئ عن وجهه الذي يجب أن يكون عليه .

والضمير في **عَنْهُ** ، يعود إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - ، أو إلى القرآن الكريم .

فيكون المعنى : وحق السماء ذات الطرق المتعددة ، وذات الهيئة البديعة المحكمة الجميلة . . . إنكم - أيها المشركون - لفي قول مختلف ، أى : متناقض

مختلف ، فذكركم من يقول عن القرآن إنه أساطير الأولين ، ومنكم من يقول عن الرسول - صلى الله عليه وسلم إنه ساحر أو مجنون ...

والحق أنه يصرف عن الإيمان بهذا القرآن الذي جاء به الرسول - صلى الله عليه وسلم - من صرفه الله - تعالى - عنه ، بسبب إشارته الغي على الرشد ، والضلالة على الهداية ، والكفر على الإيمان .

والتعبير بقوله : : من أفك ، الإشعار بأن هذا الشقي الذي آثر الكفر على الإيمان ، قد صرف عن الرشد وعن الخير صرفاً ، ليس هناك ما هو أشد منه في سوء العاقبة ...

فهذا التعبير شبيه في التهويل بقوله - تعالى - : ففشيهم من اليم ما غشيهم ، . قال الجمل : : يؤفك ، يصرف عنه ، عن النبي - صلى الله عليه وسلم - والقرآن . أى : عن الإيمان به ، من أفك ، أى : من صرف عن الهداية في علم الله - تعالى - .

وقيل : الضمير للقول المذكور . أى : يرتد أى : يصرف عن هذا القول من صرف عنه في علم الله - تعالى - وهم المؤمنون .. (١) .

ثم بين - سبحانه - سوء عاقبة المكذبين فقال : قتل الخراصون . الذين هم في غمرة ساهون . يسألون أيا ن يوم الدين . يومهم على النار يفتنون ..

والخراصون : جمع خراص . وأصل الخرص : الظن والتخمين . ومنه الخارص الذي يخرص النحلة ليقدر ما عليها من ثمر . والمراد به هنا : الكذب ، لأنه ينشأ غالباً عن هذا الخرص والمراد بالآية الدعا عليهم باللعن والطردهن رحمة الله - تعالى - .

أى : لعن وطردهن من رحمة الله - تعالى - هؤلاء الكذابون ، الذين قالوا في الرسول - صلى الله عليه وسلم - ما هو مزه عنه .. والذين هم في غمرة

ساهون ، أى : فى جمالة تغمرهم كما يغمر الماء الأرض ، فهم ساهون وغافلون عن كل خير .

فالعصرة : ما يغمر الشئ . ويستره ويغطيه ، ومنه قولهم نهر غمر ، أى : يغمر من دخله .

والمراد : أنهم فى جمالة غامرة لقلوبهم ، وفى غفلة تامة عما ينفعهم .. وهذا التعبير فيه مافية من تصوير مالم عليه من جمالة وغفلة ، حيث يصورهم - سبحانه - وكأن ذلك قد أحاط بهم وغمرهم حتى لكانهم لا يحسون بشئ مما حولهم .

ثم بين - سبحانه - ما كانوا عليه من سوء أدب فقال : يسألون أياك يوم الدين ، .

و د أياك ، بمعنى متى . أى : يسألون سؤال استهزاء واستخفاف فيقولون : متى يكون هذا البعث الذى تحدثنا عنه يا محمد ، ومتى يأتى يوم الجزاء والحساب الذى تهددنا به ؟

وهنا يأتهم الجواب الذى يردعهم ويبين لهم سوء مصيرهم ، فيقول - سبحانه - : : يومهم على النار يفتنون ، أى : يقع هذا اليوم الذى تسألون عنه وهو يوم البعث والحساب والجزاء ... يوم تحرقون بالنار - أيها الكافرون - ، وتعذبون فيها عذاب ألماً ...

و د يفتنون ، مأخوذ من الفتن بمعنى الاختبار والامتحان ، يقال : فتنته الذهب بالنار ، إذا أذبتة لتظهر جودته من غيرها . والمراد به هنا : الإحراق بالنار .

وعدى « يفتنون » بعل ، لتضمنه معنى يعرضون ، أو على بمعنى فى . وقوله : : ذوقوا فتنتكم ... ، مقول لقول مخذوف ...

أى : هذا اليوم الذى يسألون عنه واقع يوم الجزاء يوم يقال لهم
وهم يعرضون على النار : ذوقوا العذاب المعداد لكم ، أو ذوقوا سوء عاقبة
كفركم . . .

« هذا ، العذاب الممhin ، هو الذى كنتم به تستعجلون ، فى الدنيا ، وتقولون
- على سبيل الاستهزاء والإفكار - للنبي - صلى الله عليه وسلم - ولاصحابه :
« متى هذا الوعد إن كنتم صادقين » .

وبذلك نرى الآيات الكريمة قد أكدت بأقوى الأساليب وأحكامها ، أن
يوم البعث والجزاء والحساب حق ، وأن المكذبين بذلك سيدوقون أشد
العذاب . . .

• • •

وكعادة القرآن الكريم فى قرن الترغيب بالترهيب أو العكس ، جاء الحديث
عن حسن عاقبة المتقين ، بعد الحديث عن سوء مصير المكذبين ، فقال - سبحانه - :

« إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٥) آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ ، إِنَّهُمْ
كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ (١٦) كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ (١٧)
وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (١٨) وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلْسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (١٩)
وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ (٢٠) وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٢١)
وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ (٢٢) فَوَرَبُّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ
لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ (٢٣) » .

والمعنى : « إن المتقين ، وهم الذين صابوا أنفسهم عن كل مالا يرضى
الله - تعالى - .

« فى جنات وعيون » أى : مستقرين فى جنات وبساتين فيها عيون
عظيمة ، لا يبلغ وصفها الواصفون .

« آخذين ما آتاهم ربهم ، أى : هم منعمون فى الجنات وما إشتملت عليه من عيون جارية وحالة كونهم آخذين وقابلين لما أعطاهم ربهم من فضله لإحسانه ... »

وقوله : « لأنهم كانوا قبل ذلك عسنيين ، بمثابة التعليل لما قبله . أى : هم فى هذا الخير العميم من ربهم لأنهم كانوا قبل ذلك - أى : فى الدنيا - عسنيين لأعمالهم ، ومؤدين لكل ما أمرهم به - سبحانه - بإتقان وإخلاص . »

ثم بين - سبحانه - مظاهر إحسانهم فقال : « كانوا قليلا من الليل ما يهجعون ، أى كانوا ينامون من الليل وقتا قليلا ، أما أكثره فكانوا يقضونه فى العبادة والطاعة . »

والهجوم : النوم ليلا ، وقيد بعضهم بالنوم القابل ، إذ الهجعة هى النوم الخفيفة ، تقول : أتيت فلانا بعد هجعة ، أى بعد نومة قليلة .

عن الحسن قال : كانوا لا ينامون من الليل إلا أقله ، كابدوا قيام الليل ثم مدحهم - سبحانه - بصفة أخرى فقال : « وبالأَسْحَارِ هم يستغفرون ، والأسحار جمع سحر ، وهو الجزء الأخير من الليل . »

أى : وكانوا فى أوقات الأسحار يرفعون أكف الضراعة إلى الله - تعالى - يستغفرونه مما فرط منهم من ذنوب ، ويلتمسون منه - تعالى - قبول توبتهم وغسل حوبتهم .

قال الامام الرازى ما ملخصه : وفى الآية إشعاره إلى أنهم يتجهدون ، ثم يريدون أن يكون عملهم أكثر من ذلك ، وأخلص منه ، ويستغفرون من التقصير ، وهذه سيرة الكريم : يأنى بأبلغ وجوه السكرم ويستقله ، ويتعذر من التقصير . والنتيم يأتى بالقليل وبستكثره . وفيه وجه آخر ألطف منه : وهو أنه - تعالى - لما بين أنهم يهجعون قليلا ، والهجوم مقتضى الطبع ، قال « يستغفرون ، أى : من ذلك القدر من النوم القليل . »

ومدحهم الهجوع ولم يمدحهم بكثرة السهر ... للإشارة إلى أن نومهم عبادة ، حيث مدحهم بكونهم هاجعين قليلا ، وذلك الهجوع أورثهم الاشتغال بعبادة أخرى ، وهو الاستغفار . في وجوه الأسرار ومنعهم من الإعجاب بأنفسهم ومن الإستكبار ... (١)

ثم مدحهم - سبحانه - للمرة الثالثة فقال : : وفي أموالهم حق للسائل والمحروم .

والسائل : هو من يسأل غيره العون والمساعدة . والمحروم : هو المتعفف عن السؤال مع أنه لا مال له لحرمان أصابه . بسبب مصيبة نزلت به . أو فقر كان فيه .. أو ما يشبه ذلك .

قال ابن جرير بعد أن ذكر جملة من الأقوال في المراد من المحروم هنا : والصواب من القول في ذلك عندي : أنه الذي قد حرم الرزق واحتاج . وقه يكون ذلك بذهاب ما له ونمره . فصار ممن حرمه الله ذلك . وقد يكون من تعفقه وتركه المسألة . وقد يكون بأنه لا سهم له في الغنيمة لغيبته عن الواقعة (٢) أي : أنهم بجانب قيامهم الليل طاعة لله - تعالى - ولإستغفار لذنوبهم . : . يوجبون على أنفسهم في أموالهم حقا للسائل والمحروم . تقربا إلى الله - سبحانه - بمقتضى ما جبلوا عليه من كرم وسخاء .

فالمراد بالحق هنا : ما يقدمونه من أموال المحتاجين على سبيل التطوع وليس المراد به الزكاة المفروضة . لأن السورة مكية والزكاة إنما فرضت في السنة الثانية من الهجرة .

قال الألوسي : : وفي أموالهم حق ... هو غير الزكاة كما قال ابن عباس وبجاهد وغيرهما ...

وقال منذر بن سعيد : هذا الحق هو الزكاة المفروضة . وتعقب بأر السورة

(١) راجع تفسير الفخر الرازي ج ٧ ص ٦٣٥

(٢) تفسير ابن جرير ٢٦ ص ١٢٦

مكية . وفرض الزكاة المدينة . وقيل : أصل فريضة الزكاة كان بمكة والذي كان بالمدينة . القدر المعروف اليوم ... والجمهور على الأول ، (١) .

والماتمل في هذه الآيات الكريمة يرى أن هؤلاء المتقين ، قد مدحهم الله - تعالى - هذا المدح العظيم ، لأنهم عرفوا حق الله عليهم بأدوه بإحسان وإخلاص ، وعرفوا حق الناس عليهم فقدموه بكرم وسخا .

ثم لفت - سبحانه - الأنظار إلى ما في الأرض من دلائل على قدرته ووحدانيته فقال : « وفي الأرض آيات للموقنين » .

أى : وفي الأرض آيات عظيمة ، وعبر وعظات بليغة ، تدل على وحدانية الله وقدرته ، كصنوف النبات ، والحيوانات ، والمهاد ، والجبال ، والقفار ، والأنهار والبحار .

وهذه الآيات والعبر لا يفتفع بها إلا الموقنون بأن المستحق للعبادة إنما هو الله - عز وجل - .

ثم لفتة أخرى إلى النفس البشرية ، قال - تعالى - : « وفي أنفسكم أفلا تبصرون » .

أى : وفي أنفسكم وذواتكم وخلقكم ... أفلا تبصرون لإبصار تذكر واعتبار ، فإن خلقكم من سلالة من طين ، ثم جعلكم نطفة فعلقه فضغة ، فخلقنا آخر ، ثم في رعايتكم في بطون أمهاتكم . ثم في تدرجكم من حال إلى حال ثم في اختلاف ألسنتكم وألوانكم . ثم في التركيب المعجيب الدقيق لأجسادكم وأعضائكم . ثم في تفاوت عقولكم وأمهاتكم وإنجازاتكم .

في كل ذلك وغيره . عبرة للمعتبرين وعظة للمتعتظين .
ورحم الله صاحب الكشف . فقد قال عند تفسيره لهاتين الآيتين : « وفي الأرض آيات ... » تدل على الصانع وقدرته وحكمته وتدبيره . حيث هي

مدحوة كالسباط وفيها المسالك والفجاج المتهقلين فيها . والماشين في مناكبها ...

وهي مجزأة : فن سهل وجبل ، وبر وبحر ، وقطع متجاورات : من صلبة ورخوة ، وطيبة وسيخة ، وهي كالطروقة تلقح بألوان النبات ... وتسبق بماء واحد . ونفضل بعضها على بعض في الأكل ، وكلها موافقة لحوائج ساكنيها ...

في كل ذلك آيات ، للواقنين ، أي : للوحدين الذين سلكوا الطريق السوي ... فازدادوا إيماناً على إيمانهم .

، وفي أنفسكم ، في حال ابتدائها وتقلها من حال إلى حال ، وفي بواطنها وظواهرها ، من عجائب الفطر ، وبدائع الخلق ، ما تتحير فيه الأذهان ، وحسبك بالقلوب ، وماركز فيها من العقول ، وخصت به من أصناف المعاني ، وبالألسن والنطق ومخارج الحروف ، وما في تركيبها وترتيبها ولطائفها : من الآيات الدالة على حكمة المدبر ... فتبارك الله أحسن الخالقين ، (١) .

ثم لفظة نائلة للأفطار إلى الأسباب الظاهرة للرزق ، تراها في قوله - تعالى - : « وفي السماء رزقكم وما تعدون » .

أي : أن أرزاقكم مقدرة مكتوبة عنده - سبحانه - ، وهي تنزل إليكم من جهة السماء ، عن طريق الأمطار التي تنزل على الأرض الجذباء ، فتنبت بإذن الله من كل زوج بهيج ...

كما قال - تعالى - : « هو الذي يرزقكم آياته وينزل لكم من السماء رزقا » ، (٢) وقال - سبحانه - : « يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ، ثم يعرج إليه في يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون » ، (٣) .

(١) راجع تفسير السكشاف ج ٤ ص ٣٩٩ .

(٢) سورة غافر الآية ١٣ .

(٣) سورة السجدة الآية ٥ .

قال القرطبي قوله : « وفي السماء رزقكم » الرزق هنا ما ينزل من السماء من مطر ينبت به الزرع ، ويحيي به الإنسان . . . أى : وفي السماء سبب رزقكم - سمي المطر سما . لأنه من السماء ينزل .

وقال سفيان الثوري : « وفي السماء رزقكم » أى : عند الله في السماء رزقكم » (١) .

وقوله : « وما توعدون » أى : وفي السماء محدة ومقدرة أرزاقكم ، وما توعدون به من ثواب أو عقاب ، ومن خير أو شر . ومن بعث وجزاء .

و « ما » فى محل رفع عطف على قوله « رزقكم » . أى : وفي السماء رزقكم وفيها الذى توعدونه من ثواب على الطاعة ، ومن عقاب على المعصية . فالآية الكريمة وإن كانت تلفت الأنظار إلى أسباب الرزق وإلى مباشرة هذه الأسباب ، إلا أنها تذكر المؤمن أن يكون اعتماده على خالق الأسباب ، وأن يراقبه ويطيعه فى السر والعلن ، لأنه - سبحانه - هو صاحب الخلق والامر . . .

ثم ختم - سبحانه - هذه الآيات بهذا القسم فقال : « ف ورب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون » .

والضمير فى قوله « إنه » يعود إلى ما سبق الإخبار عنه من أمر البعث والحساب والجزاء والرزق . . . وغير ذلك مما يدل على صدق الرسول - صلى الله عليه وسلم - فيما أخبر به عن ربه .

ولفظ « مثل » منصوب بنزع الخافض ، و « ما » مزيدة للتأكيد أى : فو حق رب السماء والأرض ، إن جميع ما ذكرناه لكم فى هذه السورة ، أو فى هذا القرآن ، لحق ثابت لا مرية فيه ، كمثل نطقكم الذى تنطقونه بالسنتكم دون أن تشكوا فى كونه قد صدر عنكم لا عن غيركم .

فالمقصود بالآية الكريمة ، تأكيد صدق ما أخبر به الله - تعالى - عباده في هذه السورة وغيرها لأن نطقهم بألسنتهم حقيقة لا يجادل فيها مجادل ، وكذلك ما جاء به الرسول - صلى الله عليه وسلم - من عند ربه ، وما تلاه عليهم في هذه السورة وغيرها ، حق ثابت لا ريب فيه ...

وهكذا نرى هذه الآيات قد بشرت المتقين بالوإن من البشارات ، ثم أفتت عقول الناس إلى ما في الأرض وإلى ما أنفسم وإلى ما في السماء من عظات وعبر .

* * *

ثم انتقلت السورة الكريمة إلى الحديث عن قصص بعض الأنبياء السابقين فبدأت بجانب من قصة إبراهيم - عليه السلام - مع الملائكة الذين جاءوا لبشارته بابنه إسحاق ، فقال - تعالى - :

« هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ إِبْرَاهِيمَ الْمَكْرَمِينَ (٢٤) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا ، قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ (٢٥) فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ جَاءَ بِمَجْلٍ سَمِينٍ (٢٦) فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ (٢٧) فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ (٢٨) فَأَقْبَلَتْ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ (٢٩) قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ (٣٠) قَالَ (١) فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ (٣١) قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ (٣٢) لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَابَ مِنْ طِينٍ (٣٣) مُسَوِّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ (٣٤) فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٣٥) فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٣٦) وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (٣٧) » .

(١) أول الجزء السابع والعشرين .

وهذه القصة التي تحكى لنا هنا ما دار بين إبراهيم - عليه السلام - وبين الملائكة الذين جاءوا لبشارته بانبئ إسحاق ، ولإخباره بإهلاك قوم لوط ، قد وردت قبل ذلك في سورتي هود والحجر

وقد افتتحت هنا بأسلوب الاستفهام : هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين ، للإشعار بأهمية هذه القصة ، وتفخيم شأنها ، وبأنها لا علم بها إلا من طريق الوحى ... وقيل إن هل هنا بمعنى قد .

والمعنى : هل أتاك - أيها الرسول الكريم - حديث ضيف إبراهيم المكرمين؟
لأننا فيما أنزلناه عليك من قرآن ، نقص عليك قصصهم بالحق الذي لا يحوم حوله باطل ، على سبيل التثبيت لك ، والتسلية لقلبك .

والضيف فى الأصل مصدر بمعنى المييل ، يقال ضاف فلان فلانا إذا مال كل واحد منهما نحو الآخر ، ويطلق على الواحد والجماعة . والمراد هنا جماعة الملائكة الذين قدموا على إبراهيم - عليه السلام - ، وعلى رأسهم جبريل ، ووصفهم بأنهم كانوا مكرمين ، لإكرام الله - تعالى - لهم بطاعته وامتثال أمره ، ولإكرام إبراهيم لهم ، حيث قدم لهم أشهى الأطعمة وأجودها ...
قال الألوسى : قيل : كانوا اثني عشر ملكا . وقبل كانوا ثلاثة : جبريل وإسرافيل وميكائيل .

وسموا ضيفا لأنهم كانوا فى صورة الضيف ، ولأن إبراهيم - عليه السلام - حسبهم كذلك ، فالتسمية على مقتضى الظاهر والحسبان .
وبدا بقصة إبراهيم وإن كانت متأخرة عن قصة عاد ، لأنها أقوى فى غرض التسلية (١) .

والظرف فى قوله : إذ دخلوا عليه . . . ، متعلق بلفظه حديث ، السابق .

أى : هل بلغك حديثهم الواقع فى وقت دخولهم عليه . . . أو محذوف

تقديره : اذكر أى : اذكر وقت أن دخلوا عليه ، فقالوا سلاما ، أى : فقالوا
نسلم عليك سلاما .

• قال سلام قوم منكرون ، أى : قال إبراهيم في جوابه عليهم : عليكم
سلام ، أنتم قوم منكرون ، أى : غير معروفين لى قبل ذلك .

قال صاحب الكشاف : أنكرهم للسلام الذى هو علم الإسلام . أو أراد
أنهم لبسوا من معارفه ، أو من جنس الناس الذين عهدهم . . . أو رأى لهم
حالا وشكلا ، خلاف حال الناس وشكلهم . أو كان هذا سؤالا لهم ، كأنه قال :
أنتم قوم منكرون معروفون من أنتم . . . (١) .

وقيل : إن إبراهيم قد قال ذلك فى نفسه والتقدير : هؤلاء قوم منكرون ،
لأنه لم يرم قبل ذلك .

وقال إبراهيم في جوابه عليهم : سلام ، بالرفع ، لإفادة الدوام والثبات
عن طريق الجملة الاسمية ، التى تدل على ذلك ، وللإشارة إلى أدبه معهم ، حيث
رد على تحيتهم بأفضل منها . . .

ثم بين - سبحانه - ما فعله إبراهيم بعد ذلك فقال : ، فراغ إلى أهله فجاء
بعجل سمين ، أى : فذهب إلى أهله فى خفية من ضيوفه ، فجاء إليهم بعجل عتلى .
لحما وشحما . يقال : راغ فلان إلى كذا ، إذا مال إليه فى استخفاء وسرعة .
• فقربه إليهم . . . ، أى : فذهب إلى أهله فذبح عجلا وشواه ، فقربه إلى
ضيوفه وقال لهم : ، ألا نأكلون ، أى : حضهم على الأكل شأن المضيف الكريم ،
فقال لهم على سبيل التلطف وحسن العرض : ألا نأكلون من طعامى .

قال ابن كثير : وهذه الآيات انتظمت آداب الضيافة ، فإنه جاء بطعامه من
حيث لا يشعرون بسرعه ، ولم يمتن عليهم أولا فقال : نأتيكم بطعام ؟ بل جاء به بسرعه
وخفاء ، وأتى بأفضل ما وجد من ماله ، وهو عجل سمين مشوى ، فقربه إليهم لم يضعه

وقال : لا تقربوا ، بل وضعه بين أيديهم ، ولم يأمرهم أمرا يشق على سامعه بصيغة الجزم ، بل قال : « ألا تأكلون » ، على سبيل العرض والتلطاف ، كما يقول القائل اليوم : إن رأيت أن تنفضل وتحسن وتتصدق ، فافعل ، (١)

ولكن إبراهيم مع هذا العرض الحسن ، والكرم الواضح : لم يجد من ضيقه إستجابة لدعوته ، فأوجس منهم خيفة . . . أى فأضمر فى نفسه خوفا منهم حين رأى لإعراضا عن طعامه ، مع حضمهم على الأكل منه ، ومع جودة هذا الطعام . . .

وهنا كشف الملائكة له عن ذواتهم ، فقالوا : لا تخف ، أى : لا تخف فإننا رسل الله ، وبشروه بغلام عليم ، أى وبشروه بغلام سيولد له ، وسيكون كثير العلم عندما يبلغ سن الرشد . وهذا الغلام إسحاق - عليه السلام -

ثم يحكى القرآن بعد ذلك ما كان من أمر آتة بعد أن سمعت بهذه البشرى فقال : « فأقبلت أمر أنه فى صرة فصكت وجهها وقالت عجوز عقيم » .

أى : فأقبلت امرأة إبراهيم - عليه السلام - وهى تصبح فى تعجب وإستغراب من هذه البشرى ، فضربت بيدها على وجهها وقالت : أنا عجوز عقيم فكيف ألد . . ؟

والصرة : من الصرير وهو الصوت ، ومنه صرير الباب ، أى : صوته . والصك الضرب الشديد على الوجه ، وعادة ما تفعله النساء إذا تعجبن من شئ .

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - فى سورة هود : « قالت يا ويلتا أألد وأنا عجوز » ، وهذا بعلى شيئا ، إن هذا الشئ ، عجيب ،

وهنا رد عليهم الملائكة بما بزيل تعجبها وإستغرابها وإستبعادها لأن يكون لها ولد مع كبر سنها . ويحكى القرآن ذلك فيقول : « قالوا كذلك قال ربك إنه هو الحكيم العليم »

أى : قال الملائكة لامرأة ابراهيم : لاتعجبنى من أن يكون لك غلام فى هذه السن ، فإن هذا الحكم هو حكم ربك ، وهذا القول الذى بشرناك به هو هو قوله - سبحانه - وقوله لامرأته : إنه - تعالى - هو الحكيم فى كل أقواله وأفعاله ، العليم بأحوال خلقه .

وهنا عرف ابراهيم - عليه السلام - حقيقة ضيوفه ، فأخذ يسألهم : فقال فاطخطبكم ايها المرسلون ، والخطب : الأمر الهام ، والشأن الخطير ، وجمعه خطوب أى : قال لهم ابراهيم بعد أن اطمأن اليهم ، وعلم أنهم ملائكة : فاشأنكم الخطير الذى من أجله جئتم إلى ايها المرسلون بعد هذه البشارة ؟

، قالوا ، فى الإجابة عليه ، انا أرسلنا ، بأمر ربنا ، إلى قوم مجرمين ، قوم لوط ، لنرسل عليهم حجارة من طين ، أى : لنرسل عليهم بعد نلب قرام حجارة من طين متحجر ، حالة كوز هذه الحجارة ، مسومة عند ربك المسرفين ، أى معلية عند الله - تعالى - وفى عليه ، وقد أعدها - سبحانه - لرجم هؤلاء الذين أسرفوا فى عصيانهم له - تعالى - ، وأتوا بقاحشة لم يسبقهم اليها أحد من العالمين فقوله : « مسومة » ، حال من الحجارة ، والسومة . العلامة ؛ ومنه قوله - تعالى - : « والخيل المسومة » .

والفاء فى قوله - تعالى - بعد ذلك : « فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين ، هى الفصيحة ، لأنها قيد أفصححت عن كلام محذوف ..

والمعنى : ففارق الملائكة ابراهيم ذاهبين إلى قوم لوط لإهلاكهم ، وجرى بينهم وبين لوط - عليه السلام - ما جرى ثم أخذوا فى تنفيذ ما كلفناهم به ، فأخرجنا - بفضلنا ورحمتنا - من كان فى قرية لوط من المؤمنين دون أن يمسهم عذابنا ، فما وجدنا فى تلك القرية غير أهل بيت واحد من المسلمين ، أما بقية سكان هذه القرية فقد دمرناهم تدميراً .

ووصف - سبحانه - الناجين من العذاب - وهم لوط وأهل بيته إلا

أمراته - بصفتي الإيمان والإسلام ، على رسول المدح لهم ، أى : أنهم كانوا مصدقين بقلوبهم ، ومقادير لأحكام الله - تعالى - بجوارحهم .
قال ابن كثير ، احتج بهاتين الآيتين من ذهب إلى رأى المعتزلة ، ممن لا يفرقون بين معنى الإيمان والإسلام ، لأنه أطلق عليهم المؤمنين والمسلمين . وهذا الاستدلال ضعيف ، لأن هؤلاء كانوا قوماً مؤمنين ، وعندنا أن كل مؤمن مسلم ولا ينعكس ، فاتفق الإيمان هنا لخصوصية الحال ، ولا يلزم ذلك في كل حال ، (١) .

ثم بين - سبحانه - أنه قد ترك من وراء هلاكهم ما يدعو غيرهم إلى الاعتبار بهم فقال : « و تركنا فيها ، أى : في قرية قوم لوط التي جعل الملائكة عليها ساقطاً ، آية ، أى : علامة تدل على ما أصابهم من هلاك قيل هي تلك الأحجار التي أهلكتوا بها .. »

وهذه الآية إنما هي للذين يخافون العذاب الأليم ، لأنهم هم الذين يعتبرون ويتقون بها ، أما غيرهم من الذين استحوذ عليهم الشيطان ، فإن هذه الآيات لا تزيدهم إلا رجساً على رجسهم .

• • •

ثم تحدثت السورة بعد ذلك عن جانب من قصص موسى وهود وصالح ونوح - عليهم السلام - مع أقوامهم ، فقال - سبحانه - :
« وفي موسى إذ أرسلناه إلى فرعون بسُلطانٍ مبين (٣٨) فتولى برُّكته وقال ساحرٌ أو مجنون (٣٩) فأخذناه وجنوده فنبذناهم في اليم وهو مُلِيم (٤٠) وفي هادٍ إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم (٤١) ما تذرُ من شيءٍ أتت عليه إلا جعلته كالرَّمِيم (٤٢) وفي نمرود إذ قيل لهم تنموا حتى حين (٤٣) فقتلوا عن أمر ربهم فأخذتهم الصاعقة وهم

يَنْظُرُونَ (٤٤) فَمَا اسْتَعَاؤُا مِنْ قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنْتَصِرِينَ (٤٥)
وَقَوْمَ نوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (٤٦) .

وقوله - سبحانه - : وفي موسى ... معطوف على قوله - تعالى - قيل
ذلك : وتركنا فيها ... والكلام على حذف مضاف ...

والظرف في قوله : « إذ أرسلناه إلى فرعون بسلطان مبين » متعلق
بمحذوف هو نعت لقوله ، آية ، قبل ذلك .

أى : وتركنا في قصة موسى - أيضا - آية ، هذه الآية كاثنة وقت أن
أرسلناه إلى فرعون ، بسلطان مبين ، أى : بمعجزة واضحة بينة هي اليد والعصا
وغيرهما ،

وقوله - سبحانه - : « فتولى بركنه وقال ساحر أو مجنون » بيان لموقف
فرعون من موسى - عليه السلام - أى : أرسلنا موسى بآياتنا الدالة على صدقة
إلى فرعون وقومه ، فما كان منه إلا أن أعرض عن دعوة الحق ، وتعاظم على
موسى بملكه وجنوده وقوته ... وقال في شأن موسى - عليه السلام - هو
ساحر أو مجنون .

والركن جانب البدن . والمراد به هنا : جنوده الذين يركن إليهم ، وقوته
التي اغتر بها .

قال الألوسى : قوله : « فتولى بركنه » أى : فأعرض عن الإيمان بموسى ،
على أن ركنه جانب بدنه وعطفه ، والتولى به كتابة عن الإعراض ، والباء
للتعدي ، لأن معناه ثنى عطفه ...

وقال قتادة : تولى بقومه على أن الركن بمعنى القوم ، لأنه يركن إليهم
ويتقوى بهم ، والباء للمصاحبة أو الملازمة ... وقيل : تولى بقوته وسلطانه ،
فالركن يستعان للقوة ... (١) .

ثم بين - سبحانه - نتيجة إعراض فرعون عن الحق فقال : « فأخذناه وجنوده فنبذناهم في اليم وهو مليم » .

والنبذ : الطرح للشيء بدون اكتراث أو اهتمام به . وقوله « مليم » من الألام . إذا أتى ما يلام عليه ، كأغرب إذا أتى أمرا غريبا ، وجملة « وهو مليم » حال من المفعول في قوله « فأخذناه » .

أى : فأخذنا فرعون هو وجنوده الذين ارتكبوا لإيهم أخذ عزيز مقتدر ، فألقينا بهم جميعا في البحر بدون اعتداد بهم ، بعد أن أتى فرعون بما يلام عليه من الكفر والطغيان .

قال صاحب الكشف : فإن قلت : كيف وصف نبى الله يونس - عليه السلام - بما وصف به فرعون في قوله - تعالى - : « فالتقمه الحوت وهو مليم » ؟

قلت : موجبات اللوم تختلف ، وعلى حسب اختلافها تختلف مقادير اللوم فراكب الكبيرة ملوم على مقدارها ، وكذلك مقترف الصغيرة . ألا ترى إلى قوله - تعالى - : « وعصوا رسله » ، وقوله « وعصى آدم ربه فغوى » ، لأن الكبيرة والصغيرة يجمعهما اسم العصيان ، كما يجمعهما اسم القبيح والسيئة ^(١) .

ثم تنتقل السورة بعد ذلك إلى بيان ما حل بقوم هود - عليه السلام - فتقول : « وفي عاد إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم . ما تذر من شيء أنت عليه إلا جعلته كالرميم » .

أى : وتركنا في قصة عاد - أيضا - وهم قوم هود - عليه السلام - آية وعبرة . وقت أن أرسلنا عليهم الريح العقيم . أى : الريح الشديدة التي لا خير فيها من إنشاء مطر ، أو تلقيح شجر ، وهى ريح الهلاك ، وأصل العقم : اليبس المساع من قبول الأثر .

شبه - سبحانه - الريح التي أهلكتهم وقطعت دابرهم، بالمرأة التي انقطع نسلها، بجامع انعدام الأثر في كل .

ثم وصف - سبحانه - هذه الريح التي توهموا أنها تحمل لهم الخير، بينما هي تحمل لهم الهلاك، وصفها بقوله: ما نذر من شيء أئت عليه، أي: ما ترك من شيء. مرت عليه ..

وإلا جعلته كالريم، أي: إلا جعلته كالشيء الميت الذي رم ونحوه إلى قنات. مأخوذ من رم الشيء إذا تفتت ونهشم. ويقال للنبات إذا يبس وتفتت رميم وهشم.

كما يقال للعظم إذا تكسر وبلى: رميم. ومنه قوله - تعالى - : قال من يحيي العظام وهي رميم ..

ثم أنتقلت السورة بعد ذلك إلى بيان ما حل بقوم صالح - عليه السلام - فقال - تعالى - : وفي نمود إذ قيل لهم تمتعوا حتى حين

أي: ولنا - كذلك - في قصة صالح - عليه السلام - مع قومه آية وعظة، وقت أن قال لهم - على سبيل الإنذار والتحذير من المداومة على الكفر - : تمتعوا بحياتكم التي تعيشونها في هذه الدنيا، حتى وقت معين في علم الله - تعالى - تنتهي عنده أعماركم ...

وهذا التمتع بالحياة حتى حين، يحتمل أن المقصود به: ما أشار إليه - سبحانه - في سورة هود بقوله: فمقروها - أي الناقة - فقال تمتعوا في داركم ثلاثة أيام، ذلك وعد غير مكذوب، ويحتمل أن يكون المقصود به: ما قدره الله - تعالى - من عمرهم منذ أن بلغهم صالح رسالة ربه، إلى أن عقروا الناقة، وحق عليهم العذاب .

قال القرطبي: قوله: . وفي نمود، أي: وفيهم - أيضا - عبرة وعظة، حين قيل لهم عيشوا متمتعين بالدنيا حتى حين، أي: إلى وقت الهلاك وهو ثلاثة

أيام ، كما في سورة هود ... وقيل : معنى : تمتعوا ، أى : أسلوا وتمتعوا إلى وقت فراغ آجالكم ، (١) .

ثم بين - سبحانه - ما كان منهم من كفر وفجور فقال : فعتوا عن أمر ربهم أى : فتكبروا واستهانوا بما أمرهم الله - تعالى - به ، على لسان نبيهم صالح - عليه السلام - . فآخذهم الصاعقة ، وهى كل عذاب مهلك ، من الصعق بمعنى الإهلاك . وهم ينظرون ، أى : وهم يرونها عيانا ، لأن العذاب - كما تشير الآية - نزل بهم نهارا .

فما استطاعوا من قيام وما كانوا مقتصرين ، أى : أنه حين نزل بهم عذابنا ، أعجزهم عن الحركة ، وشل حواسهم ، فاستطاعوا أن يهربوا منه ، وماقدروا على القيام بعد أن كانوا قاعدين ، وما نصروهم من بأسنا ناصر .

ثم ختم - سبحانه - هذه الآيات بلمحة عن قصة نوح - عليه السلام - فقال : وقوم نوح من قبل ... ، أى : وأهلكنا قوم نوح من قبل هؤلاء جميعا بالطوفان .

لأنهم كانوا قوما فاسقين ، أى : خارجين عن طاعتنا ، مشغسين في الكفر والعصيان .

وهكذا سافت السورة الكريمة جانبا من قصص هؤلاء الأنبياء ، ليكون في ذلك تسلية للنبي - صلى الله عليه وسلم - ، وتذكيرة للمتذكرين .

وبعد هذا الحديث عن هؤلاء الأقوام ... جاء الحديث عن مظاهر قدرة الله - تعالى - وسعة رحمته ، ووافر نعمه ، وحض الناس على شكره - تعالى - وطاعته ، فقال - عز وجل - :

« وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ (٤٧) وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا

فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ (٤٨) وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ
تَذَكَّرُونَ (٤٩) فَاقْرَأُوا إِلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٥٠)
وَلَا تَجْمَعُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ إِنَّهُ لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٥١) :

ولفظ : د السماء ... منصوب على الاشتغال . أى : وبنيينا السماء
بنيانها د بأيد ، أى : بقوة وقدره . يقال : آد الرجل يثيد - كباع - ، إذا
اشتد وقوى .

د ولما لموسعون ، أى : ولما لقادرون على توسعتها بتلك الصورة العجيبة
من الوسع بمعنى القدرة والطاقة ، يقال : أوسع الرجل ، أى : صار ذا سعة ،
والمفعول محذوف ، أى : ولما لموسعون السماء ، أو الأرزاق .

فالجملة تصوير بديع لمظاهر قدرة الله ، وكمال قوته ، وواسع فضله ..
د والارض فرشناها ... ، أى : وفرشنا الارض بقدرتنا - أيضا - ،
بأن مهدناها وبسطناها وجعلناها صالحة لمنفعتكم وراحتكم ...
د فنعم الماهدون ، نحن ، يقال : مهدت الفراش ، إذا بسطته ووطأته
وحسنته ...

وفي هاتين الآيتين ما فهمنا من الدلالة على قدرة الله - تعالى - ورحمته
بعباده ، حيث أوجد هذه السماء الواسعة التي تعتبر الارض بما فيها كحلقة في
فلاة بالنسبة لها ، فهي تحوى مئات الملايين من النجوم المتناثرة في أرجائها ..
وأوجد - سبحانه - الارض لتكون موطن للإنسان ، ومنزلا لراحته ..

ثم قال - تعالى - : د ومن كل شيء خلقنا زوجين .. أى : نوعين
مقابلين كالذكر والانثى ، والليل والنهار ، والسماء والارض ، والغنى والفقر ،
والهدى والضلال ...

د لعلمكم تذكرون ، أى : فعلنا ذلك لعلمكم تعبهرون وتتعظون وتذكرون
ما يجب عليكم نحونا من الشكر والطاعة وإخلاص العبادة لنا وحدنا ..

والفناء في قوله : « ففروا إلى الله ... » ، للتفريع على قوله - تعالى -
 « لعلكم تذكرون » ، أي : مادام الأمر كما ذكرت لكم من وجود التذكير
 والاعتبار ، ففروا إلى الله من معصيته إلى طاعته ، ومن كفره إلى شكره ،
 ومن السيئات إلى الحسنات .

قال الإمام الرازي ماملخصه : وفي هذا التعبير لطائف : لأنه ينبئ عن
 سرعة الإهلاك ، كما به يقول : الإهلاك والعذاب أسرع وأقرب ، من أن
 يحتمل الحال الإبطاء في الرجوع ، فافزعوا سريعا إلى الله - تعالى - وفروا
 إلى طاعته ، فإنه لا مهرب منه ... ، (١) .

وقوله : « إني لكم منه نذير مبين » ، تعليل للأمر بالفرار . أي : أسرعوا
 إلى طاعة الله - تعالى - إني لكم من عقابه المعد لمن يصر على معصيته نذير
 بين الإنذار . .

ثم أكد - سبحانه - هذا الإنذار ، ونهى عن التقاعس فقال : « ولا تجعلوا
 مع الله إلهًا آخر » ، أي : واحذروا أن تجعلوا مع الله - تعالى - إلهًا آخر ،
 في العبادة أو الطاعة . « إني لكم منه » - سبحانه - « نذير مبين » .

فآية الأولى - كان التعليل فيها الأمر بالمرار إلى الله - تعالى - ، والثانية
 كان التعليل فيها للنهي عن الإشراك به - سبحانه - . .

وبذلك نرى أن هذه الآيات الكريمة ، قد بينت جانبًا من الدلائل على
 قدرة الله - تعالى - ، وأمرت الناس بإخلاص العبادة لله . ونهت عن الإشراك به .

• • •

ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة ، ببيان موقف الأقوام من رسالهم ،
 وبيان الوظيفة التي أوجد الله - تعالى - الناس من أجلها فقال :

« كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ

أَوْ يَجْنُونَ (٥٢) أَتَوَاصَوْا بِهِ ، بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ (٥٣) فَتَوَلَّ عَنْهُمْ
فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ (٥٤) وَذَكَرْ فَإِنَّ الذِّكْرَ يَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ (٥٥)
وَمَا خَلَقْتَ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (٥٦) مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ
وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُوا (٥٧) إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينِ (٥٨)
فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُنُوبًا مِثْلَ ذُنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونَ (٥٩)
فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ (٦٠) .

وقوله : كذلك ، خبر لمبتدأ محذوف ، أى : الأمر كذلك ، واسم الإشارة
مشار به إلى الكلام الذى سيتلوه ، إذ أن ما بعده وهو قوله : ما أتى الذين
من قبلهم من رسول ... ، تفسير له .

أى : الأمر - أيها الرسول الكريم - كما نخبرك ، من أنه ما أتى الأقوام
الذين قبل قومك من رسول يدعوهم إلى عبادتنا وطاعتنا ، إلا وقالوا له - كما
قال قومك فى شأنك - هو ساحر أو مجنون .

والمقصود بالآية الكريمة تسليية الرسول - صلى الله عليه وسلم - عما أصابه
من مشركى قريش ، حيث بين له - سبحانه - أن الرسل السابقين قد كذبته
أفهم ، فصبروا حتى أتاهم نصره - سبحانه - .

ثم أضاف - سبحانه - إلى هذه التسليية تسليية أخرى فقال : أتواصوا به ؟
والضمير المجرور يعود إلى القول المذكور ، والاستفهام للتعجب من أحوالهم .
أى : أأوصى السابقون اللاحقين أن يقولوا لكل رسول يأتيهم من ربهم ،
أنت - أيها الرسول - ساحر أو مجنون ؟

وقوله - سبحانه - : بل هم قوم طاغون ، إضراب عن توصيهم لإضراب
لإبطال ، لأنهم لم يسمعهم زمان واحد حتى يوصى بعضهم بعضا . وإنما الذى
جمعهم تشابه أفعالهم ، وادلتقاه على الكفر والفسوق والعصيان .

أى : أوصى بعضهم بعضاً بهذا القول القبيح ؟ كلا لم يوص بعضهم بعضاً لأنهم لم يتلاقوا ، وإنما تشابهت قلوبهم ، فأتحدت ألسنتهم فى هذا القول المنكر .

ثم تسلية ثالثة زامها فى قوله - تعالى - : « فتول عنهم ... » أى : فأعرض عنهم وعن جداهم ، وسر فى طريقك الذى رسمه الحكيم الخبير لك ...
« فما أنت ، أيها الرسول الكريم - « بلوم ، على الإعراض عنهم ، وما أنت بمعاتب منا على ترك مجادلهم .

« وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين ، أى : أعرض عن هؤلاء المشركين ، وداوم على التذكير والتبشير والإيذار مهما تقول المتقولون ، فإن التذكير بما أوحيناه إليك من هدايات سامية ، وآداب حكيمة ... ينفع المؤمنين ، ولا ينفع غيرهم من الجاحدين .

ثم بين - سبحانه - الوظيفة التى من أجلها أوجده الله - تعالى - الجن والإنس فقال : « وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ... »

وللعلماء فى تفسير هذه الآية أقوال منها : أن معناها : إني ما أوجدت الجن والإنس إلا وهم مهيئون لعبادتي وطاعتي ، بسبب ما ركبت فيهم من عقول تعقل ، وبسبب ما أرسلت إليهم من رسل يهدونهم إلى الخير ، فمنهم أطاع الرسل ، وجرى على مقتضى ما تقتضيه الفطرة ، فأمن بالرسول ، وأتبع الحق والرشد ، ففاز وسعد ، ومنهم من أعرض عن دعوة الرسول ، وعاند فطرته وموجب استعداده بخسر وخاب ...

ومنهم من يرى أن معناها : إني ما خلقت الجن والإنس إلا ليقروا لى بالعبودية طوعاً أو كرهاً ، لأن المؤمن بطبيع باختياره ، والكافر مدع منقاد لقضاء ربه ، كما فى قوله - تعالى - : « وقه يسجد من فى السموات والأرض طوعاً وكرهاً ... » (١) .

ومنهم من يرى أن معناها : إني ما خلقت الجن والإنس إلا ليعرفوني ..
قال القرطبي ماملخصه : قوله - تعالى - : : وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ، قيل : إن هذا خاصر فيمن سبق في علم الله أنه يعبد ، فجاء بلفظ العموم ومعناه الخصوص ... فالآية في المؤمنين منهم .

وقال علي - رضي الله عنه - : أي : وما خلقت الجن والإنس إلا لأمرهم بهادتي ، قال - تعالى - : : وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء .

وقيل : إلا ليعبدون ، أي : إلا ليقرروا إلى العباد طوعا أو كرها ، (١) .
ويبدو لنا أن أرجح هذه الأقوال هو ما أشرنا إليه أولا ، من أن معنى الآية الكريمة ، أن الله - تعالى - قد خلق الثقلين لعبادته وطاعته ، وليكن منهم من أطاعه - سبحانه - ، ومنهم من عصاه ، لاستحواذ الشيطان عليه .
قال الإمام ابن كثير بعد أن ذكر جملة من الأقوال : ومعنى الآية أنه - تعالى - خلق العباد ليعبدوه وحده لا شريك له ، فمن أطاعه جازاه أتم الجزاء ومن عصاه عذبه أشد العذاب ..

وفي الحديث القدسي : قال الله - عز وجل - يا ابن آدم ، تفرغ لعبادتي أهلاً صدرك غنى ، وأسد بقرك ، وإلا تفعل ملأت صدرك شغلا ؛ ولم أسد فقرك ، . . .

وفي بعض الكتب الإلهية : يقول الله - تعالى - : يا ابن آدم ، خلقتك لعبادتي فلا تلعب ، وتكفلت برزقك فلا تتعب ، فاطمئني تجدني فإن وجدتني وجدت كل شيء ، وإن فتك فأنك كل شيء ، وأنا أحب إليك من كل شيء ، (٢) .

(١) راجع تفسير القرطبي ١٧ ص ٥٦

(٢) راجع تفسير ابن كثير ٧ ص ٤٠١

ثم بين - سبحانه - أنه غنى عن العالمين فقال : : ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون ، أى : ما أريد منهم منفعة أو رزقا كما يريد الناس بعضهم من بعض ... وما أريد منهم طعاما ولا شرابا ، فإنا الذى أطعِم ولا أطعَم كما قال - سبحانه - : : قل أغير الله أنخذ وليا ، فاطر السموات والأرض وهو يطعم ولا يطعم (١) .

قال الألوسى : والآية لبيان أن شأنه - تعالى - مع عباده ، ليس كشأن السادة مع عبيدهم ، لأنهم إنما يملكونهم ليستعينوا بهم فى تحصيل معاشهم وأرزاقهم ، ومالك العبيد نفي أن يكون ملكه لإيائهم لذلك ، فإنه - سبحانه - يقول : ما أريد أن أستعين بهم ، كما يستعين ملاك العبيد بعبيدهم ، فليشتغلوا بما خلقوا له من عبادتى (٢) .

ثم بين - سبحانه - أنه هو صاحب القوة والرزق فقال : : إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين ، أى : إن الله - تعالى - هو الرزاق لغيره دون أحد سواه ، وهو - سبحانه - صاحب القوة التى لا تشبهها قوة ، وهو المتين أى : الشديد القوة - أيضا - فهو صفة الرزاق ، أو لقوله : : ذو ، أو خبر مبتدأ محذوف . وهو مأخوذ من المتانة بمعنى القوة الفائقة ...

ثم بين - سبحانه - سوء عاقبة الظالمين فقال : : فإن الذين ظلموا ذنوبا مثل ذنوب أصحابهم فلا يستعجلون ، .

والذنوب فى الأصل : الدلو العظيمة المملوءة ماء ، ولا يقال لها ذنوب إذا كانت فارغة . وجمعها ذنائب ، كقملوص وقلائص ، وكانوا يستحقون الماء فيقسمونه بينهم على الأنصباء ، فيكون لهذا ذنوب . ولهذا ذنوب . فالمراد بالذنوب هنا : النصيب والمعنى : فإن للذين ظلموا أنفسهم بعبادتهم لغير الله ، وبظلمهم لغيرهم ، نصيبا من العذاب ، مثل نصيب نظرائهم فى الظلم والكفر ، فلا يستعجلون عذابي ، فإنه قازل بهم فى الوقت الذى أريده ..

« فويل للذين كفروا من يومهم الذى يوعدون ، أى : فهلك للذين
كفروا ، هذا الهلاك سيكون فى اليوم الذى توعدهم بالهلاك فيه ، والذى هو
لازل بهم بلا ريب أو شك .

وبعد . فهذا تفسير لسورة « الذاريات » ، فسأل الله - تعالى - أن يجعله
خالصا لوجهه ، ونافعا لعباده .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ؟

القاهرة - مدينة نصر كتبه الراجى صفو ربه

مساء السبت : ١٤٠٦/٥/٢١ هـ د . محمد سيد طنطاوى

١٩٨٦/٢/١ م

التفسير الوسيط
للقرآن الكريم

تفسير سُورَةُ الطُّورِ

لفضيلة
الدكتور محمد السيد طنطاوى
عميد كلية الدراسات الإسلامية والعربية

(الجزء السابع والعشرون)

١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة وتمهيد

١ - سورة الطور ، من السور المكية الخالصة ، وعدد آياتها تسع وأربعون آية في السكوفي والشامي ، وثمان وأربعون في البصري ، وسبع وأربعون في المصحف الخجazy .

وهذه السورة من السور التي كان النبي - صلى الله عليه وسلم - يقرأ بها كثيراً في صلاته .

روى الشيخان عن جبير بن مطعم قال : سمعت النبي - صلى الله عليه وسلم - يقرأ في المغرب بالطور ، فما سمعت أحداً أحسن صوتاً أو قراءة منه .

وروى البخاري عن أم سلمة قالت : شكوت إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إني اشتكي . فقال : طوفي من وراء الناس وأنت راكبة . فطفت ورسول الله - صلى الله عليه وسلم - يصلي إلى جنب البيت ، يقرأ بالطور وكتاب مسطور ، (١) .

٢ - وتفتح سورة الطور ، بقسم من الله - تعالى - ببعض مخلوقاته على أن البعث حق ، وعلى أن الجزاء حق ، وعلى أن كل ذلك كائن يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات ...

تفتح بهذا الافتتاح الذي يبعث الوجل والخوف في النفوس فتقول : والطور . وكتاب مسطور . في رقي منشور . والبيت المعمور . والسقف المرفوع . والبحر المسجور . إن عذاب ربك لواقع . ماله من دافع ...

٣ - وكعادة القرآن الكريم في المقارنة بين الأخيار والأشرار ، يأتي

(١) تفسير ابن كثير ج ٧ ص ٤٠٤ .

الحديث عن حسن عاقبة المؤمنين ، بعد الحديث عن سوء عاقبة المكذبين ، فيقول - سبحانه - : « إن المتقين في جنات ونعيم . فاكتمين بما آتاهن ربهم ، ووقاهن ربهم عذاب الجحيم . كلوا واشربوا هنيئاً بما كنتم تعملون ... »

٤ - ثم تنتقل السورة الكريمة إلى الحديث عن مفتريات المشركين وأكاذيبهم ، فتحكيها بأمانة ، وتقذف بالحق الذي أوحاه - سبحانه - إلى نبيه - صلى الله عليه وسلم - فإذا بتلك المفتريات والآكاذيب زاهقة وباطلة ، وتسوق ذلك بأسلوب ساحر خلّاب فتقول : « أم يقولون شاعر نترصد به ريب المنون . قل تربصوا ، فإنني معكم من المترصدين . أم تأمرهم أحلامهم بهذا ، أم هم قوم طاغون . أم يقولون تقوله ، بل لا يؤمنون . فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين ... »

٥ - ثم تختتم السورة الكريمة بما يسلى النبي - صلى الله عليه وسلم - وبما يرسم له العلاج الشافي فتقول : « واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا ، وسبح بحمد ربك حين تقوم . ومن الليل فسبحه وإدبار النجوم . »

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ؟

د . محمد سيد طنطاوى

٣ من جمادى الآخرة سنة ١٤٠٦ هـ

١٢ من فبراير سنة ١٩٨٦ م

التفسير

قال الله تعالى : « وَالطُّورِ (١) وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ (٢) فِي رَقٍّ مَنشُورٍ (٣) وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ (٤) وَالسَّفْهِ الْمَرْفُوعِ (٥) وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ (٦) إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ (٧) مَالَهُ مِنْ دَافِعٍ (٨) يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا (٩) وَنَسِيرُ الْجِبَالُ سَنِيرًا (١٠) فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (١١) الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ (١٢) يَوْمَ يُدْعَوْنَ إِلَى نَارٍ جَهَنَّمَ دَعَاً (١٣) هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تَسْكُدُّونَ (١٤) أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ (١٥) اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا ، سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُحْزَنُونَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (١٦) » .

افتتح الله - تعالى - هذه السورة الكريمة ، بالقسم بخمسة أشياء هي من أعظم مخلوقاته ، للدلالة على كمال قدرته ، وبديع صنعته ، وتفرد ألوهيته ... فقال - سبحانه - : « وَالطُّورِ ، والمراد به جبل الطور ، المشار إليه في قوله - تعالى - : « وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ . وَطُورِ سَيْنِينَ » .

قال القرطبي : « وَالطُّورِ : اسم الجبل الذي كلم الله - تعالى - عليه موسى . أقسم الله به تشريفاً وتكريماً له ، وتذكيراً لما فيه من الآيات ... وقيل : إن الطور اسم لكل جبل أنبت ، ومالا ينبت فليس بطور » (١) .

« وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ ، أى مكتوب منسق الكتابة ، منتظم الحروف ، مرتب المعاني ، فالمراد بالكتاب : المكتوب . وبالمسطور : الذى سطرت حروفه وكتباته تسطيراً جميلاً حسناً .

والأظهر أن المقصود به القرآن الكريم ، لأن الله تعالى - قد أقسم به كثيرا ، ومن ذلك قوله - سبحانه - حم . والكتاب المبين ، يس والقرآن الحكيم . . .
وقيل : المقصود به : جنس الكتب السماوية المنزلة . وقيل : صحائف الأعمال .

قال الألوسي : قوله : هو كتاب مسطور ، أى : مكتوب على وجه الإنظام فإن السطر ترتيب الحروف المكتوبة . والمراد به على ما قال الفراء : الكتاب الذى تكتب فيه الأعمال ، ويعطاه العبد يوم القيامة يمينه أو بشماله وقال الكلبي : هو التوراة . . . وقيل : القرآن . وقيل اللوح المحفوظ . . . (١)

وقوله : في رق منشور ، متعلق بمسطور . أى : مسطور في رق . والرق - بالفتح - كل ما يكتب فيه من ألواح وغيرها . وأصله : الجلد الرقيق الذى يكتب عليه .

والمنشور . المبسوط ، ومنه قوله - تعالى - : ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا . .

أى : أن هذا الكتاب المسطور ، كائن في صحائف مبسطة ظاهرة لكل من ينظر إليها .

وقوله : والبيت المعمور ، هو بيت في السماء السابعة تطوف به الملائكة بأمر الله - تعالى - . .

قال ابن كثير : ثبت في الصحيحين أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال في حديث الإمراء والمعراج . بعد مجاوزته إلى السماء السابعة : ثم رفع بي إلى البيت المعمور ، وإذا هو يدخله في كل يوم سبعون ألفا من الملائكة ... (٢)

(١) تفسير الألوسي ج ٢٧ ص ٢٧

(٢) تفسير الألوسي ج ٢٨ ص ٢٩

وقيل المراد بالبيت المعمور هنا : البيت الحرام ، وسمى بذلك لأنه معمور بالحجاج والعمار . . والسقف المرفوع ، أى : والسماء المرفوعة ، وسميت سقفا لسكونها بمثابة السقف للأرض ، كما قال - تعالى - : . وجعلنا السماء سقفا محفوظا وهم عن آياتها معرضون . .

، والبحر المسجور ، أى : أى المملوء بالماء . يقال : سجر فلان الحوض إذا ملأه بالماء .

أو المسجور ، بمعنى : المملوء بالنار ، من السجر ، وهو إيقاد النار فى التنور ، ومنه قوله - تعالى - : . ثم فى النار يسجرون .

والمراد بالبحر هنا جنسه . قال ابن عباس : تملأ البحار كلها يوم القيامة بالنار ، فيزاد بها فى نار جهنم .

وهذا نرى أن الله - تعالى - قد أقسم بخمسة أشياء من مخلوقاته ، للدلالة على وحدانيته ، وعلى شمول قدرته ، وعلى بذيع صنعته

وجواب هذا القسم قوله - سبحانه - : ﴿ إن عذاب ربك لواقع ﴾ أى : وحق هذه المخلوقات الضخمة البديعة ، إن عذاب ربك لواقع وفوقاً لاشك فيه على الكافرين يوم القيامة .

وقدوله : . ما له من دافع ، خبر ثان لأن فى قوله : . إن عذاب ربك لواقع ، أى : هو واقع دون أن يستطيع أحد أن يدفعه أو يردده .

عن جبير بن مطعم - رضى الله عنه - قال : قدمت المدينة على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لأكله فى أسارى بدر ، فجلست إليه وهو يصلى بأصحابه صلاة المغرب ، فسمعتة يقرأ بالطوير ، إلى . إن عذاب ربك لواقع . ما له من دافع . . فكأنما صدع قلبى ، فأسلمت خوفاً من نزول العذاب ، وما كنت أظن أن أقوم من مقامى ... (١)

والظرف في قوله : . يوم تمور السماء مورا ، متعلق بقوله : لواقع ، ومنصوب به . أى : إن هذا العذاب لواقع يوم تضطرب السماء اضطرابا شديدا ، وتتحرك بمن فيها تحركا تتداخل معه أجزاءها .

فالمور : هو الحركة والاضطراب والدوران ، والجيء والذهاب ، والتوج يقال : مار الشيء مورا إذا تحرك واضطرب .

وتسير الجبال سيرا ، أى : عذاب ربك واقع يوم تضطرب السماء بأهلها ، وتزول الجبال عن أماكنها ، وتتطاير كالسحب ، ثم تفتت كالرمال ، ثم تصير كالصوف المنفوش ...

قال - تعالى - : . وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمر مر السحاب ، صنع الله الذى أتقن كل شيء ، (١) .

وقال - سبحانه - : . يوم تكون السماء كالمهل . وتكون الجبال كالermen . ولا يسأل حميم حميما ، (٢) .

وقوله : . فويل يومئذ للمكذبين ، أى : فهلاك وحسرة في هذا اليوم للمكذبين به .

والذين هم في خوض يلعبون ، أى : إذا كان الأمر كما ذكرنا لك - أيها العاقل - ، فهلاك وحسرة في هذا اليوم للمكذبين بالحق ، الذين هم عاشوا حياتهم الدنيا يلعبون ويلعبون دون أن يذكروا حسابا ولا نوابا ولا عقابا .

وأصل الخوض : المشى في الماء ، ثم غلب استعماله في الاندفاع في كل باطل .

(١) سورة النمل الآية ٨٨ .

(٢) سورة المعارج الآية ٨ ، ١٠ .

ثم بين - سبحانه - حالهم يوم القيامة فقال : « يوم يدعون إلى نار جهنم دعا . هذه النار التي كنتم بها تكذبون ... »

والدع : الدفع بعنف وشدة . يقال : دع فلان فلانا دعا ، إذا دفعه بجفوة وغلظة ، ومنه قوله - تعالى - : « رأيت الذي يكذب بالدين . فذلك الذي يدع اليتيم ... »

أى : اذكر - أيها العاقل - لتعتبر وتتعظ ، يوم يدفع هؤلاء المكذبون إلى النار دفعا قويا ، لا رحمة معه ، ولا شفقة فيه . ثم يقال لهم بعد هذا الطرد الشديد : « هذه هي النار التي كنتم بها تكذبون في الدنيا ، ادخلوها فبئس مثوى المتكبرين . »

ثم يقال لهم - أيضا - على سبيل التوبيخ والجزر : « أفسح هذا ، أى : أفسح هذا الذي تروونه من العذاب كما كنتم تزعمونه في الدنيا ؟ »

« أم أنتم لا تبصرون ، أى : أم أنتم عمى عن مشاهدة العذاب المعد لكم فلا تبصرونه ؟ لا ، إن هذا العذاب ليس سحرا ، ولستم أنتم بمحجوبين عن رؤيته ، بل هو أمام أعينكم ، ومهيا لاستقبالكم ، وهذه النار تنادىكم ، وملائكتنا تقول لكم :

« اصلوها ، أى : ادخلوها ، وقاسوا حرها ، فاصبروا أو لا تصبروا ، أى : ادخلوها داخرين فاصبروا على سعيها أو لا تصبروا ، فهى مأواكم لا محالة . »

« سواء عليكم ، الأمران ، الصبر وعدمه ، لأن كليهما لا فائدة لكم من ورائه . »

فقوله : « سواء عليكم ، خبر لمبتدأ محذوف . أى : الأمران سواء بالنسبة لكم . »

« إنما تجزون ، فى هذا اليوم عاقبة ما كنتم تعملون ، أى : فى الدنيا . »

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : لم علل استواء الصبر وعدمه بقوله :
 « إنما تجزون ما كنتم تعملون » ؟

قلت : لأن الصبر إنما يكون له مزية على الجزع ، لنفعه في العاقبة بأن
 يجازى عليه الصابر جزاء الخير ، فأما الصبر على العذاب هو الجزاء ، ولا عاقبة
 له ولا منفعة ، فلا مزية له على الجزع ، (١) .

وكعادة القرآن الكريم في المقارنة بين سوء عاقبة المكذبين وحسن عاقبة
 المؤمنين ، جاء الحديث عن المتقين ، بعد الحديث عن الكافرين ، فقال - تعالى - :
 « إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ (١٧) فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَاهُمْ
 رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (١٨) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (١٩)
 مُتَكَبِّرِينَ عَلَى سُورٍ مُصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ (٢٠) وَالَّذِينَ آمَنُوا
 وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ، وَمَا أَلْتَنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ
 شَيْءٍ ، كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهينٌ (٢١) وَأَمْدَدْنَاهُمْ بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ
 مما يَشْتَهُونَ (٢٢) يَتَنَزَّعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأَنٍ (٢٣)
 وَيُطَوَّفُ عَلَيْهِمْ غُلَامٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لَوْثٌ مُكْنُونٌ (٢٤) وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ
 عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (٢٥) قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ (٢٦)
 فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ (٢٧) إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ
 إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ (٢٨) » .

والمعنى : « إن المتقين ... ، الذين صابروا أنفسهم عن كل ما نهى الله
 - تعالى - عنه .

« في جنات ، عظيمة ، وفي داعم ، دائم لا ينقطع .

« فاكهين ، أى : متلذذين متنعمين بما يحيط بهم من خيرات . مأخوذ من الفسكاكة - بفتح الفاء - وهى طيب العيش مع النشاط . يقال : فسكه الرجل فسكها وفسكاكة فهو فسكه وفاكه ، إذا طاب عيشه وزاد سروره ، وعظم نشاطه ، وسميت الفاكهة بهذا الاسم لتلذذ الإنسان بها .

« بما آتاهم ربهم ووقاهم عذاب الجحيم ، أى : متلذذين . يجب ما آتاهم ربهم من جنات عظيمة ، ووقاهم - سبحانه - بفضلته ورحمته العذاب الذى يؤلمهم .

ويقال لهم فضلا عن ذلك على سبيل التكريم : « كلوا واشربوا هنيئاً .. » أى : كلوا أكلاماً هنيئاً ، واشربوا شرباً هنيئاً . والهنيء من الماء كقول والمشروب ما لا يلحقه تعب أو سوء عاقبة .

وقوله : « متكئين على سرر مصفوفة ... » منصوب على الحال من فاعل « كلوا ، أو من الضمير المستكن فى قوله « جنات » .

أى : هم فى جنات عظيمة ، حالة كونهم متكئين فيها على سرر موضوعة على صفوف منتظمة ، وعلى خطوط مستوية . والسرر : جمع سرير وهو ما يجلس عليه الإنسان للراحة .

وقوله : « وزوجناهم بحور عين ، بيان للنعمة أخرى من النعم التى يتلذذون بها .

أى : وفضلاً عن كل ذلك ، فقد زوجناهم بنساء جميلات ..

وبذلك نرى أن هؤلاء المتقين . قد أكرمهم الله - تعالى - بكل أنواع التنعيم ، من مسكن طيب ، وما كل كريم ، ومشرب هنيء ، وأزواج مطهرات من كل سوء .

ثم بين - سبحانه - أنواعاً أخرى من تكميمه - تعالى - لهم ، فقال :

« والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان الحقنا بهم ذريتهم ، وما ألتناهم من عملهم من شيء »

والآية الكريمة بيان لحال طائفة من أهل الجنة - وهم الذين شاركهم ذريتهم الأقل عملاً منهم في الإيمان - إثر بيان حال المتقين بصفة عامة .

والاسم الموصول مبتدأ ، وخبره جملة « الحقنا بهم ذريتهم » ، والمراد بالذرية هنا : ما يشمل الآباء والأبناء . وقوله : « واتبعهم » معطوف على « آمنوا » . وقوله « بإيمان » متعلق بالانباغ ، والباء للسببية أو بمعنى في .

ومعنى : « ألتناهم » أنقصناهم . يقال : فلان ألت فلانا حقه يألته - من باب ضرب - إذ يخصه حقه .

والمعنى : والذين آمنوا بنا حق الإيمان ، واتبعهم ذريتهم في هذا الإيمان . الحقنا بهم ذريتهم ، بأن جمعناهم معهم في الجنة ، وما نقصنا هؤلاء المتبوعين شيئاً من ثواب أعمالهم ، بسبب إلحاق ذريتهم بهم في الدرجة ، بل جمعنا بينهم في الجنة . وساوينا بينهم في العطاء - حتى ولو كان بعضهم أقل من بعض في الأعمال - فضلاً منا وكرمنا .

قال الإمام ابن كثير : يخبر - تعالى - عن فضله وكرمه ، وامتنانه ولطفه بخلقهم وإحسانه : أن المؤمنين إذا اتبعهم ذرياتهم في الإيمان ، يلحقهم بآبائهم في المنزلة وإن لم يلغوا عملهم ، لتقر أعين الآباء بالأبناء عندهم في منازلهم ، فيجمع بينهم على أحسن الوجوه ، بأن يرفع الناقص العمل بكامل العمل ، ولا ينقص ذلك من عمله ومنزله ، للتساوى بينه وبين ذلك ، ولهذا قال : « الحقنا بهم ذريتهم ، وما ألتناهم من عملهم من شيء . . . »

عن ابن عباس قال : إن الله ليرفع ذرية المؤمن في درجته ، وإن كانوا دونه في العمل ، لتقر بهم عينه ، ثم قرأ هذه الآية .

وفي رواية أخرى عنه قال - عندما سئل عن هذه الآية - : هم ذرية المؤمن يموتون على الإيمان ، فإن كانت منازل آبائهم أرفع من منازلهم ألحقوا بآبائهم ، ولم ينقصوا من أعمالهم التي عملوها شيئاً ... (١)

وقال صاحب الكشف : فإن قلت : ما معنى تنكير الإيمان ؟ قلت : معناه الدلالة على أنه إيمان خاص عظيم المنزلة . ويجوز أن يراد : إيمان الذرية الداني المحل . كأنه قال : بشيء من الإيمان ، لا يؤهلهم لدرجة الآباء ألحقناهم بهم ... (٢)

وقال الجمل : « والذرية هنا تصدق على الآباء والأبناء ، فإن المؤمن إذا كان عمله الصالح أكثر ألحق به من هو دونه في العمل أباً كان أو ابناً ، وهذا منقول عن ابن عباس وغيره .

وعن ابن عباس - أيضاً - يرفعه إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - قال : إذا دخل أهل الجنة الجنة ، سألت أحدهم عن أبيه وعن زوجته وولده ، فيقال : إنهم لم يدركوا ما أدركت ، فيقول : يا رب إنني عملت لي ولهم ، فيؤمر بالحاقهم به ... (٣)

وقوله : « كل امرئ بما كسب رهين » ، أي : كل إنسان مرهون بعمله عند الله - تعالى - ، فإن كان عمله صالحاً سعد وقال ، وأطلق نفسه من كل ما يصبو لها ويحزنها ، وإن كان غير ذلك ، جوزى على حسب عمله وسعيد . والتعبير بقوله « رهين » ، للإشعار بأن كل إنسان مرتين بعمله ، حتى لسكان العمل الصالح بمنزلة الدين ، وأن الإنسان لا يستطيع الفكاك منه إلا بعد أدائه .

(١) راجع تفسير ابن كثير ٧ ص ٤٠٨

(٢) تفسير الكشف ٤ ص ٤١١

(٣) حاشية الجمل على الجلالين ٤ ص ٢١٦

ثم بين - سبحانه - جانباً آخر من مظاهر فضله على عباده المؤمنين فقال : « وأمددناهم بغاكة ولحم مما يشتهون ... »

أى : وأمددنا هؤلاء المؤمنين - على سبيل الزيادة عما عندهم بغاكة كثيرة لا مقطوعة ولا ممنوعة وبالحم لذيق تشتهيه نفوسهم .

« يتنازعون فيها كأساً .. » أى : يتجادلون على سبيل المداعبة ، ويتعاطون على سبيل التسكريم ، الأوانى المملوءة بالخمر التى هى لذة للشاربين ..

« لا لغو فيها ولا تأثيم ، أى : لا يصدر منهم فى أعقاب شربهم لتلك الخمر ، ما جرت به العادة فى أعقاب شرب خمر الدنيا ، من أن الشارب لها يصدر منه كلام ساقط لا خير فيه ، ويأتى من الأقوال والأفعال ما يعاقب عليه ، ويرتكب الإثم بسببه .

قال صاحب الكشف : « لا لغو فيها ، أى فى شربها ، ولا تأثيم ، أى : لا يتكلمون فى أثناء الشرب بسقط الحديث ، وما لا طائل تحته ، كفعل المتنادمين فى الدنيا على الشراب فى سفهم وحر بدتهم ، ولا يفعلون ما يؤثم به فاعله ، أى : ينسب إلى الإثم لو فعله فى دار التكليف من الكذب والفسم والفواحش ، وإنما يتكلمون بالحكم وبالكلام الحسن متلذذين بذلك ، لأن عقولهم ثابتة غير زائلة وهم حكماء علماء » (١)

« ويطوف عليهم غلمان لهم .. » أى : ويطوف عليهم بتلك الكتوس المليئة بالخمر ، غلمان لهم ، لى يكونوا فى خدمتهم .

« كأنهم لؤاؤ مكدون ، أى : كأن هؤلاء الغلمان فى صفائهم ونقايتهم ، لؤاؤ مصون ومحفوظ فى صدقه لم تنله الأيدي .

يقال : كنت الشيء كنا وكنونا ، إذا جعلته فى كن ، وسترته عن الأعين .

ثم حكى - سبحانه - تساؤلهم وهم في الجنة ، فقال : « وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون ، أى : وأقبل بعضهم على بعض وهم في الجنة . يسأل أحدهم الآخر عن أحواله ، وعن أعماله ، وعن حسن عاقبته ... »

« قالوا ، أى : قال كل مستول لسائله : « إنا كنا قبل في أهلنا مشفقين ، أى : إنا كنا في الدنيا ونحن نعيش بين أهلنا خائفين من أهوال يوم القيامة ، وكنا نقدم العمل الصالح الذى نرجو أن ننال بسببه رضا ربنا ... »

فقبل - تعالى - بفضلله منا هذا العمل ، فن الله علينا ، أى : فتكرم علينا بمغفرته ورضوانه .

« ووقانا عذاب السموم ، أى : وأنقذنا من عذاب النار التى تنفذ بجرها وسعيرها ، إلى العظام والمسام ، نفاذ الريح الحادة إلى الأجساد ، فتؤثر فيها تأثير السم في البدن .

قال صاحب الكشف : والسموم : الريح الحادة التى تدخل المسام ، فسميت بها نار جهنم ، لأنها بهذه الصفة .

« إنا كنا من قبل ندعوه ... ، أى إنا كنا من قبل في الدنيا ندعوه أن ينجبنا هذا العذاب كما كنا - أيضا - نخلص له العبادة والطاعة .

« إنا ، - سبحانه - « هو البر الرحيم ، أى : هو المحسن على عباده الرحيم بهم .

فالبر - بفتح الباء - مشتق من البر - بكسرها - ، بمعنى المحسن ، يقال : بر فلان في يمينه ، إذا صدق فيها ، وأحسن أداها .

وبذلك نرى هذه الآيات الكريمة ، قد بشرت المتقين ببشارات متعددة ، وذكرنا نعمًا متعددة أنعم بها - سبحانه - عليهم .

* * *

ثم عادت السورة الكريمة مرة أخرى إلى الحديث عن الكافرين ، فأمرت النبى - صلى الله عليه وسلم - أن يمحى في طريقه دون أن يهتم بأكاذيبهم ،

وحكت جانباً من هذه الأكاذيب التي قالوها في حقه - صلى الله عليه وسلم -
ولقنته الجواب المزهق لها ... فقال - تعالى - :

« فَذَكَرْنَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بُكَاهِنٍ وَلَا مَحْجُونٍ (٢٩) أَمْ يَقُولُونَ
شَاعِرٌ تَتَّبِصُّ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ (٣٠) قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ
الْمُتَرَبِّصِينَ (٣١) أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُمْ بِهَذَا ، أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ (٣٢)
أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ (٣٣) فَلْيَأْنُوا بِحَدِيثِ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا
صَادِقِينَ (٣٤) أَمْ خَلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمْ الْخَالِقُونَ (٣٥) أَمْ خَلَقُوا
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بَلْ لَا يُوقِنُونَ (٣٦) أَمْ عِنْدَهمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمْ
الْمَصِيطِرُونَ (٣٧) أَمْ لَهُمْ سُلْمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ ، فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُمْ
بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ (٣٨) أَمْ لَهُ الْبَنَاتِ وَلَكُمُ الْبَنُونَ (٣٩) أَمْ نَسْأَلُهُمْ أَجْرًا
فَهُمْ مِنْ مَنْرَمٍ مُثْقَلُونَ (٤٠) أَمْ عِنْدَهمْ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ (٤١) أَمْ
يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ (٤٢) أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ
اللهِ ، سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٤٣) وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا
يَقُولُوا سَحَابٌ مَرْكُومٌ (٤٤) » .

والفاء في قوله - سبحانه - : « فَذَكَرْنَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بُكَاهِنٍ وَلَا مَحْجُونٍ ، للإفصاح .

والكاهن: هو الإنسان الذي يزعم أنه يخبر عن الأشياء المخفية . والمجنون:
هو الإنسان الذي سلب عقله ، فصار لا يعي ما يقول .

أى : إذا كان الأمر كما ذكرنا لك قبل ذلك - أيها الرسول الكريم - ،

فأنت على ما أنت عليه من التذكير بما أوحيناك ... فما أنت بسبب
لأنعام الله عليك بكاهن ولا مجنون كما يزعم أولئك الكافرون .

قال الجبل : والباء في قوله : بنعمة ربك ، لتسبيحة ، وهي متعلقة بالنفي الذي
أفادته ، ما ، أى : لا تنفى كونك كاهنًا أو مجنونًا ، بسبب لأنعام الله عليك
بالعقل الراجح ، وعلو الهمة ، وكرم الفعال ، وطهارة الأخلاق ، وهم معترفون
بذلك لك قبل النبوة ، (١)

ثم أخذت السورة الكريمة في تقرير هؤلاء الجاهلين بأسلوب إستنكارى
فيه ما فيه من التعجب من حالهم ، وفيه ما فيه من الرد الحكيم على أكاذيبهم
فسافت أقاويلهم بهذا الأسلوب الذى تكرر فيه لفظ « أم » ، خمس عشرة مرة
وكلها لإلزامات ليس لهم عنها جواب . وبدأت بقوله - تعالى - : « أم يقولون
شاعر نتربص به ريب المنون . قل تربصوا فإنى معكم من المتربصين » ، و « أم »
في هذه الآيات بمعنى بل والهمزة .

وقوله : « نتربص » من التربص بمعنى الانتظار والترقب ...

وقوله : « ريب المنون » ، يعنون به : حوادث الدهر التى تحدث له - صلى
الله عليه وسلم - منها الموت ، فالمنون : الدهر . وريبه : حوادثه التى يصيبه
بسببها الهلاك .

أى : بل يقولون عنك - أيها الرسول الكريم - إنك شاعر ، وأنهم
يتربصون موتك لىكى إستريحوا منك ، كما إستراحوا من الشعراء الذين من
قبلك ، كزهير والنابغة ... قل لهم - على سبيل التبكيت والتهديد :
تربصوا وتربصوا موتى فإنى معكم من المنتظرين ، وستعلمون أينما خير مقاماً
وأحسن عاقبة .

قال الألوسي : « تترجم به ريب المنون ، أى : الدهر . وهو فعل من المن بمعنى القطع ، لأنه يقطع الاعمار وغيرها . ومنه جبل منين أى : مقطوع والريب : مصدر رابه إذا أفلقه ، أريد به حوادث الدهر وصروفه ، لأنها تفتق النفوس . وعبر عنها بالمصدر مبالغة وأخرج ابن جرير وغيره عن ابن عباس ، تفسيره المنون بالموت . . . »

روى أن قريشا اجتمعت في دار الندوة ، وكثرة آراؤهم فيه - صلى الله عليه وسلم - حتى قال قائل منهم : تربصوا به ريب المنون ، فإنه شاعر سيهلك كما هلك زهير والنابعة والأعشى ، فافترقوا على هذه المقالة . . . (١)

ثم ويختم - سبحانه - على غفلتهم وعنادهم فقال : « أم تأمرهم أحلامهم بهذا ، أم هم قوم طاغون . . . »

والأحلام : جمع حلم - بكسر الحاء - والمراد بها هنا : العقول ، وكان شيوخ قريش يدعون بنى الأحلام والنهى

ويطلق الحلم في الأصل على ضبط النفس عن هيجان الغضب ، وأطلق هنا على العقل لكونه منشأ له .

أى : بل أنأمرهم عقولهم التي زعموا سلامتها ، بأن يقولوا في شأنك - أيها الرسول الكريم - إنك شاعر أم مجنون ؟

لا ، إن أى عقل سليم لم يأمرهم بذلك ؛ وإنما هم قوم دأبهم الطغيان والعناد وتجاوز الحدود التي لا يجوز تجاوزها ..

والعقول إذا استعصمت في الشرور والآثام ، ضاع رشدها ، وفقدت سلامتها .

ولقد قيل لعمر بن العاص - رضى الله عنه - ما بال قومك لم يؤمنوا وهم أصحاب الأحلام ؟ فقال : تلك عقول كادها الله - تعالى - . أى : لم يصبها التوفيق والرشاد .

« أم يقولون تقوله ، بل لا يؤمنون . فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين ، والتقول : تكلف القول واختلاقه ، وأكثر ما يكون إستمهالا في الكذب . يقال : فلان تقول على فلان ، إذا لفتى عليه الكذب .

أى : بل أقولون عنك - أيها الرسول - إنك لفتيت هذا القرآن ، واختلقته من عند نفسك ؟ لا إنك معصوم عن ذلك ، وأنت مانطق إلا بما أوحيناك إليك ، ولكنهم هم المفترون للكذب عليك ، وما حملهم على ذلك إلا عدم إيمانهم بالحق ، وإغماصهم في الباطل . وإصرارهم على الجحود ..

وإذا كان الأمر - كما زعموا - فما هوذا القرآن أمامهم يسمعون آياته ... فليأتوا بحديث يشابه القرآن في بلاغته ، وهدايته ، وسمو تشريعاته وآدابه . وقد تحدثم - سبحانه - في آيات أخرى أن يأتوا بعشر سور من مثله فقال : « أم يقولون افتراء . قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات ، وأدعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين » (١)

ثم تحدثم - سبحانه - أن يأتوا بسورة واحدة من مثله فقال : « وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله ، وأدعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين ... » (٢)

ولكنهم في جميع مراحل التحدى ، وقفوا عاجزين مبهورين ، فشئت أن هذا القرآن من عند الله ، ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا ثم وبخهم - سبحانه - على عدم تفكيرهم في خلق أنفسهم فقال : « أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون . أم خلقوا السموات والأرض بل لا يوقنون ، أى : بل أخلقوا على هذه الكيفية البديعة ، والهيئة القويمة ، من غير أن

(١) سورة هود . الآية ١٣

(٢) سورة البقرة الآية ٢٢

يكون هناك خالق لهم ؟ أم هم الذين خلقوا أنفسهم بدون إحتياج لخالق ؟
أم هم الذين قاموا بخلق السموات والأرض ؟

لا ، إن شيئا من ذلك لم يحدث ، فإنهم لم يخلقوا من غير شيء ، وإنما الذي خلقهم بقدرته - تعالى - هو وحده ، كما خلق - سبحانه - السموات والأرض بقدرته - أيضا - ، وهم يعترفون بذلك ، كما في قوله - تعالى - : « ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله ... » ، ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله ... »

وقوله : « بل لا يوقنون » ، أى : هم ليسوا على يقين من أمرهم ، وإنما هم يخطئون خبط عشواء ، فهم مع إعترافهم بأن الله - تعالى - هو الذى خلقهم ، إلا أن هذا الإعتراف صار كالعدم ، لأنهم لم يعملوا بموجبيه ، من إخلاص العبادة له - تعالى - والإيمان بالحق الذى جاءهم به رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ، من عند خالقهم .

ثم قال - تعالى - : « أم عندم خزائن ربك أم هم المسيطرون » ، أى : بل أعند هؤلاء الغافلين « خزائن ربك » ، أى : مفاتيح أرزاقه - تعالى - لعباده ، ومقدراته لهم ، حتى يقسموها عليهم كما شاءوا ، أم هم المسيطرون على أحوال هذا الكون ، المتسلطون على مقدراته ، حتى لكانهم أربابا به المتغلبون عليه ؟

كلا لا شيء لهم من ذلك إطلاقا ، وإنما هم فقراء إلى رزق الله - تعالى - لهم . « أم لهم - سلم يستمعون فيه ... » ، والسلم : هو ما يتوصل به إلى الامكنة العالية أى : بل لهم سلم يصعدون بواسطته إلى السماء ، ليستمعوا إلى وحيها وأمرنا ونهيها ... »

إن كان أمرهم كذلك : « فليأت مستمعهم بسلطان مبين » ، أى : فليأت من استمع منهم الى شيء من كلامنا أو وحيينا بحجة واضحة تدل على صدقه فيها ادعاه .

ومما لاشك فيه أنهم لا حاجة لهم ، بل هم كاذبون إذا ما ادعوا ذلك ، لأن
وحى الله - تعالى - خاص بأئناس معينين ، ليسوا منهم قطعا .

• أم له البنات ولكم البنون ، أى : بل يقولون إن لله - تعالى - البنات
ولهم الذكور ، إن قولهم هذا من أكبر الأدلة على جهلهم وسوء أدبهم ،
لأن الله - تعالى - هو الخالق للوعين ، وهو - سبحانه - ديب لمن يشاء إنانا
ويهب لمن يشاء الذكور ، .

• أم تسألهم أجرا فهم من مغرم مثقلون ، أى : بل أتسألهم أجرا على دعوتك
ليأهم إلى الحق ، فهم بسبب ذلك قد أثقلتهم الديون والمغارم ، فصاروا ينفرون
من دعوتك ؟ كلا إنك لم تطلب منهم شيئا من ذلك .

والمغرم : الدين الذى يكون على الإنسان . فيثقل كاهله ، ويحزن نفسه .
• أم عندهم الغيب فهم يكتبون ، أى : بل يزعمون أن عندهم علم الغيب
فهم يكتبونه للناس ، ويطلعونهم عليه ... ؟

كلا إنهم لا علم لهم بشئ من الغيب ، لأن علم الغيب مرده إلى الله - تعالى -
وحده ، كما قال سبحانه - : « عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا . إلا من
ارتضى من رسول ... »

• أم يريدون كيدا ، فالذين كفروا هم المكيدون ، أى : بل يريدون بك
- أيها الرسول الكريم - الكيد والأذى والهلاك ، إن كانوا يريدون بك
ذلك فاعلم أن الذين كفروا بك وبدعوتك وأرادوا بك وبها الكيد والأذى ،
هم المغلوبون الخاسرون الذين يحقق بهم كيدهم ، ويعود عليهم وباله .

فقوله : « المكيدون » اسم مفعول من الكيد ، وهو المكر والخبث . .
وقد عاد عليهم وبال مكرهم فعلا ، فقد خرج - صلى الله عليه وسلم - من
بين جمعهم ليلة الهجرة ، دون أن يروه ، وكانوا يحيطين بداره ليعتقلوه ،
وأحبط الله - تعالى - مكرهم .

« أم لهم : إله غير الله ، سبحانه الله عما يشركون ، أى : بل ألهم إله غير الله - تعالى - يرزقهم من فضله ، ويرعاهم بلطفه فى جميع أطوار حياتهم .

كلا إنهم لا إله لهم سواه - تعالى - ، ونزه - سبحانه - عن شركهم وكفرهم .

« وإن يروا كسفا من السماء ساقطا يقولوا سحاب مركوم ، والكسف جمع كسفه وهى القطعة من الشئ . . والمركوم : المتراكم الذى تجتمع بعضه فوق بعض .

أى : وإذا رأى هؤلاء الجاهلون قطعة عظيمة من العذاب نازلة عليهم لتهديدهم وزجرهم ، قالوا : هذا النازل علينا سحاب متراكم ، قد اجتمع بعضه فوق بعض ليسقينا ، ولم يصدقوا أنه نذير عذاب شديد لهم .

وهذا شأن الطغاة المعاندين ، وقد سبقهم إلى ذلك قوم عاد ، فإنهم حين رأوا العذاب مقبلا نحوهم قالوا : هذا عارض ممطرنا ، فرد الله - تعالى - عليهم بقوله : « بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب أليم » .

هذا . والمتأمل فى هذه الآيات السكرية ، يراها قد حملت على المشركين حملة شديدة ، حيث وبختهم على جهالاتهم ، وتحدثهم بأسلوب تعجيزى أن يأتوا بمثل القرآن الكريم ، ونهكت بهم وبعقولهم الفارغة التى انقادوا لها بدون تفكير أو تدبر ، وبينت أنهم قوم متناقضون مع أنفسهم ، لأنهم يقرون أن الله - تعالى - هو الخالق لهم ولغيرهم ، ومع ذلك فهم يعبدون غيره ، وينسبون البنات إليه دون البنين ...

وقد ذكر بعض المفسرين أن ما أصابهم من هزيمة يوم بدر ، كان فى السنة الخامسة عشرة من بعثته - صلى الله عليه وسلم - وأن هذه الآيات قد تكررت

فبها لفظ « أم » ، خمس عشرة مرة ، بعدد هذه السنين ، ولذا قالوا : إن ذلك فيه إشارة إلى إعجاز القرآن الكريم .

• • •

ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة ، بتوجيه الخطاب إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - ، على سبيل التسلية والتكريم ، حيث أمره - سبحانه - بالإعراض عنهم ، لأنه - سبحانه - هو الذي سيتولى حسابهم وعقابهم ... فقال - تعالى - :

« فَذَرْنِهِمْ حَتَّى يَلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ (٤٥) يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ (٤٦) وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ ، وَلَسَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٤٧) وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ، وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ (٤٨) وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ (٤٩) » .

والغناء في قوله - سبحانه - : « فَذَرْنِهِمْ ... » واقعة في جواب شرط مقدر . أي إذا كان حال هؤلاء المشركين كما ذكرنا لك - أيها الرسول الكريم - فاتركهم في طغيانهم يعمهون ...

« حَتَّى يَلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ ، أَى : فدعهم يخوضوا ويلعبوا حتى يأتهم اليوم الذي فيه يموتون ويهلكون . »

قال القرطبي : قوله « يُصْعَقُونَ » بفتح الياء قراءة العامة . وقرأ ابن عامر وعاصم بضمها .

قال الفراء : هما لغتان : صق وصق مثل سعد وسعد . قال قتادة : يوم

يموتون . وقيل : هو يوم بدر . وقيل : يوم النفخة الأولى . وقيل يوم القيامة يأتيهم فيه من العذاب ما يزيل عقولهم (١) .

وقوله : « يوم لا يغني عنهم كيدهم شيئا . . . » بدل من قوله : « يومهم » .
 أى : أتركهم - أيها الرسول الكريم - ولا تسكرث بهم ، وامض فى دعوتك إلى الحق ، فمما قريب سيأتيهم اليوم الذى لن ينفعهم فيه مكرهم السيء ، وكيدهم القبيح . . .

« ولا هم ينصرون » فيه من عقابنا من أى جهة من الجهات ، أو من أى شخص من الأشخاص .

« وإن للذين ظلموا ، وهم هؤلاء الكافرون ، عذابا دون ذلك ، أى : عذابا آخر دون ذلك العذاب الذى سينزل بهم عند موتهم وفى حياتهم . . .

« ولكن أكثرهم لا يعلمون ، لا يعلمون ذلك ، لجهلهم بما سينتظرون من عقاب .

ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة ، بتلك التسليمية الرقيقة لنبهه - صلى الله عليه وسلم - فقال : « واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا . . . » .

أى : واصبر - أيها الرسول الكريم - « لحكم ربك » ، إلى أن تنزل بهم عقابنا فى الوقت الذى نشاؤه ونختاره « فإنك بأعيننا » ، أى : فإنك بمرأى منا ، ونحت رعايتنا وحمايتنا وحفظنا . . .

« وسبح بحمد ربك حين تقوم ، أى : وأكثر من تسبيح ربك وتنزيهه عن كل ما لا يليق به ، حين تقوم من منامك ، أو من مجلسك ، أو حين تقوم للصلاة . . .

« ومن الليل فسبحه » ، أى : ومن الليل فأكثر من تسبيح ربك « وإدبار

النجوم ، أى : وأكثر من تسبيحه - تعالى - وقت إدبار النجوم وغروبها ،
وذلك فى أواخر الليل .

وبذلك نرى أن الله - تعالى - قد أمر نبيه - صلى الله عليه وسلم - ،
بالإكثار من التسبيح له - عز وجل - فى كل الأوقات ، لأن هذا التسبيح
يجلو عن النفس همومها وأحزانها ...

وبعد : فهذا تفسير لسورة « الطور » ، نسأل الله - تعالى ، أن يجعله خالصا
لوجهه ، ونافعا لعباده ...

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ؟

القاهرة - مدينة نصر

كتبه الراجى عفوه

محمد سيد طنطاوى

مساء الثلاثاء ١٦/٥/١٤٠٦ هـ

عميد كلية الدراسات الإسلامية والعربية

١٩٨٦/٢/٢٥ م

التفسير الوسيط
للقرآن الكريم

تفسير سُورَةِ النَّجْمِ

لفضيلة
الدكتور محمد السيد طنطاوى
عميد كلية الدراسات الإسلامية والعربية

(الجزء السابع والعشرون)

١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م

مقدمة وتمهيد

١ - سورة «النجم» ، من السور المسكية الخالصة ، وعدد آياتها ثنتان وستون آية في المصحف الكوفي ، وإحدى وستون في غيره ، وكان نزولها بعد سورة «الإخلاص» ، فهي تعتبر من أوائل ما نزل على النبي - صلى الله عليه وسلم - من قرآن ، إذ لم يسبقها في النزول سوى ثنتين وعشرين سورة ، أما ترتيبها في المصحف ، فهي السورة الثالثة والخمسون .

٢ - ويبدو أنها سميت بهذا الاسم منذ عهد النبوة ...

قال الآلوسی : سورة « والنجم » . وتسمى - أيضا - سورة النجم - بدون واو . - وهي مكية على الإطلاق . وفي الاتفاقان : استثنى منها : «الذين يجتنبون كبائر الاثم إلى آخر الآية» وهي - كما أخرج ابن مردويه - عن ابن مسعود قال : أول سورة أعلن النبي - صلى الله عليه وسلم - بقراءتها ، فقرأها في الحرم والمشركون يسمعون .

وأخرج البخاري ، ومسلم ، وأبو داود ، والنسائي ، عنه قال : أول سورة أنزلت فيها سجدة سورة « والنجم » ، فسجد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وسجد الناس كلهم إلا رجلا رأيته يأخذ كفا من تراب فسجد عليه ، فرأيتة بعد ذلك قتل كافرا ، وهو أمية بن خلف ...

وذكر أبو حيان أن سبب نزولها ، قول المشركين : إن محمدا - صلى الله عليه وسلم - يخلق القرآن ... ،^(١) .

(١) راجع تفسير الآلوسی ج ٢٧ ص ٤٤

٣ - وقد افتتحت السورة الكريمة بقسم منه - سبحانه - بالنجم ، على ،
صدق النبي - صلى الله عليه وسلم - فيما يبلغه عن ربه ، ثم وصف - سبحانه -
جبريل - عليه السلام - وهو أمين الوحي ، بصفات تدل على قوته وشدته ، وعلى
أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قد رآه على هيئته التي خلقه الله عليها .

قال - تعالى - : والنجم إذا هوى . ما ضل صاحبكم وما غوى . وما يتطق
عن الهوى . إن هو إلا وحي يوحى . عليه شديد القوى . ذو مرة فاستوى .
وهو بالأفق الأعلى . ثم دنا فتدلى . فكان قاب قوسين أو أدنى

٤ - ثم أنتقلت السورة الكريمة بعد ذلك إلى الحديث عن الآلهة المزعومة
فبينت أن هذه الآلهة إنما هي أسماء أطلقها الجاهلون عليها ، دون أن يكون لها
أدنى نصيب من الصحة ، وأن العبادة إنما تكون لله - تعالى - وحده .

قال - سبحانه - : « أفأرأيتم اللات والعزى . ومناة الثالثة الأخرى . ألكم
الذكر وله الأنثى . تلك إذا قسمة ضيزى . إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم
وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان . . . »

٥ - ثم أرشد الله - تعالى - رسوله - صلى الله عليه وسلم - إلى الطريق
الحكيم الذي يجب عليه أن يسلكه في دعوته ، وسلاه عما لحقه من المشركين
من أذى ، فقال - سبحانه - : « فأعرض عن تولى من ذكرنا ولم يرد إلّا الحياة
الدنيا ، ذلك مبلغهم من العلم . إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم
بمن اهتدى »

٦ - وبعد أن ساق - سبحانه - جانباً من مظاهر رحمته بمعباده - الذين
يحتنبون كباثر الإثم والفواحش إلا اللهم ، أتبع ذلك ببيان مظاهر عدله في
خلقه ، وقدرته على كل شيء ، وساق ما يشهد لذلك من أخبار الغابرين المكذبين
الذين لا يخفى حالهم على المشركين المعاصرين للنبي - صلى الله عليه وسلم - ، وأندر
هؤلاء المشركين بسوء المصير ، إذ أُلحِمَ يعودوا إلى الحق ، ويكفوا عن جحودهم
وعنادهم

قال - تعالى - : هذا نذير من النذر الأولى . أذفت الازفة . ليس لها من دون الله كاشفة . أفن هذا الحديث تعجبون . وتضحكون ولا تبكون . وأنتم سامدون . فاسجدوا لله واعبدوا .

٧ - هذا ، والمتأمل في هذه السورة السكرية يراها بجانب إقامتها الأدلة الساطعة على وحدانية الله - تعالى - ، وعلى صدق النبي - صلى الله عليه وسلم - فيما يبلّغه عن ربه - يراها بجانب ذلك قد سافت ماساقت من براهين واضحة . ومن قوجيات حكيمة بأسلوب بليغ أخاذ ، له لفظه المنتقى ، ومعناه السديد ، وتراكيبه الموزونة وزنا بديعا . . . مما يشهد بأن هذا القرآن من عند الله ، ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا .

نسأل الله - تعالى - أن يجعل القرآن ربيع حياتنا ، وأنس نفوسنا ، وصلى الله على سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه وسلم ؟

د. محمد سيد طنطاوى

دولة قطر - الدوحة

عميد كلية الدراسات الإسلامية والعربية
جامعة الأزهر

مساء السبت ١٤٠٦/٦/٢٠ هـ
١٩٨٦/٣/١ م

التفسير

قال الله - تعالى - والنَّجْمُ إِذَا هَوَى (١) مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ
 مَا غَوَى (٢) وَمَا يُنطِقُ هَنِ الْهَوَى (٣) إِنَّ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى (٤)
 هَلُمُّهُ شَدِيدُ الْقُوَى (٥) ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى (٦) وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى (٧)
 ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى (٨) فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى (٩) فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ
 مَا أَوْحَى (١٠) مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى (١١) أَفَتَمَارُونَهُ عَلَى
 مَا يَرَى (١٢) وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى (١٣) عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى (١٤)
 حِينَئِذٍ تَجَنُّهُ الْمُسَاوَى (١٥) إِذْ يَنْفُشِي السَّدْرَةُ مَا يَنْفُشِي (١٦) مَا زَاغَ
 الْبَصَرُ .

افتتح الله - تعالى - هذه السورة بهذا القسم العظيم ، للدلالة على صدق
 رسوله - صلى الله عليه وسلم - ، وللرد على أولئك المشركين الجاهلين ، الذين
 زعموا أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قد اختلق القرآن الكريم .

والنجم : هو الكوكب الذي يبدو للناظرين ، لأمعا في جو السماء ليلا .
 والمراد به هنا : جنسه ، أى : ما يشمل كل نجم بازغ في السماء ، قال فيه
 للجنس .

وقيل أل فيه للعهد والمراد به نجم مخصوص هو : الشعرى ، وهو نجم كان
 معروفا عند العرب ، وقد جاء الحديث عنه في آخر السورة ، في قوله - تعالى - :
 « وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشَّعْرَى » ، قالوا : وكانت قبيلة خزاعة تعبد .

وقيل المراد به : الثريا ، فإنه من النجوم المشهورة عند العرب . . .

وقيل : المراد به هنا : المقدار النازل من القرآن على النبي - صلى الله عليه وسلم - ، وجمعه نجوم ، وقد فسر بعضهم بذلك في قوله - تعالى - : « فلا أقسم بمواقع النجوم . . . » .

ومعنى « هوى » : سقط وغرب . يقال هوى الشيء يهوى - بكسر الواو - هوى - هوىا - بضم الهاء - وفتحها - إذا سقط من أعلى إلى أسفل . .

قال الألوسي : وأظهر الأقوال ، القول بأن المراد بالنجم ، جنس النجم المعروف ، فإن أصله اسم جنس لكل كوكب . وعلى القول بالتحديد ، فلا يظهر القول بأنه الثريا . ووراء هذين القولين ، القول بأن المراد به : المقدار النازل من القرآن . . .^(١)

وقوله - سبحانه - : « ما ضل صاحبكم وما غوى » وما ينطق عن الهوى . . جواب القسم .

و « ما » نافية . و « ضل » من الضلال ، والمراد به هنا : عدم الاهتداء إلى الحق ، وإلى الطريق المستقيم .

و « غوى » من الغي ، وهو الجهل الناشئ عن اعتقاد فاسد ، وهو ضد الرشd .

و « الهوى » الميل مع شهوات النفس ، دون التقيد بما يقتضيه الحق ، أو العقل السليم .

والمعنى : وحق النجم الذي تروفه بأهينكم - أيها المشركون - عند غروبه وأفوله ، وعند رجوعه للشماتين . . . إن محمدا - صلى الله عليه وسلم - الذي أرسلناه إليكم شاهدا ومبشرا ونذيرا ، ما ضل عن طريق الحق في أقواله وأفعاله ، وما كان رأيه مجانباً للصواب في أمر من الأمور ،

وما ينطق بنطق صادر عن هوى نفسه ورأيه ، وإنما ينطق بما نوحيه إليه من قرآن كريم ، ومن قول حكيم ، ومن توجيه شديد .

وقد أقسم - سبحانه - بالنجم عند غروبه ، للإشعار بأن هذا المخلوق العظيم مستخر لإرادة الله - تعالى - وقدرته ، فهو مع لمعانه وظهوره في السماء - لا يتأهب من الغروب والأفوال ، إذا ما أراد الله - تعالى - له ذلك ، ولا يصلح أن يكون إلها ، لأنه خاضع لإرادة خالقه .

ولقد حكى - سبحانه - عن نبيه إبراهيم أنه حين دجن عليه الليل رأى كوكبا قال هذا ربي ، فلما أفل قال لا أحب الآفلين . .

قال بعض العلماء : والوجه أن يكون قوله : « إذا هوى » بدل اشتغال من النجم ، لأن المراد من النجم أحواله الدالة على قدرة خالقه ومصرفه ، ومن أعظم أحواله ، حال هويته وسقوطه ، ويكون « إذا » اسم زمان مجردا عن معنى الظرفية ، في محل جر بحرف القسم ... ، (١) .

وقال - سبحانه - « صاحبكم » للإشارة إلى ملازمته - صلى الله عليه وسلم - لهم ، طوال أربعين سنة قبل البعثة ، وأنهم في تلك المدة الطويلة لم يشاهدوا منه إلا الصدق ، والأمانة ، والعقل الراجح ، والقول السديد ... وأنهم لم يخفد عليهم حاله ، بل كانوا مصاحبين له ، ومطلعين على سلوكه بينهم ، فقولهم بعد بعثته - صلى الله عليه وسلم - إنه ساحر أو مجنون ... هو نوع من كذبهم البين ، وجهلهم المطبق

وقوله : « إن هو إلا وحي يوحى » استئناف بياني مؤكد لما قبله .

والضمير (هو) يعود إلى المنطوق به ، المفهوم من قوله - تعالى - « وما ينطق عن الهوى » .

(١) تفسير التحرير والتنوير ج ٢٧ ص ٩٠ للشيخ محمد الطاهر بن عاشور .

أى : إن الرسول - صلى الله عليه وسلم - لا يصدر نطقه فيما يأتيكم به عن هوى نفسه ورأيه ، وإنما الذى ينطق به ، هو وحى من الله - تعالى - أوحاه إليه على سبيل الحقيقة التى لا يحوم حولها شك أو ريب .

ومتعلق بـ يوحى ، محذوف للعلم به . أى : ما هذا الذى ينطق به إلا وحى أوحاه - سبحانه - إلى نبيكم - صلى الله عليه وسلم - .

قال الإمام ابن كثير : قوله : إن هو إلا وحى يوحى ، أى : إنما يقول ما أمر بتبليغه إلى الناس كاملاً موفوراً من غير زيادة ولا نقصان فعن عبد الله بن عمر قال : كنت أكتب كل شئ أسمعه من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أريد حفظه ، فنهتني قريش فقالوا : إنك تكتب كل شئ تسمعه من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ، ورسول الله - صلى الله عليه وسلم - بشر يتكلم فى الغضب ، فأمسكت عن الكتابة ، فذكرت ذلك له فقال : « أكتب فوالذى نفسى بيده ، ماخرج منى إلا الحق » .

وعن أبى هريرة أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : « لا أقول إلا حقا » . فقال بعض أصحابه : فإنك تداعبنا يا رسول الله ؟ قال : « لا نى لا أقول إلا حقا » (١) .

وقال صاحب الكشف : ويحتج بهذه الآية من لا يرى الاجتهاد الأنبياء ويحاج بأن الله - تعالى - إذا سوغ لهم الاجتهاد ، كان الاجتهاد وما يستند إليه كله وحياً لا نطقاً عن الهوى ، (٢) .

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك جانباً من صفات جبريل - عليه السلام - الذى ينزل بالقرآن على النبي - صلى الله عليه وسلم - فقال : « عليه شديد القوى » .

(١) راجع تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٢٤٧

(٢) تفسير الكشف ج ٤ ص ٢٨

أى : علم النبى - صلى الله عليه وسلم - القرآن ، ملك من ملائكتنا الكرام ، وهو جبريل - عليه السلام - الذى أعطيناه قوة شديدة ، استطاع بها أن ينفذ ما كلفناه بتنفيذه .

والضمير المنصوب فى « عليه » هو المفعول الأول ، والثانى محذوف أى : القرآن ، لأن علم تتمدى إلى مفعولين .

وقوله : « شديد القوى » : صفة لموصوف محذوف . أى : ملك شديد القوى .

قالوا : وقد بلغ من شدة قوته ، أنه اقتلع قرى قوم لوط - عليه السلام - ثم رفعها إلى السماء ، ثم قلبها ، بأن جعل أعلاها أسفلها
وقوله - تعالى - : « ذو مرة فاستوى » صفة أخرى من صفات جبريل - عليه السلام - .

والمرة - بكسر الميم - تطلق على قوة الذات ، وحصافة العقل ورجاحته ، مأخوذ من أمرت الحبل ، إذا أحكمت قتله ...

وشبيه بهانين الايتين قوله تعالى - : « إنه لقول رسول كريم . ذى قوة عند ذى العرش مكين . مطاع ثم أمين ... » ،

وقوله : « فاستوى » أى : فاستقام على صورة ذاته الحقيقية ، دون الصورة الادمية التى كان ينزل بها على الرسول - صلى الله عليه وسلم - .

« وهو بالافق العليا » أى : وهو - أى جبريل - بالجهة العليا من السماء المقابلة للناظر إليها « ثم دنا فتدلى » أى : ثم قرب جبريل - عليه السلام - من النبى - صلى الله عليه وسلم - ، فتدلى ، أى : فانخفض من أعلى إلى أسفل ...

وأصل التدلى : أن ينزل الشئ من طبقته إلى ما تحتها ، حتى أسكانه معلق فى الهواء ، ومنه قولهم : تدلت الثمرة إذا صارت معلقة فى الهواء من أعلى إلى أسفل .

ثم صور - سبحانه شدة - قرب جبريل من النبي - صلى الله عليه وسلم - فقال : « فكان قاب قوسين أو أدنى ، والقاب : المقدار المعين . وقيل : هو ما بين وتر القوس ومقبضها ... »

والقوس : آلة معروفة عند العرب ، يشدها وتر من جلد ، وتستعمل في الرمي بالسهم .

وكان من عادة العرب في الجاهلية ، أنهم إذا تحالفوا ، يخرجون قوسين ، ويلصقون إحداهما بالأخرى ، فيكون قاب إحداهما ملاصقا للآخر ، حتى يسكنهما قاب واحد ، ثم ينزعونهما معا ويرهون بهما سهما واحداً ، فيكون ذلك ، دليلاً على التحالف التام ، والرضا الكامل ... »

والمعنى : أن جبريل - عليه السلام - بعد أن كان بالجهة العليا من السماء ، ثم قرب من النبي - صلى الله عليه وسلم - ، ثم زاد في القرب ، حتى كان على مقدار مسافة قوسين منه - صلى الله عليه وسلم - ، أو أقرب من ذلك .

قال صاحب الكشف : قوله : « قاب قوسين » مقدار قوسين ، مقدار قوسين عربيتين ، والقاب والقيب ، والقاد والقيد ، المقدار ... وقد جاء التقدير بالقوس ، والرمح ، والسوط ، والذراع ، والباع ، والخطوة ، والشبر ... ومنه الحديث الشريف : لقاب قوس أحدكم من الجنة ، وموضع قدمه ، خير من الدنيا وما فيها ، والقدر : السوط ... »

فإن قلت : كيف تقدير قوله « فكان قاب قوسين » ؟ قلت : تقديره فكان مقدار مسافة قربه مثل قاب قوسين ، لحذفت هذه المضافات ... (١) و « أو » ، في قوله « أو أدنى » ، للشك ، ولكن هذا الشك من جهة العباد ، أي : أن الرائي إذا رأى هذا الوضع قال : هو قاب قوسين أو أقرب من ذلك . ويصح أن تكون بمعنى (بل) .

قال الجمل : قوله : (أو أدنى) هذه الآية كقوله : ، وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون ، . لأن المعنى : فكان - جبريل - بأحد هذين المقدارين في رأى الرأتى . أى : لتقارب ما بينهما يشك الرأتى في ذلك .

وأدنى : أفعل تفضيل . والمفضل عليه عذوف . أى : أو أدنى من قاب قوسين .

ويصح أن تكون بمعنى بل ، أى : بل هو أدنى ... ، (١) .

وقوله : د فأوحى إلى عبده ما أوحى ، أى : فأوحى جبريل - عليه السلام - إلى عبد الله رسوله محمد - صلى الله عليه وسلم - ما أوحى من قرآن كريم ، ومن هدى حكيم .

فالضمير في قوله : د فأوحى ، يعود إلى جبريل ، لأن الحديث في شأنه ، وإيحائه إنما هو بأمر الله - تعالى - ومشيبته ويرى بعضهم أنه يعود إلى الله - تعالى .

قال الألوسى : قوله : د فأوحى ، أى : جبريل - إلى عبده ، أى : عبد الله ، وهو النبي - صلى الله عليه وسلم - ، والإيضاح - ولم يحمله - تعالى - ذكر - لكونه في غاية الظهور ، ومثله كثير في الكلام ، ومنه : د ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا مترك على ظهرها من دابة ... ،

د ما أوحى ، أى : الذى أوحاه ، والضمير المستتر لجبريل - أيضا -
وقيل : الضمير المستتر لله - تعالى . - . أى : أوحى جبريل إلى عبد الله ، ما أوحاه الله إلى جبريل .

والأول مروى عن الحسن ، وهو الأحسن .

وقيل : ضمير أوحى الأول والثانى لله - تعالى - والمراد بالعبد جبريل - عليه السلام - وهو كما ترى ، (٢) .

(١) حاشية الجمل على الجلالين > ٤ ص ٢٢٥

(٢) تفسير الألوسى > ٢٧ ص ٤٩

وأبهم - سبحانه - ما أوحاه ، لتفخيم شأنه ، وإعلاء قدره ، حتى ليكأنه لا تحيط به عبارة ، ولا يحده الوصف ، وشبهه بهذا التعبير قوله - تعالى - :
 « فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ ، فَنَفَثْهُمْ مِنْ أَلَيْمٍ مَا غَشِيَهُمْ » . . . (١)

وعبر - سبحانه - عن رسوله - صلى الله عليه وسلم - بعبده ، وأضافه إليه ، للتشريف والتكريم ، وليبين أنه عبد من عباده - تعالى - الذين اصطفاهم لحمل رسالته ، وتبليغ ما أوحاه إليه .

وقوله : « ما كذب الفؤاد ما رأى » ، رد على المشركين ، وتكذيب لهم ، فيما زعموه من أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - لم يتلق الوحي عن جبريل ، ولم يشاهده .

واللام في قوله « الفؤاد » ، عوض عن المضاف إليه ، والفؤاد : العقل أو القلب ، ومنه قوله - تعالى - « وأصبح فؤاد أم موسى فارغا إن كادت لتبدي به . . . » (٢)

وقراءة الجمهور « كذب » ، بفتح الذال مع التخفيف . وقرأ ابن عامر بفتحها مع التشديد . و « ما » موصولة ، والعائد محذوف .

أى : ما كذب فؤاد النبي - صلى الله عليه وسلم - وما أنكر ، الذي رآه يبصره من صورة جبريل - عليه السلام - لأنه لم يكن يحمله ، بل كان معروفا لديه ، وصاحب الوحي إليه ، فهو - صلى الله عليه وسلم - عرفه بقلبه ، وتأكدت هذه المعرفة برؤيته له بعينه .

فالكذب هنا : بمعنى الإنكار والتردد والشك في صحة ما يراه .

قال صاحب الكشف : قوله : « ما كذب الفؤاد ما رأى » ، أى : ما كذب فؤاد النبي - صلى الله عليه وسلم - ما رآه يبصره من صورة جبريل - عليه السلام - .

(١) سورة طه . الآية ٧٨

(٢) سورة القصص الآية ١٠

أى : ما قال فؤاده لما رآه لم أعرفك ، ولو قال ذلك - على سبيل الفرض - لكان كاذبا لأنه عرفه . يعنى أنه رآه بعينه ، وعرفه بقلبه ، ولم يشك فى أن ما رآه حق ، وقرئ : ما كذب ، - بالتشديد - ، أى : صدقه ولم يشك أنه جبريل بصورته ، (١) .

ثم وبخ - سبحانه - المشركين على تكذيبهم للنبي - صلى الله عليه وسلم - فيما يخبرهم عنه من شئون الوحي ، فقال : « أقيموا له على ما يرى ، » .

والمماراة : المجادلة والملاحاة بالباطل . يقال : مارى فلان فلانا مماراة ومرآه ، إذا جادله ، مأخوذ من مرى الناقة يمرىها ، إذا مسح ضرعها ليستدر لبنها ، وبأخذه كاملا فشبه الجدال بذلك ، لأن كل واحد من المتجادلين يمرى ماعنقه صاحبه ، أى : يسعى لاستخراج كل ماعنده ، حتى يقيم الحجة عليه . وعدى الفعل بعلى لتضمنه معنى المغالبة .

أى : أفتجادلون نبينا محمدا - صلى الله عليه وسلم - فيما رآه بعينه ، وتجادلونه فى شئ - هو تحقق منه بعقله وبصره - وهو ملاقاته ورؤيته لأمين وحينا جبريل - عليه السلام - ؟ إن مجادلتكم له فى ذلك ، هى من قبيل التعنت الواضح ، والجهل الفاضح ، لأنكم كذبتموه وجادلتموه فى شئ - هو قد رآه وتحقق منه . وأنتم تعلمون أنه صادق أمين .

فالمقصود بالاستفهام تبكيههم وتجهيلهم على جدالهم بالباطل .

هذا . وقد ذكر العلماء ، أن هذه الآيات ، تشير إلى رؤية النبي - صلى الله عليه وسلم - لجبريل ، على الهيئة التى خلقه الله - تعالى - عليها ، فقد كان جبريل يأتى النبي - صلى الله عليه وسلم - فى صورة آدمي ، فسأله أن يريه نفسه على صورته التى خلق عليها ، فأراه نفسه مرتين . مرة فى الأرض وهى التى تشير إليها هذه الآيات ، ومرة فى السماء ، وهى التى تشير إليها الآيات التالية .

وقد توسع الإمام ابن كثير في ذكر الأحاديث التي وردت في ذلك. فقال ما ملخصه :

عن عبدة بن مسعود ، أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لم ير جبريل في صورته إلا مرتين ، أما واحدة فإنه سأله أن يراه في صورته ، فسد الأفق ، وأما الثانية فإنه كان معه حيث صعد (١) .

وقوله - سبحانه - : : ولقد رآه نزلة أخرى . . ، إشارة إلى المرة الثانية التي رأى فيها الرسول - صلى الله عليه وسلم - جبريل على هيئته التي خلقه الله تعالى - عليها ، وكان ذلك في ليلة الإسراء والمعراج .

أي : والله لقد رأى محمد - صلى الله عليه وسلم - جبريل في صورته التي خلق عليها ، حالة كونه نازلاً من السماء نزلة أخرى .

وقد جاء الإخبار عن هذه الرؤية بصيغة مؤكدة لام القسم وبقد . . . للرد على المشركين الذين أنكروا ذلك ، فكأنه - سبحانه - يقول لهم : لئن كنتم قد أنكروتم هذه الرؤية في الأرض ، فإنه - صلى الله عليه وسلم - لم يره في الأرض فقط ، بل رآه رؤية أعظم من ذلك ، وهي رؤيته له في السماء ، حين كان مصاحباً له في رحلته ليلة الإسراء والمعراج .

قال الألوسي : : ولقد رآه نزلة أخرى ، أي : رأى النبي - صلى الله عليه وسلم - جبريل في صورته التي خلقه الله عليه . نزلة أخرى ، أي : مرة أخرى وهي فعلة من النزول ، أقيمت مقام المدة ، ونصبت نصبها على الظرفية ، لأن أصل المرة مصدر مرّ يمر ، ولشدة اتصال الفعل بالزمان يعبر به عنه .

ولم يقل مرة بدل نزلة ليفيد أن الرؤية في هذه المرة ، كانت بنزول ودنو ، كالرؤية في المرة الأولى ، الدال عليها ما مر

والمراد من الجملة القسمية ، نفي الريبة والشك عن المرة الأخيرة ، وكانت ليلة الإسراء^(١) .

وقوله : « عند سدرة المنتهى » ، يبان المكان الذى تمت عنده الرؤية الثانية .

والسدرة فى الأصل : تطلق على شجرة النبق . وهو ثمر معروف فى بلاد العرب .

والمنتهى : اسم مكان ، أو مصدر ميمى بمعنى الانتهاء . وإضافة السدرة إليه من باب إضافة الشيء إلى مكانه ، كما فى قولهم : أشجار البستان . أو من إضافة المحل إلى الحال ، كما فى قولك : كتاب الفقه أو الفحوى ...

وسمى هذا المكان بسدرة المنتهى ، لانتهاء علوم الخلائق عنده ، وماوراءه لا يعلمه إلا الله - تعالى - :

أخرج الإمام أحمد عن عبد الله بن مسعود قال : لما أسرى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ، انتهى به إلى سدرة المنتهى ، وهى فى السماء السابعة وإليها ينتهى ما يهرج من الأرض فيقبض منها . وإليها ينتهى ما يهبط من فوقها فيقبض منها ،^(٢) .

ثم بين - سبحانه - ما يدل على شرف هذا المكان فقال : « عندها جنة المأوى » .

أى : عند سدرة المنتهى ، جنة المأوى . أى : الجنة التى تأوى وتسكن إليها أرواح المؤمنين الصادقين ، الذين رضى الله عنهم ورضوا عنه .

ثم فوه - سبحانه - بما يحيط بذلك المسكان من جلال وجمال لا تحيط

(١) تفسير الألوسى ج ٢٧ ص ٥٠ .

(٢) تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٢٥٢ .

العبارة بوصفه فقال : « إذ يغشى السدرة ما يغشى » .

والظرف « إذ » في موضع الحال من « سدرة المنتهى » ، لقصد الإشادة بما أحاط بذلك المسكان من شرف وبها . . . أو هو متعلق بقوله : « رآه » .

أى : « ولقد رأى محمد - صلى الله عليه وسلم - جبريل - عليه السلام - على هيئته التي خلقه الله عليها مرة أخرى ، عند ذلك المسكان الجليل المسمى بسدرة المنتهى ، حالة كون هذا المسكان ينزل به ما ينزل ، وبغشاء ما يغشاء من الفيوضات الربانية ، والأفوار القدسية ، والخيرات التي لا يحيط بها الوصف . . .

فهذا الإبهام في قوله « ما يغشى » المقصود به التحويل والتعظيم والتكثير ، لما يغشى هذا المسكان من خيرات وبركات . . .

وقوله - تعالى - : « ما زاغ البصر وما طغى » بيان لما كان عليه النبي - صلى الله عليه وسلم - من ثبات واطمئنان عند رؤيته لما أذن الله - تعالى - له في رؤيته .

والزيف : هو الميل عن حدود الاستقامة . والطفیان : تجاوز الحدود المشروعة .

أى : ما مال بصر النبي - صلى الله عليه وسلم - عما أذن الله - تعالى - له في رؤيته . وما تجاوزه إلى ما لم يؤذن له في رؤيته ، بل كان بصره - صلى الله عليه وسلم - منصبا على ما أبيع له النظر إليه .

فالمقصود من الآية السكريمة ، الثناء على النبي - صلى الله عليه وسلم - ، ووصفه بما هو أهله من أدب وطاعة لخالفه - عز وجل - .

قال ابن كثير : قوله : « ما زاغ البصر وما طغى » ، قال ابن عباس : ما ذهب

يعينا ولا شمالا ، وما جاوز ما أمر به ، وهذه صفة عظيمة في الثبات والطاعة ، فإنه ما فعل إلا ما أمر به . ولا سأل فوق ما أعطى ، وما أحسن قول القائل :

رأى جنة المأوى وما فوقها ولو رأى غيره ما قد رآه لناها (١)

ثم عظم - سبحانه - من شأن ما أراه لنبيه - صلى الله عليه وسلم - فقال :
لقد رأى من آيات ربه الكبرى . .

والكلام جواب لقسم محذوف ، والآيات جمع آية ، والمراد بها العجائب التي أطلع الله - تعالى - عليها نبيه - صلى الله عليه وسلم - في تلك الليلة ، وهي ليلة الإسراء والمعراج .

والكبرى : صفة لهذه الآيات ، وحذف المرنى : لتفخيم أمره وتعظيمه .
أى : والله لقد رأى محمد - صلى الله عليه وسلم - في تلك الليلة أمورا عظيمة لا يحيط بها الوصف ، وقد أكرمناه برؤيتها بيزداد يقينا على يقينه ، وثباتا على ثباته ، وقوة على قوته في تبليغ رسالتنا ، وحمل أمانتنا .

هذا ، وقد جرينا في تفسيرنا لهذه الآيات على رأى الذى سار عليه المحققون من العلماء وهو أن هذه الآيات تحكى رؤيه النبي - صلى الله عليه وسلم - لجبريل مرتين ، كما سبق أن بينا وأن الضمائر في تلك الآيات منها ما يرجع إلى جبريل ، ومنها ما يرجع إلى الله - عز وجل - .

وقد أعدنا كل ضمير إلى مرجعه الذى نراه مناسبا للمقام . . .

فتلا : الضمير المنصوب في قوله - تعالى - : . . ولقد رآه نزلة أخرى ، قلنا : إنه يعود إلى جبريل .

أى : أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - رأى جبريل على هيئته التي

خلقه الله عليها مرة أخرى ، غير المرة الأولى التي كانت في أوائل بعثته - صلى الله عليه وسلم - .

ولكن بعض المفسرين يرون أن مرجع الضمير في هذه الآية وغيرها ، يعود إلى الله - تعالى - ، ويستدلون بذلك على أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - رأى ربه .

وقد فصل القول في هذه المسألة الإمام الألوسي فقال مالمخصه : فالضمان في « دنا وتدلى وأوحى » . . . وكذا الضمير المنصوب في « رآه » - لله - عز وجل - . . .

واستدل بذلك مثبتو رؤية النبي - صلى الله عليه وسلم - لله - عز وجل - كابن عباس وغيره . . .

وخالفت في ذلك عائشة - رضي الله عنها - ، فقد أخرج مسلم عن مسروق قال : كنت عند عائشة فقالت : ثلاث من تكلم بإحدى منهن ، فقد أعظم على الله - تعالى - الفرية .

قلت ماهن ؟ قالت : - من زعم أن محمدا يعلم الغيب فقد كذب ، ومن زعم أن محمدا كتم شيئا فقد كذب - ومن زعم أن محمدا رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية . فقلت : يا أم المؤمنين : ألم يقل الله - تعالى - : « واقد رآه نزلة أخرى ، ؟ »

فقالت : أنا أول من سأل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عن ذلك فقال : لا ، إنما هو جبريل ، لم أره على صورته التي خلق عليها سوى هاتين المرتين . رأيته منهبطا من السماء سادا ما بين السماء إلى الأرض ، .

ثم قال الألوسي : ولا يخفى أن جواب الرسول - صلى الله عليه وسلم - على عائشة ، ظاهر في أن الضمير المنصوب في « رآه » ليس راجعا إليه - تعالى - ، بل إلى جبريل - عليه السلام . . . (١) .

(١) راجع تفسير الألوسي ج ٢٧ ص ٥٢ . وابن كثير ج ٤ ص ٢٤٨ وما بعدها .

والمشامل في هذه الآيات الكريمة يراها ترد على المشركين مزاعمهم ،
بأبلغ أسلوب ، وأقوى بيان ، وثبت أن هذا القرآن ، قد بلغه الرسول - صلى
الله عليه وسلم - عن جبريل - عليه السلام - دون أن يزيد فيه شيئاً ، أو ينقص
منه شيئاً ، وأنه - سبحانه - قد أعطى نبيه - صلى الله عليه وسلم - من المعجزات ،
ومن الخيرات والبركات ... ما لم يعط غيره .

* * *

وبعد هذا التصوير البديع لما كان عليه النبي - صلى الله عليه وسلم - من
حق واضح ، ومن تكريم عظيم ، ومن طاعة تامة لخالفه عز وجل - بعد كل
ذلك أخذت السورة الكريمة ، في تصوير ما عليه المشركون من باطل وجمل
وفى نبيكيتهم على عبادتهم لأصنام لا تسمع ولا تبصر ، ولا تملك الدفاع عن
نفسها فضلاً عن غيرها ... فقال - تعالى - :

« أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ (١٩) وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ (٢٠) أَلَكُمُ
اللَّهُ كُرْهُهُ الْأُنثَىٰ (٢١) إِذَا قُسِمَتْ بِهِ الْأَسْمَاءُ
سُمِّيَتْ بِهَا وَإِنَّهُمْ وَآبَاؤُهُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ ، إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا
الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ ، وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَىٰ (٢٢) أَمْ
لِلْإِنْسَانِ مَا تَنْهَىٰ (٢٣) فَاللَّهُ الْآخِرَةُ وَالْأُولَىٰ (٢٤) وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي
السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ
وَيَرْضَىٰ (٢٥) إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةً
الْأُنثَىٰ (٢٦) وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ ، إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ ، وَإِنَّ الظَّنَّ
لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً (٢٧) » .

والهمزة في قوله : « أفرأيت » ، للإنكار والتهكم ، والفاء لترتيب الرؤية على ما سبق ذكره من صفات جليلة لله — تعالى — تدل على وحدانيته ، وكمال قدرته ، ومن ثناء على النبي — صلى الله عليه وسلم — وعلى جبريل — عليه السلام — والرؤية هنا ، عليه ومفعولها الثاني محذوف ، لدلالة قوله — سبحانه — .
 . السك المذكور وله الألفي ، عليه .

و د اللات ، إسم لصنم كان لتقيف بالطائف . قال الشاعر :

وفرت تقيف إلى دلاتها بمنقلب الخائب الخاسر

و كان هذا الصنم على هيئة صخرة مربعة ، قد بنوا عليه بناء ، ونقشوا عليه نقوشا ، وكانت قريش وجهور العرب ، يذمونه ويعبدونه ...

و كأنهم قد سموه بهذا الإسم ، على سبيل الاشتقاق من إسم الله — تعالى — فقالوا د اللات ، قصدا للتأنيث ...

و والعزى : فعلسى من العز . وهى إسم لصنم ، وقيل لشجرة حولها بناء وأستار وكانت ، بمكان يقال له نخلة ؛ بين مكة والطائف ؛ وكانت قريش تمظمها ، كما قال أبو سفيان يوم أحد لما العزى ولا عزى لكم .

فقال — صلى الله عليه وسلم — قولوا له : « الله مولانا ولا مولى لكم » ، ولهم قد سموها بذلك ، أخذوا من لفظ العزيز ، أو من لفظ العزيز ، فهى تأنيث الأعر ، كالغضلى والأفضل .

وأما دمنة ، فكانت صخرة ضخمة ، بمكان يقال له المنبل ، بين مكة والمدينة . وكانت قبة خراطة والأوس والخزرج فى جاهليتهم يعلمونها ، ويهلون منها للحج إلى الكعبة .

قالوا : وسميت بهذا الاسم ، لأن ماء الذبائح كانت تُسمى عندها . أى : تراق وتسكب .

والمعنى : لقد ذكرنا لكم - أيها المشركون - ما يدل على وحدانيتنا ،
وكمال قدرتنا ، وسمو منزلة نبينا - صلى الله عليه وسلم - ... فأخبروني بعد
ذلك ما شأن هذه الأصنام التي لاتضر ولا تنفع ، كالمالات والعزى ومناة
الثالثة الأخرى ، إنها أشياء في غاية الحقايرة والعجز ، فكيف سويتهم بينها وبين
الخالق عز وجل - في العبادة ، وكيف أبحتهم لأنفسكم تعظيمها ، وزعمتم
إنها بنات الله ... ؟

فالمقصود بالاستفهام التعجيب من أحوالهم ، والتجھيل لعقولهم .

ويصح أن تكون الرؤية في قوله سبحانه - « أفرايتم ، بصرية ،
فلا تحتاج إلا لمفعول واحد .

أى : أنظروا بأعينكم إلى تلك الأصنام ، التي من أشهرها : اللات والعزى
ومناة الثالثة الأخرى ، أنرونها تلك الدفاعة عن نفسها فضلا عن غيرها ؟ إنها
لا تملك شيئا ، فكيف عظمتموها مع حقارتها وعجزها ؟

والاستفهام - أيضا - للتمكيم بهم ، والتعجيب من تفكيرهم السقيم .

قال الألوسى : والظاهر أن ، الثالثة الأخرى ، صفتان لمناة . وهما على
ما قيل للتأكد ..

وقال بعض الأجلة : الثالثة للتأكيد . و ، الأخرى ، للذم بأنها متأخرة في
الرتبة ، وضئعة المقدار ...

والكلام خطاب لعنده هذه المذكورات ، وقد كانوا مع عبادتهم لها
يقولون : إن الملائكة - عليهم السلام - وتلك المعبودات الباطلة ، بنات الله .
- تعالى - عن ذلك علوا كبيرا فقليل لهم توبيخا وتبكيثا : « أفرايتم اللات
والعزى .. » الخ (١)

وقوله - سبحانه - : **ألكم الذكر وله الأنثى** . تلك إذا قسمة ضيزى ،
توبيخ آخر لهم على جهلهم ، وبيان لسبب التوبيخ والنهك ...

ولفظ **ضيزى** ، بمعنى جائرة وظالمة . يقال ضاز فلان في حكمه ، إذا جار
وظلم ، ولم يراع القسط في آخر أقواله . ويقال : ضاز فلان فلانا حقه ، إذا
بخسه ونقصه ..

قال الجمل ما ملخصه : قرأ الجمهور **ضيزى** ، من ضازه بضيزه إذا جار
عليه ، فعنى **ضيزى** ، جائرة . وعلى هذا فتحتمل وجهين : أحدهما أن تكون
صفة على **فعل** ، - بضم الفاء - ، وإنما كسرت الفاء لتصح الياء كبيض - جمع
أبيض ...

وثانيهما : أن تكون من ضازه بالهمز كقراءة ابن كثير ، إلا أن الهمزة
قد خففت ... ومعنى ضازه بضازه : نقصه ... (١)

أى : **أجعلتم لله - تعالى - البنات** ، وجعلتم لأنفسكم البنين ، مع تفضيلكم
للبنين على البنات ، ومع إعترافكم بأن الله - تعالى - هو الخالق لكم ولكل شيء .
إن فعلكم هذا هو في غاية الجور والظلم ، لأنكم نسبتم إلى الله - تعالى -
وهو خالفكم ما استنكفتم من نسبته إلى أنفسكم ...

فأنت ترى أنه - سبحانه - لم يسكتف بوصفهم بالكفر ، بل أضاف إلى
ذلك وصفهم بالجور والحق وإنطلاس البصيرة .

وجملة : **تلك إذا قسمة ضيزى** ، تعليل للإنكار والتوبيخ المستفاد من
الاستفهام في قوله : **ألكم الذكر وله الأنثى** .

وقدم - سبحانه - الجار والمجرور في قوله : **ألكم** ... لإفادة التخصيص
والإشارة بتلك تعود إلى القسمة المفهومة من قوله : **ألكم الذكر وله الأنثى** .

و « إذا ، فى قوله : « تلك إذا ... » ، حرف جواب . أى : إن كان الأمر كما زعمتم ، فقسمتكم إذا قسمة جائرة ظالمة .

ثم بين لهم - سبحانه - وجه الحق فى هذه الأصنام فقال : « إن هى إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ، ما أنزل الله بها من سلطان ... » ،

أى : ما هذه الأصنام التى عبدتموها من دون الله ، أو توهمتم أنها تشفع لكم عنده - تعالى - ، ما هى إلا أسماء عضة ، ليس فيها شئ أصلاً من صفات الألوهية ، وأنتم وآباؤكم سميتموها آله من تلقاء أنفسكم ، دون أن يكون معكم على هذه التسمية شئ من الحجة أو الدليل أو البرهان ...

فالضمير « هى » ، يعود إلى اللات والعزى ومناة وغيرها من الآلهة الباطلة والمراد بقوله : « أسماء » : أنها ليس لها من الألوهية التى أنبتوها لها سوى إسمها ، وأما معناها وحقيقتها فهى أبعد ما تكون عن ذلك ...

وجملة « سميتموها » صفة للأسماء ، والهاء هى المفعول الثانى ، والمفعول الأول محذوف . والتقدير : إن هى إلا أسماء سميتموها الأصنام ، أى : سميتم بها الأصنام .

والمراد بالسلطان : الحجة والدليل . والمراد بالانزال : الاخبار بأنها آله و « من » ، مزيدة لتوكيد عدم الانزال على سبيل انقطع والبت .

أى : ما أخبر الله - تعالى - عنها بأنها آله ، بأى لون من ألوان الاخبار ، ولا توجد حجة من الحجج - حتى ولو كانت واهية تشير إلى ألوهيتها ...

ثم يمس - سبحانه - خطايهم بعد ذلك ، ويذرهم فى أوهامهم يعمهون ، ويلتفت بالحديث عنهم حتى كأنهم لا وجود لهم ، فيقول : « إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ... »

أى : ما يتبع هؤلاء الجاهلون فى عبادتهم لتلك الآلهة الباطلة . إلا الظنون

الكاذبة ، وإلا ما نشتميه أنفسهم الأماراة بالسوء ، من تقليد للآباء بدون تفكير أو تدبر ...

فالمراد بالظن هنا : الظن الباطل الذى يقوم على الاعتقاد الفاسد ، كما فى قوله - تعالى - : « إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون ،

والتعريف فى قوله - سبحانه - : « وما تهوى الأنفس ، عوض عن المضاعف إليه . و « ما ، موصولة والعائد محذوف . أى : والذى تهواه أنفسهم التى لمستحوذ عليها الشيطان ... »

وجملة : « ولقد جاءهم من ربهم الهدى ، حالية من فاعل « يتبعون » ، وجىء بها لزيادة التعجيب من حالهم .

أى : هم ما يتبعون إلا الظنون وما تهواه أنفسهم المحجوبة عن الحق ، والحال أنه قد جاء اليهم ، ووصل إلى مسامعهم من ربهم ، ما يهديهم إلى الصواب لو كانوا يعقلون .

وأكد - سبحانه - هذه الجملة بلام القسم وقد ، لتأكيد الخبر ، ولزيادة التعجب من أحوالهم التى بلغت الغاية فى الغرابة ..

والتعبير بقوله : « جاءهم ، يشعر بأن الحق قد وصل اليهم بدون عناء منهم ، ولكنهم مع ذلك رفضوه وأعرضوا عنه .

والتعريف فى لفظ « الهدى » يدل على كماله وسموه . أى : ولقد جاءهم من ربهم الهدى الكامل الذى ينتهى بمن يتبعه إلى الفوز والسعادة .

والمراد به : ما جاء به النبى - صلى الله عليه وسلم - من قرآن كريم ، ومن سنة مطهرة ...

ثم بين - سبحانه - أن شهوات النفس ومطالبها وأمنياتها لا تتحقق إلا فى الاطار الذى يريده الله - تعالى - لها ، فقال : « أم الإنسان ما تمنى . فله الآخرة والأولى ، .

والاستفهام هنا - أيضا - للانكار ؛ وإبطال إتياعهم للظنون ولما تموا أنفسهم ..

أى : إن هؤلاء قد إتيعوا فى ضلالهم وكفرهم الظنون والأوهام ، وما تشتهيه قلوبهم من حب للرياسة ، ومن تقليد للآباء ، ومن تطلع إلى أن هذه الأصنام ستشفع لهم عند الله - تعالى - ...

مع أن وقائع الحياة وشواهد ما اتى يرونها بأعينهم ، تدل دلالة واضحة ، على أنه ليس كل ما يتمناه الإنسان يدركه ، وليس كل ما يريده يتحقق له ... لأن كل شئ ، فى هذه الحياة مرهون بإرادته ومشيئته - سبحانه - ، وهو - عز وجل - صاحب الدار الآخرة ، وصاحب الدار الأولى وهى دار الدنيا ولا يقع فيهما إلا ما يريده ...

فالمقصود من الآيتين السكريميتين ، نفي ما كان يتمناه أولئك المشركون من شفاعة أصنامهم لهم يوم القيامة ، كما حكى عنهم - سبحانه - ذلك فى قوله : وما نعبدكم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ... ،

ونفى ما كانت تطلع اليه نفوس بعضهم ، من نزول القرآن عليه ، أو من إختصاصه بالنبوة .

فقد حكى - سبحانه - عنهم قولهم : « لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم » .

كما أن المقصود بها كذلك ، ترويض النفس البشرية على عدم الجرى وراء ظنونها وأهوائها ، بل عليها أن تتمسك بالحق ، وأن تعتصم بطاعة الله - تعالى - وأن تباشر الأسباب التى شرعها - سبحانه - ، ثم بعد ذلك تترك النتائج له يسيرها كيف يشاء ، فإن له الآخرة والأولى .

وقدم - سبحانه - الجار والمجرور فى قوله : « أم للانسان ما تمنى » ، لإفادة أن هذا الذى هو محط الإنكار ، وأن الانسان العاقل هو الذى لايجرى وراء أميائه ، وإنما هو الذى يسعى إلى تحقيق ما أمره الله - تعالى - به من تكاليف

وقدم - سبحانه - الآخرة على الأولى ، لأنها الأهم ، إذ نعيمها هو الخالد الباقي ، أما شهوات الدنيا وملذاتها ، فهي مهما كثرت ، زائلة فانية .

ثم بين - سبحانه - أن الملائكة - مع سمو منزلهم ، وشدة حرصهم على طاعة الله - تعالى - ، لا يملكون الشفاعة لأحد إلا بإذنه - عز وجل - فقال :
« وكم من ملك في السموات ، لا نفى شفاعتهم شيئاً إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى » .

وكم ، هنا خبرية بمعنى كثير ، وهي في موضع رفع على الابتداء ، وخبرها جملة « لا نفى شفاعتهم ... » ، وهي وإن كانت مفردة لفظاً ، إلا أنها في معنى الجمع ...

أى : وكثير من الملائكة المقربين لدينا في السموات العـ ـ ـ ـ ـ لا نفى شفاعتهم عندنا شيئاً من الأشياء . إلا من بعد أن يأذن الله - تعالى - لهم فيها ، لمن يشاء أن يشفعوا له ، ويرضى - سبحانه - عن هذا المشفوع له .

فآية الكريمة من قبيل ضرب المثل للمشركين ، الذين توهموا أن أصنامهم ستشفع لهم ، وكأنه - سبحانه - يقول لهم : إذا كان الملائكة - مع سمو منزلهم عندنا لا يشفعون إلا بإذننا ، ولمن نرضى عنه ... فكيف وصل بكم الجهل والحق - أيها المشركون - إلى توهم أن أصنامكم - مع خستها وحقارتها - ستشفع لكم عندنا ؟

وقوله : « في السموات ، صفة ، ملك ، والمقصود بهذه الصفة التشريف والتكريم .

وقوله : « شيئاً ، التذكير فيه للتقليل والتعميم . وهو في موقع المفعول المطلق .

أى : لا نفى شفاعتهم شيئاً من الإغناء حتى ولو كانت في غاية القلة ...

وشبيهه بهذه الآية قوله - تعالى - : « ولا تنفع الشفاعة عندك إلا لمن أذن له ... » (١).

وقوله - سبحانه - : « ولا يشفعون إلا لمن ارتضى » . وهم من خشيته مشفقون ، (٢).

وهذه الآيات الكريمة - بجانب تبيينها للكافرين من الحصول على أية شفاعاة ، لأنهم ليسوا بمن رضى الله عنهم - تدعو المؤمنين إلى مواصلة المحافظة على أداء حقوقه - سبحانه - ، لينالوا رضاه عنهم يوم القيامة ، وليكفوا أهلا للحصول على الشفاعاة التي يبتغونها .

ثم عادت السورة إلى ذم الكافرين الذين وصفوا الملائكة بصفات لا تليق بهم . فقال - تعالى - : « إن الذين لا يؤمنون بالآخرة ... ، وما فيها من حساب وجزاء ، ورثواب وعقاب ... »

« يسمون الملائكة تسمية الأنثى ، أى : ليصفون الملائكة بوصف الإناث فيقولون : الملائكة بنات الله ، كما قال - تعالى - : « وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا أشهدوا خلقهم ، ستكتب شهادتهم ويسألون » (٣).

ولفظ « الملائكة » هنا فى معنى استغراق كل فرد . أى : يسمون كل واحد منهم ويصفونه بصفة الأنوثة .

وقوله - سبحانه - : « وما لهم به من علم ، إن يتبعون إلا الظن ... » رد عليهم فيما قالوه ، وتجهيل لهم فيما زعموه ... والجملة حال من ضمير « ليعلمون » .

(١) سورة سبأ . الآية ٢٣ .

(٢) سورة الأنبياء . الآية ٢٨ .

(٣) سورة الزخرف . الآية ١٩ .

أى : إنهم ليصفون الملائكة بالأنوثة ، والحال أنهم لا علم لهم بتكوين هؤلاء الملائكة ، أو بصفاتهم وإنما هم يتبعون الظن الباطل في أقوالهم وأحكامهم . . .

« وإن الظن لا يغنى من الحق شيئا ، أى : وإن الظن الباطل ، والاعتقاد الخاطئ ، لا يغنى في معرفة الحق شيئا ، حتى ولو كان هذا الشيء قليلا ، لأن العقائد السليمة ، لا تبنى على الظنون والأوهام ، وإنما تبنى على الحقائق الراسخة والعلوم الثابتة ،

وأظهر - سبحانه - لفظ الظن هنا ، مع تقدم ذكره ، لتكون الجملة مستقلة بنفسها ، ولتكون - أيضا - بمثابة المثل الذي يقال في الموضوع الذي يناسبه .

وبذلك نرى أن هذه الآيات الكريمة ، قد وبخت المشركين على شرهم بأسلوب منطوق سليم ، حيث ساقط لهم الحقائق في أسلوب يغلب عليه طابع الموازنة والمقارنة ، والاستشهاد بالواقع ، ووضع أيديهم على أماكن الدواء ، لو كانوا ممن يردونه ، ويبحثون عنه .

• • •

وبعد هذا البيان الحكيم الذى يحق الحق ، ويبطل الباطل ، أسأله - تعالى - نبيه - صلى الله عليه وسلم - أن يضى في طريقه الذى رسمه - سبحانه - له ، وأن يترك حساب هؤلاء الضالين لله - تعالى - الذى يجازى كل نفس بما كسبت ، والذى يعلم السر وأخفى ، والذى رحمته وسعت كل شيء . . . فقال - تعالى - :

« فَأَعْرِضْ عَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا ، وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ، ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ ، إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ ، وَهُوَ أَعْلَمُ

بِمَنْ اهْتَدَى (٣٠) وَلَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ، لِيَجْزِيَ الَّذِينَ
 أَسَاؤًا بِمَا عَمِلُوا ، وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى (٣١) الَّذِينَ يَخْتَنِبُونَ
 كِبَارَ الْإِنَّمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ ، إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ ، هُوَ
 أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ ، وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ
 فَلَا تُزَكُّوْا أَنْفُسَكُمْ ، هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى (٣٢) .

والفاء في قوله : « فأعرض عن تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة
 الدنيا ... » للإفصاح ...

وأصل الإعراض : لفت الوجه عن الشيء . لأن المكاره لشيء بعرض
 بصفحة خده عذ ...

والمراد به هنا : ترك هؤلاء المشركين ، وعدم الحرص على إيمانهم ،
 بعد أن وصلتهم دعوة الحق ...

أى : إذا كان الأمر كما ذكرنا لك - أيها الرسول الكريم - من أن
 هؤلاء المشركين ، ما يتبعون في عقه قدم إلا الظن الباطل ، وإلا ما تشبه
 أنفسهم ..

فاترك مجادلهم ، ولا تنهم بهم ، بعد أن بلغتهم رسالة ربك ... فإنهم
 قوم قد أصروا على عنادهم . وعلى الإدبار عن وحيينا وقرأنا الذي أنزلناه
 إليك ، ولم يردوا من حياتهم إلا التشيع من زينة الحياة الدنيا ، ومن شهواتها
 وممتعها ...

ومن كان كذلك فلن نستطيع أن نهديه ، لأنه أثر النفي على الرشد ،
 والضلالة على الهداية . وحيى بالاسم الظاهر في مقام الإضمار ، فقيل :

وأعرض عن تولى عن ذكرنا، ولم يقل : فأعرض عنهم .. لبيان ما تؤذن به صلة الموصول من علم الأمر بالإعراض عنهم ، وهى أنهم قوم أعرضوا عن الوحي ، ولم يردوا سوى متع دنياهم ، أما ما يتعلق بالآخرة فهم فى غفلة عنه .

وقوله : ذلك مبلغهم من العلم ، تسلية له - صلى الله عليه وسلم - عما أصابه منهم ، وتحقير لهم ولأفكارهم ، وتهوين من شأنهم ...

أى : ذلك الذى تراه منهم من التولى عن قرآننا ، ومن الإصر على عرض الحياة الدنيا ، منتهى علمهم ، ولا علم سواه .

فاسم الإشارة ، ذلك ، يعود إلى المفهوم من الكلام السابق وهو توليهم عن القرآن الكريم ، وتكاليهم على الحياة الدنيا .

وفى هذه الجملة المعترضة ما فيها من تحقير أمرهم ، ومن الإزدراء بعلمهم الذى أدى بهم إلى إثارة الشر على الخير ، والعاجلة على الآجلة ...

وقوله - سبحانه - : « إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله ... » ، تعليل للأمر بالإعراض عنهم ، والإهمال لشأنهم ، وتسلية أخرى له - صلى الله عليه وسلم - .

أى : امض - أيها الرسول الكريم - فى طريقك ، وأعرض عن هؤلاء الجاحدين المهادنين ، الذين أصرروا على عدم الاستجابة لك ، بعد أن سلكت معهم كل وسيلة تهديهم إلى الحق ... إن ربك - أيها الرسول الكريم - هو أعلم بمن أصر من الناس على الضلال ، وهو - سبحانه - أعلم بمن شأنه الاهتداء ، والاستجابة للحق ..

والمراد بالعلم هنا لازمه ، أى : ما يترتب عليه من ثواب وعقاب ، ثواب المؤمنين ، وعقاب للكافرين .

وكرر - سبحانه - قوله ، هو أعلم ، ، لزيادة التقرير ، والمراد بمن ضل : من أصر على الضلال ، وبمن اهتدى : من عنده الاستعداد لقبول الحق والهداية .

وقدم - سبحانه - من ضل على من اهتدى هنا ، لأن الحديث السابق واللاحق معظمه عن المشركين ، الذين عبدوا من دون الله - تعالى - أصناما لانضر ولا تنفع ...

وضمير الفصل في قوله - سبحانه - هو أعلم ، لتأكيد هذا العلم ، وقصره عليه - سبحانه - قصرا حقيقيا ، إذ هو - تعالى - الذي يعلم دخائل النفوس ، وغيره لا يعلم .

ثم بين - سبحانه - ما يدل على شمول ملكه لكل شيء . فقال : والله ما في السموات وما في الأرض ... ، .

أى : والله - تعالى - وحده جميع ما في السموات وما في الأرض ، خلقا ، وملكا ، وتصرفا ...

واللام في قوله : ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ، ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى ، متعلقة بمحذوف يدل عليه الكلام السابق .

أى : فعل ما فعل - سبحانه - من خلقه للسموات والأرض وما فيهما ، ليجزى يوم القيامة ، الذين أساءوا في أعمالهم بما يستحقونه من عقاب ، وليجزى الذين أحسنوا في أعمالهم بما يستحقونه من ثواب .

وقوله : بالحسنى ، صفة لموصوف محذوف . أى : بالثوبة الحسنى التى هى الجنة .

وقوله : الذين يحتنبون كباثر الإثم والفواحش إلا اللهم ... ، صفة لقوله : الذين أحسنوا ، أو بدل منه ...

والمراد بكبائر الإثم : الآثام الكبيرة ، والجرائم الشديدة ، التي يعظم العقاب عليها . كقتل النفس بغير حق ، وأكل أموال الناس بالباطل ..

والفواحش : جمع فاحشة ، وهي ما قبح من الأقوال والأفعال ، كالزنا ، وشرب الخمر ...

وعطفها على كبائر الإثم من باب عطف الخاص على العام ، لأنها أخص من الكبائر ، وأشد إثمًا .

واللهم : ماصغر من الذنوب ، وأصله ما قل قدره من كل شيء . يقال : ألم فلان بالمسكان ؛ إذا قل مكثه فيه . وألم بالطعام : إذا قل أكله منه ...

وقيل : اللهم ، مقاربة الذنب دون الوقوع فيه ، من قولهم : ألم فلان بالشئ ، إذا قاربته ولم يخاطله ..

وجمهور العلماء على أن الاستثناء هنا منقطع ، وأن اللهم هو الذنوب الصغيرة ، كالنظرة الخائنة ولكن بدون مداومة ، والإكثار من الممازحة ...

قال الإمام ابن كثير ماملخصه : واللهم : صفائر الذنوب ، ومحقرات الأعمال ، وهذا استثناء منقطع ...

قال الإمام أحمد : عن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال : ما رأيت شيئاً أشبه باللهم ، مما قال أبو هريرة ، عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال : « إن الله كتب على ابن آدم حظاً من الزنا ، أدرك ذلك لا محالة ، فزنا العين النظر ، وزنا اللسان النطق ، والنفس تمنى وتشتهى ، والفرج يصدق ذلك أو يكذبه ، ... »

وعن مجاهد أنه قال في هذه الآية : « لا اللهم » : الذي يعلم بالذنوب ثم يدعه ، كما قال الشاعر :

إن تغفر اللهم تغفر جما وأى عبدك ما ألتأ (١)

ومن العلماء من يرى أن الاستثناء هنا متصل ، وأن المراد باللمم ارتكاب شيء من الفواحش ، ثم التوبة منها توبة صادقة نصوحا
فمن الحسن أنه قال : د. اللمم من الزنا أو السرقة أو شرب الخمر ، ثم لا يعود (١) .

ويبدو لنا أن الرأي الأول أقرب إلى الصواب ، لأن العلماء قسموا الذنوب إلى كبائر وصغائر ، وأن اللمم من النوع الثاني الذي لا يدخل تحت كبائر الإثم والفواحش .

قال صاحب الكشف : واللمم : ما قل وصغر . . . والمراد به : الصغائر من الذنوب ، ولا يخلو قوله - تعالى - : إلا اللمم ، من أن يكون إستثناء منقطعا . . كأنه قيل : كبائر الإثم غير اللمم ، (٢) .

وليس المقصود من قوله - تعالى - : إلا اللمم ، فتح الباب لارتكاب صغائر الذنوب ، وإنما المقصود فتح باب التوبة ، والحض على المبادرة بها ، حتى لا ييأس مرتكب الصغائر من رحمة الله - تعالى - ، وحتى لا يعمى قدما في ارتكاب هذه الصغائر ، إذ من المعروف أن ارتكاب الصغائر ، قد يجر إلى ارتكاب الكبائر .

كذلك من المقصود بهذا الاستثناء أن لا يعامل مرتكب الصغائر ، معاملة مرتكب الكبائر .

هذا ، وقد أفاض الإمام الألوسي في الحديث عن الكبائر والصغائر ، فقال : والآية عند أكثرين دليل على أن المعاصي منها الكبائر ، ومنها الصغائر . .

وأفكر جماعة من الأئمة هذا الانقسام ، وقالوا : سائر المعاصي كبائر .

(١) تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٢٥٦ .

(٢) تفسير الكشف ج ٤ ص ٣٢ .

ثم قال : واختلف القائلون بالفرق بين الكبائر والصغائر في حد الكبيرة فقيل : هي كل مالحق صاحبها عليها بخصوصها وعيد شديد ، بنص كتاب أو سنة ...

وقيل : كل جريمة تؤذن بقلة اكتراث مرتكبها بالدين ، ورقة الديانة .

واعتمد الواحدى أنه لا حد لها يحصرها ويعرفها العباد به ، وقد أخفى الله - تعالى - أمرها ، ليجتهدوا في اجتناب المنهى عنه ، رجاء أن تجتنب الكبائر ... (١) .

وقوله - سبحانه - : « إن ربك واسع المغفرة ... » ، تعليل لاستثناء اللطم ، وتنبية على أن إخراجهم عن حكم المؤاخذه ، ليس لحلوه عن الذنب في ذاته ، بل لسعة رحمة الله ومغفرته .

أى : إن ربك - أيها الرسول الكريم - واسع المغفرة والرحمة ، لعباده الذين وقعوا فيما نهاهم عنه - سبحانه - ، ثم تابوا إليه توبة صادقة نصوحا . ثم بين - سبحانه - أن هذه الرحمة الواسعة ، صادرة عن علم شامل للظواهر والبواطن ، فقال : « هو أعلم بكم ، إذ أنشأكم من الأرض ، وإذ أقم أجنته في بطون أمهاتكم ... » .

والظرف « إذ » ، متعلق بقوله « أعلم » . والأجنته : جمع جنين ، ويطلق على ما يكون بداخل الأرحام قبل خروجه منها .

وسمى بذلك ، لأنه يكون مستترا في داخل الرحم ، كما قال - تعالى - : « يخلقكم في بطون أمهاتكم خلقا من بعد خلق في ظلمات ثلاث ... » (٢) .

أى : هو - سبحانه - أعلم بكم من وقت إنشائه لإياكم من الأرض . ضمن

(١) راجع تفسير الألوسى ج ٢٧ ص ٦١ .

(٢) سورة الزمر الآية ٦ .

خلقه لا يبيكم آدم ، ومن وقت أن كنتم أجنة في بطون أمهاتكم ، يعلم أطواركم فيها ، ويرعاكم برحمته ، إلى أن تنفصلوا عنها .

وقال - سبحانه - : « في بطون أمهاتكم ، مع أن الجنين لا يكون إلا في بطن أمه ، للتذكير برعايته - تعالى - لهم ، وهم في تلك الأطوار المختلفة من وقت العلوق إلى حين الولادة ، وللحرض على مداومة شكره وطاعته .

وقوله - تعالى - : « فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى ، تحذير من التفاخر بالأعمال والأحساب والأنساب ، لأنه - سبحانه - لا يخفى عليه شيء من أحوال الناس . والفاء للتفريع على ما تقدم .

أي : إذا كان الأمر كما ذكرت لكم من عدم مؤاخذتي إياكم على اللوم ، فإن ذلك بسبب سعة رحمتي ، فلا تمدحوا أنفسكم بأنكم فعلتم كذا وكذا من الأفعال الحسنة ، بل اشكروني على سعة رحمتي ومفقرتي ، فإنني أنا العظيم بسائر أحوالكم ، الخبير بالظواهر والبواطن للأتقياء والأشقياء .

قالوا : والآية نزلت في قوم من المؤمنين ، كانوا يعملون أعمالا حسنة ، ثم يتفاخرون بها .

قال صاحب الكشاف : قوله « فلا تزكوا أنفسكم ... » أي : فلا تنسبوا إلى زكاء العمل ، وزيادة الخير ، وعمل الطاعات ، أو إلى الزكاء والطهارة من المعاصي ، ولا تثنوا عليها واهضموها فقد علم الله الزكى منكم والتقى أولا وآخرا ، قبل أن يخرجكم من صلب آدم ، وقبل أن تخرجوا من بطون أمهاتكم .

وهذا إذا كان على سبيل الإعجاب أو الرياء ، فأما من اعتقد أن ما عمله من العمل الصالح ، من الله وبتوقيفه وتأييده ، ولم يقصد به المدح ، لم يكن من المزكين لأنفسهم ، لأن المسرة بالطاعة طاعة ، وذكرها شكر لله - تعالى - (١) .

وقال الألوسي : والمراد النهي عن تزكية السمعة أو المدح للدنيا ، أو

التزكية على سبيل القطع ، وأما التزكية لإثبات الحقوق ونحوه - كالإخبار عن أحوال الناس بما يعلم منهم وجربوا فيه من ثقة وعدالة - فهي جائزة (١).

• • •

وبعد هذا التوجيه الحكيم للنفوس البشرية، والبيان البديع لمظاهر رحمة الله - تعالى - بعباده بعد ذلك أخذت السورة في الحديث مرة أخرى عن الكافرين، وفي الرد على شبهاتهم، وفي بيان مظاهر قدرته - تعالى - ... فقال - سبحانه - :

« أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى (٢٣) وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأُكْدِيَ (٢٤) أَعْيُنَهُ
عِلْمَ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَى (٢٥) أَمْ لَمْ يُنَبِّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى (٢٦)
وإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى (٢٧) أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى (٢٨) وَأَنْ لَيْسَ
لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى (٢٩) وَأَنْ سَعْيُهُ سَوْفَ يُرَى (٤٠) ثُمَّ يُجْزَاهُ
الْجِزَاءَ الْأَوْفَى (٤١) وَأَنْ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى (٤٢) وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ
وَأَبْكَى (٤٣) وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا (٤٤) وَأَنَّهُ خَلَقَ الزُّوجِينَ
الدَّكَرَ وَالْأُنثَى (٤٥) مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تَمَنَّى (٤٦) وَأَنْ عَلَيْهِ النَّشْأَةُ
الْأُخْرَى (٤٧) وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَى وَأَقْنَى (٤٨) وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ السَّمَاءِ (٤٩)
وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى (٥٠) وَنَمُودَ فِئَا أُبْنَى (٥١) وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ
قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْنَى (٥٢) وَالْمُؤْتَصِّكَاهُ هَوَى (٥٣) فَتَنَسَّاهَا
مَا غَشَى (٥٤) فَبَإَى آلَاءُ رَبِّكَ تَتَمَارَى (٥٥) هَذَا نَذِيرٌ مِنَ النَّذْرِ
الْأُولَى (٥٦) أَرَأَيْتِ الْآزِفَةَ (٥٧) لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ (٥٨)
أَفَرَأَيْتِ هَذَا الْحَدِيثَ تَعِجُّونَ (٥٩) وَتَعْتَذِرُونَ وَلَا تَنْكُرُونَ (٦٠)
وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ (٦١) فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا (٦٢) » .

وقد ذكر المفسرون روايات في سبب نزول قوله - تعالى - : أفرأيت الذي
الذي تولى . وأعطى قليلا وأكدي ... ، منها : أنها نزلت في الوليد بن المغيرة
كان قد سمع قراءة النبي - صلى الله عليه وسلم - ، وجلس لإياه ووعظه فهم أن
يدخل في الإسلام . فعابره رجل من المشركين ، وقال له : أنت ترك ملة آبائك ؟
أرجع إلى دينك ، واثبت عليه ، وأنا أنحمل عنك كل شيء تخافه في الآخرة ،
أمكن على أن تعطيني كذا من المال .

فوافقه الوليد على ذلك . ورجع عمام به من الدخول في الإسلام ، وأعطى
بعض المال لذلك الرجل ، ثم أمسك عن الباقي ، ويخجل به ، فأنزل الله - تعالى -
هذه الآيات ... ، (١) .

والاستفهام في قوله - تعالى - : « أفرأيت ... » ، للتعجب من حال هذا
الإنسان ، الذي أعرض عن الحق ، بعد أن عرف الطريق لإياه ،

أى : أفرأيت - أيها الرسول الكريم - حالا أعجب من حال هذا الإنسان
الذي تولى عن الهدى ، وفذه وراء ظهره ، بعد أن قارب الدخول فيه .
« وأعطى قليلا ، من العطاء » ، وأكدي ، أى ثم قطع هذا العطاء .

قال صاحب الكشف : « وأكدي ، أى : وقطع عطيته وأمسك . وأصله
إكداء الحافر ، وهو أن تلقاه كديه ، وهى صلابة كالصخر فيمسك عن
من الحفر ... » ، (٢) .

والمراد به هنا : ذمه بالبخل والشح ، بعد ذمه بالتولى عن الحق .

« أعنده علم الغيب فهو يرى » ، أى : أعند هذا الإنسان الذي أعرض عن
الرشد ، علم الغيوب المستقرة عن الأعين والنفوس ، فهو وحده يراها ، ويطلع

(١) راجع تفسير الألوسي ج ٢٧ ص ٦٥ .

(٢) تفسير الكشف ج ٤ ص ٣٣ .

عليها ويعلم أن في إمكان الغير أن يحمل عنه أوزاره وذنوبه يوم القيامة ؟ كلا ، إنه لا علم عنده بشئ من ذلك ، وإنما هو قد ارتد على أعقابهِ ، لا نطمح بصيرته ، بعد أن قارب الرشد والصواب .

فلاستفهام في قوله : «أعنده علم الغيب ...» ، للنفي والإنكار .

وقدم - سبحانه - الظرف «عنده» وهو مسند ، على «علم الغيب» وهو مسند إليه ، لإفادة الاهتمام بهذه العنصرية التي من أعجب العجائب ادعاؤها ، وللإشعار بأنه بعيد عنها بعد الأرض عن السماء .

والفاء في قوله : «فهو يرى» ، للسببية ، ومفعول (يرى) محذوف .

أى : فهو بسبب معرفته للعوالم الغيبية ، يبصر رفع العذاب عنه ، ويعلم أن غيره سيتكفل بافتدائه من هذا العذاب .

ثم ويخبر - سبحانه - على جهالته وعدم فهمه فقال : (أم لم ينبأ بما في صحف موسى ، وإبراهيم الذي وفى . أن لا تزر وازرة وزر أخرى . .)

و دام ، هنا للاختراق الانتقالي من ذمه على إعراضه ويخله ، إلى ذمه على جملة وحقه . وصحف موسى : هي التوراة التي أنزلها - سبحانه - عليه .

وصحف إبراهيم : هي الصحف التي أوحى الله - تعالى - لإيه بما فيها ، وقد ذكر - سبحانه - ذلك في قوله تعالى : «إن هذا لفي الصحف الأولى . صحف إبراهيم وموسى» .

وخصت صحف هذين النبيين المكرمين بالذكر ، لأنها كانت أشهر من غيرها عند العرب ، وكانوا يسألون أهل الكتاب من اليهود عما خفي عليهم من صحف موسى .

وقدم - سبحانه - هنا صحف موسى ، لاشتهارها بسعة الأحكام التي اشتملت عليها ، بالنسبة لما وصل إليهم من صحف إبراهيم .

وأما في سورة الأعلى فقد تمت صحف إبراهيم على صحف موسى ، لوقوعهما بدلا من «الصحف الأولى» ، وصحف إبراهيم أقدم من صحف موسى ، فكان الإتيان بهما على الترتيب الزمني أنسب بالمقام .

وحذف - سبحانه - متعلق «رفسى» . ليتناول كل ما يجب الوفاء به كحافظته
على أداء حقوق الله - تعالى - ، واجتماده في تبليغ الرسالة التي كلفه - سبحانه -
بتبليغها ، ووقوفه عند الأوامر التي أمره - تعالى - بها ، وعند النواهي التي
نهاه عنها ...

و « أن ، في قوله - تعالى - : « أن لاتزر وازرة وزر أخرى ، مخففة من
من الثقبلة ، واسمها ضمير الشأن محذوف ، والجملة بدل من صحف موسى
ولإبراهيم :

وقوله « تزر ، من الوزر بمعنى الحمل ... وقوله « وازرة ، صفة لموصوف
محذوف . أى : نفس وازرة .

والمعنى : إذا كان هذا الإنسان المتولى عن الحق ... جاهلا بكل ما يجب
العلم به من شئون الدين ، فهلا يسأل العلماء عن صحف موسى وإبراهيم -عليهما
السلام - ففيها أنه لا تحمل نفس آئمة حمل أخرى يوم القيامة .

قال الآلوسى : وقوله : « ألا تزر وازرة وزر أخرى ، أى : أنه لا تحمل
نفس من شأنها الحمل ، حمل نفس أخرى ... ولا يؤخذ أحد بذنب غيره ،
ليتخلص الثاني من عقابه . ولا يقدر في ذلك قوله - صلى الله عليه وسلم - :
« من سن سنة سيئة فعليه وزرها ، ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة ، فإن
ذلك وزر الإضلال الذى هو وزره لا وزر غيره ، (١) .

وقوله - تعالى - : « وأن ليس للإنسان إلا ما سعى ... ، معطوف على
ما قبله ، لبيان عدم إثابة الإنسان بعمل غيره ، إثر بيان عدم مؤاخذته بذنب
سواه .

أى : كما أنه لا تحمل نفس آئمة حمل نفس أخرى فكذلك لا يحصل
للإنسان إلا على نتيجة عمله الصالح ، لا على نتيجة عمل غيره .

فالمراد بالسعى في الآية : السعى الصالح ، والعمل الطيب ، لأنه قد جاء في مقابلة الحديث عن الأوزار والذنوب .

وقوله - تعالى - : « وأن سعيه سوف يرى . ثم يجزاه الجزاء الأوفى » بيان لثمره هذا السعى الصالح يوم القيامة .

أى : ليس للإنسان إلا ثمرة عمله الصالح بدون زيادة أو نقص ، وهذا العمل الصالح سوف يراه مسجلا أمامه في صحف مكرمة ، وفي ميزان حسناته ، ثم يجازيه الله - تعالى - عليه الجزاء التام الكامل ، الذى لا نقص فيه ولا بخس .

وفي رؤية الإنسان لعمله الصالح يوم القيامة ، تشريف وتكريم له ، كما قال - تعالى - : « وليرى المؤمنين والمؤمنات : يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم ، بشراكم اليوم جنات تجري من تحتها الأنهار . خالدين فيها ، ذلك هو الفوز العظيم » (١) .

هذا ، وقد توسع العلماء فى الجمع بين قوله - تعالى - : « وأن ليس للإنسان إلا ما سعى » وبين النصوص التى تفيد أن الإنسان قد ينتفع بعمل غيره ، وهذه خلاصة لأقوالهم :

قال الإمام ابن كثير : ومن هذه الآية استنبط الشافعى ومن اتبعه ، أن أن القراءة لا يصل إهداء ثوابها إلى الموتي ، لأنه ليس من عملهم ولا كسبهم ، ولهذا لم يندب إليه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أمته . ولا حشوم عليه ، ولا أرشدم إليه بنص ولا إيماء ، ولم ينقل ذلك عن أحد من الصحابة ، ولو كان خيرا سبقونا إليه ، وباب القربات يقتصر فيه على النصوص ، ولا يتصرف فيه بأنواع الأقيسة والآراء .

فأما الدعاء والصدقة ، فذاك يجمع على وصولها ، ومنصوص من الشارع عليهما .

وأما الحديث الذى رواه مسلم فى صحيحه عن أبي هريرة قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث : من ولد صالح يدعو له ، أو صدقة جارية من بعده ، أو علم ينتفع به » .
فهذه الثلاثة فى الحقيقة ، هى من سعيه وكده وعمله ... (١) .

وقال الجمل فى حاشيته على الجلالين : واستشكل الحصر فى هذه الآية - وأن ليس الإنسان إلا ماسعى ، ، بقوله - تعالى - فى آية أخرى : « والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان : ألحقنا بهم ذريتهم وما ألتناهم من عملهم من شيء ... » ، وبالأحاديث الواردة فى ذلك ، كحديث : « إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث ... » .

وأجيب : بأنها مخصوصة بقوم إبراهيم وموسى ، لأنها حكاية لما فى صحفهم وأما هذه الأمة فلها ماسعت هى ، وماسعى لها غيرها ، لما صح من أن لكل نبي وصالح شفاعته ، وهو انتفاع بعمل الغير ، ومن تأمل النصوص وجد من انتفاع الإنسان بما لم يعمل ما لا يكاد يحصى ، فلا يجوز أن تؤول الآية على خلاف الكتاب والسنة واجتماع الأمة ، وحينئذ فالظاهر أن الآية عامة ، قد خصصت بأمور كثيرة ...

ثم قال الشيخ الجمل - رحمه الله - : وقال الشيخ تقي الدين أبو العباس أحمد ابن تيمية : من اعتقد أن الإنسان لا ينتفع إلا بعمله ، فقد خرق الإجماع . وذلك باطل من وجوه كثيرة :

أحدها : أن الإنسان ينتفع بدعاء غيره ، وهو انتفاع بعمل الغير .
ثانيها : أن النبي - صلى الله عليه وسلم - يشفع لأهل الموقف فى الحساب ثم لأهل الجنة فى دخولها .

ثالثها : أنه - صلى الله عليه وسلم - يشفع لأهل الكبائر في الخروج من النار ، وهذا إلتفاف يسمى الغير .

رابعها : أن الملائكة يستغفرون ويدعون لمن في الأرض ، وذلك منفعة بعمل الغير .

خامسها : أن الله - تعالى - يخرج من النار من لم يعمل خيرا قط - أى من المؤمنين - بمحض رحمته ، وهذا إلتفاف بغير عملهم .

سادسها : أن أولاد المؤمنين يدخلون الجنة بعمل آبائهم ، وذلك إلتفاف بمحض عمل الغير .

سابعها : قال الله - تعالى - في قصة الغلامين اليتيمين : « وكان أبوهما صالحا ، فانتفعا بصلاح أبيهما ، وليس ذلك من سعيهما » .

ثامننا : أن الميت ينتفع بالصدقة عنه ، وبالعتق ، بنصر السنة والإجماع وهو من عمل الغير .

تاسعها : أن الحج المفروض يسقط عن الميت ، بحج وليه بنصر السنة ، وهو إلتفاف بعمل الغير .

عاشرها : أن الحج المندور أو الصوم المندور ، يسقط عن الميت بعمل غيره ، وهو إلتفاف بعمل الغير .

حادى عشرها : المدين قد إمتنع - صلى الله عليه وسلم - من الصلاة عليه حتى قضى دينه أبو قتادة ، وقضى دين الآخر على بن أبى طالب ، وإلتفعا صلاة النبى - صلى الله عليه وسلم - ، وهو من عمل الغير .

ثانى عشرها : أن النبى - صلى الله عليه وسلم - قال لمن صلى وحده : « ألا رجل يتصدق على هذا فيصلى معه ، فقد حصل له فضل الجماعة بفعل الغير » .

ثالث عشرها : أن الانسان تبرأ ذمته من ديون الغير ، إذا قضاها عنه قاض ، وذلك إلتفاف بعمل الغير .

رابع عشرها : أن من عليه تبعات ومظالم ، إذا حلل منها سقطت عنه ، وهذا إلتفاف بعمل الغير .

خامس عشرها : أن الجار الصالح ينفع في الحيا وفي الممات كما جاء في الأثر وهذا لانتفاع بعمل الغير .

سادس عشرها : أن جلس أهـل الذكر يرحم بهم ، وهو لم يكن معهم ، ولم يجلس لذلك بل الحاجة عرضت له ، والأعمال بالنيات ، فقد انتفع بعمل غيره .

سابع عشرها : الصلاة على الميت ، والدعاء له في الصلاة ، لانتفاع للبيت بصلاة الحي عليه ، وهو عمل غيره .

ثامن عشرها : أن الجمعة تحصل بإجتماع العدد ، وكذا الجمعة بكثرة العدد ، وهو لانتفاع للبعض بالبعض .

تاسع عشرها : أن الله - تعالى - قال لنبيه : وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم ، وقال - تعالى - : ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات . . . ، فقد رفع الله - تعالى - العذاب عن بعض الناس ، بسبب بعض ، وذلك لانتفاع بعمل الغير .

عشروها : أن صدقة الفطار تجب على الصغير وغيره من يمونه الرجل ، فإنه يلتفتع بذلك من يخرج عنه ، ولا سعى له فيها .

ثم قال - رحمه الله - : ومن تأمل العلم وجد لانتفاع الإنسان بما لم يعمله مالا يكاد يحصى ، فكيف يجوز أن نتأول الآية الكريمة ، على خلاف صريح الكتاب والسنة ، وإجماع الأمة . . . (١)

والخلاصة أن الآية الكريمة قد تكون من قبيل العام الذي قد خصص بأمر كثيره ، كما سبق أن أشرنا ، وقد تكون مخصوصة بقوم إبراهيم وموسى - عليهما السلام - ، لأنها حكاية عما في صحفهما ، أما الأمة الإسلامية فلها سعيها ، ولها ما سعى لها به غيرها ، وهذا من فضل الله ورحمته بهذه الأمة .

وقد قال بعض الصالحين في معنى هذه الآية : ليس للإنسان إلا ما سعى عدلا ، والله - تعالى - أن يجزيه بالحسنة ألما فضلا .

وهذه المسألة تفاصيل أخرى في كتب الفقه ؛ فليرجع إليها من شاء .

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك جانباً من مظاهر قدرته ورحمته ، فقال - تعالى - : « وأن إلى ربك المفتى ... »

أى : وأن إلى ربك وحده - لا إلى غيره - إنتهاء الخلق ومرجعهم ومصيرهم فيجازى الذين أسأوا بما عملوا ، ويجازى الذين أحسنوا بالحسنى .

فقوله : « المفتى » : مصدر بمعنى الإنتهاء ، والمراد بذلك مرجعهم إليه - تعالى - وحده . « وأنه هو أضحك وأبكى » أى : وأنه - سبحانه - هو الذى أوجد فى هذا الكون ما يؤدى إلى ضحك الإنسان وسروره تارة ، وما يؤدى إلى حزنه وبكائه تارة أخرى . فبسبب ما يحيط بالإنسان من مؤثرات ومن مشاعر مختلفة ... تارة يضحك ، وتارة يبكى .

وما أكثر هذه المؤثرات والأحوال والاعتبارات والدوافع .. فى حياة الإنسان .

فالآية الكريمة إنتقال من وجوب الاعتبار بأحوال الآخرة ، إلى وجوب الاعتبار بأحوال الإنسان ، وبما يحيط به من مؤثرات تارة تضحكه ، وتارة تبكيه وأسند - سبحانه - الفعلين إليه ، لأنه هو خالقهما ، وهو الموجد لأسبابهما

وحذف - سبحانه - المفعول به لهما ، لأنهما هما المقصودان بالذات ، لدلائلتهما على كمال قدرته - تعالى - أى : وأنه وحده - عز وجل - هو الذى أوجد فى الإنسان الضحك والبكاء ، فالفعلان منزلان منزلة الفعل اللازم .

وقدم - سبحانه - الضحك على البكاء . للاشعار بمزيد فضله ومنتهى على عباده .

وقوله : « وأنه هو أمات وأحيا ، أى : وأنه - تعالى - بقدرته وحدها ، هو الذى أحيا من يريد لإحيائه من مخلوقاته ، وأمات من يريد إماتته منهم .

وهذا رد على أولئك الجاهلين الذين أنكروا ذلك ، وقالوا - كما حكى القرآن عنهم - : « ما هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا ، وما يهلكنا إلا الدهر ... »

وقوله - سبحانه - : « وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى . من نطفة إذا تمنى ... » .

وأصل النطفة : الماء الصافى ، أو القليل من الماء الذى يبقى فى الدلو أو القربة ، وجمعها نطف ونطافه . يقال : نطفت القربة ، إذا تقاطر ماؤها بقله .

وقوله : « تمنى ، أى : تدفق فى رحم المرأة . يقال : أتمنى الرجل ومضى إذا خرج منه المني .

أى : وأنه - تعالى - وحده ، هو الذى خلق الزوجين الكائنين من الذكر والأنثى ، من نطفة تدفق من الرجل إلى رحم الأنثى ، فلتلقى بيويضة الأنثى ، فيسكون منهما الإنسان - بإذن الله - .

كما قال - تعالى - : « يحسب الإنسان أن يترك سدى . ألم يك نطفة من مضى معنى . ثم كان علقة مخلوق فسوى . فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى . أليس ذلك بقادر على أن يحيى الموتى ... » .

وقوله - سبحانه - : « وأن عليه النشأة الآخرة ، أى : وأن عليه وحده - سبحانه - الإحياء بعد الإماتة . والإعادة إلى الحياة مرة أخرى يوم البعث والنشور .

والنشأة : هى المرة من الإنشاء ، أى : الإيجاد والتكوين والخلق . والآخرة مؤثت الأخير . والمراد أنه - سبحانه - يوجد النشأة التى لا نشأة بعدها .

وقوله : « وأنه هو أغنى وأقنى ، أى : وأنه - سبحانه - هو الذى أغنى

الناس بالأموال الكثيرة المؤثثة ، التي يفتنيها الناس ويحتفظون بها لأنفسهم ولمن بعدهم .

فقوله : « أفنى ، من القنية بمعنى الإدخار للشئ » ، والمحافظة عليه .
قال الألوسي : قوله . « وأنه هو أغنى وأفنى ، أى : وأعطى القنية .
وهو ما يبقى ويدوم من الأموال ، ببقاء نفسه ، كالرياض والحيوان والبناء .
وأفرد - سبحانه - ذلك بالذكر مع دخوله فى « أغنى » ، لأن القنية أشبه أنفـس
الأموال وأشرفها ...

ولمّا لم يذكر المفعول ، لأن القصد إلى الفعل نفسه ... ، (١) .
وقوله : « وأنه هو رب الشعرى » ، أى : وأنه - سبحانه - هو رب ذلك
الكوكب المضى ، الذى يطلع بعد الجوزاء فى شدة الحر ، ويسمى الشعرى
اليمانية .

وخص هذا النجم بالذكر ، مع أنه - تعالى - هو رب كل شئ - لأن
بعض العرب كانوا يعبدون هذا الكوكب ، فأخبرهم - سبحانه - بأن هذا
الكوكب مربوب له - تعالى - وليس ربا - كما يزعمون .

قال القرطبي : واختلف فيمن كان عبده ، فقال السدي : كانت تعبده
حمير وخزاعة . وقال غيره : أول من عبده رجل يقال له أبو كبشة ، أحد
أجداد النبي - صلى الله عليه وسلم - من جهة أمهاته ، ولذلك كان مشركو قرىش
يسمون النبي - صلى الله عليه وسلم - ابن أبي كبشة . حين دعاهم إلى ما يخالف
دينهم ... ، (٢) .

وبعد هذه الجولة فى الانفس والآفاق ، سافت السورة جانباً من مصارع
الغابرين ، فقال - تعالى - : « وأنه أهلك عاد الأولى . وثمود فى أبقي :
وقوم نوح من قبل لأنهم كانوا هم أظلم وأطغى . والمؤتفكة أهوى ... »
أى : وأنه - تعالى - هو الذى أهلك بقدرته قيلة عاد الأولى ، وم قوم
هود - عليه السلام - .

وسميت قبيلة عاد بالاولى ، لتقدمها في الزمان على قبيلة عاد الثانية ، التي هي قوم صالح - عليه السلام - ، وتسمى - أيضا - بشمود .

وقوله : « وثمود ، معطوف على عاد . أى : وأنه أهلك - أيضا - قبيلة ثمود ، دون أن يبقى منهم أحدا .

وهلاك هاتين القبيلتين قد جاء في آيات كثيرة منها قوله - تعالى - : « كذبت ثمود وعاد بالقارعة . فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية . وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية . »

وقوله : « وقوم نوح من قبل ... ، أى : وأهلك - أيضا - قوم نوح من قبل لإهلاكه لعاد وثمود ...

« لإنهم كانوا ، أى : قوم . نوح . هم أظلم وأظنى ، أى : هم كانوا أشد في الظلم وفي الطغيان من عاد وثمود ، فقد آذوا نوحا - عليه السلام - أذى شديدا ، استمر صابرا عليه زمنا طويلا . وكان هلاكهم بالطوفان ، كما قال - تعالى - « فأخذهم الطوفان وهم ظالمون . »

وقدم قبيلتي عادا وثمود في الذكر على قوم نوح - مع أن قوم نوح أسبق - لأن هاتين القبيلتين كانتا مشهورتين عند العرب أكثر ، وديارهم معروفة لهم .

والمراد بالمؤتفكات قوم لوط - عليه السلام - ، وسما بذلك لأن قريتهم انتفكت بأهلها ، أى : انقلبت رأسا على عقب . يقال : أفك عن كذا يأفكه إذا قلبه وصرفه . ومنه الإفك ، لأنه قلب للحق عن وجهه الصحيح .

أى : وأهلك - سبحانه - القرى المؤتفكة بأهلها ، بأن أهوى بها جبريل - عليه السلام - إلى الأرض بعد أن رفعها إلى السماء « فغشاها ماغشى ، أى : فأصابها ما أصابها من العذاب الممين ، والدمار الشامل ، كما قال - تعالى - : « جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود . مسومة عند ربك ، وماهى من الظالمين ببعيد .

ويجوز أن يكون الضمير في دفعشاهها ، يعود إلى جميع الأمم المذكورة ، وأبهم - سبحانه - ماغشيمهم من عذاب ، للتحويل والتعميم .

وقوله - سبحانه - : د فبأى آلاء ربك تتماهى ، تذكير بنعم الله - تعالى - بعد التحذير من عقبه .

أى : فبأى نعمة من نعم الله - تعالى - تشكك أيها الإنسان .

والآلاء جمع إلنى ، وأى : اسم استفهام المقصود به التذكير بهذه النعم .
وسمى - سبحانه - ماشر فى آيات السورة نعماً ، مع أن فيها النعم والنقم ، لأن فى النقم عظات للمتعتين ، وعبرا للمتعتين ، فهى نعم بهذا الاعتبار .

ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة بهذا الإنذار الشديد ، فقال - تعالى - :
هذا نذير من النذر الأولى ، والنذير بمعنى المنذر ، وهو من يخبر غيره بخبر فيه مضرة به ، لئلى يحذره .

أى : هذا الرسول الكريم ، وما جاء به من قرآن حكيم . نذير لكم - أيها الناس - من جنس الإنذارات الأولى . التى أتى بها الأنبياء السابقون لأبهم ، فاحذروا مخالفة رسولنا - صلى الله عليه وسلم - ، لأن مخالفته تؤدى إلى هلاككم وخسارتكم .

فقوله - تعالى - د من النذر ، على حذف مضاف . أى : من جنس النذر التى سبقت ...

د أزفت الأزفة ، أى : قربت الساعة ، ودنت القيامة . يقال : أزف السفر - كفرح - أزفا ، إذا دنا وقرب . وأل فى الأزفة للمهد . وهى علم بالغلبة على الساعة .

د ليس لها ، أى : الساعة د من دون الله كاشفة ، أى : ليس لها أحد سوى الله - تعالى - يستطيع الإخبار عنها ، والكشف عن علاماتها ، والعلم بوقتها وبوقوعها ...

والاستفهام في قوله - تعالى - : « أفن هذا الحديث تعجبون ، الإنكار والتوبيخ .

أى : أفن هذا القرآن وما اشتمل عليه من هدايات وتشريعات ...
تتعجبون ، وتذكرون كونه من عند الله - تعالى - .

« وتضحكون ولا تبكون ، أى : وتضحكون ضحك استهزاء وتهكم منه ومن جاء به - صلى الله عليه وسلم - ولا تبكون خشية من الله - تعالى - ، ومن سماع ما اشتمل عليه القرآن من وعد وعيد .

« وأنتم سامدون ، أى : وأنتم لاهون معرضون - يقال : سم - يسمد يسمد - كدخل - إذا اشتغل باللهو والإعراض عن الرشد :

أو المعنى : وأنتم رافعون رؤوسكم تكبرا . يقال سمدا سمودا ، إذا رفع رأسه تكبرا وغرورا ، وكل متكبر فهو سامد ، ومنه قولهم : بعير سامد في سيره إذا رفع رأسه ، متبخترا في مشيته :

وقيل السمود : الغناء بلغة حمير . ومنه قول بعضهم لجاريته : اسمدى لنا ، أى : غفى لنا .

أى : وأنتم سادرون في غنائكم ولهوكم ، دون أن تكثرثوا بزواجر القرآن الكريم .

وقوله - سبحانه - : « فاسجدوا لله واعبدوا ، إرشاد لهم إلى ما يجب عليهم . ونهى لهم عن الكفر والضلال .

فالفاء في قوله - تعالى - : « فاسجدوا » لترتيب الأمر بالسجود ، على الإنذار بالعذاب الشديد إذا ما استمروا في كفرهم ولهوهم .

والمراد بالسجود : الخضوع لله - تعالى - ، وإخلاص العبادة له ، ويندرج فيه سجود الصلاة ، وسجود التلاوة .

أى : اتركوا ما أنتم عليه من كفر وضلال ، وخصوا الله - تعالى - بالخنوع الكامل ، وبالعبرة التامة ، التى لا تترك فيها لأحد معه - سبحانه - .

قال الألومى : وهذه آية سجدة عند أكثر أهل العلم ، وقد سجد النبي - صلى الله عليه وسلم - عندها .

أخرج الشيخان ، وأبو داود ، والنسائى عن ابن مسعود قال : « أول سورة أنزلت فيها سجدة ، سورة النجم » فسجد الرسول - صلى الله عليه وسلم - وسجد الناس كلهم إلا رجلا ، .

هذا ، وقد ذكر بعض المفسرين ، قصة الغراتيقي . وملخصها أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - قرأ سورة النجم ، فلما بلغ قوله - تعالى - « أفرايتم اللات والعزى ، ومناة الثالثة الأخرى » ، ألقى الشيطان على لسانه : تلك الغراتيقي الصلابة وإن شفاعتهن لترجيى . .

وقد قال الإمام ابن كثير عند حديثه عن هذه القصة : « إنما من روايات وطرق كلها مرسله ، ولم أرها مستندة من وجه صحيح » ،

وقد ذكرنا عند تفسيرنا لقوله - تعالى - : « وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان فى أمنيته » ، فيفسخ الله ما يلقى الشيطان ، ثم يحكم الله آياته ، والله عليم حكيم :

ذكرنا ما يدل على بطلان هذه القصة من جهة النقل ومن جهة العقل (١) .

(١) راجع تفسيرنا لسورة الحج ٨١ .

وبعد ، فهذا تفسير لسورة النجم ، نسأل الله - تعالى - أن يجعله خالصا
لوجهه ، ونافعا لعباده :

وصلى الله على سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه وسلم .

قطر - الدوحة كتبه الراجي عفوره

صباح السبت ١٤٠٦/٦/٢٧ محمد سيد طنطاوى

١٩٥٦/٣/٨

التفسير الوسيط
للقرآن الكريم

تفسير سُورَةُ الْقَمَرِ

لفضيلة
الدكتور محمد السيد طنطاوى
عميد كلية الدراسات الإسلامية والعربية

(الجزء السابع والعشرون)

١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

١ - سورة القمر : هي السورة الرابعة والخمسون في ترتيب المصحف ،
أما ترتيبها في النزول فكان بعد سورة الطارق ، وقبل سورة ص . .

ويبلغ عدد السور التي نزلت قبلها ، سبعا وثلاثين سورة .
ويطلب على الظن أن نزولها كان في السنوات الأولى من بعثة - صلى الله عليه وسلم - .

قال بعض العلماء : وكان نزولها في حدود سنة خمس من الهجرة . ففي
الصحيح أن عائشة - رضي الله عنها - قالت : أنزل على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بمكة ، ولما لجارية الحب ، قوله - تعالى - : « بل الساعة موعدهم
والساعة أدهى وأمر » (١) .

٢ - وتسمى هذه السورة يسورة القمر ، وبسورة اقتربت الساعة ، وتسمى
بسورة اقتربت ، حكاية لأول كلمة افتتحت بها .

روى الإمام مسلم وأهل السنن عن أبي واقد الليثي أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كان يقرأ في العيد بسورتي « ق » ، و « اقتربت الساعة » .
وعدد آياتها : خمس وخمسون آية . وهي من السور المسكية الخالصة - على
الرأي الصحيح - ، وقيل : هي مكية إلا ثلاث آيات منها ، وهي قوله - تعالى - :
« أم يقولون نحن جميع منتصر » . سيهزم الجمع ويولون الدبر . بل الساعة موعدهم
والساعة أدهى وأمر ، فإنها نزلت يوم بدر ، وهذا القيل لا دليل له يعتمد عليه .

(١) تفسير التحرير والتنوير ج ٢٧ ص ١٦٦ للشيخ محمد الطاهر بن عاشور .

ويرده ما أخرجه ابن أبي حاتم عن أبي هريرة قال : أنزل الله - تعالى - على نبيه - صلى الله عليه وسلم - بمكة قبل يوم بدر : « سيهزم الجمع ويولون الدبر » ، وقال عمر بن الخطاب : قلت : يا رسول الله أى جمع يهزم ؟ قلنا كان يوم بدر ، وانهزمت قريش ، نظرت إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فى آثارهم مصلتا بالسيف ، وهو يقول : « سيهزم الجمع ويولون الدبر » ، فكانت ليوم بدر .

وبذلك نرى أن هذا الحديث ، وحديث عائشة السابق ، يدلان على أن هذه الآيات مكية - أيضا - ، وأن الرسول - صلى الله عليه وسلم - إنما قرأها فى غزوة بدر على سبيل الاستشهاد بها .

٣ - والسورة الكريمة قد تحدثت فى مطلعها عن اقتراب يوم القيامة ، وعن جحود المشركين للحق بعد إذ جاءهم ، وعما سيكونون عليه يوم القيامة من ندم وحسرة . قال - تعالى - : « اقتربت الساعة وانشق القمر . وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر . وكذبوا واتبعوا أهواءهم وكل أمر مستقر »

٤ - ثم تحدثت السورة الكريمة عن مصارع الغافرين ، فذكرت ما حل من هلاك ودمار ، بقوم نوح ، وهود ، وصالح ، ولوط عليهم السلام - وما حل - أيضا - بفرعون وملئه من عقاب .

ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة ، ببيان مظاهر قدرته ، وبليغ حكمته ، ودقة نظامه فى كونه ، وبشر المتقين بما يشرح صدورهم فقال - تعالى - : « إنا كل شئ خلقناه بقدر . وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر . ولقد آهلكننا أشياءكم لذكركم فهل من مدكر . وكل شئ فعلوه فى الزبر . وكل صغير وكبير مستطر . إن المتقين فى جنات ونهر . فى مقعد صدق عند مليك مقتدر . »

• - والمتدبر في السورة الكريمة يراها قد اهتمت بالحديث عن أهوال يوم القيامة ، وعن تعنت المشركين وعنادهم ، وعن سنن الله - تعالى - في خلقه ، التي من أبرز مظاهرها ، نصر المؤمنين ، وخذلان الكافرين .

والحمد لله الذي بنعمته تم الصالحات ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ؟

دولة قطر - الدوحة

د. محمد سيد طنطاوي

صباح السبت ١٤٠٦/٦/٢٧ هـ

عميد كلية الدراسات الإسلامية والعربية

٨ / ٣ / ١٩٨٦ م

جامعة الأزهر

التفسير

قال الله - تعالى - : افتربت الساعة وانشق القمر (١) وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر (٢) وكذبوا واتبعوا أهواءهم وكل أمر مستقر (٣) ولقد جاءهم من الأنبياء ما فيه مژدجر (٤) حكمة بالغة فما تمنى النذر (٥) فتول عنهم يوم يدع الداع إلى شيء نكر (٦) خشماء أبصارهم يخرجون من الأجساد كأنهم جراد منتشر (٧) مهطعين إلى الداع ، يقول الكافرون هذا يوم هسير (٨) .

افتتحت السورة الكريمة بهذا الافتتاح الذي يبعث في النفوس الرهبة والخشية ، فهو يخبر عن قرب انقضاء الدنيا وزوالها .

لذا قوله - تعالى - : : اقتربت الساعة ، أى : قرب وقت حلول الساعة ، ودنا زمان قيامها .

والساعة فى الأصل : اسم لمدار قليل من الزمان غير معين ، وتحديدتها بزمان معين اصطلاح عرفى ، وتطلق فى عرف الشرع على يوم القيامة .

وأطلق على يوم القيامة يوم الساعة ، لوقوعه بغتة ، أو لسرعة ما فيه من الحساب ، أو لأنه على طوله قدر يسير عند الله - تعالى - .

وقد وردت أحاديث كثيرة ، تصرح بأن ماضى من الدنيا كثير بالنسبة لما بقى منها ومن هذه الأحاديث ما رواه البزار عن أنس أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - خطب أصحابه ذات يوم ، وقد كادت الشمس أن تغرب . فقال الذى نفسى بيده ما بقى من الدنيا فيما مضى منها ، إلا كما بقى من يومكم هذا فيما مضى منه . .

وروى الشيخان عن سهل بن سعد قال : سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول : « بعثت أنا والساعة هكذا ، وأشار بإصبعيه السبابة والوسطى (١) » .
وشبهه بهذا الافتتاح قوله - تعالى - في مطلع سورة الأنبياء : « اقترب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون . . . » .

وقوله - سبحانه - في افتتاح سورة النحل : « أتى أمر الله فلا تستعجلون ، سبحانه وتعالى عما يشركون ، » .

والمقصود من هذا الافتتاح المتحدث عن قرب يوم القيامة ، تذكير الناس بأحوال هذا اليوم ، وحضهم على حسن الاستعداد لإستقباله . عن طريق الإيمان والعمل الصالح .

وقوله - تعالى - : « وانشق القمر ، معطوف على ما قبله عطف جملة على جملة .

وقوله : « وانشق ، من الانشقاق بمعنى الافتراق والانفصال .

أى : اقترب وقت قيام الساعة ، وانفصل وانفلق القمر بعضه عن بعض فلقنتين . معجزة للنبي - صلى الله عليه وسلم - . وكان ذلك بمكة قبل هجرته - صلى الله عليه وسلم - بنحو خمس سنين ، وقد رأى هذا الانشقاق كثير من الناس . . .

وقد ذكر المفسرون كثيرا من الأحاديث في هذا الشأن ، وقد بلغت هذه الأحاديث مبلغ التواتر المعنوى . .

قال الإمام ابن كثير : وهذا أمر متفق عليه بين العلماء - أى : انشقاق القمر - ، فقد وقع في زمان النبي - صلى الله عليه وسلم - ، وأنه كان لإحدى المعجزات الباهرات .

ومنها ما رواه الشيخان عن أنس بن مالك قال : سأل أهل مكة النبي - صلى الله عليه وسلم - آية ، فانشق القمر بمكة مرتين ، فقال : « اقتربت الساعة وانشق القمر » .

وأخرج الإمام أحمد عن جبير بن مطعم عن أبيه قال : انشق القمر على عهد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فصار فلقين : فلقة على هذا الجبل ، وفلقة على هذا الجبل . فقالوا : سحرنا محمد . فقالوا : إن كان سحرنا فإنه لا يستطيع أن يسحر الناس كلهم .

وروى الشيخان عن ابن مسعود قال : انشق القمر على عهد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - شقتين ، حتى نظروا إليه . فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - « اشهدوا » (١) .

وقال الألوسي - بعد أن ذكر عددا من الأحاديث في هذا الشأن - : والأحاديث الصحيحة في الانشقاق كثيرة : واختلف في نواتره : فقبل : هو غير متواتر : وفي شرح المواقف أنه متواتر . وهو الذي اختاره العلامة السبكي ، فقد قال : الصحيح عندي أن انشقاق القمر متواتر ، منصوص عليه في القرآن ، مروي في الصحيحين وغيرهما من طرق شتى ، لا يمتري في نواتره . وقد جاءت أحاديثه في روايات صحيحة ، عن جماعة من الصحابة ، منهم علي بن أبي طالب ، وأنس ، وابن مسعود

ثم قال - رحمه الله - بعد أن ذكر شبهات المنكرين لحادث الانشقاق - : والخاصل أنه ليس عند المنكر سوى الاستبعاد ، ولا يستطيع أن يأتي بدليل على الاستحالة الذاتية ولو انشق ، والاستبعاد في مثل هذه المقامات قريب من الجنون ، عند من له عقل سليم . . . (٢) .

(١) راجع تفسير ابن كثير ٤ ص ٢٦١

(٢) راجع تفسير الألوسي ١٧ ص ٧٦

ثم بين - سبحانه - موقف هؤلاء المشركين من معجزاته - صلى الله عليه وسلم - فقال : « وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر ، » .

أى : وإن يروهؤلاء المشركون آية ومعجزة تدل على صدقك - أيها الرسول الكريم - يعرضوا عنها جحودا وعنادا ، ويقولوا - على سبيل التاكذيب لك - ما هذا الذى أتيتنا به يا محمد إلا سحر مستمر . أى : سحر دائم نمرفه عنك . وليس جديدا علينا منك .

قال صاحب الكشاف : « مستمر ، أى : دائم مطرد . وكل شيء قد انقادت طريقته ، ودامت حاله ، قيل فيه قد استمر ، لأنهم لما رأوا نتايج المعجزات ، وترادف الآيات ، قالوا : « هذا سحر مستمر ، » .

وقيل : مستمر ، أى : قوى محكم - من المرة بمعنى القوة - ، وقيل هو من استمر الشيء إذا اشتدت مرارته . أى : مستبشع عندنا مر على لهُواتنا ، لا نقدر أن نسيغه كما لا يساغ الشيء المر . وقيل : مستمر : أى مارة ذاهب زائل عما قريب - من قولهم : مر الشيء واستمر إذا ذهب - (١) .

ثم أخبر - سبحانه - عن حالهم فى الماضى ، بعد بيان حالهم فى المستقبل ، فقال - تعالى - : « وكذبوا واتبعوا أهواءهم وكل أمر مستقر ، » .

أى : أن هؤلاء الجاحدين جمعوا كل الرذائل ، فهم إن يروا معجزة تشهد لك بالصدق - أيها الرسول الكريم - يعرضوا عنها ، ويصفوها بأنها سحر ، وهم فى ماضيهم كذبوا دعوتك ، واتبعوا أهواءهم الفاسدة ، ونفوسهم الأمار بالسوء :

وجملة : « وكل أمر مستقر ، معترضة ، وهى جارية مجرى المثل : أى : وكل أمر لابد وأن يستقر إلى غاية ، وينتهى إلى نهاية ، وكذلك أمر هؤلاء الظالمين ، سينتهى إلى الخسران ، وأمر المؤمنين سينتهى إلى الفلاح .

وفي هذا الاعتراض تسلية وتبشير للنبي - صلى الله عليه وسلم - ولأصحابه بحسن العاقبة ، ونفيهم وإقناعات لأولئك المشركين من زوال أمر النبي - صلى الله عليه وسلم - كما كانوا يتمنون ويتوهمون .

وشبهه بهذه الآية قوله - تعالى - : « لكل نبي مستقر وسوف تعلمون » ، ثم بين - سبحانه - أنهم قوم لا تتأثر قلوبهم بالمواعظ والنذر ، فقال : « ولقد جاءهم من الأنبياء ما فيه مزدجر . حكمة بالغة فاغنى النذر » . والأنبياء : جمع نبي وهو الخبر المشتمل على أمور هامة ، من شأنها أن يتأثر بها السامع .

ومزدجر : مصدر ميمي ، وأصله مزجر ، فأبدلت تاء الافتعال دالا ، وأصله من الزجر ، بمعنى المنع والانهيار .

أى : ولقد جاء هؤلاء المشركين فى القرآن الكريم ، من الأنبياء ، الهامة ومن أخبار الأمم البائدة ، ما فيه إزدجار وانتهار لهم عن الارتكاس فى القبائح ، وعن الإصرار على الفسوق والكفر والعصيان .

و « ما » فى قوله - سبحانه - « ما فيه مزدجر » ، الوصلة ، وهى فاعل لقوله « جاءهم » ، وقوله : « من الأنبياء » ، فى موضع الحال منها ...

وقوله - تعالى - « حكمة بالغة » بدل من « ما » ، أو خبر لمبتدأ محذوف .

والحكمة : العلم النافع الذى يترتب عليه تحرى الصواب فى القول والفعل . أى : هذا الذى جاءهم من أنبياء الماضين ، ومن أخبار السابقين فيه ما فيه من الحكم البليغة ، والعظات الواضحة التى لا تخلل فيها ولا اضطراب .

و « ما » فى قوله : « ما معنى النذر » ، نافية ، والنذر : جمع نذير بمعنى منذر . أى : لقد جاء إلى هؤلاء المشركين من الأخبار ومن الحكم البليغة . ما يجرهم عن ارتكاب الشرور ، وما فيه إنذار لهم بسوء العاقبة إذا ما استمروا فى غيهم ولكن كل ذلك لا غناء فيه ، ولا نفع من وراءه ، هؤلاء الجاحدين المعاندين الذين عمو أوصموا ...

ويصح أن تكون دماء هنا ، للاستفهام الإنكارى . أى : ما الذى تغنيه
النذر بالنسبة لهؤلاء المهجرين على الكفر ؟ لأنها لا تعنى شيئا ماداموا لم يفتحوا
قلوبهم للحق .

والفاء فى قوله - تعالى - : د فقول عنهم يوم يدع الداع إلى شيء نكر .
للتضريح على ما تقدم ، وهى تفيد السببية .

وقوله : د يوم يدع الداع ، ظرف لقوله : د يخرجون من الأجداث ، ،
والداع : هو إسماعيل - عليه السلام - الذى ينفخ فى الصور أمرا لله - تعالى - .
والمراد بالنكر : الأمر الفظيع المائل ، الذى لم تألفه النفوس ، ولم
تر له مثيلا فى الشدة .

أى : إذا كان هذا حالهم من عدم لغناء النذر فيهم ، فقول عنهم - أيها
الرسول الكريم - ، ولا تبال بهم ، واتركهم فى طغيانهم يعمهون ، وانتظر
عليهم إلى اليوم الذى يدعهم فيه الداعى ، إلى أمر فظيع عظيم ، تنكره
النفوس ، لعدم عهدهم بمثله ، وهو يوم البعث والشموس .

قال الجمل : وقوله : د يوم يدع الداع ، منصوب إما با ذكر مضمرا ...
ولما يخرجون

وحذفت الواو من د يدع ، لفظا لالتقاء الساكنين ، وربما تبعنا للفظ ،
وحذفت الياء من د الداع ، للتخفيف ... والداع هو إسماعيل ... (١)
وقوله : د خشعا أبصارهم ، حال من الفاعل فى قوله د يخرجون ... :
أى : ذليلة أبصارهم بحيث تنظر إلى أمامها من أهوال نظرة البائس الذليل ،
للذى لا يستطيع أن يحقق نظره فيما ينظر إليه .

قال القرطبي : الخشوع فى البصر : الخضوع والذلة . وأضاف - سبحانه -
الخشوع إلى الأبصار ، لأن أثر العز والذل يتبين فى ناظر الإنسان .

قال - تعالى - : « أبصارها خاشعة ، وقال - تعالى - : « وترامهم يعرضون عليها خاشعين من الذل ينظرون من طرف خفي » .

ويقال : خشع واخشع إذا ذل . وخشع ببصره إذا غضه ...

وقرأ حمزة والكسائي خاشعا أبصارهم^(١) .

وقوله : « يخرجون من الأجداث كأنهم جراد منتشر ، أي : يخرجون من القبور . ويعيونهم ذليلة من شدة الهول ، وأجسادهم تملأ الآفاق ، حتى لسكانهم جراد منتشر ، قد سد الجهات . واستقر بعضه ببعض .

فالقاصود بالجملة الكريمة تشبيههم بالجراد في السكثرة والتموج ، والاكتظاظ والانتشار في الأنظار وهم يسرعون الخطأ نحو أرض المحشر .

وقوله : « مهطعين إلى الداع ، أي : مسرعين نحوه ، وقد مدوا أعناقهم إلى الإمام . مأخوذ من الإهطاع ، وهو الإسراع في المشي مع مد العنق إلى الأمام . يقال : أهطع فلان في جريه ، إذا أسرع فيه مع الخوف ، فهو مهطع .

« يقول الكافرون ، وقد رأوا من أهوال يوم القيامة ما يدهشهم : « هذا يوم عسر ، أي : يقولون هذا يوم صعب شديد ، بسبب ما يعانون من أهواله ويتوقعون فيه من سوء العاقبة .

والماتمل في هذه الآيات الكريمة ، يراها قد وصفت أحوال الكافرين في هذا اليوم ، وصفا تفشع من هوله الأبدان ...

فهم أذلاء ضعفاء ينظرون إلى ما يحيط بهم نظرة الخائف المفتضح ، وم

(١) تفسير القرطبي ج ١٧ ص ١٢٩ .

في حالة خروجهم من قبورهم كأنهم الجراد المنتشر ، في الكثرة والنفوج والاضطراب ، وهم يسرعون نحو الداعي بذعد دون أن يلجأوا على شيء ، ودون أن يكون في إمكانهم المخالفة أو التأخر عن دعوته .

ثم هم بعد كل ذلك يقولون على سبيل التحسر والتفجع : هذا يوم شديد الصعوبة والعسر .

• • •

« كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ (٩) فَذَهَابَ رَبُّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَأَنْتَصِرُ (١٠) فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ (١١) وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ (١٢) وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ (١٣) تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءَ لِمَنْ كَانَ كُفِرَ (١٤) وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (١٥) فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرٍ (١٦) وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (١٧) » .

وقصة نوح - عليه السلام - مع قومه ، قد وردت بصورة أكثر تفصيلاً في سور أخرى ، كسورة هود ، والمؤمنون ، ونوح ، والأعراف .

ولم يكن لها هنا - كغيرها من القصص - بصورة حاسمة قاصمة ، تزلزل النفوس ، وتفتح العيون على مصارع الغابرين ، لكي يعتبر الكافرون ، وينتهوا عن كفرهم ،

قال الألوسي : قوله : « كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ » ، شروع في تعداد

بعض ما ذكر من الانبياء الموجبة للانزجار ، ونوع تفصيل لها وبيان لعدم تأثرهم بها ، تقريراً لفحوى قوله : : « فأتغنى النذر » .

والفعل « كذبت » منزلة اللازم . أى فعل التأكيد قبل قوله « قوم نوح ... » (١)

وفى هذه الجملة الكريمة تسليية للرسول - صلى الله عليه وسلم - ، لأن المصيبة إذا عمت خفت ، وشبهه بهذه الآية قوله - سبحانه - : : « وإن يكذبوك فقد كذبت رسل من قبلك ... »

وأستند - سبحانه - التأكيد إلى جميع قوم نوح - عليه السلام - ، لأن الذين آمنوا به منهم عدد قليل ، كما قال - تعالى - فى سورة هود : : « وما آمن معه إلا قليل » .

وقوله - تعالى - : : « فكذبوا عبدنا » تأكيد لتكذيبهم له - عليه السلام - ، فكأنه - سبحانه - يقول : إن قوم نوح - عليه السلام - قد أصرؤا على تكذيبهم لعبدنا ونبينا ، وتواصوا بهذا التكذيب فيما بينهم ، حتى لكان الكبار قد أوصوا به الصغار .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : ما معنى قوله : « فكذبوا عبدنا » بعد قوله : « كذبت » ؟ قلت معناه : كذبوا فكذبوا عبدنا . أى : كذبوه فتكذبوا على عقب تكذيب ، كلما مضى منهم قرن مكذب ، تبعهم قرن مكذب . أو معناه : كذبت قوم نوح الرسل ، فكذبوا عبدنا ، أى : لما كانوا مكذبين بالرسل ، جاحدين للنبوة رأساً ، كذبوا نوحاً لأنه من جملة الرسل ، (٢) وقوله - سبحانه - : : « وقالوا مجنون وازدجر » بيان لما كانوا عليه من إلهاس بصيرة ، ومن سوء خلق ..

(١) تفسير الألوسى ٢٧ ص ٨١

(٢) تفسير الكشاف ج ٤ ص ٣٧

أى : أنهم لم يكفوا بتكذيب نبيهم ومرشدهم وهادهم إلى الخير . . . بل
أضافوا إلى ذلك وصفة بالجنون ، والاعتداء عليه بأنواع الأذى والترهيب
فقوله : « وازدجر ، معطوف على قوله ، قالوا ، وهو مأخوذ من الزجر
بمعنى المنع والتخويف . وصيغة الإفتعال للمبالغة في زجره وإيذائه .
وقد حكى القرآن في آيات أخرى ألوانا من هذا الزجر والإيذاء . ومن
ذلك قوله - تعالى -

كما حكى عنهم - : « قالوا لئن لم تنته يا نوح لتكونن من المرجومين ، .
ثم حكى - سبحانه - ما فعله نوح - عليه السلام - بعد أن صبر على إيذاء
قومه فقال : « فدعاربه أى مغلوب فانتصر . . . » .

أى : وبعد أن يش نوح - عليه السلام - من إيمان قومه . . . تضرع إلى
ربه قائلاً : يارب إن قومى قد غلبونى بقوتهم وتمردهم . . . فانتصر لى منهم ،
فأنت أقوى الأقوياء ، وأعظم نصير المظلومين والمغلوبين على أمرهم
من أمثالى .

وحذف متعلق ، فانتصر ، الإيجاز . أى : فانتقم لى منهم .
ولقد كانت نتيجة هذا الدعا ، الإجابة المريعة ، كما يشعر بذلك التعبير
بالفاء فى قوله - تعالى - بعد ذلك : « ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر . : »

أى : فأجبنا لنوح دعاءه ، ففتحنا أبواب السماء بماء كثير منهمر ، أى :
منصب على الأرض بقوة وبكثرة وتتابع . يقال : همر فلان الماء يهمر بكسر
الميم وضمها - إذا صبه بكثرة : وقرأة الجمهور ففتحنا ، بتخفيف التاء . وقرأ
ابن عامر بتشديد ها على المبالغة .

قال الجمل : والمراد من الفتح والأبواب والسماء : حقائقها ، فإن للسماء
أبواباً تفتح وتغلق .

والباء في قوله : د بءاء . للتعدية على المبالغة ، حيث جعل الماء كالآلة التي يفتح بها ، كما تقول : فتحت بالمفتاح ... ، (١)

وقوله : د وفجرنا الأرض عيوننا ... ، معطوف على قوله : د ففتحنها ، وتفجير الماء : إرساله بقوة وشدة وكثرة ، ومنه قوله - تعالى - : د وقالوا لن قوم لك - حتى تفجير لنا من الأرض ينبوعا .

وقوله : د عيوننا ، تميز بحول عن المفعول به . والأصل : وفجرنا عيون الأرض ، ولكن جرى به على هذا الأسلوب المشتمل على التمييز بالمبالغة ، حتى لكان الأرض جميعها قد تحولت إلى عيون متفجرة :

وقوله - سبحانه : د فالتقى ، الماء على أمر قدر ، بيان لكمال حكمته - تعالى - بعد بيان مظاهر قدرته .

أ : فاجتمع الماء النازل من السماء ، مع الماء المتفجر من الأرض ، على أمر قد قدره الله - تعالى - وقضاه أزلا ، وهو هلاك قوم نوح بالطوفان . فالمراد بالماء : ماء السماء . وماء الأرض .

وقال - سبحانه - : د فالتقى الماء ، بالإفراد ، لتحقيق أن اللقاء الماءين لم يكن بطريق المجاورة ، بل كان بطريق الاتحاد والاختلاط ، حتى لكان الماء النازل من السماء ، والمتفجر من الأرض ، قد التقيا في مكان واحد كما يلتقي الجيشان المعدان لإهلاك غيرهما .

و دعى ، في قوله - تعالى - على أمر قد قدر للاستعلاء المفيد لشدة التمكن والمطابقة .

أى : التقى الماء بعض ببعض على الحال والشأن الذي قدرناه وقضيناه له دون أن يحيد عن ذلك قيد شعره ، إذ كل شيء عندنا بمقدار .

ثم بين - سبحانه - بعض مظاهر فضله على عبده نوح - عليه السلام - فقال : د وحملناه على ذات ألواح ودسر . ونجى بأعيننا ... ،

والدسر: جمع دسار - ككتاب وكتب - أى: مسامير تربط بعض الخشب ببعض. وأصل الدسر: الدفع الشديد بقوة، سمي به المسبار، لأنه يندق في الخشب فيدفع بقوة.

وقيل: الدسر: الخيوط التي تشد بها ألواح السفينة، وقيل الدسر: صدرها ومقدمتها. وقوله: ذات ألواح ودسر، صفة لموصوف محذوف..

أى: وحملنا نوحاً من معه من المؤمنين، على سفينة ذات ألواح من الخشب ومسامير يشد بها هذا الخشب ويربط...

قال صاحب الكشاف: قوله: وحملناه على ذات ألواح ودسر، أراد السفينة، وهو من الصفات التي تقوم مقام الموصوفات، فتنبؤ منها، وتؤدي مؤداها، بحيث لا يفصل بينها وبينها. وهذا من فصيح الكلام وبديعه... (١)

وعدى فعل وحملناه، إلى نوح وحده، مع أن السفينة حملت معه المؤمنين، لأن هذا الحمل كان لإجابة لدعوته، وقد جاءت أخرى أخبرت بأن المؤمنين كانوا معه في السفينة، ومن هذه الآيات، قوله - تعالى - : فإذا استبرأت أنت ومن معك على الفلك، فقل الحمد لله الذي أنجانا من القوم الظالمين....

وقوله: تجري بأعيننا، أى تجري هذه السفينة بمراى منا، ونحت رعايتنا وقدرتنا.

ثم بين - سبحانه - الأسباب التي جعلت قوم نوح محل غضب الله - تعالى - ونقمته فقال: جزاء لمن كان كفر.

وقوله: جزاء، مفعول لأجله، لقوله: ففتحنا، وما عطف عليه. أى: فعلنا ما فعلنا من فتح السماء بماء منهمر، جزاء لكفرهم بالله - تعالى -

وبنييه نوح - عليه السلام - الذي كان نعمة لهم ، واسكنهم كفرورها ولم يشكروا الله عليها ، فاستحقوا الفرق والدمار .

وحذف - سبحانه - متعلق ، كفر ، لدلالة الكلام عليه . أى : كفر به .

قال الألوسي : قوله : : جزاء لمن كان كفر ، أى : فعلنا ذلك جزاء لنوح - عليه السلام - ، فإنه كان نعمة أنعمها الله - تعالى - على قومه فكفروها ، وكذا كل نبي نعمة من الله - تعالى - على أمته .

وجوز أن يكون على حذف الجار ، وإيصال الفعل إلى الضمير ، واستتار في الفعل ، بعد انقلابه مرفوعاً . أى : لمن كفر به ، وهو نوح - عليه السلام - جمحت نبوته .

فالكفر عليه ضد الإيمان ، وعلى الأول كفران النعمة ... (١)

والضمير المنصوب في قوله - تعالى - : : ولقد تركناها آية . . . ، يعود إلى الفعلة المهلكة التي فعلها الله - تعالى - بقوم نوح - عليه السلام - .

أى : ولقد تركنا فعلتنا بقوم نوح ، وإهلا كنا لهم ، آية وعلامة لمن بعدهم ، وعظه وعبرة لمن يمتد ويتعظ بها .

ويؤيد هذا المعنى قوله - تعالى - : وقوم نوح لما كذبوا الرسل أغرقناهم وجعلناهم للناس آية ... (٢) ، ويصح أن يكون الضمير يعود إلى السفينة . أى : ولقد أبقينا هذه السفينة من بعد إهلاك قوم نوح ، علامة وعبرة لمن يشاهدها .

ويؤيد هذا المعنى قوله - تعالى - : : فأجييناه وأصحاب السفينة ، وجعلناها آية للعالمين ، (٣)

(١) تفسير الألوسي ج ٢٧ ص ٨٣

(٢) سورة الفرقان . الآية ٣٧

(٣) سورة العنكبوت . الآية ١٥

قال القرطبي: قوله: ولقد تركناها آية... يريد هذه الفعلة عبرة. وقيل: أراد السفينة، تركها آية لمن بعد قوم نوح يستنبطون بها فلا يكذبون الرسل. قال قتادة: أبقاها الله - تعالى - ديبا قردي، من أرض الجزيرة - قرب الموصل بالعراق - لتكون عبرة وآية، حتى ينظر إليها أوائل هذه الأمة، وممن سفينة بعدها صارت رمادا (١).

وبعد ولنا أن الآية الكريمة تنسج للرأيين فهذه العقوبة التي أنزلها - سبحانه - بقوم نوح - عليه السلام - بقيت عبرة لمن بعدها لينزجروا، ويكفوا عن تكذيب الرسل، كما أن السفينة قد أبقاها - سبحانه - بعد إغراقهم إلى الزمن الذي قدره وأراد، لتكون - أيضا - عبرة وعظة لغيرهم.

والإستفهام في قوله: فهل من مدكر، للحض على التذكر والاعتبار. ولفظه: مدكر، أصله مذتكر من الذكر الذي هو ضد النسيان، فأبدلت التاء دالا مهملة، وكذا الذال المعجمة ثم أذغمت فيها، ومنه قوله - تعالى -: وقال الذي يحا منهما وادكر بعد أمة... دأى: وتذكر بعد نسيان.

أى: ولقد تركنا ما فعلناه بقوم نوح عبرة، فاعتبروا بذلك - أيها الناس -، وأخلصوا لله - تعالى - العبادة والطاعة، لتنجوا من غضبه وعقابه.

والاستفهام في قوله - سبحانه - : فكيف كان عذابي ونذر، التهويل والتعجيب من شدة هذا العذاب الذي حاق بقوم نوح - عليه السلام - . أى: فكيف كان عذابي لهم، وإنذارى لإبائهم؟ لقد كانا على كيفية هائلة لا يحيط بها الوصف، ولا نخدعها العبارة.

والنذر: مفردة نذير، وجمع لتكرار الإنذار من نوح - عليه السلام - لقومه.

قال الجمل : وقرئ - في السبع بإثبات الياء وحذفها وأما في الرسم فلا تثبت لأنها من ياءات الزوائد ، وكذا يقال في المواضع الآتية كلها ... (١) .
ثم بين - سبحانه - مظاهر فضله ورحمته على هذه الأمة ، حيث جعل كتابه ميسرا في حفظه وفهمه ، فقال - تعالى - : ولقد يسرنا القرآن للذكر ، فقل من مدكر .

أى : والله لقد سهلنا القرآن للذكر ، أى : للتذكر والحفظ ، بأن أنزلناه فصيحاً في ألفاظه ، بليغاً في تراكيبه ، واضحاً في معانيه ، سهل الحفظ لمن أراد أن يحفظه ... فقل من مدكر ومتعظ ، بقصصه ، ووعدته ، ووعدته ، وأمره ، ونهيته ... ؟

وقد وردت هذه الآية في أعقاب قصة قوم نوح وهود وصالح ولوط - عليهم السلام - ، لتأكيد مضمون ما سبق في قوله - تعالى - : ولقد جاءهم من الأنبياء ما فيه مزدجر . حكمة بالغة فما تغنى النذر .

وللتنبية والإشعار بأن كل قصة من تلك القصص جديرة بإيجاب الانعاط ، وكافية في الاعتبار والادِّجار ، لمن كان له قلب ، أو ألقى السمع وهو شهيد .

والمقصود بالآية السكرية التحريض على حفظ القرآن الكريم ، والاعتبار بمواعظه ، والعمل بما فيه من تشريعات حكيمه ، وآداب قويمة ، وهدايات سامية ...

• • •

ثم انتقلت السورة إلى الحديث عن قصة قبيلة عاد مع نبيهم هود - عليه السلام - ، فذكرت ما حل بهم من عقاب بسبب كفرهم ودينانهم ، فقال - تعالى - :

(١) حاشية الجمل على الجلالين ج ٤ ص ٨٤ .

« كَذَبْتَ هَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرُ (١٨) إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ (١٩) تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أُعْجَازُ نَخْلٍ مَنْقَعٍ (٢٠) فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرُ (٢١) وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (٢٢) » .

والمراد بعاد ، تلك القبيلة التي ينتهي نسبها إلى جدهم عاد ، وكانت مساكنهم بالأحقاف في جنـوب الجزيرة العربية . وكانوا يعبدون الأصنام ، فأرسل الله - تعالى - إليهم نبيهم هودا - عليه السلام - لكي يأمرهم بعبادة الله - تعالى - وحده ، وينهاهم عن عبادة غيره ...

وقد جاء الحديث عنهم بصورة أكثر تفصيلا ، في سور : الأعراف ، وهود ، والشعراء ، والأحقاف .. ولم تعطف قصتهم هنا على قصة نوح التي قبلها ، للإشعار بأنها قصة مستقلة جديرة بأن يعتبر بها المعتبرون ، ويتعظ بها المتعظون ...

وحذف المفعول في قوله : « كذبت عاد ، لعلم به ، وهو نبيهم هود - عليه السلام - أي : كذبت قبيلة عاد نبيها هودا - عليه السلام - .

والاستفهام في قوله - سبحانه - : « فكيف كان عذابي ونذر ، للتوبيخ ، ولتشويق نفوس السامعين إلى معرفة العذاب الشديد الذي حل بهم .

أي : كذبت قبيلة عاد نبيها ، فهل علمتم ما حل بها من دمار وهلاك ؟ إن كنتم لم تعلموا ذلك فما كم خبره ...

« إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا ... ، أي : إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا شديدة البرودة والقوة ، ذات صوت هائل .

« في يوم نحس مستمر ، أي : في يوم مشؤم عليهم ، وشؤمه دائم ومستمر لم ينقطع عنهم حتى دمرهم .

قال ابن كثير : قوله : . مستمر ، أى : مستمر عليهم نحسه ودماره ، لأنه يوم اتصل فيه عذابهم الدنيوى ، بالآخرى (١) .

وشبهه بهذه الآية قوله - تعالى - : : فأرسلنا عليهم ريحا صرصرا فى أيام نحسات ، لنذيقهم عذاب الخزي فى الحياة الدنيا ، ولعذاب الآخرة أخزى وهم لا ينصرون (٢) .

وإضافة : يوم ، إلى : نحس ، من إضافة الزمان إلى ما يقع فيه ، كقولهم : يوم فتح خيبر

والمراد أنه يوم منحوس ومشعوم بالنسبة لظول المهلكين ، وليس المراد أنه يوم منحوس بذاته ، لأن الأيام يداولها الله - تعالى - بين الناس ، بمقتضى إرادته وحكمته .

وقوله : : تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر ، ببيان لقوة هذه الريح وشدها

والنزع : الإزالة للشيء بعنف ، حتى يزول عن آخره ، وينفصل عما كان متصلا به .

والمراد بالناس : هؤلاء المهلكين من قوم هود - عليه السلام - .

والأعجاز : جمع عجز ، وهو مؤخر الشيء وأسفله . وأعجاز النخل : أصولها التى تقوم عليها . والمراد بها هنا : النخل بتمامه ماعدا الفروع .

وقوله : : منقعر ، اسم فاعل انقعر ، مطاوع قعره ، أى : بلغ قعره بالحفر ، يقال : قعر فلان البئر إذا بلغ قعرها فى الحفر ، وهو صفة للنخل .

أى : أن الريح لشدها وقوتها ، كانت تقتلهم من أماكنهم ، وتلقى بهم

(١) تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٣٦٤ .

(٢) سورة فصلت الآية ١٦ .

بعيداً وهم صرعى ، فكأنهم وهم ممددون على الأرض ملكي ، أعجاز نخل قد انقطع عن أصوله . وسقط على الأرض ...

قال ابن كثير : . وذلك أن الريح كانت تأتي أحدهم ، فترفعه حتى تغيبه عن الأبصار ، ثم تنسكه على أم رأسه . فيسقط على الأرض ، فتقطع رأسه ، فيبقى جثة بلا رأس ، ولهذا قال : . كأنهم أعجاز نخل منقعر ، (١) .

فآية السكرة فيها ما فيها من النفاذ لما أصابهم من ذلك واستئصال . وشبهه بهذه الآية قوله - تعالى - : . وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عانية سخرت عليهم سبع ليال ، وثمانية أيام حسوما ، فترى القوم فيها صرعى ، كأنهم أعجاز نخل خاوية

ثم ختم - سبحانه - قصة هؤلاء الطغاة ، بمثل ما ختم به قصة قوم نوح ، من تذكير الناس بما أصاب هؤلاء الظالمين من عذاب اليم ، ومن دعوتهم إلى الاعتبار بقصص القرآن ، وزواجه ، ووعده ووعيده . . . فقال - تعالى - : . فكيف كان عذابي ونذر . ولقد يسرنا القرآن للذكر ، فهل من مدكر . .

• • •

ثم جاءت بعد قصة قوم هود قصة قوم صالح - عليهما السلام - فقال - سبحانه - :

« كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ (٢٣) فَقَالُوا أَبَشَرٌ مِثْلُنَا وَاحِدًا تَتَّبِعُهُ ، إِنَّا إِذَا نَفَيْ ضَلَالٍ وَسُومٍ (٢٤) أَلْقَى اللَّهُ كُرًّا عَلَيْهِ مِنْ يَمِينِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ (٢٥) سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُّ (٢٦) إِنَّا مُرْسَلُوا نَذَارَةً لَكُم فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ (٢٧) وَيُنَبِّئُكَ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ »

يَنْتَهُم كُلُّ شَرِّبٍ مُخْتَضِرٍ (٢٨) فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ (٢٩)
فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٌ (٣٠) إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيِّحَةً وَاحِدَةً
فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُخْتَطِرِ (٣١) وَلَقَدْ يَسْرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ
مِنْ مُدَّكِرٍ (٣٢) .

وقصة قبيلة ثمود مع نبيهم صالح - عليه السلام - قد وردت في سور متعددة،
منها سورة الأعراف ، وسورة هود ، وسورة الشعراء ، وسورة النمل .
وينتهى نسبهم إلى جدهم ثمود ، وقبل سموا بذلك لقلة ماء المكان الذى
كانوا يعيشون فيه ، لأن التمد هو الماء القليل .

وكانت مساكنهم بالحجر - بكسر الحاء وسكون الجيم - ، وهو مكانه
يقع بين الحجاز والشام ، ومازال معروفا إلى الآن .

ونبيهم صالح - عليه السلام - ينتهى نسبه إلى نوح - عليه السلام - .
وقوله : : كذبت ثمود بالنذر ، أى : كذبت قبيلة ثمود بالنذر التى جاءتهم
عن طريق رسولهم صالح - عليه السلام - . فالنذر بمعنى الإنذارات التى أنذرهم
بها صالح - عليه السلام - ثم حكى - سبحانه - مظاهرها تكذيبهم فقال : : فقالوا
أبشرا منا واحدا نتبعه

و : بشرا ، منصوب على المفعولية بالفعل ، تتبعه ، على طريقة الاشتغال ،
وقد - لانصالة بهمزة الاستفهام ، لأن حقها التصدير . والاستفهام للانكار ،
وواحدا صفة لقوله ، بشرا ، .

أى : أن قوم صالح - عليه السلام - حين جاءهم برسالته التى تدعوهم إلى
إخلاص العباداة لله - تعالى - ، أنكروا ذلك ، وقالوا : أتتبع واحدا من أقباء
البشر جاءنا بهذا الكلام الذى يخالف ما كان عليه آباؤنا وأجدادنا ؟

و : إنما إذا فى ضلال وسعر ، أى : إنما إذا لو اتبعناه ، لصرنا فى ضلال عظيم ،
وفى دسر ، أى وفى جنون واضح . ومنه قولهم : ناقة مسعورة ، إذا كانت
لا تستقر على حال ، وتفرط فى سيرها كالمنجونة .

أو المعنى : إنا لو اتبعناه لمكننا في ضلال ، وفي نيران عظيمة . فالسعر بمعنى النار المسعرة ثم أخذوا في تفنيد دعوته ، فقالوا : « أألقى الذكر عليه من بيننا .. » والاستفهام الإنكار والنفي . والمراد بالإلقاء : الإنزال . وبالدكر : الوحي الذي أوحاه الله - تعالى - إليه ، وبلغه لهم .

أى : أنزل الوحي على صالح وحماد ، دوننا ؟ لا لم ينزل عليه الوحي دوننا ، فهو واحد من أفئتنا ، وليس من أشرافنا ...

« بل هو كذاب أشر » ، أى : بل صالح فيما يدعونا إليه كذاب . أشر ، أى : بظلمته ، معجب بنفسه ، يقال : أشر فلان ، إذا أبطرت له النعمة ، وصار مغرورا متكبرا على غيره ، ولا يستعمل نعم الله فيما خلقت له .

وهكذا الجاهلون الجاحدون ، يقلبون الحقائق ، وتصير الحسنات في حقوهم سيئات ، فصالح - عليه السلام - الذى جاءهم بما يسعدهم أصبح في نظرهم كذابا مغرورا ، لا يلبق بهم أن يتبعوه ...

وقد رد - سبحانه - عليهم ردا يحمل لهم التهديد والوعيد ، فقال - تعالى - : « سيعلمون غدا من الكذاب الأشر » .

أى : سيعلم هؤلاء الكافرون ، فى الغد القريب يوم ينزل بهم العذاب المبين ، من هو الكذاب فى أقواله ، ومن هو المغرور المتكبر على غيره ، أصالح - عليه السلام - أم هم !!

والتعبير بالسين فى قوله « سيعلمون » ، لتقريب مضمون الجملة ونا كيدته . والمراد بقوله : « غدا » الزمان المستقبل القريب الذى سينزل فيه العذاب عليهم ...

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك ، ما أمر به نبيه صالحا - عليه السلام - فقال : « إنا مرسلو الناقة فتنة لهم ، فارتقبهم واصطبر . ونبئهم أن الماء قسمة بينهم كل شرب محضر » .

وقوله : « مرسلو الناقة ، أى : مخرجوها وباعثوها ، لأنهم اقترحوا على نبيهم صالح أن يأتيهم بمعجزة تدل على صدقه ، لكي يتبعوه ، فأخرج الله - تعالى - لهم تلك الناقة ، من مكان مرتفع قريب منهم .

وإلى هذا المعنى أشار - سبحانه - في آيات أخرى منها قوله - تعالى - : « قالوا إنما أنت من المسحورين . ما أنت إلا بشر مثلنا ، فأت بآية إن كنت من الصادقين . قال هذه ناقة لها شرب ولكم شرب يوم معلوم ... » (١) .

وقوله « فتنه » ، أى : اختبارا وامتحانا لهم ، فهو مفعول لأجله .

وقوله « فارتقبهم » ، من الارتقاب بمعنى الانتظار ، ومثله « واصطبر » فهو من الاصطبار وأل فى قوله : « ونبيهم أن الماء قسمة بينهم .. » ، للمهد .
أى : الماء المعبود لهم ، وهو ماء قريتهم الذى يستعملونه فى حوائجهم المتنوعة .

وقوله « قسمة » ، بمعنى المقسوم ، وغير عنه بالمصدر للمبالغة .

و« ضمير فى » بينهم ، يعود عليهم وعلى الناقة ، وجىء بضمير العقلاء على سبيل التغليب .

وقوله : « محتضر » اسم مفعول من الحضور الذى هو ضد الغيبة وحذف المتعلق لظهوره . أى : محتضر عنده صاحبه .

والشرب : النصيب والمرة من الشرب .

أى : وقلنا لنبينا صالح على سبيل الإرشاد والتعليم ، بعد أن طلب منه قومه معجزة تدل على صدقه : قلنا له . أخبرهم إننا سنرسل الناقة ، وسنخرجها لهم أمام أعينهم ، لتكون دليلا على صدقك ، ولتكون امتحانا واختبارا لهم ، حتى يظهر لك وللناس أيؤمنون أم يصرون على كفرهم .

« فارتقبهم ، - أيها الرسول الكريم - ، وانتظر ماذا سيصنعون بعد ذلك واصطبر ، على أذا هم صبرا جميلا ، حتى يحكم الله بينك وبينهم . . . »
 « ونبئهم ، أي : وأخبرهم خيرا هاما ، هذا الخبر هو : أن الماء ، الذي يستقون منه ، قسمة بينهم ، وبين الناقة ، أي : مقسوم بينهم وبينها ، فهم لا يشركونها في يوم شربها ، وهي لا تشاركهم في يوم شربهم .
 « كل شرب محضر ، أي : كل نصيب من الماء يحضره من هوله . فالناقة تحضر إلى الماء في يومها ، وهم يحضرون إليه في يوم آخر .

ففي هاتين الآيتين تعليم حكيم من الله - تعالى - لنبيه صالح ، وإرشاد له إلى ما يجب أن يسلكه معهم ، بيقظة واعية يدل عليها قوله - تعالى - : « فارتقبهم » وبصبر جميل لا يأس منه ، ولا ضجر ، كما يشير إليه قوله - تعالى - : (واصطبر) .
 وسياق القصة ينبئ عن كلام محذوف ، يعلم من سياقها ، والتقدير : أرسلنا الناقة ، وقلنا له أخبرهم ، أن الماء مقسوم بينهم وبين الناقة ، واستمروا على ذلك فترة من الزمان ، وانكبتهم ملوا هذه القسمة ، ولم يرتضوها ، وأجمعوا على قتل الناقة . . .

(فنادوا صاحبهم) وهو (قداد بن سالف) وهو المعبر عنه بقوله - تعالى - :
 « في آية أخرى : (إذا نبعث أشقاها) .
 وعبر عنه - سبحانه - بصاحبهم ، لأنه كان معروفا لهم ، وزعيما من وعظماهم . . .

والمقصود بنبذاتهم إياه : إغراؤه بعقر الناقة وقتلها ، مخالفين بذلك وصية نبيهم لهم بقوله : « ولا تمسوها بسوء فإياكم عذاب عظيم » .
 وقوله تعالى (فتعاطى فمقر) مفرع على ما قبله . وقوله . (تعاطى) مطاوع للفعل عاطاء ، وهو مشتق من عطا يهطو ، إذا تناول الشيء .
 وهذه الصيغة (تعاطى) تشير إلى تعدد الفاعل ، فكان هذا النداء بقتل

الناقة ، تدافعوه فيها بينهم ، وألقاه بعضهم على بعض ، فكان كل واحد منهم يدفعه إلى غيره ، حتى استقر عند ذلك الشقى الذى ارتضى القيام به ، وتولى بره ، حيث عقر الناقة . فمفعول « عقر » محذوف للعلم به .

قال الألوسى : قوله : « فتعاطى » العقر . أى : فاجترأ على تعاطيه مع عظامه غير مكثرت به .

« فعقر » أى : فأحدث العقر بالناقة . وجوز أن يكون فتعاطى الناقة فعقرها .

أو : فتعاطى السيف فقتلها ، وعلى كل فمفعول تعاطى محذوف . . . (١) .
ولانعارض بين هذه الآية التى ثبت أن الذى عقر الناقة هو هذا الشقى ، وبين الآيات الأخرى التى تصرح بأنهم هم الذين عقروها ، كما فى قوله - تعالى - :
« فعقروها فقال تمتعوا فى داركم ثلاثة أيام . . . » .

لأن المقصود أن القوم قد اتفقوا على هذا القتل للناقة ، فنادوا واحدا منهم لتنفيذه ، فنفذه وهم له مؤيدون ، فصاروا كأنهم جميعا قد عقروها ، لرضاهم بفعله والعقر : يطلق على القتل والذبح والجرح ، والمراد به هنا : قتلها ونحرها .

والتعبير بقوله - تعالى - بعد ذلك : « فكيف كان عذابى ونذر ، يشير إلى هول العقوبة التى نزلت بهم ، بسبب ما فعلوه من عقر الناقة ، ومن تكذيبهم لنبيهم .

أى : انظر وتدبر - أيها العاقل - كيف كان عذابى وإنذارى لهؤلاء القوم ؟ لقد كان شيئا هائلا لا تحيط به العبارة .

ثم فصل - سبحانه - هذا العقاب فقال : « إنا أرسلنا عليهم صيحة واحدة ، فكانوا كشهم المحنظر » .

والهشيم : ما هشم ونفتت وتكسر من الشجر اليابس ، مأخوذ من الهشم بمعنى التكسر للشيء اليابس ، أو الأجوف .

والمحتظر : هو الذى يعمل الحظيرة التى تكون مسكنا للحيوانات .

أى : إنا أرسلنا عليهم - بقدرتنا ومشيتنا - صيحة واحدة صاحبهم جبريل - عليه السلام - ، فصاروا بعدها كغصون الأشجار اليابسه المكسرة ، يجمعها لإنسان يعمل منها حظيرة لسكنى حيواناته .

والمقصود بهذا التشبيه ، بيان عظم ما أصابهم من عقاب مبين ، جعلهم كالأعواد الجافة حين تتحطم وتتكسر . ويجمعها الجامع ليصنع منها حظيرة ، أو لتكون تحت أرجل مواشيه .

وهذا العذاب غير عنه هنا وفى سورة هود بالصيحة فقال : : وأخذ الذين ظلموا الصيحة

وعبر عنه فى سورة الأعراف بارجفة فقال : : فأخذتهم الرجفة ... ، وعبر عنه فى سورة فصلت بالصاعقة فقال : : وأما ثمود فهديناهم فاستجبوا الأسمى على الهدى ، فأخذتهم صاعقة العذاب الهون بما كافوا . يكسبون ، . وعبر عنه فى سورة الحاقة بالطاغية ، فقال : : فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية

ولانتمارض بين هذه التعبيرات ، لأنها متقاربة فى معناها . ويكمل بعضها بعضا ، وهى تدل على شدة ما أصابهم من عذاب .

فـ كـأنه - سبحانه - يقول : لقد نزل بهؤلاء المكذبين : الصيحة التى زلزلت كياناتهم ، فصعقتهم وأبادتهم ، وجهلهم كعبدان الشجر اليابس

ثم ختم - سبحانه - هذه القصة بما ختم به سابقها فقال : : ولقد يسرفنا القرآن للذكر فهل من مدكر ، .

وجاءت بعد قصة قوم صالح ، قصة قوم لوط - عليهما السلام - فقال
- تعالى - :

« كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالْأُنْذُرِ (٣٣) إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا ، إِلَّا آلَ
لُوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ (٣٤) نِعْمَةً مِنْ عِنْدِنَا كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ (٣٥)
وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَحَارَوْا بِالْأُنْذُرِ (٣٦) وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ
فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذِرْ (٣٧) وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً
عَذَابٌ مُسْتَقِرٌّ (٣٨) فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذِرْ (٣٩) وَلَقَدْ يَسْرْنَا الْقُرْآنَ
لِلَّذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدْكِرٍ (٤٠) » .

وقصة لوط - عليه السلام - قد وردت في سور متعددة ، منها : سور
الأعراف ، وهود ، والشعراء ، والنمل ، والعنكبوت ...

ولوط - عليه السلام - هو - علي الراجح - ابن أخى إبراهيم - عليه
السلام - ، وكان قد آمن به وهاجر معه إلى أرض الشام ، فبعثه الله - تعالى -
إلى أهل سدوم - وهى قرية بوادى الأردن - ، وكانوا يأتون الفواحش التى
لم يسبقهم إليها أحد ...

وقوله - تعالى - : « كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالْأُنْذُرِ ، أَى : كَذَّبُوا بِالْإِنْذَارَاتِ
والتهديدات التى هددهم بها نبيهم لوط ، إذا لم يستجيبوا لإرشاداته وأمره
ونهيته ... »

فكانت نتيجة هذا التكذيب والنزور الذى انغمسوا فيه الهلاك والدمار ،
كما قال - تعالى - : « إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا ... » .

والحاصب : الريح التى تحصب ، أى : ترمى بالحصباء وهى الحجارة الصغيرة
التي تملك من تصيبه بأمر الله - تعالى - :

فقوله : « حاصبا ، صفة لموصوف محذوف وهو الريح ، وجىء به مذكرا لكون موصوفه وهو الريح فى تأويل العذاب . أى : إنا أرسلنا عليهم عذابا حاصبا أهلهم .. »

والاستثناء فى قوله - سبحانه - : « إلا آل لوط نجيناهم بسحر » استثناء متصل ، لأنهم من قومه .

والسحر : هو الوقت الذى يختلط فيه سواد آخر الليل ، ببياض أول النهار وهو قبيل مطلع الفجر بقليل .

أى : إنا أرسلنا عليهم ريحا شديدة ترميهم بالخصباء فتهلكهم ، إلا آل لوط وهم من آمن به من قومه ، فقد نجيناهم من هذا العذاب المهلك فى وقت السحر ، فالباء فى قوله « يسحر » بمعنى فى الظرفية . أو هى اللابسة . أى : حال كونهم ملتبسين بسحر .

وقوله - تعالى - : « نعمة من عندنا ... » علة للإيجاء . والنعمة بمعنى الإنعام . أى : أنجينا آل لوط من العذاب الذى نزل بقومه ، على سبيل الإنعام الصادر من عندنا عليهم لامن عند غيرنا .

وقوله - تعالى - : « كذلك نجزي من شكر » بيان لسبب هذا الإنعام والإيجاء .

أى : مثل هذا الجزاء العظيم ، المتمثل فى إباحتنا للمؤمنين من آل لوط ، وفى إنعامنا عليهم ... نجازى كل شاكر لنا ، ومستجيب لأمرنا ونهيها .

فالآية الكريمة بشارة للمؤمنين الشاكرين حتى يزدادوا من الطاعة لربهم ، وتعرض بسوء مصير الكافرين الذين لم يشكروا الله - تعالى - على نعمه .

وفى قوله - تعالى - : « من عندنا » تنويه عظيم بهذا الإنعام ، لأنه صادر من عنده - تعالى - ، الذى لا تعد ولا تحصى نعمه .

ثم بين - سبحانه - الأسباب التي أدت بقوم لوط إلى الدمار والهلاك فقال :
« ولقد أنذرهم بشططنا فهاؤا بالذذر . . . » .

والبطشة : المرة من البطش ، بمعنى الأخذ بعنف وقوة ، والمراد بها هنا :
الإهلاك الشديد .

والتماهى : تفاعل من المراء بمعنى الجدال ، والمراد به هنا : التكذيب
والاستهزاء ، ولذا عدى بالياء دون فى .

أى : والله لقد أنذرهم لوط - عليه السلام - وخوفهم من عذابنا الشديد
الذى لا يبقى ولا يذر ، ولكنهم كذبوه واستهزؤا به ، وتهديده وتهويله
إياهم .

ثم حكى - سبحانه - صورة أخرى من فجورهم فقال : « ولقد راودوه عن
ضيقه ، فطمسنا أعينهم ، فذوقوا عذابي ونذر ، » .

والمرادة مفاعلة ، من راود فلان يرود ، إذا جاء وذهب ، لكي يصل إلى
ما يريد من غيره ، عن طريق المحايلة والمخادعة .

والمراد بضيقه : ضيقه من الملائكة الذين جاؤا إلى لوط - عليه السلام -
لإخباره بإهلاك قومه ، وبأن موعدهم أصبح . . .

أى : والله لقد حاول هؤلاء الكفرة الفجرة المرة بعد المرة ، مع لوط
- عليهم السلام - أن يمسكهم من فعل الفاحشة مع ضيقه . . .

فكانت نتيجة محاولاتهم القبيحة أن : طمسنا أعينهم ، أى : حجبناها عن
النظر ، فصاروا لا يرون شيئا أمامهم . . .

قال القرطبي : يروى أن جهيل - عليه السلام - ضربهم بجناحه فعموا .
وقيل : صارت أعينهم كساتر الوجه لا يرى لها شق ، كما تطمس الريح الأعلام
بما تسفى عليها من التراب . وقيل : طمس الله على أبصارهم فلم يروا الرسل (١).

وعلى - سبحانه - فعل المراودة بعض ، لتضمنه معنى الإبعاد والدفع .
 أى : حاولوا دفعه عن ضيوفه ، ليتمكنوا منهم .

وأسند المراودة إليهم جميعا : لرضاهم عنها ، بقطع النظر عن قام بها .

وقوله : « ذوقوا عذابي ونذر » ، مقول لقول محذوف ، أى طمست أعينهم
 وقلنا لهم ذوقوا عذابي الشديد الذى سينزل بكم ، بسبب تكذيبكم لرسولى ،
 واستخفافكم بما وجه إليكم من تخويف وإنذار .

والمراد من هذا الأمر : الخبر . أى : فأذقتم عذابي الذى أنذرتكم به لوط
 - عليه السلام - .

ثم بين - سبحانه - ما حل بهم من عذاب فقال : « ولقد صبحهم بكرة
 عذاب مستقر . . . » .

والبكرة : أول النهار وهو وقت الصبح ، وجيء بلفظ بكرة للإشعار
 بتعجيل العذاب لهم ، أى : والله لقد نزل بهم عذابنا فى الوقت المبكر من
 الصباح ، نزولا دائما ثابتا مستقرا لا ينفك عنهم ، ولا ينفكون عنه . . .
 وقلنا لهم : ذوقوا عذابي ، وسوء عاقبة تكذيبكم لرسولى لوط - عليه
 السلام - .

ثم ختم - سبحانه - قصتهم بما ختم به القصص السابقة فقال : « ولقد
 يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر » .

قال صاحب الكشف : فإن قلت : ما فائدة تكرير قوله : « ذوقوا عذابي
 ونذر » ، ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر ؟

قلت : فائدته أن يحددوا عند استماع كل نبا من أنباء الأولين ، أذكارا
 وانعازا ، وأن يستأنفوا نفيها واستيقاظا إذا سمعوا الحث على ذلك والبعث
 عليه ، وأن يقرع لهم العصايرات ، ويقذف لهم الحجارات لتلا يظلم السوء

ولا تستولى عليهم الغفلة ، وهذا حكم التكرير ، كقوله : . فبأي آلاء ربك
تكذبان ، عند كل نعمة عدها في سورة الرحمن :

و كقوله : . ويل يومئذ للكافرين ، عند كل آية أوردها في سورة
المرسلات . وكذلك تكرير الأنبياء والقصص في أنفسها ، لتكون تلك العبر
حاضرة للقلوب ، مصورة للأذهان ، مذكورة غير منسية في كل
أوان (١) .

• • •

ثم ختم - سبحانه - السورة التكريرة ، ببيان ما حل بفرعون وقومه ،
وبتحذير مشركي قريش من سوء عاقبة كفرهم ، وبيان ما أعد لهم من عذاب
يوم القيامة ، وببشير المتقين بحسن العاقبة فقال - تعالى - :

« وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النَّذْرُ (٤١) كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ
أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ (٤٢) أَكْفَارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكَ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ
فِي الزُّبُرِ (٤٣) أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنتَصِرُونَ (٤٤) سَيَهْزِمُ الْجَمْعُ
وَيُؤْثِنُ الدُّبُرُ (٤٥) بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمُ وَالسَّاعَةُ أَذًى وَأَمْرٌ (٤٦)
إِنَّ الْمَجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ (٤٧) يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ
ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ (٤٨) إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ (٤٩) وَمَا أَمْرُنَا
إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ (٥٠) وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِنْ
مُدْكِرٍ (٥١) وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ (٥٢) وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ
مُسْتَطَرٌ (٥٣) إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ (٥٤) فِي مَقْعَدٍ صِدْقٍ نَدَى
مَلِكٍ مُقْتَدِرٍ (٥٥) » .

الحمد لله

(١) تفسير الكشاف ج ٤ ص ١٤٨

وقصة فرعون وملئه مع موسى - عليه السلام - قد تكررت في سور متعددة، منها سور: الأعراف، ويونس، وهود، وطه، والشعراء، والقصص ...

وهنا جاء الحديث عن فرعون وملئه في آيتين، بين - سبحانه - ما حل بهم من عذاب، بسبب تكذيبهم لآيات الله - تعالى -، فقال - سبحانه - : « ولقد جاء آل فرعون النذر ، .

والمراد بآل فرعون : أقرباؤه وحاشيته وأتباعه الذين كانوا يؤيدونه ويناصرونه .

والنذر : جمع نذير ، اسم مصدر بمعنى الإنذار ، وجيء به بصيغة الجمع ، لكثر الإنذارات التي وجهها موسى عليه السلام - إليهم .

أي : « والله لقد جاء إلى فرعون وآله ، الكثير من الإنذارات والتهديدات على لسان نبينا موسى ، - عليه السلام - . ولمكنهم لم يستجيبوا له ...

بل كذبوا بآياتنا كلها ، أي : بل كذبوا بجميع المعجزات التي أبدنا موسى - عليه السلام - بها ، والتي كانت تدل أعظم دلالة على صدقه فيما يدهوم إليه .

وأكد - سبحانه - هذه المعجزات بقوله « كلها » للاشعار بكثرتها ، وبأنهم قد أنكروها جميعا دون أن يستثنوا منها شيئا .

وقوله : « فأخذناهم أخذ عزيز مقتدر » بيان لشدة العذاب الذي نزل بهم ، إذ الأخذ مستعار . للانتقام الشديد ، وانتصاب « أخذ » على المفعولية المطلقة ، وإضافته إلى عزيز مقتدر ، من إضافة المصدر إلى فاعله .

والعزيز : الذي لا يغلبه غالب والمقتدر : الذي لا يعجزه شيء . يريد .

أي : فأخذناهم أخذنا لم يبق منهم أحدا ، بل أهلكناهم جميعا ، لأن هذا الأخذ صادر عن الله - عز وجل - الذي لا يغلبه غالب ، ولا يعجزه شيء .

ووصف - سبحانه - ذاته هنا بصفة العزة والافتدار ، للرد على دعاوى
فرعون وطغيانه وتبججه ، فقد وصل به الحال أنه زعم أنه الرب الأعلى ،
فأخذه - سبحانه - أخذ عزيز مقتدر ، يحق الحق ، ويهطل الباطل .

وبعد هذا الحديث المتنوع عن أخبار الطغاة الغابرين ، انفتحت السورة
الكريمة بالخطاب إلى كفار مكة ، لتحذرم من سوء عاقبة الاقتداء بالكافرين
ولتدعوم إلى التفكر والاعتبار ، فقال - تعالى - : أ كفاركم خير من أولئكم
أم لكم براعة في الزبر

والاستقوام للفنى والإنكار . والمراد بالخيرية . الخيرية الدنيوية كالقوة
والغنى ، والجاه ، والسلطان ، والخطاب لأهل مكة .

والبراعة من الشئ : التخلص من تبعاته وشروره ، والمراد بها هنا التخلص
من العذاب الذى أعده الله - تعالى - للكافرين ، والسلامة منه .

والزبر : جمع زبور ، وهو الكتاب الذى يكتب فيه .

والمعنى : أ كفاركم - يا أهل مكة - خير من أولئكم السابقين فى القوة
والغنى والتمسكين فى الأرض ... ؟

أم أن لكم عندنا عهدا فى كتبنا ، بأن لا نؤاخذكم على كفركم
وشرككم .. ؟

كلا ، ليس لكم شئ من ذلك ، فأنتم لستم بأقوى من قوم نوح وهود
وصالح ولوط ، أو من فرعون وملئه . وأنتم - أيضا - لم تأخذوا منا عهدا بأن
نبرئكم من العقوبة على كفركم ...

وما دام الأمر كذلك فكيف أبحتم لأنفسكم الإصرار على الكفر
والجود ؟ إن ما أنعم عليه من شرك لا يلىق بمن عنده شئ من العقل
السليم .

ثم لا تنتقل - سبحانه - إلى توبيخهم على شو . آخر من أقوالهم الباطلة فقال
 : أم يقولون نحن جميع منتصر

أى : بل أيقولون نحن جميع يد واحدة ، وسننتصر على من خالفنا وعادانا ؟
 ولقد توهّموا ذلك فعلا . وجاهروا به .

وقد رد الله - تعالى - عليهم بما يبطل دعاوهم فقال : « سيهزم الجمع
 ويولون الدبر » ، والتعريف فى « الجمع » ، لاهم . والدبر : الظهر وما أدبر من
 المتجه إلى الإمام .

أى : سيهزم جمع هؤلاء الكافرين ، ويولون أدبارهم نحوكم - أيها المؤمنون -
 ويفرون من أمامكم ...

والتعبير بالسين لتأكيد أمر هزيمتهم فى المستقبل القريب ، كما فى قوله :
 - تعالى - : « قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون إلى جهنم وبئس المهاد » .

والآية الكريمة من باب الإخبار بالغيب ، الدال على إعجاز القرآن الكريم
 قال الألوسى : والآية من دلائل النبوة ، لأن الآية مكينة ، وقد نزلت حيث
 لم يفرض جهاد ، ولا كان قتال ، ولذا قال عمر يوم نزلت : أى جمع يهزم ،
 أى : من جموع الكفار . فلما كان يوم بدر ، رأيت رسول الله - صلى الله
 عليه وسلم - يثبت فى الدرع وهو يقول : « سيهزم الجمع ويولون الدبر » ، فعرفت
 تأويلها يومئذ (١)

ثم بين - سبحانه - أن هزيمة المشركين ستعقبها هزيمة أشد منها وأنكى
 فقال : « بل الساعة موعدهم ، والساعة أدهى وأمر » ،

والمراد بالساعة : يوم القيامة . وأدهى : اسم تفضيل من الداهية ، وهى
 الأمر المنكر الفظيع الذى لا يعرف طريق للخلاص منه .

وقوله « وأمر » ، أى : وأشد مرارة وقبحا .

أى : ليس هذا الذى يحصل لهم فى الدنيا من هزائم نهاية عقوباتهم ، بل يوم القيامة هو يوم نهاية وعيهم السيئ ، ويوم القيامة أعظم داهية ، وأشد مرارة مما سيصيبهم من عذاب دنيوى .

ثم فصل - سبحانه - ما سينزل بهم من عذاب يوم القيامة فقال : « إن المجرمين فى ضلال وسعر ،

أى : فى بعد عن الإعتدال إلى الحق بسبب انطباع بصائرهم ، وإيثارهم الغي على الرشد ، وفى نار مسعرة تغشاهم من فوقهم ومن تحتهم .

ويقال لهم : يوم يسحبون فى النار على وجوههم ، أى : يوم يجرون فى النار على وجوههم ، على سبيل الإهانة والإذلال .

« ذوقوا مس سقر » أى : ويقال لهم : ذوقوا مس جهنم التى كنتم تكذبون بها ، وقاسوا الآمها وعذابها .

فقوله - تعالى - : « سقر » علم على جهنم ، مأخوذ من سقرت الشمس الشيء وصقرته ، إذا غيرت معالمه وأذايته . وهو ممتوع من الصرف للعلية والتأنيث .

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك مظاهر كمال قدرته وحكمته فقال : « إنا كل شيء خلقناه بقدر ، وما أمرنا إلا واحدة كلف بالبصر ... »

وقوله « كل » منصوب بفعل يفسره ما بعده . والقدر : ما قدره الله - تعالى - على عباده ، حسب ما تقتضيه حكمته ومشيئته .

أى : إنا خلقنا كل شيء فى هذا الكون ، بتقدير حكيم ، وبعلم شامل ، وبإرادة قامة . وبصرف دقيق لا مجال معه للعبث أو الاضطراب ، كما قال - تعالى - « وكل شيء عنده بمقدار » ، وكما قال - سبحانه - : « وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم ، وكما قال - عز وجل - : « وخلق كل شيء فقدره تقديرا ،

قال الإمام ابن كثير ما ملخصه : وقد استدل بهذه الآية الكريمة أئمة السنة وعلى إثبات قدر الله السابق لحلقه ، وهو عليه بالأشياء قبل كونها ... وردوا بهذه الآية وبما شاكلها ، وبما ورد في معناها من أحاديث وعلى الفرقة القدريّة ، الذين نبغوا في أواخر عصر الصحابة .

ومن ذلك ما أخرجه الإمام أحمد ومسلم والترمذى وابن ماجه عن أبى هريرة قال : جاء مشركوا قريش يخاضعون رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في القدر ، فزالت : « يوم يسحبون في النار على وجوههم ذوقوا مس سقر . لما كل شيء خلقناه بقدر » (١)

والباء في قوله « بقدر » للملابسة . أى : خلقناه ملتبسا بتقدير حكيم ، اقتضته سنتنا ومشيتنا ، في وقت لا يعلمه أحد سوانا ...

وقوله - سبحانه - : « وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر » بيان لكمال قدرته - تعالى - .

واللمح : النظر السريع العاجل الذى لا تريث معه ولا انتظار . يقال : لمح فلان الشيء . إذا أبصره بنظر سريع . . . وقوله : « واحدة » صفة لموصوف محذوف .

أى : وما أمرنا وشأننا فى خلق الأشياء وإيجادها ، إلا كلمة واحدة ، وهى قول : « كن » فتوجد هذه الأشياء كلمح البصرة فى السرعة .

وشبيه هذه الآية قوله - تعالى - : « إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون . »

والمراد بهذه الآية وأمثالها : بيان كمال قدرة الله - تعالى - ، وسرعة إيجاد

لكل ما يريد إيجاده ، وتحذير الظالمين من العذاب الذي متى أَراده الله - تعالى -
فإن يدفعه عنهم دافع ، بل سيأتيهم كلعج البصر في السرعة .

والتعبير بقوله « واحدة » لإفادة أن كل ما يريد الله - تعالى - إيجاده
فسيوجد في أسرع وقت ، وبكلمة واحدة لا بأكثر منها . سواء أكان ذلك
الموجود جليلاً أم حقيراً ، صغيراً أم كبيراً . . .

ثم بين - سبحانه - ما يدل على نفاذ هذه القدرة وسرعتها قال : « ولقد
أهلكنا أشياعكم فهل من مذكر » .

والأشباع : جمع شبعة . وشبعة الرجل : أعوانه وأنصاره ، وكل جماعة
من الناس اتفقت في رأيها فهم شبعة . قالوا : وهو مأخوذ من الشباع ، وهو
الخطب الصغير الذي يوقد مع الكبار ، حتى تشتعل النار . والمراد به هنا :
الأشياء والنظائر .

أى : والله لقد أهلكنا أشباهكم ونظائركم في الكفر من الأمم
السابقة ، فاحذروا أن يصيبكم ما أصابهم ، وانعظوا بما نزل بهم من عقاب .
فالقصد بالآية الكريمة التهديد والتحذير ، والاستفهام فيها للحرص على
الانعاض والاعتبار .

ثم بين - سبحانه - أن كل ما يعمل الإنسان ، هو مسجل عليه ، فقال :
« وكل شيء فعلوه في الزبر » .

أى : وكل شيء فعله هؤلاء المشركون وغيرهم ، مكتوب ومحفوظ
في كتب الحفظ ، ومسجل عليهم لدى الكرام الكاتبين ، بدون زيادة
أو نقصان . . .

كما قال - تعالى - بعد ذلك : « وكل صغير وكبير مستطر » ، أى : وكل
صغير من الأقوال أو الأفعال ، وكل كبير منهما ، فهو مكتوب عندنا ، ومسجل
على صاحبه .

فقوله : « مستطر ، بمعنى مسطور ومكتب . يقال : سطر يسطر سطرا ، إذا كتب ، واستطر مثله . والآية الكريمة مؤكدة لما قبلها .

ومن الآيات الكثيرة التي وردت في هذا المعنى قوله - تعالى - : وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين ، (١) .

ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة ، بتلك البشارة العظيمة للمتقين فقال :
« إن المتقين في جنات ونهر . في مقعد صدق عند مليك مقتدر ، .

أى : إن المتقين الذين صافوا أنفسهم عن كل محارم الله - تعالى - كائنين في جنات عاليات المقدار ، وفي « نهر » أى : وفي سعة من العيش ، ومن مظاهر ذلك أن الأنهار الواسعة تجري من تحت مساكنهم . فالمراد بالنهر جنسه .

وقوله : « في مقعد صدق ، أى : في مكان مرضى ، وفي مجلس كريم ، لا لغو فيه ولا تأثيم وهو الجنة ، فالمراد بالمقعد مكان القعود الذي يقيم فيه الإنسان بأمان وأطمئنان .

« عند مليك مقتدر ، أى : مقربين عند ملك عظيم ، قادر على كل شئ .
فالمراد بالعندية هنا ، عندية الرتبة والمساكنة والتشريف .

وقال - سبحانه - عند مليك ، المبالغة في وصفه - سبحانه - بسعة الملك وعظمه ، إذ وصفه - سبحانه - بمليك ، أبلغ من وصفه بمالك أو ملك ، لأن « ملك » صيغة مبالغة بزنة فعيل .

وتذكير « مقتدر ، للتعظيم والتهويل ، وهو أبلغ من قادر ، إذ زيادة المبنى تشر بزيادة المعنى . أى : عظيم القدرة بحيث لا يحيط بها الوصف .

وبعد فهذا تفسير محرر لسورة القمر ، نسأل الله - تعالى - أن يجعله
خالصا لوجهه ، ونافعا لعباده .

والحمد لله الذي بنعمته تم الصالحات ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى
آله وصحبه وسلم .

كتبه الراجي عفوريه

الدوحة - قطر مساء الأربعاء

محمد سيد طنطاوى

٢ من رجب سنة ١٤٠٦ هـ

عميد كلية الدراسات الإسلامية العربية

١٢/٢/١٩٨٦ م

التفسير الوسيط
للقرآن الكريم

تفسير سُورَةِ الرَّحْمَنِ

لفضيلة
الدكتور محمد السيد طنطاوى
عميد كلية الدراسات الإسلامية والعربية
جامعة الأزهر

(الجزء السابع والعشرون)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة وتمهيد

١ - سورة « الرحمن » سميت بهذا الاسم ، لافتتاحها بهذا الاسم الجليل من أسماء - تعالى - .

وقد وردت تسميتها بهذا الاسم في الحديث الذي أخرجه الإمام الترمذى عن جابر بن عبد الله قال خرج رسول الله - صلى الله عليه وسلم - على أصحابه فقرأ عليهم سورة « الرحمن » من أولها إلى آخرها ، فسكتوا ، فقال - صلى الله عليه وسلم - : لقد قرأها على الجن ، فكانوا أحسن مردودا منكم كنت كلما أتيت على قوله - تعالى - : « فبأي آلاء ربكما تكذبان » قالوا : ولا بشيء من نعمك يا ربنا فكذب فلك الحمد .. ، (١) .

وسميت في حديث مرفوع أخرجه البيهقي عن علي بن أبي طالب - رضى الله عنه - : « دعروس القرآن » .

وقد ذكروا في سبب نزولها ، أن المشركين عندما قالوا : « وما الرحمن » نزلت هذه السورة لترد عليهم ، ولتقن على الله - تعالى - بما هو أهله .

٢ - وهى مكية في قول جمهور الصحابة والتابعين ، وروى عن ابن مسعود وابن عباس أنها مدنية ، وقيل هى مكية إلا قوله - تعالى - « يسأله من فى السموات والأرض » .

قال القرطبي : والقول الأول أصح ، لما روى عن عروة بن الزبير قال : أول من جهر بالقرآن بمكة بعد النبي - صلى الله عليه وسلم - عبد الله بن مسعود ،

وذلك أن الصحابة قالوا : ما سمعت قریش هذا القرآن يجر به نط ، فن رجل
يسمعهم إياه ؟

فقال ابن مسعود : أنا . فقالوا : نخشى عليك ، إنما نريد رجلا له عشيقة
يمنعونه ، فأبى ، ثم قام عند المقام فقال : بسم الله الرحمن الرحيم . الرحمن .
علم القرآن ... ، ثم تهادى رافعا بها صوته وقریش في أنديتها ، فتأملوا وقالوا :
ما يقول ابن أم عبد ؟

قالوا : هو يقول الذى يزعم محمد أنه أنزل عليه ، ثم ضربوه حتى أثروا
في وجهه ... وفي هذا دليل على أنها مكية ... ، (١) .

والحق أن ما ذهب إليه الإمام القرطبي من كون سورة الرحمن مكية ،
هو ما نظمته إليه النفس ، لأن السورة من أولها إلى آخرها فيها سمات القرآن
المكي ، الذى تغلب عليه الحديث المفصل عن الأدلة على وحدانية الله وقدرته
وعظم نعمه على خلقه ، والمقارنة بين حسن عاقبة الأخيار ، وسوء عاقبة
الآشرار ...

٣ - وعدد آياتها ثمان وسبعون آية في المصحف الحجازى ، وست وسبعون
في المصحف البصرى .

٤ - وتبدأ السورة الكريمة بالشناء على الله - تعالى ، ثم بالشناء على
القرآن الكريم ، ثم ببيان جانب من مظاهر قدرة الله تعالى - ، ومن جميل
صنعه ، وبديع فعله ... قال - تعالى - : الرحمن . علم القرآن . خلق الإنسان .
عليه البيان . الشمس والقمر بحسبان .

والنجم والشجر - جدان . والسماء رفعها ووضع الميزان . أن لا تطغوا
في الميزان

• - وبعد أن ساق - سبحانه - ما ساق من ألوان النعم ، أتبع ذلك ببيان
أن كل من على ظهر هذه الأرض مصيره إلى الفناء ، وأن الباقي هو وجه الله
- تعالى - وحده ... وبيان أهوال القيامة ، وسوء عاقبة المكذبين ، وحسن
عاقبة المؤمنين ...

قال - تعالى - : « يعرف المجرمون بسيماهم فيؤخذ بالنواصي
والأقدام ، ... »

« ولن خاف مقام ربه جنتان . فبأى آلاء ربكما تكذبان . ذواتنا
أفنان ... »

ثم وصفت ما أعدّه الله - تعالى - للمتقين وصفا يشرح الصدور ، ويقر
العيون ، فقد أعد - سبحانه - لهم - بفضله وكرمه - الخور العين ، والفرش
التي بطائتها من استبرق .

قال - تعالى - : « حور مقصورات في الخيام ، فبأى آلاء ربكما تكذبان
لم يطمننهن إنس قبلهم ولا جان . فبأى آلاء ربكما تكذبان . متمكنين على
رفرف خضر وعبقري حسان . فبأى آلاء ربكما تكذبان . تبارك اسم ربك
ذي الجلال والإكرام . »

وهكذا نرى السورة الكريمة تطوف بنا في آفاق هذا الكون ، فتجسّد
لنا من بين ما نحكي - جانباً من مظاهر قدرة الله - تعالى - ونعمه على خلقه ،
ونقول في أعقاب كل نعمة « فبأى آلاء ربكما تكذبان » ، وتتكرر هذه الآية
فيها إحدى وثلاثين مرة ، لتذكّر الجن والإنس بهذه النعم كي يشكروا الله
- تعالى - عليها شكراً جزيلاً .

نسأل الله - تعالى - أن يحملنا جميعا من عباده الشاكرين عند الرخاء
الصابرين عند البلاء .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

الدوحة - قطر كتبه الراجي عفو ربه

مساء الأربعاء: ٢ من جمادى الآخرة ١٤٠٦ هـ محمد سيد طنطاوى

م ١٩٨٦/٢/١٢ عميد كلية الدراسات الإسلامية والعربية

التفسير

قال الله - تعالى - « الرحمن (١) علم القرآن (٢) خلق الإنسان (٣) له البيان (٤) الشمس والقمر بحسبان (٥) والنجم والشجر سجدان (٦) والسماء رفعها ووضع الميزان (٧) ألا تظنوا في الميزان (٨) أقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان (٩) والأرض وضعها دنام (١٠) فيها فاكهة والنخل ذات الأكمام (١١) والحب والعصف والريحان (١٢) فبأى آلاء ربكما تكذبان (١٣) » .

افتتحت السورة الكريمة بهذا الاسم الجليل لله - عز وجل - وهو لفظ لتق من الرحمة ، وصيغته الدالة على المبالغة ، تنبه إلى عظم هذه الرحمة معها .

وهذا اللفظ مبتدأ ، وما بعده أخبار له .

ثم بين - سبحانه - مظاهر قدرته ومنته على عباده بأجل النعم ، وأعظمها أنا ، فقال : « علم القرآن ، والقرآن هو أعظم وحى أنزله - سبحانه - على نبيه ورسله .

أى : علم نبيه - صلى الله عليه وسلم - للقرآن ، الذى هو أعظم النعم شأنا أرضها مكانا ، إذ باتباع توجيهاته وإرشاداته ، يظفر الإنسان بالسعادة الدنيوية والأخروية .

ولفظ « القرآن » هو المفعول الثانى لعلم ، والمفعول الأول محذوف .

وهذه الآية الكريمة تتضمن الرد على المشركين الذين زعموا أن هذا لقرآن قد تعلمه الرسول - صلى الله عليه وسلم - من البشر ، كما حكى - سبحانه -

هنهم في قوله : ، ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر ... (١) .
وفي قوله ، وقال الذين كفروا إن هذا إلا إفك افتراه وأعانه عليه قوم
آخرون (٢)

كما تتضمن الرد عليهم لزعمهم أنهم لا يعرفون الرحمن ، كما في قوله - تعالى :
، وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن ... (٣) .
وقوله - تعالى - : ، خاق الإنسان . علمه البيان ، بيان لنعمتين أخريين
من نعمه - سبحانه - .

والمراد بالإنسان جنسه والمراد بالبيان : الفهم والنطق والإفصاح عما
يريد الإفصاح عنه بالكلام الذي أداته اللسان .

أى : خلق - سبحانه - بقدرته الإنسان على أجل صورة ، وأحسن تقويم
ومكنه من الإفصاح عما في نفسه عن طريق المنطق السليم ، والقول الواضح ،
كما مكنه من فهم كلام غيره له ، فتميز بذلك عن الأجناس الأخرى ، وصار
أهلاً لحل الأمانة التي عجزت عن حملها السموات والأرض والجبال ، وأصبح
مستعداً لتلقي العلوم والخلافة في الأرض ...

ورحم الله - تعالى - صاحب الكشف ، فقد صور هذه المعاني بأسلوبه
الرصين فقال : عدد الله - عز وجل - آلاءه فقدم ما هو أسبق قدماً من ضروب
آلائه . وأصناف نعمائه ، وهى نعمة الدين ، وقدم من نعمة الدين ما هو فى
أعلى مراتبها ، وأقصى مراقبها ، وهو إنعامه بالقرآن وتزويله وتعليمه ، لأنه
أعظم وحى الله رتبة ، وأعلاه منزلة . وأحسنه فى أبواب الدين أثراً ، وهو
سنام الكتب السماوية ، ومصدقها . والعيار عليها

(١) سورة النحل الآية ١٠٢ .

(٢) سورة الفرقان الآية ٤ .

(٣) سورة الفرقان الآية ٦٠ .

وأخر ذكر خلق الإنسان عن ذكره ، ثم اتبعه بإياه ليعلم أنه إنما خلقه ليحيط علما بوحيه ، وكتبه ، وما خلق الإنسان من أجله ...
ثم ذكر ما يميز به الإنسان عن سائر الحيوان من البيان ، وهو المنطق فصيح المعرب عما في الضمير .

ولفظ الرحمن ، مبتدأ . وهذه الأفعال مع ضمائرها أخبار مترادفة . إخلاؤها من العاطف ، لمجيئها على نمط التعديد ، كما تقول : زيد أغناك بعد نر ، أعرك بعد ذل ، كثر ك بعد قلة ... فما تنسك من إحسانه ... (١)
وقوله - تعالى - : الشمس والقمر بحسبان ، بيان لنعمة رابعة من نعمه تعالى التي لا تحصى .

والحسبان : مصدر زيدت فيه الألف والنون ، والمراد بحساب دقيق ، تقدير حكيم . والجار والمجرور متعلق بمحذوف ...

أي : الشمس والقمر يجريان في هذا الكون ، بحساب دقيق في بروجهما منازلهما ، بحيث لا يشوب جريهما اختلال أو اضطراب ، وبذلك يعرف ناس السنين والشهور والأيام ، ويعرفون أشهر الحج والصوم ، وغير ذلك من شئون الحياة ...

وشبيه هذه الآية قوله تعالى - : لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ، لا الليل سابق النهار ، وكل في فلك يسبحون ، (٢) .

ثم قال - تعالى - : والنجم والشجر يسجدان ، والمراد بالنجم هنا - عند بعضهم - النبات الذي لا ساق له ، وسمى بذلك . لأنه ينجم - أن يظهر من لأرض - بدون ساق .

يرى آخرون : أن المراد به : نجوم السماء ، فهو اسم جنس لكل ما يظهر من السماء من نجوم .

(١) تفسير الكشاف ج ٤ ص ٤٣

(٢) سورة يس ، الآية ٤٠

ويؤيد هذا الرأي قوله - تعالى - : ألم تر أن الله يسجد له من في السموات
ومن في الأرض ، والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب
وكثير من الناس ، وكثير حق عليه العذاب . . . (١)

والشجر : هو النبات الذي له ساق وإرتفاع عن وجه الأرض .
والمراد بسجودهما : إنقيادهما وخضوعهما لله - تعالى - كأنقياد الساجد
لخالقه .

قال ابن كثير : قال ابن جرير : اختلف المفسرون في معنى قوله
« والنجم » ، بعد إجماعهم على أن الشجر ما قام على ساق . فعن ابن عباس قال
النجم : ما أنبسط على وجه الأرض من النبات .

وكذا قال هذا القول سعيد بن جبير ، والسدي ، وسفيان الثوري ؛ وقد
إختاره ابن جرير .

وقال مجاهد : النجم - المراد به هنا - الذي يسكن في السماء . وكذا قال
الحسن وقتاده . وهذا القول هو الأظهر . . . (٢)

وقوله - تعالى - : « والسماء رفعها ووضع الميزان . . . » أي : والسماء
أوجدتها بقدرته مرفوعة بدون أعمدة ، وأتم تزويج ذلك بأعينكم .

فالمقصود بقوله « رفعها » ، لفت الأنظار إلى مظاهر قدرته - تعالى -
ولمى وجوب شكره وإخلاص العبادة له ، والتزام طاعته . . .

والميزان : يطلق على الآلة التي يزن الناس بها ما يريدون وزنه من
الاشياء المختلفة .

والمراد به هنا : وجوب التزام العدل في الأحكام . وشاع إطلاق الميزان
على العدل في الأحكام ، لأن كليهما تضبط به الأحكام ، وتناول الحقوق .

أي : والسماء خلقها مرفوعة عنده ابتداء ، وشرع وأثبت العدل وأمر
باتباعه في الأقوال والأحكام ، ليستقيم أمر الناس . . .

قال الألوسي ما ملخصه : قوله : « ووضع الميزان ، أى : شرع العدل وأمر به ، لينتظم أمر العالم ويستقيم ، كما قال - صلى الله عليه وسلم - : « بالعدل قامت السموات والأرض ، أى : بقيتا على أتمن نظام ... وتفسير الميزان بالعدل ، هو المروى عن مجاهد ، والطبرى ، والأكثرين ، وهو مستعار للعدل استعارة تعريجية .

وعن ابن عباس والحسن وقتادة ، أن المراد بالميزان ما تعرف به مقادير الأشياء ، وهو الآلة المسماة بهذا الاسم . . . أى : أوجده فى الأرض ليضبط الناس معاملاتهم فى أخذهم وعطائهم (١) .

وجملة : « أن لا تطغوا فى الميزان ، بمنزلة التعليل لما قبلها . أى : شرع العدل بين الناس ، وأوجب عليهم التمسك به فى كل شئونهم ، لئلا يتجاوزوه إلى غيره من الجور والظلم .

والطغيان : هو تجاوز الحدود المشروعة فى كل شئ .

ثم أكد - سبحانه - هذا المعنى - وهو التزام العدل - تأكيداً صريحاً فقال : « وأقيموا الوزن بالقسط ، ولا تخسروا الميزان ،

وقوله : « وأقيموا ، من الإقامة ، والمراد به الإتيان بالشئ على أكمل صورة ، ومنه قوله - تعالى - : « وأقيموا الصلاة ... ، أى : أروها كاملة الأركان والسنن والخشوع . .

والقسط : العدل ، يقال : أقسط فلان فى حكمه إذا عدل ، والباء للمصاحبة .

وقول : « ولا تخسروا ، من الإخسار بمعنى النقص والبخس والجور .

والمعنى : شرع الله العدل ، ونهاكم عن تجاوزه ، وأمركم أن تقيموا أحيائكم عليه فى أوزانكم التى تتعاملون بها فيما بينكم ، وفى كل أحوالكم ، فاحذروا أن تخالفوا أمره .

وكرر - سبحانه - لفظ « الميزان » ، للتنبيه على شدة عناية الله - تعالى - بإقامة العدل بين الناس في معاملاتهم ، وفي سائر شؤونهم . إذ بدونه لا يستقيم لهم حال ، ولا يصلح لهم بال ، ولا يستقر لهم قرار . . .

ثم إنتقلت السورة الكريمة ، إلى بيان جانب من مظاهر نعمه الأرضية ، فقال - تعالى - : « والأرض وضعها للأنام ... »

والمراد بالأنام : الخلائق المختلفة في ألوانهم وأشكالهم وألسنتهم ، والذين يعيشون في شتى أقطارها ولجأها ... وهو اسم جمع لا واحده من لفظه .

أى : « والأرض » وضعها للأنام

والمراد بالأنام : الخلائق المختلفة في ألوانهم وأشكالهم وألسنتهم ، والذين يعيشون في شتى أقطارها ولجأها ... وهو اسم جمع واحد له من لفظه .

أى : « والأرض » وضعها ، أى : أوجدها موضوعة على هذا النظام البديع ، من أجل منفعة الناس جميعا ، لأن إيجادها على تلك الصورة الممهدة المفروشة .. جعلهم يتمتعون بما فيها من كنوز وخيرات ، ويتقلبون عليها من مكان إلى آخر ... ر صدق الله إذ يقول : « هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعا ... »

وقوله - سبحانه - : « فيها فاكهة والنخل ذات الأكمام . والحب ذو العصف والريحان » ، بيان لبعض ما اشتملت عليه هذه الأرض من خيرات .

والفاكهة : اسم لما يأكله الإنسان من ثمار على سبيل التفمكه والتلذذ ، لا على سبيل القوت الدائم ، مأخوذة من قولهم فمكه فلان - كفرح - إذا تلذذت نفسه بالشئ .. والأكمام : جمع كم - بكسر الكاف - ، وهو الطلع قبل أنه تخرج منه الثمار .

وقوله : « ذو العصف ، أى : ذو القشر الذى يكون على الحب ، وسمى بذلك لأن الرياح تعصف به ، أى : تطيره لحفته . أو المراد به الورق بعد أن يبس ومنه قوله - تعالى - : « فجعلهم كعصف ما كول » .

والريحان : هو النبات ذو الرائحة الطيبة . وقيل : هو الرزق .

أى : فى هذه الأرض التى تعيشون عليها ، أوجد الله - تعالى - الفاكهة التى تتلذذون بأكلها ، وأوجد لكم النخيل ذات الأوعية التى يكون فيها الثمر . . وأوجد لكم الحب ، الذى تحيط به قشوره ، كما ترون ذلك بأعينكم ، فى سنابل القمح والشعير وغيرهما .

وأوجد لكم النبات الذى يمتاز بالرائحة الطيبة التى تبهج النفوس ، ونشرح الصدور . فأنت ترى أنه - تعالى - قد ذكر فى هذه الآيات ألواناً من النعم ، فقد أوجد فى الأرض الفاكهة للتلذذ ، وأوجد الحب للغذاء ، وأوجد النباتات ذات الرائحة الطيبة .

قال القرطبي مامليخصه : وقراءة العامة « والحب ذو العصف والريحان ، بالرفع فيها كلها ، عطفاً على « الفاكهة » . . أى : فيها فاكهة وفيها الحب ذو العصف ، وفيها الريحان » .

وقرأ ابن عاصم بالنصب فيها كلها . عطفاً على الأرض ، أو بإضمار فعل . أى : « وخلق الحب ذا العصف والريحان » . أى : وخلق الريحان .

وقرأ حمزة والكسائي بجر « الريحان ، عطفاً على العصف . أى : فيها الحب ذو العصف والريحان . ولا يمتنع ذلك على قول من جعل الريحان بمعنى الرزق . فيكون كأنه قال : والحب ذو الرزق . لأن العصف رزق للبهائم ، والريحان رزق للناس . . » (١) .

ثم ختم - سبحانه - هذه النعم بقوله : د فباى آلا . ربكأ تكذبأن ، .
والفاء للتفريع على النعم المتعددة التى سبق ذكرها ، والاستفهام للمعجيب
ممن يكذب بهذه النعم . والآلا : جمع إلى - بكسر الهمزة وفتحها وسكون
اللام - وهى النعمة . والخطاب للمكافئين من الجن والإنس ، وقيل لأفراد
الإنس مؤمنهم وكأفرهم . أى : فباى واحدة من هذه النعم تكذبأن ربكأ
- أى : يتحدثأن فضله وعفته - يأمشر الجن والإنس ، مع أن كل نعمة من
هذه النعم تستحق منكم الطاعة لى ، والخضوع لعزتى ، والإخلاص فى عبادتى .

قال الجمل ما ملخصه : كررت هذه الآية هنا إحدى وثلاثين مرة ، تقريرا
للنعة ، وتأكيذا للتذكير بها ، وذلك كقول الرجل لمن أحسن إليه ، وهو
يشكر هذا الإحسان : ألم تكن فقيرا فأغيتك ، أفتنكر هذا ؟ ألم تكن
عريانا فمكسوتك ، أفتنكر هذا ...

ومثل هذا الكلام شائع فى كلام العرب ، وذلك أن الله - تعالى - عدد
على عباده نعمه ، ثم خاطبهم بقوله : د فباى آلا . ربكأ تكذبأن ، .

وقد كرر - سبحانه - هذه الآية ثمانى مرات ، عقب آيات فيها تعداد
عجائب خلقه ، ومبدأ هذا الخلق ، ونهايته ، ثم كررها سبع مرات عقب آيات
فيها ذكر النار وشدائدها بعدد أبواب جهنم ٠٠٠ ثم كررها - أيضا - ثمانى
مرات فى وصف الجننتين وأهلها ، بعدد أبواب الجنة . وكررها كذلك
ثمانى مرات فى الجننتين اللتين هما دون الجننتين السابقتين ، فمن اعتقد الثمانية
الأولى ، وعمل بموجبها ، استحق هاتين الثمانيتين من الله - تعالى - ، ووقاه
السبعة السابقة - بفضلله وكرمه - (١) .

... .

ثم انتقلت السورة الكريمة إلى الحديث عن نعمة خلق الإنسان ، وعن مظاهر قدرته في هذا الكون ، فقال - تعالى - :

« خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ (١٤) وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ (١٥) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (١٦) رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ (١٧) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (١٨) مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ (١٩) بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ (٢٠) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢١) يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللَّوْزُ وَالزَّيْتُونَ (٢٢) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢٣) وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ (٢٤) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢٥) » .

والصلصال: الطين اليابس الذي تسمع له صوتا وصلصلة إذا قرع بشيء . .

والفخار: الخزف المجوف الذي صار كذلك بعد أن أدخل في النار .

ولا تعارض بين هذه الآية، وبين غيرها من الآيات التي تحكى أن الإنسان خلق من تراب ، أو من طين ، أو من صلصال من حمأ مسنون . . .

لأن كل آية تتحدث عن مرحلة من مراحل خلق الإنسان ، لأن هذا التراب صار طينا ، ثم خمر هذا الطين فصار حمأ مسنونا . أى : طينا أسود متغير الرائحة ، ثم يبس هذا الطين فصار صلصالا كالْفَخَّارِ .

فالآيات الكريمة التي تحدثت عن خلق الإنسان لا يصادم بعضها بعضا ، وإنما يؤيد بعضها بعضا .

قال بعض العلماء : وقد أثبت العلم الحديث ، أن جسم الإنسان يحتوي

من العناصر ما تحتويه الأرض ، فهو يتكون من الكربون ، والأكسجين ،
والحديد

وهذه نفسها هي العناصر المكونة للتراب ، وإن اختلفت نسبها من إنسان
إلى آخر . وفي الإنسان عن التراب ، إلا أن أصنافها واحدة .

إلا أن هذا الذي أثبتته العلم لا يجوز أن يؤخذ على أنه التفسير الختصم
للنص القرآني .

فقد تكون الحقيقة القرآنية تعني هذا الذي أثبتته العلم أو تعني شيئاً آخر
سواه ، وتقصده إلى صورة أخرى من الصور الكثيرة ، التي يتحقق بها معنى خلق
الإنسان من تراب ، أو من طين ، أو من صلصال . . .

والذي ننبه إليه بشدة ، هو ضرورة عدم قصر النص القرآني ، على
كشف علمي بشري ، قابل للخطأ والصواب ، وقابل للتعديل والتبديل ، كلما
اتسعت معارف الإنسان ، وكثرت وتحسنت وسائله للمعرفة . . . (١) .

والعنى : خلق - سبحانه - بقدرته أباكم آدم الذي هو أصلكم ، وعنه
تفرع جنسكم . من طين يابس يشبه الفخار في بيوسته وصلابته .

« وخلق » - سبحانه - « الجان » ، أى : جنس الجن « من مارج من نار »
أى : من لهب خالص لا دخان فيه : أو مما اختلط بعضه ببعض من اللهب
الأحمر وغير الأحمر ، إذ المارج . هو المختلط ، وهو اسم فاعل بمعنى اسم
المفعول مثل دافق . أى : خلق جنس الجان من خليط من لهب النار . ومن
في قوله « من نار » ، للبيان .

قال ابن كثير : يذكر الله - تعالى - خلقه الإنسان من صلصال

كالفخار ، وخلق الجان من مارج من نار ، وهو طرف لهما . قوله الضحك :
وعن ابن عباس : من مارج من نار ، أى : من لهب النار ...

ورى مسلم عن عائشة قالت : قال رسول - صلى الله عليه وسلم - : خلقت
الملائكة من نور ، وخلق الجان من مارج من نار . وخلق آدم مما وصف
لكم ، (١) .

والمقصود بالآيتين تذكير بنى آدم بفضلهم على غيرهم ، حيث بين - سبحانه -
لهم من أخلقهم ، وأنهم قد خلقوا من عنصر غير الذى خلق منه الجن ، وأن
الله - تعالى - قد أمر إبليس المخلوق من النار ، بالوجود لأبيهم آدم المخلوق
من الطين ، فعليهم أن يشكروا الله - تعالى - على هذه النعمة ، وأن يحذروا
وسوسة إبليس وجنوده .

وبعد أن أمر بشكر هذه النعم ، أتبع ذلك ببيان مظهر آخر من مظاهر
قدرته ، فقال : رب المشرقين ، ورب المغربين . فبأى آلاء ربك تكذبان .

أى : هو - سبحانه - رب مشرق الشمس فى الشتاء والصيف ، ورب مغربها
فيهما ، وفى هذا التدبير المحكم منافع عظمى للإنسان والحيوان والنبات .

ولا تعارض بين هذه الآية ، وبين قوله - تعالى - فى آية أخرى : رب
المشرق والمغرب ... ، (٢) .

لأن المراد بهما جنسهما ، فهما صادقان على كل مشرق من مشارق الشمس
التي هى ثلاثمائة وستون مشرقا ، وعلى كل مغرب من مغاربها التي هى كذلك .
أوبين قوله - تعالى - فى آية ثالثة : رب السموات والأرض وما بينهما
ورب المشارق ، (٣) .

أى : ورب جميع المشارق التي تشرق منها الشمس فى كل يوم على مدار العلم

(١) تفسير ابن كثير - ٤ ص ٢٧١

(٢) سورة الصافات الآية ٥

(٣) سورة الزمر الآية ٩

إذ لها في كل يوم مشرق معين تشرق منه ، ولها في كل يوم - أيضا - مغرب تغرب فيه .

ثم قال - سبحانه - : مرج البحرين يلتقيان . بينهما برزخ لا يبغيان فبأى آلاء ربكما تكذبان يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان ،

وقوله : « مرج » من المَرَج بمعنى الإرسال والتخليّة ، ومنه قولهم : مرج فلان دابته ، إذا أرسلها إلى المَرَج ، وهو المكان الذي ترعى فيه الدواب .

ويصح أن يكون من المرج بمعنى الخلط ، ومنه قوله - تعالى - : فهم في أمر مريج ، أى : مختلط ، وقيل للمرعى : مرج ، لاختلاط الدواب فيه بعضها ببعض .

والمراد بالبحرين : البحر العذب ، والبحر المالح . والبرزخ : الحاجز الذي يحجز بينهما ، بقدرّة الله - تعالى - :

والمعنى : خلق الله - تعالى - البحرين . وأرسلهما بقدرته في مجاريهما ، بحيث يلتقيان ويتصل أحدهما بالآخر ، ومع ذلك لم يختلطا ، بل يبقى المالح على ملوحته ، والعذب على عذوبته ، لأن حكمة الله قد اقتضت أن يفصل بينهما ، بحواجز من أجرام الأرض ، أو بخواص في كل منهما ، تمنعهما هذه الخواص وتلك الحواجز ، من أن يختلطا ، ولولا ذلك لاختلطا وأمتزجا ، وهذا من أكبر الأدلة على قدرة الله - تعالى - ، ورحمته بعباده ، إذ أبى الله - تعالى - المالح على ملوحته ، والعذب على عذوبته ، لينتفع الناس بكل منهما في مجال الانتفاع به . . .

فالماء العذب ينتفع به في الشراب للناس والدواب والنبات . . . والماء المالح ينتفع به في أشياء أخرى ، كاستخراج الملح منه ، وفي غير ذلك من المنافع . . .

ومن يدعي صنع الله في هذا الكون ، أنك تشاهد البحار الهائلة على

سطح الأرض ، والأنهار الكبيرة ، ومع ذلك فكل نوع منهما باق على خصائصه . مع أن كلا منهما قد يلتقى بالآخر .

قال بعض العلماء : والمقصود بالبحرين ما يعرفه العرب من هذين النوعين وهما نهر الفرات ، وبحر العجم ، المسمى اليوم بالخليج الفارسي ، والتقاؤهما : إنصباب ماء الفرات في الخليج الفارسي ، في شاطئ البصرة ، والبلاد التي على الشاطئ العربي من الخليج الفارسي ، تعرف عند العرب ببلاد البحرين لذلك .

والمراد بالبرزخ بينهما : الفاصل بين المائين : الحلو والمالح بحيث لا يغير أحد البحرين طعم الآخر بجواره وذلك بسبب ما في كل منهما من خصائص تدفع عنه إختلاط الآخر . وهذا من مسائل الثقل النوعي

وذكر البرزخ ، وهو معنى لا يبغيان ، أى لا يبغي أحدهما على الآخر ، أى . لا يطلب عليه فيفسد طعمه ، فاستعير لهذه الغلبة لفظ البغى ... (١)

وقال صاحب الظلال - رحمه الله - : والبحران المشار إليهما هما البحر المالح ، والبحر العذب ، ويشمل الأول البحار والمحيطات ، ويشمل الثاني الأنهار . ومرج البحرين : أرسلهما وتركهما يلتقيان . ولكنهما لا يبغيان ، ولا يتجاوز كل منهما حده المقدر ، وظيفته المقسومة ، وبينهما برزخ من طبيعتهما من صنع الله - تعالى - ...

وتصب جميع الأنهار - تقريباً - في البحار ، وهي التي تنقل إليهما أملاح الأرض ، فلا تغير طبيعة البحار ولا تبغى عليها ، ومستوى سطوح الأنهار أعلى - في العادة - من مستوى سطح البحر ، ومن ثم لا يبغي البحر على الأنهار التي تصب فيه ، ولا يفمر مجاريها بمائة المالح ... وبينهما دائماً هذا البرزخ من صنع الله . فلا يبغيان .

(١) تفسير التحرير والتنوير - ٢٧ ص ٢٤٦ ، للشيخ محمد الطاهر بن عاشور

(٢) راجع في ظلال القلآن - ٢٧ ص ٢٤٥٢

فلا عجب أن يذكر - سبحانه - البحرين ، وما بينهما من برزخ . في مجال الآلا . والنعم ... (١) .

ثم يذكر - سبحانه - بعض نعمه المختبئة في البحرين فيقول : « يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان » .

« واللؤلؤ - في أصله - حيوان ، وهو أعجب ما في البحار ، فهو يهبط إلى الأعماق ، وهو داخل صدفة جيرية تقيه من الأخطار ... ويفرز مادة لزجة تتجمد مكونة « اللؤلؤ » ...

والمرجان - أيضا - حيوان يعيش في البحار ... ويكون جزرا مرجانية ذات ألوان مختلفة ، صفراء برتقالية ، أو حمراء قرنفلية أو زرقاء زردية : (٢) ومن اللؤلؤ والمرجان تتخذ الخلى الغالية الثمن ، العالية القيمة ، التي تتحلى بها النساء ...

والآية الكريمة صريحة في أن اللؤلؤ والمرجان يخرجان من البحرين - المالح والعذب - إلا أن كثيرا من المفسرين ساروا على أنه - أي : اللؤلؤ والمرجان - يخرج من أحدهما فحسب ، وهو البحر المالح ... قال الألوسي ما ملخصه : واللؤلؤ صغار الدر ، والمرجان كباره ... وقيل العكس ...

والمشاهد أن خروج اللؤلؤ والمرجان من أحدهما وهو المالح ... لكن لما التفتيا وصارا كالشيء الواحد ، جاز أن يقال : يخرجان منهما ، كما يقال يخرجان من البحر ، ولا يخرجان من جميعه ، ولكن من بعضه ، كما تقول : خرجت من البلد ، وإنما خرجت من محلة من محاله ، بل من دار واحدة من دوره ، وقد يند إلى الإثنين ما هو لأحدهما . كما يسند إلى الجماعة ما صدر من واحد منهم (٣) .

(١) راجع كتاب الله والعلم الحديث ، ص ١٠٥ للأستاذ عبد الرزاق نوفل .

(٢) راجع تفسير الألوسي ٢٧ ص ١٠٦ .

والحق أن ما سار عليه الإمام الألوسي وغيره ، من أن اللؤلؤ والمرجان يخرجان من البحر المالح لا من البحر العذب ، مخالف لما جاء صريحاً في قوله - تعالى - : « وما يستوى البحران ، هذا عذب فرات سائغ شرابه ، وهذا ملح أجاج ، ومن كل تأكلون للحيا طرياً وتستخرجون حلية تلبسونها ... » (١) ،

فإن هذه الآية صريحة في أن اللؤلؤ والمرجان يخرجان من كلا البحرين المالح والعذب ، وقد أثبتت البحوث العلمية صحة ذلك ، فقد عثر عليهما في بعض الأنهار العذبة ، التي في ضواحي ويلز واسكتلندا في بريطانيا ... (٢) .

ثم بين - سبحانه - نعمة أخرى من نعمه التي مكرها البحار فقال : « وله الجوار المنشآت في البحر كالأعلام . فبأي آلاء ربكما تكذبان ، .

والجوار : أى : السفن الجارية ، فهي صفة لموصوف محذوف دل عليه متعلقه ، وهو قوله - تعالى - : « في البحر ، .

والمنشآت : جمع منشأة - اسم مفعول - أى : مرفوعة الشراع ، وهو ما يسمى بالقلم ، من أنشأ فلان الشيء ، إذا رفعه عن الأرض ، وأنشأ في صيره إذا أسرع ...

أى : وله - سبحانه - وحده لاغيره ، التصرف المطلق في السفن المرفوعة القلاع والتي تجرى في البحر ، وهي تشبه : الجبال في ضخامتها وعظمتها .

والتعبير : بقوله - تعالى - « وله ، للإشعار بأن كونهم هم الذين صنعوها لا يخرجها عن ملكه - تعالى - وتصرفه ، إذ هو الخالق الحق يقضى لهم ولها ، وهو الذى سخر تلك السفن لتشق ماء البحر بأمره .

(١) سورة فاطر الآية ١٢ .

(٢) راجع دائرة معارف الشعب المصرية العدد ٧٢ ص ٥٣٧ .

(١٢ - سورة الرحمن)

ومن الآيات الكثيرة التي تشبه هذه الآية في دلالتها على قدرة الله - تعالى - وعلى مننه على عباده بهذه السفن التي تجري في البحر بأمره ، قوله - تعالى - ﴿ ومن آياته الجوار في البحر كالأعلام ، إن يشأ يسكن الريح فيظلل ركباكده على ظهره ، إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور . أو يوبقهن بما كسبنوا ويعفو كثير ... ﴾ (١) .

• • •

وبعد هذا الحديث المتنوع عن مظاهر قدرة الله - تعالى - ، ونعمه على عباده ... جاء الحديث عن تفرده - تعالى - بالبقاء ، بعد فناء جميع المخلوقات التي على ظهر الأرض ، وعن افتقار الناس إليه وحده - سبحانه - وغناه عنهم فقال تعالى :

« كل من عليها فان (٢٦) ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام (٢٧) فبأى آلاء ربكما تكذبان (٢٨) يسأله من في السموات والأرض كل يوم هو شأن (٢٩) فبأى آلاء ربكما تكذبان (٣٠) سنفرغ لكم أيها الثقلان (٣١) فبأى آلاء ربكما تكذبان (٣٢) يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا ، لا تنفذون إلا بسلطان (٣٣) فبأى آلاء ربكما تكذبان (٣٤) يرسل عليكم شواظ من نار ونحاس فلا تنتصران (٣٥) فبأى آلاء ربكما تكذبان (٣٦) » .

والضمير في « عليها » ، يعود إلى الأرض بقرينة المقام ، والمراد بمن عليها : كل من يعيش فوقها ، ويدخل فيهم دخولا أوليا بنو آدم ، لأنهم هم المقصودون بالخطاب ، ولذا جرى بمن الموصولة الخاصة بالعقلاء .

أى : كل من على الأرض من إنسان وحيوان وغيرهما ، صائر إلى الزوال والفساد ويبقى وجه ربك وذاته بقاء لا تغير معه ولا زوال ، فهو - سبحانه - خيرا للجلال ، أى : ذو العظمة والاستغناء المطلق ، والإكرام ، أى : والفضل التام ، والإحسان الكامل ...

وقال - سبحانه - : ويبقى وجه ربك ، ولم يقل ويبقى وجه ربكما ، كما فى قوله : : فبأى آلاء ربكما ... ،

لأن الخطاب للنبي - صلى الله عليه وسلم - على سبيل التذكير والتشريف ، ويدخل تحته كل من يتأنى له الخطاب على سبيل التبعية .

قلل القرطبي : لما نزلت هذه الآية قالت الملائكة : هلاك أهل الأرض ، فنزلت كل شيء هالك إلا وجهه ، ، فأيقنت الملائكة بالهلاك ...

وقوله : : ويبقى وجه ربك ، أى : ويبقى الله ، فالوجه عبارة عن وجوده وذاته ، قال الشاعر :

قضى على خلقه المشايبا فكل شيء سواه زائل

وهذا الذى ارتضاه المحققون من علمائنا ، ، ، (١) .

وقوله - تعالى - : : يسأله من فى السموات والأرض كل يوم هو فى شأن ... ، بيان لغناه المطلق عن غيره ، واحتياج غيره لإيائه .

والمراد باليوم هنا : مطلق الوقت مهما قل زمنه . والشأن : الأمر العظيم ، والحدث الهام ...

أى : أنه - سبحانه - يسأله من فى السموات والأرض ، سؤال المحتاج إلى رزقه ، وفضله ، وستره ، وعافيته ... وهو - عز وجل - فى كل وقت من الأوقات ، وفى كل لحظة من اللحظات ، فى شأن عظيم ، وأمر جليل ، حيث يحدث ما يحدث من أحوال فى هذا الكون ، فيجيب ويميت ، ويعز ويذل ، ويغنى ويفقر ، ويشقى ويمرض ... دون أن يشغله شأن عن شأن ...

قال الألوسى ما ملخصه : قوله : د كل يوم هو فى شأن ، أى : كل وقت من الأوقات ، هو فى شأن من الشئون ، التى من جملتها إعطاء ماسألوا ، فإنه - تعالى - لا يزال ينشىء أشخاصا ، ويفنى آخرين ، ويأتى بأحوال ، ويذهب بأحوال ، حسبما تقتضيه إرادته . المبنية على الحكيم البالغة ...

أخرج البخارى فى تاريخه ، وابن ماجه ، وجماعة عن أبى الدرداء ، عن النبى - صلى الله عليه وسلم - أنه قال فى هذه الآية : د من شأنه : أن يفرح ذلما ، ويفرج كربا ، ويرفع قوما ، ويخفض آخرين ، ...

وسأل بعضهم أحد الحكماء ، عن كيفية الجمع بين هذه الآية ، وبين ما صح من أن القلم قد جف بما هو كائن إلى يوم القيامة ، فقال : د شئون يبدىها لا شئون يبتدئها .

وانتصب د كل يوم ، على الظرفية ، والعامل فيه هو العامل فى قوله - تعالى - د فى شأن ، ود هو ، ثابت المحذوف ، فكأنه قيل : هو ثابت فى شأن كل يوم .. (١) .

ثم هدد - سبحانه - الذين يخالفون عن أمره تحذيرا شديدا ، فقال : د سففرغ لكم أيها الثقلان فبأى آلاء ربكما تكذبان .

وجىء بحرف التنفيس الدال على القرب وهو السين ، للإشعار بتحقيق ما أخبر به - سبحانه - .

وقوله : د ففرغ ، من الفراغ ، وهو الخلو عما يشغل ...

والمراد به هنا : القصد إلى الشيء والإقبال عليه . يقال فلان فرغ لفلان وإليه . إذا قصد إليه لأمر ما ...

والثقلان : ثنية ثقل - بفتح تين - ، وأصله كل شيء له وزن وثقل ، والمراد بهما هنا : الإنس والجن .

والمعنى : سنقصد يوم القيامة إلى محاسبتكم على أعمالكم ، وسنجازيكم عليها بما تستحقون ، وسيكون هذا شأننا - أيها الثقلان - في هذا اليوم العظيم .

قال صاحب الكشاف : قوله : « سنفرغ لكم » مستعار من قول الرجل لمن يتهده ، سأفرغ لك ، يريد سأبجرد الإيقاع بك من كل ما يشغلني عنك ، حتى لا يكون لي شغل سواه . والمراد : التوفر على النكابة فيه ، والانتقام منه .

ويجوز أن يراد ستنتهى الدنيا وتبلغ آخرها ، وتنتهى عند ذلك شئون الخلق التي أرادها بقوله - تعالى - : « كل يوم هو في شأن » ، فلا يبقى إلا شأن واحد ، وهو جزاؤكم ، لجعل ذلك فراغا لهم على طريق المثل ... (١) .

وقوله - سبحانه - : « يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا ... » مقول لقول محذوف ، دل عليه ما قبله . .

والمعشر - بزنة مفعول - اسم للجمع الكثير الذي يعد عشرة فعشرة .
وقوله : « تنفذوا » من النفاذ بمعنى الخروج من الشيء ، والأمر منه وهو قوله : « فانفذوا » مستعمل في التعجيز . والأقطار جمع قطر - بضم القاف وسكون الفاء - وهو الناحية الواسعة ...

والمعنى : سنقصد إلى محاسبتكم ومجازاتكم على أعمالكم يوم القيامة ، وسنقول لكم على سبيل التعجيز والتحدى : يا معشر الجن والإنس ، إن استطعتم أن تنفذوا وتخرجوا من جواف السّموات والأرض ، ومن نواحيهما المتعددة . . فانفذوا واخرجوا ، وخلصوا أنفسكم من المحاسبة والمجازاة . .
وجملة : « لاتنفذون إلا بسلطان » ، بيان للتعجيز المتمثل في قوله - تعالى - :
« فانفذوا » . والسلطان المراد به هنا : القدرة والقوة ...

أى : لاتنفذون من هذا المرقف العصيب الذى أتم فيه . إلا بقسوة عظيمة ، وقوة خارقة ، تزيد على قوة خالقكم الذى جمعكم فى هذا الموقف وأنى لكم هذه القوة التى أتم أبعد ماتكونون عنها ؟

فالْمَقْصُودُ بِالآيَةِ الْكَرِيمَةِ ، تحذير الفاسقين والكافرين ، من التهادى فى فسقهم وكفرهم ، وبيان أنهم سيكونون فى قبضة الله - تعالى - وتحت سلطانه ، وأنهم لن يستطيعوا الهروب من قبضته وقضائه فيهم بحكمه العادل .

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : « فإذا برق البصر . وخسف القمر . وجمع الشمس والقمر . يقول الإنسان يومئذ أين المفر . كلا لا وزر . إلـى ربك يومئذ المستقر » (١) .

وقوله - سبحانه - : « يرسل عليكم شواظ من نار ونحاس فلا تنتصران » استئناف فى جواب سؤال مقدر عما سيصيبهم إذا ما حاولوا الفرار .

والشواظ : اللهب الذى لا يخالطه دخان ، لأنه قد تم اشتعاله فصار أشد إحراقا .

والنحاس : المراد به هنا الدخان الذى لا لب فيه . ويصح أن يراد به : الحديد المذاب . أى : أنتم لاتستطيعون الهرب من قبضتنا بأى حال من الأحوال ، وإذا حاولتم ذلك ، أرسلنا عليكم ، وصببنا على رؤوسكم لهما خالعا قاهر قكم ، ودخانا لا لب معه فكتم أنفاسكم ، وفى هذه الحالة لا تنتصران ، ولا تبلغان ما تبغيانه ، ولا نجدان من يدفع عنكم عذابنا وبأسنا ..

هذا والمتأمل فى تلك الآيات الكريمة . يراها قد صورت بأسلوب بديع تفرد الله - تعالى - بالملك والبقاء ، وافتقار الخلائق جميعا إلى عطائه ، وأنهم جميعا فى قبضته ، ولن يستطيعوا الهروب من حكمه فيهم ...

• • •

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك جانباً من أهوال يوم القيامة ، ومن العذاب الذى يحيط بالمجرمين ، وينزل بهم ، فقال - تعالى - :

« فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ (٣٧) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَا تَسْكُدُبان (٣٨) فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ (٣٩) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَا تَسْكُدُبان (٤٠) يَعْرِفُ الْمَجْرُمُونَ سِجَانَهُمْ فَيَوْخِدُونَ بِالْأَنوَاصِي وَالْأَفْدَامِ (٤١) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَا تَسْكُدُبان (٤٢) هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمَجْرُمُونَ (٤٣) يُطَوَّفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آتٍ (٤٤) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَا تَسْكُدُبان (٤٥) » .

وجواب ، إذا ، فى قوله - سبحانه - « فإذا انشقت السماء فكانت وردة كالدهان ، محذوف لتحويل أمره ... » .

وقوله - سبحانه - : « فكانت وردة ، تشبيهه بليغ ، أى : فكانت كالوردة فى الحرة ... » .

والوردة جمعها ورود ، وهى زهرة حمراء معروفة ذات أغصان شائكة ... والدهان : ما يدهن به الشئ ... » .

أى : فإذا انشقت السماء ، فصارت حين انشقاقها وتصدعها ، كالوردة الحمراء فى لونها ، وكالدهان الذى يدهن به الشئ فى ذوبانها وسيلانها ، رأيت ما يفرع القلوب ، ويزلزل النفوس من شدة الهول ... » .

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : « ويوم تشقق السماء بالغمام ونزل الملائكة تنزيلاً . الملك يومئذ الحق للرحمن ، وكان يوماً على الكافرين عسيراً ، (١) » .

وقوله - سبحانه - : « فإذا نفخ فى الصور نفخة واحدة ، وحملت الأرض

والجبال فدكتها دكة واحدة . فيومئذ وقعت الواقعة . وانشقت السماء فهي يومئذ واهية ... (١) .

وقوله - عز وجل - : يوم تكون السماء كالمهل . وتكون كالعن . ولا يسأل حيم حميما ... (٢) .

ثم بين - سبحانه - ما يترقب على هذا الانشقاق والذوبان للسماء من أهوال فقال : فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان .

أي : ففي هذا اليوم المصيب ، وهو يوم الحشر ، لا يسأل عن ذنبه أحد ، لا من الإنس ولا من الجن .

أي : أنهم لا يسألون عن ذنوبهم عند خروجهم من قبورهم ، وإنما يسألون عن ذلك في موقف آخر ، وهو موقف الحساب والجزاء ، إذ في يوم القيامة مواقف متعددة .

وبذلك يجاب عن الآيات التي تنفي السؤال يوم القيامة ، والآيات التي تثبته ، كقوله - تعالى - : دوربك لئسألهم أجمعين عما كانوا يعملون ، . وبعضهم يرى أن السؤال المنفي في بعض الآيات هو سؤال الاستخبار والاستعلام ، والسؤال المثبت هو سؤال التوبيخ والتفريع ... عن الأسباب التي جعلتهم يشحرفون عن الطريق المستقيم ، ويسمرون في طريق الفسوق والعصيان ...

ثم بين - سبحانه - ما يحل بالمجرمين في هذا اليوم من عذاب فقال : يعرف المجرمون بسيماهم ، فيؤخذ بالنواصي والأقدام . فبأي آلاء ربكما تكذبان . هذه جهنم التي يكذب بها المجرمون يطوفون بينها وبين حميم آن . فبأي آلاء ربكما تكذبان .

(١) سورة الحاقة الآيات ١٣ - ١٦ .

(٢) سورة المعارج الآيات ٨ - ١٠ .

وقوله : د بسيام ، أى : بعلا ماتهم التى تدل عليهم ، وهى زرقة العيون ، وسواد الوجوه ، كما فى قوله - تعالى - : ، ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة ... ، (١) .

وكما فى قوله - سبحانه - : د يوم ينفخ فى الصور ونحشر المجرمين يومئذ زرقا ... ، (٢) :

والنواصى : جمع ناصية ، وهى مقدم الرأس ، والأقدام : جمع قدم ، وهو ظاهر الساق ، ود آل ، فى هذين اللفظين عوض عن المضاف إليه .

والمراد بالطواف فى قوله : ، يطوفون بينها . : كثرة التردد والرجوع إليها بين وقت وآخر .

والحميم : الماء الشديد الغليان والحرارة .

ود آن ، : أى : قد بلغ النهاية فى شدة الحرارة . يقال : أُنسى الحميم ، أى انتهى حره إلى أقصى مدة ، فهو آن وبلغ الشئ أناه - بفتح الهمزة وكسر ها - إذا وصل إلى غاية نضجه وإدراكه ، ومنه قوله - تعالى - : د يأبى الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم إلى طعام غير ناظرين إياه أى : نضجه ...

أى : فى هذا اليوم ، وهو يوم الحساب والجزاء ، يعرف المجرمون ، بسواد وجوههم ، وزرقة عيونهم ، وبما فعلوا أفندتهم من غيرة ترهقها فترة ... فتأخذ الملائكة بالشعر الذى فى مقدمة رؤوسهم ، وبالأمكنة الظاهرة من سيقانهم ، وتذف بهم فى النار ، وتقول لهم على سبيل الإهانة والإذلال : هذه جهنم التى كنتم تكذبون بها فى الدنيا أيها المجرمون ، فترددوا بين ماتها الحار ، وبين سعيها البالغ النهاية فى الشدة .

(١) سورة الزمر : الآية ٦٠ :

(٢) سورة طه : الآية ١٠٢ .

وفى قوله : « فيؤخذ بالنواصي والإقدام ، إشارة إلى التمكن منهم تمكنا شديدا ، بحيث لا يستطيعون التلذذ أو الهرب .

وقد ختمت كل آية من هذه الآيات السابقة بقوله - تعالى - « فبأى آلاء ربكما تكذبان ، لأن عقاب العصاة المجرمين ، وإثابة الطائمين المتقين ، يدل على كمال عدله - سبحانه - وعلى فضله ونعميه على من خاف مقام ربه . ونهى النفس عن الهوى .

قال الإمام ابن كثير : ولما كان معاقبة العصاة المجرمين ، وتنعيم المتقين ، من فضله ، ورحمته ، وعدله ، ولطفه بخلقه ، وكان إنذاره لهم من عذابه وبأسه ، مما يزرع فيهم من الشرك والمعاصي وغير ذلك ، قال ممتنا بذلك على ربه « فبأى آلاء ربكما تكذبان ، (١) .

وكعادة القرآن الكريم في قرن أحوال الأخيار ، بأحوال الأشرار ، أو العكس ، جاء الحديث عما أعده - سبحانه - للمتقين من جزيل الثواب ، بعد الحديث عما سينزل بالمجرمين من عقاب فقال - تعالى - :

« وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتُ (٤٦) فَبِأَىِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذَّبَانِ (٤٧) فِيهِنَّ عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ (٤٨) فَبِأَىِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذَّبَانِ (٤٩) فِيهِنَّ مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ (٥٠) فَبِأَىِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذَّبَانِ (٥١) مَتَكِينٍ عَلَى فُرُشٍ بَاطِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ، وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانِ (٥٢) فَبِأَىِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذَّبَانِ (٥٣) فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌ (٥٤) فَبِأَىِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذَّبَانِ (٥٥) كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ

والرجان (٥٨) فبأى آلاء ربكما تكذبان (٥٩) هل جزاء الإحسان إلا الإحسان (٦٠) فبأى آلاء ربكما تكذبان (٦١) .

قال الألوسي: قوله - تعالى - : «ولمن خاف مقام ربه جنتان...» شروع في تعديد الآلاء التي تفاضر في الآخرة - على المتقين ، بعد بيان سوء هاقبة المكذبين . و «مقام» مصدر ميمي بمعنى القيام مضاف إلى الفاعل أي : ولمن خاف قيام ربه عليه وكونه مراقبا له ، ومهيئنا عليه فالقيام هنا مثله في قوله - تعالى - : «أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت...» أو هو اسم مكان . والمراد به مكان وقوف الخلق في يوم القيامة للحساب . . . إذ الخلق جميعا قائمون له - تعالى - كما في قوله - سبحانه - : «يوم يقوم الناس لرب العالمين» (١) .

والمعنى : ولكل من خاف القيام بين يدي ربه للحساب ، وخشى هيئته - سبحانه - عليه ومجازاته له . . . لكل من خاف ذلك وقدم في دنياه العمل الصالح ، «جنتان» ، ينتقل بينهما ، ليزداد سروره ، وجوره .

قال صاحب الكشف : فإن قلت : لم قال : «جنتان» ؟ قلت : الخطاب للثقلين ، فكأنه قيل لكل خائفين منكما جنتان . جنة للخائف الإنسي ، وجنة للخائف الجنى .

ويجوز أن يقال : جنة لفعل الطاعات . وجنة لترك المعاصي ، لأن التكليف دائر عليهما . وأن يقال : جنة يثاب بها وأخرى تضم إليها على وجه التفضل ، كقوله - تعالى - : «ل للذين أحسنوا الحسنى وزيادة» (٢) .

وقوله : «ذواتا أفنان» ، صفة للجنتين . والأفنان جمع فنان - بفتحين - وهو الفصن .

(١) تفسير الألوسي ج ٢٧ ص ١١٥

(٢) تفسير الكشف ج ٤ ص ٤٩

أى : جنتان صاحبتا أغصان عظيمة ، تمتاز بالجمال واللين والنضرة .

ثم وصفهما - سبحانه - بصفات أخرى كريمة فقال : « فيهما عينان تجريان ، أى : فى كل جنة منهما عين تجري بالماء العذب الفرات ... »

« فيهما من كل فاكهة زوجان ، أى : وفيهما كذلك من كل نوع من أنواع الفاكهة صنفان ، ليتفكه المتقون ويتلذذوا بتلك الفواكه الكثيرة ، التى لاهى مقطوعة ، ولا هى ممنوعة .

ثم بين - سبحانه - حصن يجلسهم فقال : « متكئين على فرش بطائنها من إستبرق ، وجنى الجنتين دان ،

والجنة الكريمة حال من قوله - تعالى - : « ولمن خاف مقام ربه ... » ، وعبر - سبحانه - بالإسكاه ، لأنه من صفات المتنعمين ، الذين يعيشون عيشة راضية ، لا همّ معها ولا حزن .

والفرش : جمع فراش - ككتب وكتاب - ، وهو ما يبسط على الأرض للنوم أو الاضطجاع .

والبطائن : جمع بطانة ، وهى ما قابل الطهارة من الثياب ، مشتقة من البطن المقابلة للظهر ، ومن أقوالهم : أفرشنى فلان ظهره وبطنه ، أى : أطلعنى على سره وعلافته .

والإستبرق : الديباج المصنوع من الحرير السميك ، وهو من أجود أنواع الثياب .

والمعنى : أن هؤلاء الذين خافوا مقام ربهم ونهوا أنفسهم عن الهوى ، يعيشون فى الجنات حالة كونهم ، متكئين فى جلسهم على فرش بطائنها الداخلية من الديباج السميك ، « وجنى الجنتين دان ، أى : وما يحفى ويؤخذ من الجنتين قريب التناول ، دان القطف .

فالمراد بقوله - تعالى - : د وجنى الجنة ، ما يجتنى من ثمارهما . و . دان ، من الدنو بمعنى القرب .

أى : أنهم لا يتعبون أنفسهم فى الحصول على تلك الفواكه ، وإنما يقطفون ما يشاءون منها ، وهم متكئون على فراشهم الوثير .

ثم بين - سبحانه - ألوانا أخرى من نعيمهم فقال : د فبين قاصرات الطرف لم يطمئن لئس قبلهم ولا جان . فبأى آلاء ربك تكذبان . كأنهن الياقوت والمرجان ، .

وقول - سبحانه - : د قاصرات الطرف ، : صفة لموصوف محذوف . والطمت : كثاية عن إفتضااض البكارة . يقال : طمت الرجل أمرأته - من باب ضرب وقتل - ، إذا أزال بكارتها . وأصل الطمت : الجماع المؤدى إلى خروج دم الفتاة البكر ، ثم أطلق على كل جماع وإن لم يكن معه دم .

أى : فى هاتين الجنة اللتين أعدهما - سبحانه - لمن خاف مقامه نساء قاصرات عيونهن على أزواجهن ، لا يلتفتن إلى غيرهم ، وهؤلاء النساء من صفاتهن - أيضا - أنهن أبكار ، لم يلمسن ولم يُزَلْ بكارتهن أحد قبل هؤلاء الأزواج وكان هؤلاء النساء فى صفاتهن وجمالهن وحمرة خدودهن . . . الياقوت والمرجان .

ثم ختم - سبحانه - هذه النعم بقوله : د هل جزاء الإحسان إلا الإحسان والاستفهام لئنى أن يكون هناك مقابل لعمل الخير ، سوى الجزاء الحسن ، فالمراد بالإحسان الأول . القول الطيب ، والفعل الحسن . والمراد بالإحسان الثانى : الجزاء الجميل الكريم على فعل الخير .

أى : ما جزاء من آمن وعمل صالحا ، وخاف مقام ربه ، ونهى نفسه عن الهوى إلا أن يجازى الجزاء الحسن ، ويقدم له العطاء الذى بشره صدره وتقر به عينه .

وقد عقب - سبحانه - بعد كل آية من تلك الآيات السابقة بقوله : « فبأى آلاء ربكما تكذبان » ، لأن كل آية قد إشتملت على نعمة أو نعم عظيمة ، من شأن العاقل أن يشكر الله - تعالى - عليها شكرا حزبلا .

* * *

ثم واصلت السورة حتى نهايتها ، حديثها عن النعم التي منحها - سبحانه - لمن خاف مقام ربه ، فقال :

« ومن دُونهما جنتان (٦٢) فبأى آلاء ربكما تكذبان (٦٣) مدهامتان (٦٤) فبأى آلاء ربكما تكذبان (٦٥) فيهما عينان نضاختان (٥٦) فبأى آلاء ربكما تكذبان (٦٧) فيهما فاكهة ونخل ورمان (٦٨) فبأى آلاء ربكما تكذبان (٦٩) فيهن خيرات حسان (٧٠) فبأى آلاء ربكما تكذبان (٧١) حور مقصورات في الخيام (٧٢) فبأى آلاء ربكما تكذبان (٧٣) لم يطمشهن أنس قبلهم ولا جان (٧٤) فبأى آلاء ربكما تكذبان (٧٥) متكئين على رفرف خضر وعبقرى حسان (٧٦) فبأى آلاء ربكما تكذبان (٧٧) تبارك اسم ربك ذي الجلال والإكرام (٧٨) » .

وقوله - سبحانه - : « ومن دُونهما جنتان ، معطوف على قوله - تعالى - قبل ذلك : « ومن خاف مقام ربه جنتان » ،

ولفظ دون هنا يحتمل أنه بمعنى غير : أى : « ومن خاف مقام ربه جنتان ، وله - أيضا - جنتان آخران غيرهما ، فهو من باب قوله - سبحانه - : « للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ... »

قالوا : ويشهد لهذا الاحتمال ، أن الله - تعالى - قد وصف هاتين الجنةين بما يقارب وصفه للجنةين السابقتين ، وأن تكرير هذه الأوصاف من باب الخوض على العمل الصالح ، الذى يوصل إلى الظفر بتلك الجنات ، وما إشمكت عليه من خيرات ...

ويحتمل أن لفظ « دون » هنا : بمعنى أقل ، أى : وأقل من تلك الجنةين فى المنزلة والقدر ، جنتان أخريان ...

وعلى هذا المعنى سار جمهور المفسرين ، ومن المفسرين الذين ساروا على هذا الرأى الامام ابن كثير ، فقد قال - رحمه الله - : هاتان الجنةان دون اللتين قبلهما فى المرتبة والفضيلة والمنزلة ، بنص القرآن ، فقد قال - تعالى - : « ومن دونهما جنتان » ...

فالأوليان المقربين ، والأخريان : لأصحاب البمين ...

والدليل على شرف الأولين على الآخرين وجوه :

أحدها : أنه نعمت الأوليين قبل هاتين ، والتقديم يدل على الاعتبار ، ثم قال : ومن دونهما جنتان ، وهذا ظاهر فى شرف التقدم ، وعلوه على التانى . وقال هناك : ذرانا أفنان ، وهى الأغصان ، أو الفنون فى الملاذ : وقال ههنا : مدهامتان ، أى : سوداوان من شدة الرى من الماء ... (١)

وقال الإمام القرطبى : فإن قيل : كيف لم يذكر أهل هاتين الجنةين ، كما ذكر أهل الجنةين الأوليين ؟

قيل : الجنان الأربع لمن خاف مقام ربه . إلا أن الخائفين مراتب ، فالجنتان الأوليان لأعلى العباد منزلة فى الخوف من الله - تعالى - ، والجنتان

الآخرين لمن قصرت حاله في الخوف من الله - تعالى - ، (٢) .

وقال الألوسي : قوله - تعالى - : « ومن دونهما جنتان ... » مبتدأ وخبر
أى : ومن دون تينك الجنة في المنزلة والقدر جنتان أخريان ، والأكثر
على أن الأوليين للسابقين ، وهاتين لأصحاب اليمين .

وقوله : « مداهمتان ، صفة للجنة ... » أى : هما شديدا الخضرة ،
والخضرة إذا اشتدت ضربت إلى السواد من كثرة الري ... ، (١) .

ثم فصل - سبحانه - أوصاف هاتين الجنة فقال : « فيهما عينان
نضاختان ، أى : فوارتان بالماء الذى لا ينقطع منهما من الفضخ وهو فوران
الماء من العيون مع حسنه وجماله .

« فيهما فاكهة ونخل ورمان ، وعطف - سبحانه - النخل والرمان على
الفاكهة مع أنهما منها ، لفضلهما ، فكأنهما لما لهما من المزية جنسان آخران .

أو - كما يقول صاحب الكشف - : « لأن النخل ثمره فاكهة وطعام ،
والرمان فاكهة ودواء ، فلم يخلصا للتفكه ، ولذا قال أبو حنيفة - رحمه الله -
إذا حلف لا يأكل فاكهة ، فأكل رمانا أو رطباً لم يحنث ... » ، (٢) .

والضمير فى قوله - تعالى - : « فيهن خيرات حسان ، يعود إلى الجنات
الأربع : الجنة المذكورتين فى قوله - تعالى - « ومن خاف مقام ربه جنتان ،
والجنة المذكورتين هنا فى قوله - سبحانه - : « ومن دونهما جنتان » .

ولفظ « خيرات صفة لموصوف محذوف ، أى : نساء خيرات
حسان .

(١) راجع تفسير القرطبي ج ١٧ ص ١٨٤ .

(٢) تفسير الألوسي ج ٣٧ ص ١٢١ .

(٣) تفسير الكشف ج ٤ ص ٥٠ .

أى : فى هذه الجنات نساء فاضلات الأحلاق، حسان الخُلُق والخُلُق .
قال الجمل : قوله : د خيرات ، فيه وجهان : أحدهما : أنه جمع خيره - بزنة
فعله بسكون العين - يقال : امرأة خيرة ، وأخرى شريرة ، والثانى : أنه جمع
خيرة الخفف من خيرة بالتشديد ، وبدل على ذلك قراءة خيرات - بتشديد
الياء ، (١) .

وقوله : حور مقصورات فى الخيام ، بدل من خيرات . والحور : جمع
حوراء ، وهى المرأة ذات الحور ، أى : ذات العين التى اشتد بياضها واشتد
سوادها فى جمال وحسن ...

ومقصورات : جمع مقصورة أى : محتجبة فى بيتها . قد قصرت نفسها
على زوجها ... فهى لا تجرى فى الطرقات ... بل هى ملازمة لبيتها ، وتلك
صفة النساء الفضليات اللاتى يزورهن من يريدن ، أما هن فكما قال الشاعر :
ويكرهن جاراتها فزرنها وتعقل عن إنيانهن فتعذر

أى : فى تلك الجنات نساء خيرات فضليات جميلات مخدرات .. ملازمات
لبيوتهن ، لا يتطلعن إلى غير رجالهن ...
هؤلاء النساء لم يطمئن ، أى : لم يلمسهن ومباشرهن ، لأنس قبلهم
ولا جان .

أى : لم يجامعن أحد لا من الإنس ولا من الجن . قبل الرجال الذين
خصصهن الله - تعالى - لهم ...

وقوله : د متكئين على رفرف خضر وعبقري حسان ... ، حال من
قوله - تعالى - د ولمن خاف مقام ربه ... ،
والرفرف : مأخوذ من بمعنى الارتفاع ، وهو اسم جمع واحده رفرفة ،
أو اسم جنس جمعى و د خضر ، صفة له .

(١) حاشية الجمل - ٤ ص ٢٦٦ .

والعبرى : وصف لكل ما كان ممتازا فى جنسه ، نادر الوجود فى صفاته ، والمراد به هنا القوب الموشى بالذهب ، والبالغ النهاية فى الجودة والجمال ...
قال القرطبي : العبرى : ثياب منقوشة تبسط ... قال القتيبي : كل ثوب وشى عند العرب فهو عبرى . وقال أبو عبيد . هو منسوب إلى أرض يعمل فيها الوشى ...

ويقال : عبقر قرية باليمن تفسج فيها رباط منقوشة . وقال ابن الأنباري إن الأصل فيه أن عبقر قرية يسكنها الجن ينسب إليها كل فائق جليل ، ومنه قول النبي - صلى الله عليه وسلم - : فى عمر بن الخطاب : « فلم أر عبقر يا بقرى قريش » (١) .

أى : هؤلاء الذين خافوا مقام ربهم ، قد أسكنناهم بفضلنا الخانات العاليات حالة كونهم فيها على الفرش الجميلة المرتفعة . وعلى الأبسطه التى بلغت الغاية فى حسنها وجودتها ودقة وشيها ...

ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة بقوله : « تبارك اسم ربك ذى الجلال والإكرام » .

أى : جل شأن الله - تعالى - ، وارتفع اسمه الجليل عما لا يليق بشأنه العظيم ، فهو - عز وجل - صاحب الجلال ، أى : العظمة والاستغناء المطلق ، والإكرام : أى : الفضل التام ، والإحسان الذى لا يقاربه إحسان ، وبعد : فهذا تفسير لسورة « الرحمن » ، نسأل الله - تعالى - أن يجعله خالصا لوجهه ونافعا لعباده .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

الدوحة - قطر
كتبه الراجي عفوره

محمد سيد طنطاوى

صباح الأحد ٦ من رجب ١٤٠٦ هـ

١٦ من مارس ١٩٨٦ م

(١) تفسير القرطبي ج ١٧ ص ١٩٢ .

التفسير الوسيط
للقرآن الكريم

تفسير سُورَةُ الْوَاقِعَةِ

لفضيلة
الدكتور محمد السيد طنطاوى
عميد كلية الدراسات الإسلامية والعربية
جامعة الأزهر

(الجزء السابع والعشرون)

١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

١ - سورة الواقعة هي السورة السادسة والخمسون في ترتيب المصحف ، أما ترتيبها في النزول ، فقد كان نزولها بعد سورة طه ، وقبل سورة الشعراء .

وقد عرفت بهذا الاسم منذ عهد النبوة ، فمن ابن عباس قال : قال أبو بكر رضي الله عنه - للنبي - صلى الله عليه وسلم - : يا رسول الله قد شئت . قال : شيتنى هود والواقعة والمرسلات ، وعم يتساءلون ، وإذا الشمس كورت . وعن عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - قال : سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول : « من قرأ سورة الواقعة كل ليلة لم تصبه فاقة أبدا » (١) .

٢ - وعدد آياتها ست وتسعون آية عند المكوفيين ، وسبع وتسعون عند البصريين ، وتسع وتسعون عند الحجازيين والمدنيين .

٣ - وسورة الواقعة ، من السور المسكية الخاصة ، واستثنى بعضهم بعض آياتها ، وعدّها من الآيات المدنية ، ومن ذلك قوله - تعالى - : « وثلة من الأولين . وثلة من الآخرين » .

وقوله - سبحانه - : « فلا أقسم بمواقع النجوم . . . إلى قوله - تعالى - : « وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون » .

والذي تطمئن إليه النفس أن السورة كلها مسكية ، وأن ما استثنى منها لم يحتمل دليل يعتد به على صحته .

٤ - وقد افتتحت سورة « الواقعة » بالحديث عن أهوال يوم القيامة ،
ومن أقسام الناس في هذا اليوم ...

قال - تعالى - : « وكنتم أزواجا ثلاثة . فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة .
وأصحاب المشأمة ما أصحاب المشأمة . والسابقون السابقون ... »

• - وبعد أن فصل - سبحانه - الحديث عن كل قسم من هذه الأقسام ،
وبين ما أعد له من جزاء عادل ... أتبع ذلك بالحديث عن مظاهر قدرته ،
وسعة رحمته ، وعظيم فضله ، فقال - تعالى - : « نحن خلقناكم فلولاً تصدقون .
أفرايتم ما تمنون . أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون ... »

أفرايتم ما تحرثون . أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون ...
أفرايتم الماء الذي تشربون . أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون .
أفرايتم النار التي توردون . أأنتم أنشأتم شجرها أم نحن المنشئون ..

٦ - وكما افتتحت السورة الكريمة ببيان أهوال يوم القيامة ، وبيان
أنواع الناس في هذا اليوم ... اختتمت - أيضا - بالحديث عن أقسام الناس
يوم الحساب ، وعاقبة كل قسم ، قال - تعالى - : « فاما إن كان المقربين .
فروح وريحان وجنة نعيم . وأما إن كان من أصحاب اليمين . فسلام لك
من أصحاب اليمين . وأما إن كان من المكذبين الضالين . فنزل من حميم .
وتصلية جحيم . إن هذا هو حق اليقين . فسيح باسم ربك العظيم ، . »

٧ - هذا ، والمتدبر في هذا السورة الكريمة ، يراها قد سافت بأسلوب
بليغ مؤثر ، ما يحمل الناس على حسن الاستعداد ليوم القيامة ، عن طريق
الإيمان العميق ، والعمل الصالح ، وما يبين لهم عن طريق المشاهدة مظاهر
قدرة الله - تعالى - ووحدانيته ، وما يكشف لهم النقاب عن أقسام الناس في
يوم الحساب ، وعن عاقبة كل قسم ، وعن الأسباب التي وصلت بكل قسم منهم
إلى ما وصل إليه من جنة أو نار ...

وما يريهم عجزهم المطلق أمام قدرة الله - تعالى - وأمام قضائه وقدره ..
فهم يرون بأعينهم أعز لإنسان عندهم ، تنزع روحه من جسده ... ومع ذلك
فهم عاجزون عن أن يفعلوا شيئا ...

وصدق الله إذ يقول : « فلولا إذا بلغت الحلقوم ، وأنتم حيثئذ تنظرون ،
ونحن أقرب إليه منكم ولكن لا تبصرون . فلولا إن كنتم غير مدينين .
ترجعونها إن كنتم صادقين ، ... »

نسأل الله - تعالى - أن يجعلنا من عباده المقربين ... وصلى الله على سيدنا
محمد وعلى آله وصحبه وسلم

الدوحة - قطر

د . محمد سيد طنطاوى

مساء الاثنين ٧ من رجب سنة ١٤٠٦ هـ
١٧ من مارس سنة ١٩٨٦ م

عميد كلية الدراسات الإسلامية
والعربية - جامعة الأزهر

التفسير

قال الله تعالى : « إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ (١) لَيْسَ لَوْفَتِهَا كَافِرَةٌ (٢) خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ (٣) إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا (٤) وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًا (٥) فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًا (٦) وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً (٧) فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ (٨) وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ (٩) وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ (١٠) أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ (١١) فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (١٢) ثُلَّةٌ مِنَ الْأُولَى (١٣) وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ (١٤) عَلَى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ (١٥) مَتَكِّينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ (١٦) يُطُوفُ عَلَيْهِمْ وَلَدَانٌ يَخْلُدُونَ (١٧) بَأْكَوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ (١٨) لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْفَوْنَ (١٩) وَفَأَكْهَى مَا يَشْتَهِيُونَ (٢٠) وَلَحْمٍ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ (٢١) وَحُورٌ عِينٌ (٢٢) كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ (٢٣) جِزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٤) لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا (٢٥) إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا (٢٦) » .

افتتحت سورة « الواقعة » بتقرير الحقيقة التي لا شك فيها ، وهي أن يوم القيامة حق ، وأن الحساب حق ، وأن الجزاء حق ... وقد اختير الافتتاح بالظرف المتضمن معنى الشرط ، لأنه ينبه الأذهان ويحرك النفوس لترقب الجواب .

والواقعة من أسماء القيامة كالقارعة ، والحاقة ، والازفة ...

قال الجمل : وفي « إذا » هنا أرجه : أحدها : أنها ظرف محض ، ليس فيها معنى الشرط ، والعامل فيها ليس ، من حيث ما فيها من معنى النفي ، كأنه قيل : يفتق التوكذيب بوقوعها إذا وقعت .

الثاني : أن العامل فيها اذكر مقدرا . الثالث : أنها شرطية وجوابها مقدر ، أى إذا وقعت الواقعة ، كان كيت وكيت ، وهو العامل فيها ،... (١) .

وقال بعض العلماء : والذي يظهر لى صوابه ، أن إذا هنا : هى الظرفية المتضمنة معنى الشرط ، وأن قوله الآتى : « إذا رجعت الأرض رجا ، بدل من قوله : « إذا وقعت الواقعة » ، وأن جواب إذا هو قوله : فأصحاب الميمنة ...

وعليه فالمعنى : إذا قامت القيامة ، وحصلت هذه الأحوال العظيمة ، ظهرت منزلة أصحاب الميمنة ، وأصحاب المشأمة ... (٢) .

وقوله - تعالى - : « ليس لوقعتها كاذبة » مؤكدا لما قبله ، من أن وقوع يوم القيامة حق لا ريب فيه .

وكاذبة صفة لموصوف محذوف ، وهى اسم فاعل بمعنى المصدر ...
أى : عندما تقع القيامة ، لا تكذبها نفس من النفوس ، التى كانت نجسها فى الدنيا ، بل كل نفس حينئذ تكون مصدقة لها .

قال القرطبي : قوله : « ليس لوقعتها كاذبة » . الكاذبة مصدر بمعنى الكذب ، والعرب قد تضع الفاعل والمفعول موضع المصدر ، كقوله - تعالى - لا تسمع فيها لاغية ، أى : لغو ...

أى : ليس لقيام القيامة كذب ولا تخلف بل هى واقعة يقينا .-

أو الكاذبة صفة والموصوف محذوف ، أى : ليس لوقعتها حال كاذبة أو نفس كاذبة ... (٣) .

(١) راجع حاشية الجمل - ج ٤ ص ٢٧٠ ،

(٢) راجع أضواء البيان - ج ٧ ص ٧٦١ للشيخ الشنقيطى - رحمه الله .

(٣) سورة النساء الآية ٨٧

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : **« لا إله إلا هو ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه ... »** (١) .

وقوله - سبحانه - : **« فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده ، وكفرتنا بما كنا به مشركين ، »** (٢) .

ثم بين - سبحانه - ما يترتب على قيام الساعة من أحوال فقال : **« خافضة رافعة ، أي : هي خافضة للأشقياء إلى أسفل الدرجات ، وهي رافعة للسعداء إلى أعلى الدرجات . »**

والخفض والرفع يستعملان عند العرب في المكان والمكانة ، وفي العز والإهانة .. ونسب - سبحانه - الخفض والرفع إلى القيامة على سبيل المجاز .
والمقصود بالآية الكريمة ترغيب الصالحين في الازدياد من العمل الصالح ، لترفع منزلتهم يوم القيامة ، وترهيب الفاسقين من سوء المصير الذي ينتظرهم ، إذا ما استمروا في فسقهم وعصيانهم .

ويرى بعضهم أن المراد بالخفض والرفع في هذا اليوم ، ما يترتب عليه من تناثر النجوم ، ومن تبدل الأرض غير الأرض ، ومن صيرورة الجبال كالهن المنفوش ...

وعلى هذا يكون المقصود بالآية : التهويل من شأن يوم القيامة ، حتى يستعد الخلق لاستقباله ، بالإيمان والعمل الصالح ، حتى لا يصيبهم فيه ما يصيب العصاة المفسدين ، من خزي وهوان ...

والآية الكريمة تسع المعنيين ، لأن في هذا اليوم يرتفع الأخيار ، وينخفض الأشرار ولأن فيه - أيضا - تبدل الأرض غير الأرض والسموات ... ،
والمراد بالرج في قوله - تعالى - بعد ذلك : **« وإذا رجت الأرض رجاً . »**

(١) تفسير القرطبي ١٧ ص ١٩٤

(٢) سورة غافر الآية ٨٤

وبست الجبال بسا... ، التحريك الشديد ، والاضطراب الواضح . يقال :
رج فلان الشيء رجاً ، إذا حركه بعنف ، وزلزه بقوة ...

وقوله : « وبست » من البس بمعنى التفتيت والتكسير الدقيق ، وهذه
قولهم : بس فلان السويق ، إذا فتمته ولته وهياه للأكل ..

أى : إذا رجت الأرض وزلزلت زلزالاً شديداً ، وفتت الجبال تفتيتاً
حتى صارت كالسويق الملتوت .. فكانت تلك الجبال كالهباء المنبث أى :
المتفرق الذى يلوح من خلال شعاع الشمس إذا ما دخل من نافذة ...

إذا ما حدث كل ذلك ، وجد كل إنسان جزاءه من خير أو شر ، فمن
يعمل مثقال ذرة خيراً يره . ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره .

الجواب الشرط ما ذكرته الآيات بعد ذلك من حسن عاقبة أصحاب الميمنة
وسوء عاقبة أصحاب المشأمة .

ومن الآيات الكثيرة ، التى وردت فى معنى هذه الآيات ، قوله - تعالى - :
« يوم ترجف الأرض والجبال وكانت الجبال كثيباً مهيلاً » (١) .

والخطاب فى قوله - تعالى - : « دو كنتم أزواجاً ثلاثة ، للناس جميعاً ، وكان
بمعنى صار ، والأزواج بمعنى الأصناف والأنواع ...

أى : وصرنم - أيها الناس - فى هذا اليوم الهائل الشديد ، أصنافاً ثلاثة ،
على حسب أحوالكم فى الدنيا ...

تم فصل - سبحانه - الحديث عن الأزواج الثلاثة فقال : فأصحاب الميمنة
ما أصحاب الميمنة . وأصحاب المشأمة ما أصحاب المشأمة . والسابقون السابقون ..
والمراد بأصحاب الميمنة ، أولئك السعداء الذين يؤتون كتبهم يوم القيامة
بأيمنهم ، أو لأنهم يذهب بهم ذات اليمين إلى الجنة ...

أو سموا بذلك ، لأنهم ميامين ، أى : أصحاب بركة على أنفسهم ، لأنهم أطاعوا ربهم وخالفوا أهواءهم ... فكانت عاقبتهم الجنة .

وسمى الآخرون بأصحاب المشأمة ، لأنهم مشائيم ، أى : أصحاب شؤم على أنفسهم ، لأنهم طغوا وآثروا الحياة الدنيا : فكانت عاقبتهم النار ..

أو سموا بذلك ، لأنهم يؤتون كتبهم بشمالهم ، أو لأنهم يذهب بهم ذات الشمال إلى النار ... والعرب تسمى الشمال شؤما ، كما تسمى اليمين يمنا .

والتعبير بقوله : « ما أصحاب الميمنة » للتفخيم والإعلاء من شأنهم ، كما أن التعبير بقوله - تعالى - « ما أصحاب المشأمة » للتحقير والتعجيب من حالهم .

وجملة : « ما أصحاب الميمنة » مكوّنة من مبتدأ - وهو ما الاستفهامية - ، وخبر وهو ما بعدها ، وهذه الجملة خبر لقوله « فأصحاب الميمنة » .. ووضع فيها الاسم الظاهر موضع الضمير للتفخيم ، بخلاف وضعه فى أصحاب المشأمة ، فهو للتشنيع عليهم .

وشبيه بهذا الأسلوب قوله - تعالى - الخافاة ما الحاقاة . والقارعة ما القارعة . ولا يؤتى بمثل هذا التركيب إلا فى مواضع التفخيم ، أو التعجيب ...

والمعنى : فأصحاب الميمنة ، أى شئ . هم فى أحوالهم وصفاتهم الكريمة ، وأصحاب المشأمة ، أى شئ . هم فى أحوالهم وصفاتهم القبيحة ؟

وقد ترك هذا الاستفهام التعجيبى على إبهامه ، لتذهب النفس فيه كل مذهب من الذواب أو العقاب ...

وقوله : « والسابقون السابقون » هؤلاء هم الصنف الثالث ، وهم الذين سبقوا غيرهم إلى كل قول أو فعل فيه طاعة لله - تعالى - وتقرب إلى جلاله .

والأظهر فى إعراب مثل هذا التركيب ، أنه مبتدأ وخبر ، على عادة العرب فى تكريرهم اللفظ ، وجعلهم الثانى خبرا عن الأول ، ويعنون بذلك أن اللفظ المنخبر عنه ، معروف خبره ، ولا يحتاج إلى تعريفه ، كما فى قول الشاعر :

أنا ابو النجم ، وشعرى شعرى ...

يعنى ، أن شعرى هو الذى أتاك خبره ، وإنتهى إليك وصفه ...
 والمعنى : والسابقون هم الذين إشتهرت أحوالهم ، وعرفت منزلتهم ،
 وبلغت من الرفعة مبلغا لا ينفى به إلا الإخبار عنهم بهذا الوصف .
 وحذف - سبحانه - المتعلق فى الآية لإفادة العموم . أى : هم السابقون
 إلى كل فضل ومكرمة وطاعة ...

وأخرهم - سبحانه - عن أصحاب الميمنة وأصحاب المشأمة ، لتشويق السامع
 إلى معرفة أحوالهم ، وبيان ما أعد لهم من ثواب عظيم ، فصلة بعد ذلك فى
 قوله - تعالى - : أولئك المقربون . فى جنات النعيم .. ، أى : والسابقون
 غيرهم إلى كل فضيلة وطاعة . أولئك هم المقربون عند الله - تعالى - وأولئك
 هم الذين مقرهم جنات النعيم .

فإنجمله السكريمة مستأنفة إستئنافا بيانيا ، لأنها جواب عما يشيره فى النفوس
 قوله - تعالى - : والسابقون السابقون ، و « أولئك » مبتدأ ، وخبره ما بعده
 وما فيه من معنى البعد ، مع قرب العهد بالمشار إليه ، الإشعار بسمو منزلتهم عند
 الله - تعالى - . ولفظه ، المقربون ، مأخوذ من القربة بمعنى الخطوة . وهو أبلغ
 من القريب ، لدلالة صيغته على الاصطفا . والاجتناب

أى : أولئك هم المقربون من ربهم - عز وجل - قربا لا يعرف أحد
 مقداره ...

وقوله - سبحانه - : : فى جنات النعيم ، بيان لمظهر من مظاهر آثار هذا
 التقرب .

قال الألوسى : وقوله : : فى جنات النعيم ، متعلق بقوله ، المقربون ، أو
 بمضمر هو حال من ضميره ، أى : كائنين فى جنات النعيم .

وعلى الوجهين ، فيه إشارة إلى أن قربهم عض لذة وراحة ، لا كقرب

خواص الملك القائمين بأشغاله عنده ، بل كقرب جلسائه ودمته الذين لا شغل لهم ، ولا يرد عليهم أمر أو نهي ، ولذا قيل : جنات النعيم ، دون جنات الخلود ونحوه (١)

ثم قال - تعالى - : ثلثة من الأولين . وقليل من الآخرين ، والثلثة : الجماعة الكثيرة من الناس ، وأصلها : القطعة من الشيء . وهى خير لمبتدأ محذوف . وللمفسرين فى المراد بالثلثة من الأولين ، وبالقليل من الآخرين ، لثلاثان : أولهما : يرى أصحابه أن المراد بقوله : : ثلثة من الأولين : : أولئك السابقون من الأمم الكفيرة السابقة على الأمة الإسلامية ، وهم الذين صدقوا أنبياءهم وعزروهم ونصروهم

والمراد بقوله : : وقليل من الآخرين ، المؤمنون من هذه الأمة الإسلامية وعلى هذا المعنى سار صاحب الكشف ، فقد قال : الثلثة : الأمة الكثيرة من الناس ، قال الشاعر :

وجاءت لإيهم ثلثة خندقية بجيش كتيار من السيل مزبد

وقوله - عز وجل - : : وقليل من الآخرين ، كفى به دليلاً على الكثرة أى فى لفظ : ثلثة ، - ، وهو من الثل وهو الكسر ... كأنها جماعة كسرت من الناس وقطعت منهم .

والمعنى : أن السابقين من الأولين كثير ، وهم الأمم من لدن آدم - عليه السلام - إلى محمد - صلى الله عليه وسلم - . وقليل من الآخرين ، وهم أمة محمد - صلى الله عليه وسلم - (٢)

وأما الاتجاه الثانى فىرى أصحابه ، أن الخطاب فى قوله - تعالى - : : وكنتم أزواجا ثلاثة ، للأمة الإسلامية خاصة ، وأن المراد بقوله : : ثلثة من الأولين صدر هذه الأمة الإسلامية

(١) تفسير الألوسى - ٢٧ ص ١٣٣

(٢) تفسير الكشف - ٤ ص ٥٣

وأن المراد بقوله - تعالى - : « وقليل من الآخرين » ، من أتى بعد صدر هذه الأمة إلى يوم القيامة ...

وقد أفاض الامام ابن كثير في ترجيح هذا القول ، فقال ما ملخصه : وقد اختلفوا في المراد بقوله : « ثلة من الأولين وقليل من الآخرين » ، فقيل : المراد بالأوليين الأمم الماضية ، بالآخرين هذه الأمة ... وهو إختبار ابن جرير ...

وهذا الذي إختاره ابن جرير ههنا فيه نظر ، بل هو قول ضعيف ، لأن هذه الأمة : هي خير الأمم بنص القرآن ، فبيد أن يكون المقربون أكثر منها ، اللهم إلا أن يقابل مجموع الأمم بهذه الأمة ... فالقول الراجح أن يكون المراد بقوله - تعالى - « ثلة من الأولين ، أى : من صدر هذه الأمة .

والمراد بقوله : « وقليل من الآخرين » ، أى : من هذه الأمة ...

وروى عن الحسن أنه قال : أما السابقون فقد مضوا ، ولكن اللهم اجعلنا من أصحاب اليمين ، (١)

وقد رجح بعض العلماء القول الأول فقال ما ملخصه : وقد اختلف أهل العلم في المراد بهذه الثلة من الأولين ، وهذا القليل من الآخرين المذكورين ههنا . كما اختلفوا في الثنتين المذكورين في قوله - تعالى - بعد ذلك : « ثلة من الأولين . وثلة من الآخرين » ، ...

وظاهر القرآن يفيد في هذا المقام : أن الأولين في الموضوعين من الأمم الماضية .

والآخرين فيهما من هذه الأمة .

وأن قوله - تعالى - : « ثلة من الأولين . وقليل من الآخرين » ، في السابقين خاصة .

وأن قوله - تعالى - : «ثلة من الأولين . وثلة من الآخرين ، في أصحاب
اليمين خاصة .

وذلك لشمول الآيات لجميع الأمم ، إذ قوله - تعالى - : «وكنتم أزواجاً
ثلاثة . . . ، خطاب لجميع أهل المحشر ، فظهر أن السابقين وأصحاب اليمين ،
منهم من هو من الأمم السابقة . ومنهم من هو من هذه الأمة ...

ولا غرابة في أن يكون السابقون من الأمم السابقة أكثر ... لأن الأمم
الماضية أُمم كثيرة ، وفيهم أنبياء كثيرون ...

وأما أصحاب اليمين من هذه الأمة ، فيحتمل أن يكونوا أكثر من أصحاب
اليمين من جميع الأمم ، لأن الثلة تتناول العدد الكثير ، وقد يكون أحدهم
العديد من الكثيرين ، أكثر من الآخر ، مع أنهما كلاهما كثير .

ولهذا نعلم أن ما دل عليه ظاهر القرآن ، واختاره ابن جرير ، لا ينافي ما جاء
من أن نصف أهل الجنة من هذه الأمة ... ، (١) .

ثم بين - سبحانه - ما أعد له هؤلاء السابقين بالخيرات من عطاء كريم ،
فقال : «على سرر موضوعة ، .

والسرر : جمع سرير ، وهو ما يستعمله الإنسان لنومه أو الإبتكاء عليه
في جلسته ...

والموضوعة : أي المنسوجة بالذهب نسجاً محكمًا ، لراحة الجالس عليها
ولتكريمه . يقال وضن فلان الغزل يَضِنُّهُ ، إذا نسجه نسجاً متقناً جميلاً ...

أي : مستقرين على سرر قد نسجت أطرافها بالذهب وبما يشبهه ،
نسجاً بديماً يشرح الصدر . فقوله : «على سرر موضوعة ، حال من
المقربين ...

(١) راجع أضواء البيان ج ٧ ص ٧١٩ للشيخ محمد الأمين الشنقيطي .

ومثله قوله : « متكئين عايتها متقابلين » ، أى : مضطجعين عليها لاضطجاع الذى إمتلأ قلبه بالراحة ، و فراغ البال من كل ما يشغله ، وقد قابل وجه كل واحد منهم وجه الآخر ، ليتم مرورهم ونعيمهم ، إذ تقابل وجوه الأحباب يزيد الأانس والبهجة ..

« يطوف عليهم ولدان مخلدون » ، أى : يدور عليهم من أجل خدمتهم ، فلان شبابهم باق لا يتغير ، وهما ينهم الجميلة على حالها لا تبدل . فهم دائما على تلك الهيئة المذمومة بالشباب والمنظر الحسن .

« بأكواب وأباريق وكأس من معين » ، أى : يطوفون عليهم ، بأكواب أى بأقداح لأعراها ، وأباريق - أى : وبأوان ذات عرا ، وكأس من معين ، أى : ويأفأ مملوء بالخمر الكثير الجارى ، فقوله « معين » من المعن بمعنى الكثرة . لا يصدعون عنها .. ، أى : لا يصيبهم صداع أو تعب بسبب شرب هذه الخمر ، فمن هنا بمعنى بآء السببية .

وقوله « ولا ينزفون » ، أى : ولا تذهب الخمر عقولهم ، كما تفعل نمر الدنيا بشاربها ، مأخوذ من النّزف ، بمعنى إختلاط العقل .

وقوله : « وفاكهة مما يتخيرون » ، أى : ويطاف عليهم بفاكهة يتلذذون بأكلها ، وهذه الفاكهة تأتيمهم من كل نوع ، على حسب ما يريدون ويشتهون . ويطاف عليهم - أيضا - بلحم مما يشتهون ، مما يحبونه ويتأرونه من هذه اللحوم الطيبة المحببة إلى النفوس .

وقوله « وحور عين » معطوف على قوله « ولدان مخلدون » ، أى : ويطوف عليهم - أيضا - نساء عيونهن شديدة البياض والسواد فى سعة وجمال . وهؤلاء الحور العين دكأمال الأولؤ المسكنون ، أى : يشبهن اللؤلؤ المسكنون الذى لم تلمسه الأيدي ، فى صفاء بياضهن ، وفى شدة جمالهن .
(١٤ - سورة الواقعة)

وقوله - سبحانه - : **جزاء** ، بما كانوا يعملون ، بيان للأسباب التي أوصلتهم إلى هذا النعيم الكبير ..

ولفظ **جزاء** ، منصوب على أنه مفعول لأجله لفعل محذوف . أى : أعطيتهم هذا العطاء الجزيل ، **جزاء** مناسبة بسبب ما كانوا يعملونه في الدنيا من أعمال صالحة .

وقوله - تعالى - : **لا يسمعون فيها لغوا ولا تأثيلا** . إلا قبيلا سلاسا ، تسميع للنعم التي أنعم - سبحانه - عليهم بها في الجنة .

واللغو : الكلام الساقط الذي لا فائدة منه . ولا وزن له . يقال : لغا فلان بلغو ، إذا قال كلاما يلام عليه .

والتأثيم : مصدر أثم ، إذا نسب غيره إلى الإثم وفعل مالا يليق .

أى : أن هؤلاء المقربين لا يسمعون في الجنة كلاما لا يعتد به ، ولا يسمعون - أيضا - كلاما سيئا أو قبيحا ، بأن ينسب بعضهم إلى بعض مالا يليق به . وإنما الذي يسمعون هو الكلام الطيب المشتمل على الأمان المتكرر ، والتحية الدائمة .

والاستثناء منقطع ، لأن السلام لا يندرج تحت اللغو ، وهو من تأكيد المدح بما يشبه الذم ، ودقيل ، بمعنى دقولا ، وهو منصوب على الاستثناء .

ولفظ **سلاما** ، الأول ، بدل من قوله **دقيل** ، أو لفت له . . . أى : سالما من العيوب والتكرير لهذا اللفظ القصد منه التأكيد ، والإشعار بكثرة تحيتهم بهذا اللفظ الدال على المحبة الوثام .

أى : لا يسمعون في الجنة إلا سلاما إثر سلام ، وتحية في أعقاب تحية ، ومودة تتلوها مودة .

وإلى هنا نجد الآيات الكريمة ، قد بينت أقسام الناس يوم القيامة ،
وفصلت ما أعده - سبحانه - للسابقين ، من عطاء جزيل ، وفضل عظيم .

• • •

وبعد هذا الحديث الزاخر بالخيرات والبركات عن السابقين . . . جاء
الحديث عن أصحاب اليمين وعما أعده الله - تعالى - لهم من ثواب فقال - سبحانه - :
« وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ (٢٧) فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ (٢٨)
وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ (٢٩) وَظِلٍّ تَمَمُّدُودٍ (٣٠) وَمَاءٍ مَسْكُوبٍ (٣١)
وفاكهة كثيرة (٣٢) لا مقطوعة ولا ممنوعة (٣٣) وفُرُشٍ
مرفوعة (٣٤) إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنِشَاءً (٣٥) لِّجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا (٣٦)
عُرُبًا أَتْرَابًا (٣٧) لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ (٣٨) ثُلَّةٌ مِنَ الْأُولَى (٣٩)
وَتِلْكَ مِنَ الْآخِرِينَ (٤٠) » .

قال الألوسي : قوله - تعالى - « وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ . . . » شروع في بيان
تفاصيل شئونهم ، بعد بيان شئون السابقين .

وأصحاب : مبتدأ . وقوله : « ما أصحاب اليمين » جملة استفهامية مشعرة
بتفخيمهم ، والتعجب من حالهم . وهي خبر للمبتدأ . . . أو معترضة ، والخبر
قوله : في سدر مخضود . . . (١) .

والسدر : شجر النسيج ، واحده سدرية . ومخضود أى : منزوع الشوك .
يقال : خضد فلان الشجر ، إذا قطع الشوك الذي به فهو خضيد ومخضود .
أو مخضود بمعنى ملئ بالثمر حتى قذت أغصانه ، من خضدت الفصن ، إذا
ثبته وأملته إلى جهة أخرى .

أى : وأصحاب اليمين ، المقول فيهم || أما أصحاب اليمين على سبيل التفخيم ، مستقرون يوم القيامة فى حدائق مليئة بالشجر الذى خلا من الشوك وإملاأ بالثمار الطيبة ، التى تذنت أغصانها لكثرتها ...

قال القرطبي : وذكر ابن المبارك قال : حدثنا صفوان عن سليم بن عامر قال : كان أصحاب النبي - صلى الله عليه وسلم - يقولون : إنه لينفعنا الأعراب ومساثلهم . قال : أقبيل أعرابي يوما فقال : يا رسول الله ، لقد ذكر الله فى القرآن شجرة مؤذية ، وما كنت أرى فى الجنة شجرة تؤذى صاحبها ؟

فقال صلى الله عليه وسلم - وما هى ؟ قال : السدر ، فإن له شوكة مؤذيا . فقال - صلى الله عليه وسلم - : ألم يقل الله - تعالى - : فى سدر منضود ، ؟ خضد الله - تعالى - شوكة فجعل مكان كل شوكة ثمرة . (١)
وقوله - تعالى : : وطلع منضود ، بيان لنعمة ثانية . والطلع : قالوا هو شجر الموز ، واحده طلحة . والمنضود : المتراكب بعضه فوق بعض ، بحيث صار ثمرة متراسا على هيئة جميلة يسر الناظرين .

فقوله منضود ، لاسم مفعول من النضد وهو الرص . يقال : نضدت فلان متاعه ، - من باب ضرب - إذا وضع بعضه فوق بعض بطريقة منسقة جميلة . ومنه قوله - تعالى - : : والنخل باسقات لها طلع نضيد ، وقوله - سبحانه - : وظل ممدود ، أى : ممتد متسع منبسط ، بحيث لا يزول كما يزول الظل فى الدنيا ، ويحل محله ضوء الشمس .

أخرج الشيخان وغيرهما عن أبى هريرة - رضى الله عنه - أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : إن فى الجنة شجرة يسير الراكب فى ظلها عام - . لإقرءوا إن شئتم وظل ممدود (٢)

(١) تفسير القرطبي ج ١٧ ص ٢٠٧

(٢) واجع تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٢٨٩

وقوله - سبحانه - : « وما مسكوب ، أى : وفيها ماء كثير مصبوب يجرى على الأرض ، ويأخذون منه ما شاءوا ، بدون جهد أو تعب .. »

يقال : سكب فلان الماء سكبا ، إذا صبه بقوة وكثرة .

وقوله - تعالى - : « وفاكهة كثيرة . لا مقطوعة ولا ممنوعة ، أى : وهم بجانب كل ذلك يتلذذون في الجنة بفاكهة كثيرة ، هذه الفاكهة ليست مقطوعة عنهم في وقت من الأوقات ، ولا تتمتع عن طلبها متى طلبها . »

وجمع - سبحانه - بين إفتاء قطعها ومنعها ، الإشتغال بأن فاكهة الجنة ليست كفاكهة الدنيا فهي تارة تكون مقطوعة ، لأنها لها أوقات معينة تظهر فيها ، وتارة تكون موجودة ولكن يصعب الحصول عليها ، لا امتناع أصحابها عن إعطائها ...

وقوله - تعالى - : « وفرش مرفوعة ، أى . وفيها - أيضا - فرش منصدة ، عند إرتفعت عن الأرض ، ليتكىء عليها أهل الجنة وأزواجهم . »

والضمير في قوله - تعالى - : « إنا أنشأناهم لإنشاء .. » ، عائد إلى غير المذكور ، إلا أنه يفهم من سياق الكلام ، لأن الحديث عن الفرش المرفوعة يشير إلى من يجلس عليها ، وهم الرجال ونسأؤهم . أى : نسأؤهم من أمل الدنيا أو الخور العين . ويرى بعضهم أنه يعود إلى المذكور ، لأن المراد بالفرش النساء ، والعرب تسمى المرأة لباسا ، وإزارا ، وفراشا ...

والإنشاء : الخلق والإيجاد ، فيشمل إعادة ما كان موجودا ثم عدم ، كما يشمل الإيجاد على سبيل الابتداء .

أى : إنا أنشأنا هؤلاء النساء المطهرات من كل رجس حسى أو معنوى ، لإنشاء جيلا ، يشرح الصدور ...

« فجعلناهم ، بقدرتنا ، أبكارا ، أى : فصيرناهم أبكارا ليكون ذلك أكثر تلهذا بهم . »

قال الآلوسى : وفى الحديث الذى أخرجه الطبرانى عن أبى سعيد مرفوعا
 « إن أهل الجنة إذا جامعوا نساءهم ، عدن أبكارا ، ^(١)

وقوله : « عربا أترابا ، صفة أخرى من صفات هؤلاء النساء الفضليات
 الجميلات .

وقوله : « عربا ، جمع عرب - كرسل ورسول - من أعرب فلان فى قوله
 إذا نطق بفصاحة وحسن بيان .

وأترابا : جمع ترب - بكسر التاء وسكون الراء - ، وترب الإنسان هو
 ما كان مساويا له فى السن .

أى : إنا أنشأنا هؤلاء النساء على تلك الصورة الجميلة ، فجعلناهن أبكارا
 كما جعلناهن - أيضا - معجوبات إلى أزواجهن ، ومستويات فى سن واحدة .

روى الترمذى عن الحسن قال : أتت عجوز فقالت يا رسول الله ، أدع الله
 - تعالى - أن يدخلنى الجنة ، فقال - صلى الله عليه وسلم - : « يا أم فلان إن
 الجنة لا تدخلها عجوز ، فولت تبكى .

فقال - صلى الله عليه وسلم - : أخبروها أنها لا تدخلها وهى عجوز ، إن الله
 - تعالى - يقول : « إنا أنشأناهن لانشاء . فجعلناهن أبكارا . عربا أترابا ، ^(٢)

واللام فى قوله : « لأصحاب اليمين ، متعلقة بأنشأناهن ، أو بجعلناهن . .
 أى : أنشأناهن كذلك ، ليسكن فى صحبة أصحاب اليمين ، على سبيل
 التكريم لهم ...

وقوله : « ثلثة من الأولين . وثلثة من الآخرين ، خير لمبتدأ عذوف .
 أى : أصحاب اليمين جماعة كبيرة منهم من الأمم الماضية ، وجماعة كبيرة
 أخرى من هذه الأمة الإسلامية .

(١) راجع تفسير الآلوسى > ٢٧ ص ١٤٢

(٢) تفسير ابن كثير > ٤ ص ٢٩١

وبذلك نرى أن الله - تعالى - قد ذكر لنا ألوانا من النعم التي أنعم بها على أصحاب اليمين ، كما ذكر قبل ذلك ألوانا أخرى مما أنعم به على السابقين .

قال الألوسي : « ولم يقل - سبحانه - في حق أصحاب اليمين : « جزاء بما كانوا يعملون » .

كما قال - سبحانه - ذلك في حق السابقين ، رمزا إلى أن الفضل في حقهم متمحض ، كان عملهم لقصوره عن عمل السابقين . لم يعتبر اعتباره .

ثم الظاهر أن ما ذكر من أصحاب اليمين ، هو حالهم الذي يذهبون إليه فلا ينافي أن يكون منهم من يعذب لمعاصي فعلها ، ومات غير تائب عنها ، ثم يدخل الجنة ... (١) .

° ° °

وبعد هذا الحديث الذي يشرح الصدور ، ويقر العيون ، وترتاح له الأفتدة ، عن السابقين وعن أصحاب اليمين . . . جاء الحديث عن أصحاب الشمال ، وهم الذين استحبوا العمى على الهدى وآثروا الغى على الرشد ، فقال - تعالى :

« وَأَصْحَابُ الشَّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشَّمَالِ (٤١) فِي سُمُومٍ وَحَمِيمٍ (٤٢) وَظِلٍّ مِنْ يَحُمُومٍ (٤٣) لَا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ (٤٤) إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ (٤٥) وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنثِ الْعَظِيمِ (٤٦) وَكَانُوا يَقُولُونَ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (٤٧) أَوْ آبَاؤُنَا

الْأَوَّلُونَ (٤٨) قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ (٤٩) لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ
يَوْمٍ مَّعْلُومٍ (٥٠) ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيْهَا الضَّالُّونَ الْمَكْذِبُونَ (٥١) لَأَكُونَنَّ
مِنْ شَجَرٍ مِنْ زَقُّومٍ (٥٢) فَالْتَوْنْ مِنْهَا الْبُطُونِ (٥٣) فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ
مِنَ الْحَمِيمِ (٥٤) فَشَارِبُونَ شَرْبَ الْهَمِيمِ (٥٥) هَذَا نَزْلُكُمْ يَوْمَ
الدِّينِ (٥٦) .

وقوله - تعالى - : د وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال ، أى : ما قصة
هؤلاء القوم ؟ وما حالهم ؟ وما جزاؤهم ؟

ثم بين - سبحانه - ذلك فقال : د فى سموم وحميم ، والسموم : الريح
الشديدة الحرارة ، التى تدخل فى مسام الجسد ، فكأنها السم القاتل .

والحميم : الماء الذى بلغ النهاية فى الغليان : أى : هم فى الآخرة مستقرون
فيما يهلكهم من الريح الحارة ، والماء الشديد الغليان .

وهم كذلك فى د ظل من يحموم ، أى : فى دغان أسود شديد يخفق
أنفاسهم . والعرب يقولون لكل شئ شديد السواد : أسود يحموم . مأخوذ
من الشئ الاحم ، وهو الأسود من كل شئ ، ومثله الحمم .

و د من ، فى قوله : د من يحموم ، للبيان ، إذ للظل هنا هو نفس المحموم
وتسميته ظلا من باب التهمك بهم .

وقوله - تعالى - : لا د لا بارد ولا كريم ، صفتان الظل . أى : هذا الظل
لا شئ فيه من البرودة التى يستروح بها من الحر ، ولا شئ فيه من النفع لمن
يلبى إليه .

فها انان الصفتان لبيان انتفاء البرودة والنفع عنه ، ومتى كان كذلك انتفت
عنه صفات الظلال التى يحتاج إليها .

قال صاحب الكشف : قوله - تعالى - : « لا بارد ولا كريم ، نفى
 تصفى الظل عنه ، يريد أنه ظل ولكنه لا كسائر الظلال . سماه ظلاً ثم نفى عنه
 برد الظل وروحه ونفقه لمن يأوى إليه من أذى الحر ، ليحقق ما في مدلول الظل
 من الاسترواح إليه ، والمعنى : أنه ظل حار ضار ، إلا أن النفي في نحو هذا
 شأناً ليس للإثبات ، وفيه تمك بأصحاب المشأمة ، وأنهم لا يستأهون الظل
 البارد الكريم ، الذي هو لأضدادهم في الجنة ، (١) .

ثم بين - سبحانه - الأسباب التي أدت بهؤلاء الأشقياء إلى هذا
 المصير الآليم ، فقال - تعالى - : « إنهم كانوا قبل ذلك مترفين ، أى : لأنهم
 كانوا قبل ذلك العذاب الذى حل بهم ، أى : كانوا فى الدنيا مترفين ، أى :
 متمتعين بطرين ، متبعين لهوى أنفسهم ، وسالكين خطوات الشيطان ، دون
 أن يصدم عن ذلك صاد ، أو يردعهم رادع .

فالمراد بالتعرف هنا : بطر النعمة ، وعدم شكر الله - تعالى - عليها .
 والتعرف : هو الذى يتقلب فى نعم الله - تعالى - ، ولكنه يستعملها فى المعاصى
 لا فى الطاعات ، وفى الشرور لا فى الخيرات .

وقوله - سبحانه - : « وكانوا يصرون على الحنث العظيم ، بيان لسبب
 آخر من الأسباب التى أدت بهم إلى هذا المصير السيء .

والحنث : الذنب الكبير ، والمعصية الشديدة ؛ ويندرج تحته الإصرار
 بالله - تعالى - ، وإنكار البعث والجزاء ، والحلف الكاذب مع تعدد ذلك .

أى : وكانوا فى الدنيا يصرون على ارتكاب الذنوب العظيمة ، ويعتمدون
 إتيانها بدون تخرج أو تردد ، ومن مظاهر ذلك أنهم أقسموا بالإيمان
 المغلظة أنه لا بعث ولا حساب ، ولا جزاء ، كما قال - تعالى - : « وأقسموا

بأنه جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت ... (١).

ثم حكى - سبحانه - لونا من أقوالهم الباطلة ، وحججهم الداحضة فقال : وكانوا يقولون أنذا متنا وكنا ترابا وعظاما أننا لمبعوثون أو آباؤنا الأولون ، .

أى : أنهم فوق ترفهم وإصرارهم على ارتكاب الآثام كانوا يقولون - على سبيل الإنكار - لمن نصحهم باتباع الحق : أنذا متنا ، وانتهت حياتنا ، ووضعنا فى القبور ، وصرفنا ترابا وعظاما ، أننا لمبعوثون ومعادون إلى الحياة مرة أخرى ؟ وهل آباؤنا الأولون الذين صاروا من قبلنا عظاما ورفاتا يبعثون - أيضا - ؟

ولا شك أن قولهم هذا دليل على انطباع بصائرهم ، وعلى شدة غفلتهم عن آثار قدرة الله - تعالى - ، التى لا يعجزها شئ ، والتى من آثارها إبعادهم من العدم . .

ولذا لقن الله - تعالى - نبيه - صلى الله عليه وسلم - الجواب الذى يخرس السنتهم فقال - سبحانه - : قل إن الأولين والآخرين ، لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم ، .

أى : قل لهم - أيها الرسول الكريم - إن الأمم السابقة التى من جملتها آباؤكم ، والأمم اللاحقة الى من جملتها أنتم .. الكل مجموعون وموقون إلى المحشر فى وقت واحد محدد فى علم الله - تعالى - ، وعندما يأتى هذا الوقت ماله من دافع .

فالميقات هنا : بمعنى الوقت والأجل ، والمراد به هنا : يوم القيامة . ووصفه - سبحانه - بأنه معلوم ، للإشعار بسكونه معيناً وواقعا وقوعا لا ريب فيه ، وللمكن فى الوقت الذى يشاؤه الله - تعالى - ويختاره .

ثم بين - سبحانه - ما سيحل بهم من عذاب في هذا اليوم فقال : **ثم إنكم أيها الضالون المكذبون . لا تكون من شجر من زقوم**

والجملة السكرية معطوفة على قوله - تعالى - : **وإن الأولين والآخرين لمجموعون . . .** وداخله في حيز القول . و **ثم** ، للتراخي الزماني أو الرقي والخطاب للمشركين الذين أعرضوا عن دعوة النبي - صلى الله عليه وسلم - :

و من ، في قوله **من شجر** ، لإبتدائه ، وفي قوله **من زقوم** ، ببيانته . **وشجر الزقوم** : لا وجود له في الدنيا ، وإنما يخلقه الله - تعالى - في النار ، كما يخلق غيره من أصناف العذاب ، كالحيات والعقارب ...

وقيل : هو شجر شام ، متى مسه جسد إنسان ، تورم هذا الإنسان ومات ويوجد هذا الشجر في الأراضي المجاورة للصحراء .

والزقوم من التزقم ، وهو ابتلاع الشيء السكري ، وبمشقة شديدة ...

والمعنى . ثم قل لهم - أيها الرسول الكريم - على سبيل التقرير والتبكيث : **إنكم أيها الضالون عن الحق ، المكذبون بالبعث والجزاء ، لا تكون يوم القيامة من شجر ، هو شجر الزقوم ، الذي هو أخبث الشجر وأبشعه**

و فالثون منها البطون ، أي : فالثون من هذه الشجرة الخبيثة بطونكم ، لشدة الجوع الذي حل بكم ...

وجاء الضمير مؤنفا في قوله : **منها** ، لأن الشجر هنا بمعنى الشجرة ، أو لأن ضمائر الجمع لغير العاقل ، تأتي مؤنثة في الغالب .

ثم قال - تعالى - : **« فشاربون عليه من الحميم : فشاربون شرب الهيم ، والضمير في قوله عليه »** ، يعود على الأكل المستفاد من قوله : **« لا تكون . . . »**

أى : ثم إنكم - أيها الضالون المكذبون - بعد هذا الأكل الخبيث من شجرة الزقوم .. تشربون عليه في بطونكم - ماء قد بلغ أقصى درجات الحرارة ، فصرتم في شرايكم كالإبل العطاش التي لا يرونها الماء مهما كثرت ، لأنها مصابة بداء هذا الداء يمنعها من الشبع منه ، فساتزال تشرب منه حتى نهلك .

فقوله : اللهم ، صفة لموصوف محذوف ، أى : الإبل اللهم . جمع أهم المذكر . وهما للمؤنث .

والهيام - بضم الهاء - داء يصيب الإبل ، يجعلها تشرب فلا تشبع ، وما تزال تشرب حتى نهلك ، أو تسقم سقما شديدا يوصل إلى موتها . والفاء في قوله - تعالى - : فشاربون عليه ، عطف على : لا كلون . . . ، لإفادة أن شربهم مع عطشهم الشديد . يأتي بعد أكلهم من الزقوم ، بدون مهلة أو استراحة .

وقوله : فشاربون شرب . . . ، تأكيد لما قبله ، للتنبيه على أن هذا الشراب - مع فظاعته وقبحه - لا مفر لهم منه ، ولا انفكاك لهم عنه .

ثم ختم - سبحانه - هذه الآيات بقوله : : هذا نزلهم يوم الدين ، والنزل : ما يعد الضيف من منزل حسن ، وما كل حسن لإكرامه .

أى : هذا المذكور من أنواع العذاب المهيئ . . . نزلهم ومسكنهم ومقرم ، أول قدومهم يوم الجزاء .

فالإشارة بقوله : : هذا ، إلى ما ذكر قبل ذلك من عذاب مهين ، من مظاهره أكلهم من الزقوم ، وشربهم من اللهم .

والتعير عما أعد لهم من عذاب بالنزل ، على سبيل التهكم ، كما في قول الشاعر :

وكننا إذا الجبار بالجيش ضافنا جعلنا القنا والمرهفات له نولا

وبذلك نرى الآيات الكريمة، قد بينت ما أعد لأصحاب الشمال، من عذاب ممين، بأسلوب تقشعر من هول له الأبدان . . .

و . . .

وبعد هذا الحديث الجامع عن أقسام الناس يوم القيامة، وعن جزاء كل قسم . . . أخذت السورة الكريمة، في إقامة الأدلة على وحدانية الله تعالى، وعلى كمال قدرته . . .

وجاءت هذه الأدلة لا عن طريق أمور تخيلية، أو فلسفية، أو غيبية . . . وإنما عن طريق أمور يحسونها بأنفسهم، ويشاهدونها بأعينهم . . . عن طريق خلقهم، وزرعهم التي يزاولونها بأيديهم، والماء الذي يشربونه، والنار التي يوقدونها . . .

لنستمع إلى السورة الكريمة، وهي تبحر في كل ذلك فتقول :

« نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ (٥٧) أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ (٥٨) أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْمَخْلُقُونَ (٥٩) نَحْنُ قَادِرُونَ بِإِيمَانِكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ (٦٠) عَلَى أَنْ نَبْدَلَ خَلْقَكُمْ وَنُدْشِكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ (٦١) وَلَقَدْ عَلَّمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَى فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ (٦٢) أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ (٦٣) أَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ (٦٤) لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ (٦٥) إِنَّا لَمَغْرُمُونَ (٦٦) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (٦٧) أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ (٦٨) أَأَنْتُمْ أَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ (٦٩) لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ (٧٠) أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ (٧١) أَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ

شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ (٧٢) نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذِكْرَةً وَمَتَاعًا
لِّلْمُقْوِينَ (٧٣) فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ (٧٤) .

وقوله - تعالى -: نحن خلقناكم فلولا تصدقون ، رد على إنكار المشركين
للبعث والجزاء . ولولا هنا للتخصيص . والفاء لترتيب التخصيص على ما قبله .

أى : نحن الذين خلقناكم - أيها الجاحدون - هذا الخلق الأول بقدرتنا
وحدها ، فهلا صدقتم بذلك ، وأطعتم رسولنا - صلى الله عليه وسلم - فيما
جاءكم به عندنا ، وأيقنتم بأن الأولين والآخرين سيقفون أمامنا يوم
القيامة للحساب ؟

فالمراد بقوله - تعالى - : خلقناكم ، : خلقهم من سلالة من طين ، ثم جعلهم
نطفة في قرار مكين . كما قال - تعالى - : : ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من
طين ، ثم جعلناه نطفة في قرار مكين . ثم خلقنا النطفة علقة ، ثم خلقنا العلقة
مضغة ، ثم خلقنا المضغة عظاما ، فمكسونا العظام لحما ، ثم أنشأناه خلقا آخر ،
فبارك الله أحسن الخالقين (١)

فإن قيل : إنهم كانوا يعترفون بأن الله - تعالى - قد خلقهم ، بدايل قوله
- تعالى - : : ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله فما فائدة قول - سبحانه -
نحن خلقناكم . . . ؟

فالجواب أنهم لما كان اعترافهم بمنزلة العدم ، حيث أشركوا مع الله
- تعالى - آلهة أخرى في العبادة قبل لهم على سبيل الإلزام والتبكيك :
نحن خلقناكم . . .

ثم ذكر - سبحانه - بعد ذلك أربعة أدلة على صحة البعث وإمكانه ، أما

الدليل الأول فنراه في قوله - تعالى - : « أفرأيتم ما تمنون . أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون . . . ؟ »

وقوله : « تمنون » مأخوذ من أمني بمعنى قذف المني . يقال أمني الرجل النطفة إذا قذفها ، والاستفهام للتقرير . والرؤية علمية . و « ما » موصولة وهي المفعول الأول لقوله « أفرأيتم » ، والجملة الفعلية صلة الموصول ، والعائد إلى الصفة محذوف . وجملة : « أأنتم تخلقونه . . . » هي المفعول الثاني .

والضمير المنصوب في قوله « تخلقونه » يعود إلى الاسم الموصول في قوله : « ما تمنون » . أي : أخبروني - أيها المشركون - عما تصبونه وتقدفونه من المني في أرحام النساء ؟ أأنتم تخلقون ما تمنونه من النطف علقا فعضا ... أم نحن الذين خلقنا ذلك ؟ لاشك أنكم تعرفون بأننا نحن الذين خلقنا كل ذلك ، وما دام الأمر كما تعرفون ، فلماذا عبد مع الله - تعالى - آلهة أخرى .

فلاستفهام للتقرير حيث إنهم لا يملكون إلا الاعتراف بأن الله - تعالى - وحده خلق الإنسان في جميع أطواره .

قال الجبل : و « أم » ، في هذه المواضع الأربعة منقطة ، لوقوع جملة بعدها ، والمنقطة تقدر ببل والهمزة الاستفهامية ، فيكون الكلام مشتملا على استفهامين ، الأول : أأنتم تخلقونه ؟ وجوابه : لا . والثاني : مأخوذ من « أم » ، أي : بل أنحن الخالقون ؟ وجوابه نعم ، ^(١)

ثم أكد - سبحانه - خلقه لكل شيء ، وقدرته على كل شيء ، فقال - تعالى - : « نحن قدرنا بينكم الموت وما نحن بمسبوقين . على أن نبذل أمثالكم ، وننشكم في ما لا تعلمون » .

أي : نحن وحدنا الذين قدرنا لموتكم آجالا مختلفة ، وأعمارا متفاوتة ،

فمنكم من يموت صغيراً ، ومنكم من يموت كبيراً ، وما نحن بمسبوقين . أى :
وما نحن بمغلوبين على ذلك ، بل نحن قادرون قدرة تامة على تحديد آجالكم ،
فن حضره أجله فلن يستطيع أن يتأخر عنه ساعة ، أو يتقدم عنه ساعة ، كما
قال - تعالى - : « فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون » .

وقوله - تعالى - : « على أن نبدل أمثالكم » متعلق بقوله : « نحن قدرنا
بينكم الموت » .

والمراد بتبديل أمثالهم : لإيجاد قوم آخرين من ذرية أولئك الذين ماتوا
والمعنى : نحن وحدنا الذين قدرنا بينكم الموت ، وحددناه على حسب مشيئتنا
ونحن الذين في قدرتنا أن نبدل من الذين ماتوا منكم أشباها لهم ، فوجدتم
بقدرتنا - أيضاً - كما قال - سبحانه - : « وربك الغنى ذو الرحمة أن يشأ يذهبكم
ويستخلف من بعدكم ما يشاء ، كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين » (١)

ويصح أن يكون قوله - تعالى - : « قدرنا » بمعنى قضينا وكتبنا ، ويكون
قوله : « على أن نبدل أمثالكم » متعلق بقوله « بمسبوقين » ، ويكون المراد
بتبديل أمثالهم : لإيجاد قوم آخرين سواء ..

والمعنى : نحن الذين وحونا كتبنا عليكم الموت ، وقضيناه على جميع الخلق
فكل نفس ذائقة الموت ، وما نحن بمغلوبين على إهلاككم ، وعلى خلق أمثالكم
بدلاً منكم كما قال - تعالى - : « يا أيها الناس أقموا الصلوات ، واتقوا الله ، والله هو الغنى
الحديد . إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد . وما ذلك على الله بعزيز » (٢)

وقوله - سبحانه - : « وننشئكم في ما لا تعلمون » بيان للون آخر من
ألوان قدرته - تعالى -

أى : نحن لسنا بعاجزين ولا بمغلوبين ... على أن نهلككم ونأتى بدلاً منكم

(١) سورة الأنعام . الآية ١٢٣

(٢) سورة فاطر . الآيات ١٥ - ١٧

بغيركم . ولسنا - أيضا - بما جزيين على أن ننشئكم بعد إهلاككم فيها لا تعلمونه من الصور ، والهيئات ، والصفات .

قال صاحب الكشف : قوله - تعالى - : نحن قدرنا بينكم الموت ، أى : قدرناه تقديرا ، وقسمناه عليكم قسمة الرزق على اختلاف وتفاوت كما تقتضيه مشيئتنا ، فاختلفت أعماركم من قصير وطويل ومتوسط . .

وقوله : وما نحن بمسبوقين ، يقال : سبقته على الشيء إذا أعجزته عنه . وغلبته عليه ، ولم تمكنه منه . فمعنى قوله ، وما نحن بمسبوقين على أن نبدل أمثالكم ، أنا قادرون على ذلك لا تغلبونا عليه . وأمثالكم جمع مثل - يسكون الثاء - أى : على أن نبدل منكم ومكانكم أشباهكم من الخلق ، و ، على أن ننشئكم في خلق لا تعلمونها وما عهدتم مثلها . يعنى أنا نقدر على الأمرين جميعا : على خلق ما يماثلكم وما لا يماثلكم ، فكيف نعجز عن إعادتكم .

ويجوز أن يسكون أمثالكم جمع مثل ، - بفتح تين - أى : على أن نبدل ونغير صفاتكم التى أنتم عليها فى خلقكم وأخلاقكم . وننشئكم فى صفات لا تعلمونها ... (١)

ثم لفت - سبحانه - أنظارهم إلى ما لا يعلمونه من حالهم فقال : ولقد علمتم النشأة الأولى فلو لا تذكرون ،

أى : والله لقد علمتم النشأة الأولى من خلقكم ، حيث أوجدناكم من نقطة نقطة فضضة ... فهلا تذكرون ذلك وعقلتموه ، وعرفتكم أن من قدر على خلقكم ولم تسكنوا شيئا مذكورا ... قادر على إعادتكم إلى الحياة مرة أخرى ؟

فالمقصود بهذه الآيات الكريمة إقامة الأدلة الساطعة ، على إمكانية البعث وعلى أن من قدر على خلق الإنسان من العدم ، قادر على إعادته .

قال القرطبي : وفي الخبر : عجبنا كل العجب للمكذب بالشاة الأخرى ، وهو يرى الشاة الأولى . وعجبنا للمصدق بالشاة الآخرة ، وهو لا يسمى لدار القرار ، (١) .

ثم انتقلت السورة الكريمة إلى بيان الدليل الثاني على صحة البعث وإمكانيتها فقال - تعالى - : أفأرأيتم ما تحرثون . أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون . لو نشاء لجعلناهم حطاما فظلمتم أنفسكم . إننا لمغرمون . بل نحن محرمون . .

والحرث : شق الأرض من أجل زراعتها . والمراد به هنا : وضع البذر فيها بعد حرثها .

أي : أخبروني عن البذور التي تلقون بها في الأرض بعد حرثها ، أأنتم التي تنبتونها وتصيرونها زراعا بهيجا نضرا أم نحن الذين نفعل ذلك ؟ لا شك أننا نحن الذين نصير هذه البذور زروعا ونباتا يانعا ، ولو نشاء لجعلنا هذا النبات حطاما ، أي : مكسرا مهشما يابس لا تنفع فيه ، فظلمتم بسبب ذلك أنفسكم . أي : فصرتم بسبب ما أصاب زرعكم من هلاك ، تتمتعون مما أصابه ، وتحسرون على ضياع أموالكم ، وتندمون على الجهد الذي بذلتموه من غير فائدة ..

وأصل التنفك : التنقل في الأكل من فاكهة إلى أخرى ، ثم استعير للتنقل من حديث إلى آخر وهو هنا ما يكون من أحاديثهم المتنوعة بعد هلاك الزرع .

والمراد بالتنفك هنا : التعجب والندم والتحسر على ما أصابهم .

وقوله - سبحانه - : إننا لمغرمون ، مقول لقول محذوف . أي : فصرتم بسبب تحطيم زروعكم تتمتعون ، وتقولون على سبيل التحسر : إننا لمهلكون .

يجب هلاك أقواتنا . من الغرام بمعنى الهلاك . أو إنا لمصابون بالفرم
والاحتياج والفقر ، بسبب ما أصاب زرعنا . من الغرم وهو ذهاب المال
بلا مقابل .

ويقولون - أيضا - : « بل نحن محرومون ، من منافع هذا الزرع الذى كنا
نعلق الآمال على الانتفاع به ، والاستفادة بثماره ... » .

قال الإمام القرطبي - رحمه الله - عند تفسيره لهذه الآيات : والمستحب
لكل من يلقى البذر فى الأرض أن يقرأ بعد الاستعاذة : « أفرأيتم ما منحرون ... »
الآيات . ثم يقول : بل الله الزارع ، والمنبت والمبلغ . اللهم صل على محمد ،
وإبرزقا ثمر هذا الزرع ، وجنبنا ضرره ، واجعلنا لأنعمك من الشاكرين ،
ولآلائك من الذاكرين ، وبارك لنا فيه يارب العالمين ... ، (١) .

ثم ذكر - سبحانه - الدليل الثالث على إمكانية البعث ، وعلى كمال قدرته
- تعالى - فقال : « أفرأيتم الماء الذى تشربون . أنتم أنزلتموه من المزن أم نحن
المزلون ، لو نشاء جعلناه أجاجا فلولا تشكرون » .

أى : وأخبرونى - أيضا - عن الماء الذى تشربونه ، أنتم الذين أنزلتموه
من المزن ، أى : من السحاب أم نحن الذين أنزلناه ؟

لا شك أننا نحن الذين أنزلناه ، ولا نستطيعون إنكار ذلك ، لأن إنكاركم
لذلك يعتبر نوعا من المكابرة المكشوفة ، والمغالطة المفضوحة .

وتخصيص هذا الوصف ، وهو الذى تشربون ، بالذكر ، مع كثرة
منافع الماء ، لأن الشرب أهم المقاصد التى من أجلها أنزل - سبحانه - الماء
من السحاب .

وقوله - سبحانه - : « لو نشاء جعلناه أجاجا ... » ، بيان لمظهر من مظاهر
رحمته - سبحانه - .

ومفعولى المشيئة هنا وفى ما قبله إلى قوله د لو نشاء لجعلناه حطاما ...
محذوف ، للاكتفاء عنه بجواب الشرط .

والماء الأجاج : هو الماء الشديد الملوحة والمرارة فى وقت واحد .
أى : لو نشاء أن نجعل هذا الماء النازل من المزن لشربكم ، ماء جامعا بين
الملوحة والمرارة لفعلنا ، ولاكننا لم نشاء ذلك رحمة بكم ، وفضلا منا عليكم .
وقوله : د فـلولا تشكرون ، حض على الشكر لله - تعالى - أى : فـلولا
شكرتم الله - تعالى - على هذه النعم ، وأخلصتم له العبادة والطاعة ، ووضعتم
نعمه فى مواضعها .

فالمراد بالشكر هنا : أن يواظب العبد على شكر ربه ، وعلى المداومة
على ما يرضيه وعلى استعمال النعم فيما خلقت له .

أما شكر الرب - عز وجل - لعبده فعناؤه : منحه الثواب الجزيل ، على
عمله الصالح ، ومنه قوله - تعالى - : د ومن تطوع خيرا فإن الله شاكر
عليم .

قال بعض العلماء : واعلم أن مادة الشكر تتعدى إلى انعمة تارة ، وإلى
المنعم أخرى ،

فإن عديت إلى النعمة . تعدت إليها بنفسها دون حرف الجر ، كقوله تعالى :
د رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت على ... ، ...

وإن عديت إلى المنعم تعدت إليه بحرف الجر الذى هو اللام ، كقوله
- تعالى - : د واشكروا لى ولا تكفرون ، ... (١) .

وقال - سبحانه - هنا د لو نشاء جعلناه أجاجا ، وقال فى الآيات السابقة :
د لو نشاء لجعلناه حطاما ... بلام التأكيد ، لأن إنزال الماء من السماء وتحويله

من ماء عذب إلى ماء ملح ، مما لا يتوهم أن لأحد قدرة عليه سوى الله - تعالى - ،
لذا لم يحتاج الأمر إلى تأكيد . . .

أما جفاف الزرع بعد نضارته . حتى يعود حطاما ، فما يحتمل أنه من
فعل الزارع ، أو لآى سبب آخر كآفة زراعية ، لذا أكد - سبحانه - أنه هو
الفاعل لذلك على الحقيقة ، وأنه - تعالى - قادر على تحطيمه بعد نموه وريعانه .
ثم انتقلت السورة الكريمة إلى الدليل الرابع على قدرته - تعالى - على
البعث والنشور ، فقال - تعالى - : « أفرايتم النار التي تورون ، أنتم أفشأتم
شجرتها أم نحن المنشثون . نحن جعلناها تذكرة ومتاعا للمقوين فسبح
باسم ربك العظيم ، »

وقوله : « تورون ، أى : توقدون ، » من أورى النار إذا قدحها وأوقدها .
ويقال : ورى الزند يورى ورى ، إذا خرجت ناره ، - وفعله من باب وعى -
وأوراه غيره ، إذا استخرج النار منه .

وقوله : « للمقوين ، » مأخوذ من أقوى الرجل ، إذا دخل في القدواء ، وهو
الفضاء الخالى من العمران . والمراد بهم هنا المسافرين ، لأنهم في معظم
الأحيان يسلكون في سفرهم الصحاري والفضاء من الأرض .

وخصمهم - سبحانه - بالذكر ، لأنهم أكثر من غيرهم ارتفاعا بالنار ،
وأحوج من غيرهم إليها .

والمراد بشجرة النار : المرخ والعفار ، وهما شجرتان ، يقدح غصن
إحدهما بغصن الأخرى فتتولد النار منهما بقدرة الله - تعالى - .

ومن أمثال العرب : لكل شجر نار ، واستعجد المرخ والعفار . أى :
وعلا على غيرهما المرخ والعفار لأنهما أكثر الشجر نصيبا في استخراج
النار . فهو مثل يضرب في تفضيل الشيء على غيره .

والمعنى : وأخبروني - أيضا - عن النار التي تقدحونها وتستخرجونها

من الشجر الرطب الأخضر ، أأنتم خلقتهم شجرتها ، واخترعتهم أصلها ، أم نحن الخالقون لها وحدنا ؟

لا شك أن الجواب الذى لا جواب غيره ، أننا نحن الذين أنشأنا شجرتها لا أنتم .

ونحن الذين جعلناها تذكرة ، نذكر الناس بها فى دار الدنيا إذا أحسوا بشدة حرارتها ، بنار الآخرة التى هى أشد وأبقى ، حتى يقلعوا عن الأقوال والأفعال التى تؤدى بهم إلى نار الآخرة .

ونحن - أيضا - الذين جعلنا هذه النار متاعا ، أى : منفعة ، للمؤمنين ، أى : للمسافرين ، وللذين هم فى حاجة إليها فى شئونهم المختلفة .
والفاء فى قوله - تعالى - : « فسيبح باسم ربك العظيم » لترتيب ما بعدها على ما قبلها .

أى : ومادام الأمر كذلك ، فسيبح - أيها العاقل - باسم ربك العظيم ، بأن تنزهه عن الشريك والولد ، وبأن تخصص له العبادة والطاعة .
وبذلك نرى أن هذه الآيات الكريمة ، قد ذكرت أربعة أدلة على إمكانية البعث : الأول عن طريق خلق الإنسان . والثانى : عن طريق إنبات النبات . والثالث عن طريق إنزال الماء من السحاب . والرابع عن طريق إنشاء الشجر الذى تستخرج منه النار .

ولأنها لأدلة واضحة على كمال قدرة الله - تعالى - ووحدايته . لكل عبد منيب .

• • •

وبعد أن ساق - سبحانه - هذه الأدلة المتنوعة على كمال قدرته ، وعلى صحة البعث ... التفت - سبحانه - بالحديث إلى أولئك الذين وصفوا القرآن بأنه أساطير الأولين ... فرد عليهم بما يجرس ألسنتهم ، ونعت القرآن بنعوت جليظة فقال - تعالى - :

« فَلَا أَقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ (٧٥) وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ (٧٦) إِنَّهُ أَقْرَأُ كَرِيمٌ (٧٧) فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ (٧٨) لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ (٧٩) تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٨٠) » .

قال بعض العلماء : ورد القسم على هذا النحو في القرآن الكريم كثيرا ، ومن ذلك قوله - تعالى - : « فَلَا أَقْسِمُ بِالْشَّفَقِ ، وَالْقَعْرِ وَمَا وَدَّقَ ، وَقَوْلُهُ : « فَلَا أَقْسِمُ بِالْخُنُفِ ، الْجَوَارِ الْكُنُفِ ، ... » .

وقد جاء على غير هذه الصورة ، أى : من غير لا النافية ، ومن غير الفعل ، « أَقْسِمُ ، ، كما في قوله - تعالى - : « فَوَرَبِّ السَّمَاءِ - الْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ . . . وَتَأْتِيهِ الْكُودُ بَدْرًا مَوْجِدًا يَخْطُبُ الْكَوْكَبَ ، ... » .

ونارة يكون القسم بأشياء مختلفة من خلقه - تعالى - كالصفات ، والطور ، والطين ، والقرآن ، . . .^(١) والفاء في قوله - تعالى - : « فَلَا أَقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ، » للتفريع على ما تقدم من أدلة البعث . . .

و د لا ، عند أكثر المفسرين في هذا التركيب وأمثاله : مزيدة للتأكيد ، كما في قوله - تعالى - : « د لئلا يعلم أهل الكتاب . . . ، أى ليعلم أهل الكتاب . والمعنى هنا : فأقسم بمواقع النجوم . . . » .

قالوا : وزيادتها هنا جاءت جريا على سنن العرب مز زيادتها قبل القسم ، كما في قولهم : لا وأبيك ، كأنهم ينفون ما سوى المقسم عليه . فيفيد الكلام التأكيد .

وبرى بعضهم أن د لا ، هنا : للنفى ، فيكون المعنى : فلا أقسم بمواقع النجوم ، لأن الأمر أوضح من أن يحتاج إلى قسم أصلا ، فضلا عن هذا القسم العظيم . قال الألوسي ما ملخصه : « د فلا أقسم . . . ، لامزيدة للتأكيد مثلها في قوله

(١) راجع تفسير آيات الأحكام ج ٤ ص ٩٦ للشيخ محمد علي السائس .

- تعالى - : د لثلا يعلم أهل الكتاب ، . أو هي لام القسم - بعينها - أشبعت فتحتها فتولدت منها ألف - أى : فلا قسم ...

وقيل إن دلاء هنا للنفي والرد على ما يقوله الكفار في القرآن من أنه سحر .
كأنه قيل : فلا صحة لما يقولون فيه . ثم استؤنف فقيل : أقسم ...
وقال بعضهم إن د لا ، كثيرا ما يؤتى بها قبل القسم على نحو الاستفتاح ،
كأن قو لهم : لا وأبيك ...

وقال أبو مسلم وجمع : إن الكلام على ظاهره المتبادر منه . والمعنى :
لا أقسم إذ الأمر أوضح من أن يحتاج إلى قسم . أى : لا يحتاج إلى قسم
أصلا ، فضلا عن هذا القسم العظيم (١)

والمواقع : جمع موقع ، وموقع الشيء ما يوجد فيه ، وما يسقط فيه من
مكان مرتفع .

فالمراد بمواقع النجوم : مساقطها التي تسقط فيها عند غروبها .. وقيل :
مواضعها من بروجها في السماء ، وهما زلها منها ... وقيل : المراد مواقعها يوم
القيامة عندما تنتشر وتنفرق ... وأقسم - سبحانه - بذلك ، للتنويه بشأنها ،
ولما فيها من الدلالة على أن لهذا السكون خالفا قادرا حكما ، يسير كواكبها
بدقة ونظام بديع ، لا اختلال معه ولا اضطراب ... إذ كل نجم من هذه
النجوم المنتشرة في الفضاء ، له مجاله الذي يغيب فيه ، وله مكانه الذي لا يصطدم
فيه بغيره .

قال بعض العلماء : إن هذه النجوم والكواكب ، التي تزيد على عدة بلايين
نجم ، ما يمكن رؤيته بالعين المجردة ، وما لا يرى إلا بالمجاهر والأجهزة ،
وما يمكن أن تحس به الأجهزة ، دون أن تراه هذه كلها تسبح في الفلك

الغامض ، ولا يوجد أى احتمال أن يقترب مجال مغناطيسى لنجم ، من مجال نجم آخر ، أو يصطدم بكوكب آخر ... (١) .

ومن العلماء من يرى أن المراد بمواقع النجوم : أوقات نزول القرآن نجما نجما ، وطائفة من الآيات تلى طائفة أخرى ...

قال ابن كثير : واختلفوا فى معنى قوله : بمواقع النجوم ، فعن ابن عباس أنه يعنى نجوم القرآن فإنه نزل جملة ليلة القدر ، من السماء العليا إلى السماء الدنيا ، ثم نزل مفزقا بعد ذلك ...

وعن قتادة : «مواقع النجوم ، منازلها .. وقال مجاهد : مطالعها ومشارقها ... وعن الحسن : انتشارها يوم القيامة ...» (٢) .
ويبدو لنا أن تفسير النجوم هنا ، بنجوم السماء هو الأرجح ، لأنه هو الظاهر من معنى الآية الكريمة .

وقوله - سبحانه - : «ولأنه لقسم لو تعلمون عظيم ، كلام معترض بين القسم وجوابه والضمير فى «ولأنه» ، يعود إلى القسم المذكور فى قوله «فلا أقسم بمواقع النجوم» ، أو يعود إلى «مواقع النجوم» بتأويله بمعنى المذكور .

قال صاحب الكشف : «مواقع النجوم» ، أى : بمساقطها ومغاربها ... واستعظام ذلك بقوله : «ولأنه أقسم لو تعلمون عظيم» ، وهو اعتراض فى اعتراض ، لأنه اعترض به بين المقسم والمقسم عليه ، وهو قوله : «لأنه لقرآن كريم» ، واعترض بقوله - لو تعلمون - بين الموصوف وصفته ... (٣)

وجواب «لو» ، إما محذوف بالكلية لأنه لا يتعلق بذكره غرض ، إذ

(١) من كتاب دافعه والعلم الحديث ، ص ٢٣ للأستاذ عبد الرزاق نوفل .

(٢) تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٢٩٩ .

(٣) تفسير الكشف ج ٤ ص ٥٩ .

المقصود هو نفى عليهم ، أى : أقسم بمواقع النجوم ، وإنه لقسم عظيم ، ولكنكم لا تعلمون قيمته ومزلته ...

ولما أن يكون جوابها مقدرًا ، فيسكون المعنى : أقسم بمواقع النجوم ، وإنه لقسم عظيم لو كان عندكم علم نافع ، لعظمتوه ، ولا منتم بما أقسمنا عليه ، ولكنكم لم تعظموه ولم تؤمنوا بجلالكم ، ولا نظماص يصائركم ... والضمير فى قوله - سبحانه - إنه لقرآن كريم ، راجع إلى غير مذكور فى الكلام ، إلا أن علم المخاطبين به واستحضارهم له ، نزل منزلة ذكره .

أى : أقسم بمواقع النجوم ، إن هذا الذى يتلوه عليكم نبينا محمد - صلى الله عليه وسلم - لقرآن كريم ، أى : رفيع القدر ، ظاهر الأصل ، كثير المنافع ، ظاهر الفضل ، لأن الناس يجدون فيه كل ما يريدونه من سعادة وخير ...

وليس أمره - كما زعمتم - من أن الشياطين تنزلت به ، أو من أنه أساطير الأولين ..

وقوله - سبحانه - : : فى كتاب مكنون ، وصف آخر للقرآن الكريم . والممكنون : المستور والمحجوب عن أنظار الناس ، بحيث لا يعلم كنهه إلا الله - تعالى . والمراد بالكتاب : اللوح المحفوظ . أى : أن هذا القرآن الكريم ، قد جعله الله - تعالى - فى كتاب مصون عن غير الملائكة المقربين ، بحيث لا يطلع عليه أحد سواهم ...

وقوله - سبحانه - : : لا يمسه إلا المطهرون ، : صفة للكتاب الذى هو اللوح المحفوظ ، أى : أن هذا القرآن قد اقتضت حكمتنا أن نجعله فى كتاب مصون بحيث لا يطلع عليه قبل نزوله ، من اللوح المحفوظ ولا يمسه أحد ، إلا الملائكة المطهرون من كل ما يوجب الطهارة ...

وعلى هذا التفسير يكون الغرض من الآيات الكريمة ، نفى ما رعمه

المشركون من أن القرآن تنزلت به الشياطين ، وإثبات أن هذا القرآن مصون في كتاب مستور عن الآعين ، هو اللوح المحفوظ ، وأن الملائكة المطهرون وخدمهم هم الذين يطلعون على هذا القرآن من اللوح المحفوظ ، وهم وخدمهم الذين ينزلون به على الرسول - صلى الله عليه وسلم - .

كما قال - تعالى - : « ولأنه لتنزيل رب العالمين . نزل به الروح الأمين . على قلبك لتكون من المنذرين : بلسان عربي مبين . » (١)

وكما قال - سبحانه - : « وما ننزل به الشياطين . وما ينبغي لهم وما يستطيعون . لنهم عن السمع لمعزولون . » (٢) ،

ومنهم من يرى أن قوله - تعالى - : « لا يمسه إلا المطهرون ، صفة أخرى للقرآن الكريم . فيسكون المعنى : إن هذا القرآن الكريم ، لا يصح أن يمسه إلا المطهرون من الناس ، عن الحدث الأصغر ، والحدث الأكبر ، فيكون المراد بالطهارة : الطهارة الشرعية ...

وقد رجح العلماء الرأي الأول الذي يرى أصحابه أن قوله - تعالى - : « لا يمسه إلا المطهرون ، صفة للوح المحفوظ المعبر عنه بأنه كتاب مكنون ، وأن المراد بالمطهرين : الملائكة المقربون ...

وقالوا في تأييد ما ذهبوا إليه : إن الآيات مسوقة لتنزيه القرآن عن أن تنزل به الشياطين ، وأنه في مكان مأمون لا يصل إليه إلا الملائكة المقربون . والآيات - أيضا - مكية ، والقرآن المبكى أكثر اهتمامه كان موجهها إلى إبطال شبهات المشركين ، وليس إلى الأحكام الفرعية ، التي تحدث عنها القرآن المدني كثيرا .

كذلك قالوا : إن وصف الكتاب بأنه « مكنون ، يدل على شدة الصون

(١) سورة الشعراء الآيات ١٩٢ ، ١٩٥ .

(٢) سورة الشعراء الآيات ٢١٠ ، ٢١٢ .

والستر عن الأعين ، بحيث لا تناله أيدي البشر ، وهذا لا ينطبق إلا على اللوح المحفوظ ، أما القرآن فيمسه المؤمن وغير المؤمن ، (١) .

قال الإمام القرطبي ماملخصه قوله : « لا يمسه إلا المطهرون » ، اختلف في معنى « لا يمسه » ، هل هو حقيقة في المس بالجراحة أو معنى ؟ وكذلك اختلف في « المطهرون » من هم ؟

فقال : أنس وسعيد بن جبير : لا يمسه ذلك الكتاب إلا المطهرون من الذنوب وهم الملاة . . .

وقيل المراد بالكتاب : المصحف الذي بأيدينا . وهو الأظهر . وقد روى مالك وغيره أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كان في كتابه الذي كتبه إلى شرحبيل بن كلاب . . . ألا يمسه القرآن إلا طاهر . . .

وقالت أخت عمر لعمر عند إسلامه : « لا يمسه إلا المطهرون » ، فقام واغتسل . . . ثم أخذ الصحيفة التي بيدها ، وفيها القرآن .

ثم قال : واختلف العلماء في مس المصحف على غير وضوء : فالجمهور على المنع . . .

وفي مس الصبيان إياه على وجهين : أحدهما المنع اعتبارا بالبالغ . والثاني الجواز ، لأنه لو منع لم يحفظ القرآن ، لأن فعله حال الصغر ، ولأن الصبي وإن كانت له طهارة إلا أنها ليست بكاملة ، لأن تنية لا تصح منه . فإذا جاز أن يحمله على طهارة ، جاز أن يحمله محدثا (٢) .

ثم ختم - سبحانه - هذه الآيات الكريمة بقوله : « تنزيل من رب العالمين » ، أي : هذا الكتاب الكريم ، منزل من رب العالمين ، لأرب سواه ، ولا خالق غيره ، وبذلك نرى ، أن هذه الآيات الكريمة ، قد وصف الله - تعالى - فيها

(١) راجع تفسير آيات الأحكام ج ٤ ص ١٣ .

(٢) راجع تفسير القرطبي ج ١٧ ص ٢٣٦ .

القرآن الكريم ، بجملة من الصفات الجليلة ، فقد وصفه - سبحانه - بأنه كريم ، ووصفه بأنه مصون ومحفوظ من أن يمسّه أحد سوى ملائكته المقربين ، وسوى عباده المطهرين من الأحداث ، ووصفه بأنه منزل من عنده لأمّن عند أحد سواه كما زعم أولئك الجادلون . . .

• • •

ثم تتحدث السورة في أواخرها ، بأسلوب مؤثر ، عن لحظات الموت . . عن اللحظات التي يفارق الإنسان فيها هذه الحياة ، وأحباؤه من حوله لا يملكون له نفعا . . . ، وعن بيان الحالة التي يكون عليها هذا المفارق لهم . . .

فقول :

« أَفْبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ (٨١) وَتَجْمَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْتُمْ تَكْذِبُونَ (٨٢) فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْخُلُقُومَ (٨٣) وَأَنْتُمْ حِينْتُمْ تَنْظُرُونَ (٨٤) وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَاسْكِنِ لَّا تَبْصُرُونَ (٨٥) فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ (٨٦) تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٨٧) فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُتَرَبِّينَ (٨٨) فَرُوحٌ وَرِيحَانٌ وَجَنَّةٌ نَعِيمٌ (٨٩) وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ أَصْحَابِ الْيَمِينِ (٩٠) فَسَلَامٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ (٩١) وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمَكْذِبِينَ الضَّالِّينَ (٩٢) فَنُزُلٌ مِنْ حَمِيمٍ (٩٣) وَتَصْلِيَةٌ جَحِيمٍ (٩٤) إِنَّ هَذَا لَهَوٌ حَقٌّ الْيَقِينِ (٩٥) فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ (٩٦) » .

والاستفهام في قوله - تعالى - : « أَفْبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ ، الإنكار والتوبيخ . وهو داخل على مقدر .

والمراد بالحديث : القرآن الكريم ، وما تضمنه من هدايات وإرشادات وتشريعات . . .

وقوله : « مدهنون » من الإدمان وأصله جعل الجلد ونحوه مدهونا بشئ من الدهن ، ليلين ، ثم صار حقيقة عرفية في الملاينة والمسايرة والمدارة ، ومنه قوله - تعالى - : « ودوا لو تدهن فيدهنون » .

والمراد به هنا : تظاهر المشركين بمهادنة الرسول - صلى الله عليه وسلم - وبما جاء به من قرآن كريم ، وإبداءهم من اللين خلاف ما يبطنون من المكر والبغضاء .

ويصح أن يكون الإدهان هنا : بمعنى التكذيب والتفاق ، إذ أن هذه المعاني - أيضا - تتولد عن المداينة والمسايرة .

أى : أنعرضون - أيها المشركون - عن الحق الذى جاءكم به رسولنا - صلى الله عليه وسلم - ، فتظهرون أمامه بمظهر المداين والمهادن ، الذى يلين أمام خصمه ، ولا يقابله بالشدّة والحزم ، مع أنه فى الوقت نفسه يضمّر له أشد أنواع السوء والكراهية ؟

إذا كان هذا شأنكم ، فاعلموا أن تصرفكم هذا لا يخفى علينا !
وقوله - سبحانه - : « وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون » ، معطوف على ما قبله من باب عطف الجملة على الجملة ، والكلام على حذف مضاف .

والمعنى : أنعرضون عن هذا القرآن على سبيل المداينة والملاينة ، وتجعلون شكر نعمة رزقنا لكم به ، وبالطمر الذى لاحتياة لكم بدونه ، أنكم تكذبون بكونهما من عند الله - تعالى - فتقولون فى شأن القرآن : أساطير الأولين . وتقولون إذا ما أنزلنا المطر عليكم : مطرنا بسبب نوء كذا . أى : بسبب سقوط النجم فى جهة المغرب مع الفجر .

قال الألوسى : قوله : « وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون » أى : وتجعلون شكركم أنكم تكذبون ، تقولون : أمطرنا بنوء كذا وكذا ، وبنجم كذا وكذا . وأكثر الروايات أن قوله - تعالى - « وتجعلون رزقكم .. » نزل فى القائلين :

مطرنا بنوه كذا .. أخرج مسلم - في صحيحه - عن ابن عباس قال : «طار الناس على عهد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - . فقال - صلى الله عليه وسلم - أصبح من الناس شاكروا ومنهم كافر : قالوا : هذه رحمة وضعها الله . وقال بعضهم : لقد صدق نوه كذا ، فنزلت هذه الآية : « فلا أقسم بمواقع النجوم ، حتى بلغ » ونجعلون رزقكم أنكم تكذبون ، ... »

ثم قال الإمام الألوسي : والآية على القول بنزولها في قاتلي ذلك : ظاهرة في كفرهم المقابل للإيمان ، فكأنهم كانوا يقولونه عن اعتقاد أن الكواكب مؤثرة حقيقة ، موجدة للمطر ، وهو كفر بلا ريب ، بخلاف قوله مع اعتقاد أنه من فضل الله - تعالى - ، وأن النوء ميقات وعلامة فإنه ليس بكفر ^(١) .

وقد ذكر المفسرون هنا جملة من الأحاديث في هذا المعنى فارجع إليهم إن شئت ^(٢) .

ثم انتقلت الآيات إلى توبيخهم على أسر آخر ، وهو غفلتهم عن قدرة الله - تعالى - ووحدانيتته وهم يشاهدون آثار قدرته أمام أعينهم فقال - تعالى - : « فلولا إذا بلغت الحلقوم . وأنتم حينئذ تنظرون . ونحن أقرب إليه منكم ولكن لا تبصرون . فلولا إن كنتم غير مدينين ترجعونها إن كنتم صادقين . » ولولا في الموضعين للتحضيص على التذكرو الاعتبار ، وإبراز عجزهم في أوضح صورة ، إذ أظهار عجزهم هو المقصود هنا بالحصن . .

وقوله ، إذا بلغت ، ظرف متعلق بقوله « ترجعونها ، أي : تردونها . وقد قدم عليه أنه يله ، وللأنشويق إلى العمل المحضوض عليه ، وهو إرجاع الروح إلى صاحبها .

والضمير في « بلغت ، يعود إلى الروح ، وهي وإن كانت لم تذكر إلا أنها مفهومة من الكلام .

(١) راجع تفسير الألوسي > ٢٧ ص ١٥٦

(٢) راجع تفسير ابن كثير > ٤ ص ٢٩٩ . وتفسير القرطبي > ١٧ ص ٢٢٨

والخلقوم : يجرى الطعام وأل فيه للمهد الجنسى .

وجملة : « وأنتم حينئذ تنظرون ، حال من ضمير « بلغت » ، ومفعول « تنظرون » ، محذوف والتقدير : تنظرون وتبصرون صاحب الروح وهو فى تلك الحال العصبية .

وجمله « ترجعونها ... » جواب للشرطين فى قوله : « إن كنتم غير مدينين » ، وفى قوله : « إن كنتم صادقين » .

وجمله « ونحن أقرب إليه منكم » ، مستأنفة لتأكيد توبيخهم على جهالاتهم وعدم اعتبارهم حتى فى أوضح المواقف التى تدل على قدرة خالقهم - عز وجل - .

والمعنى : إذا كنتم - أيها الجاحدون المكذبون - لم تعتقروا ولم تتعظوا بكل ماسقناه لكم من ترغيب وترهيب على لسان رسولنا محمد - صلى الله عليه وسلم - ... فهلا اعتبرتم وأنعمتم وآمنتم بوحدايتنا وقدرتنا .. حين ترون أعز وأحب لإنسان إليكم ، وقد بلغت روحه خلقومه ، وأوشكت على أن تفارق جسده ...

« وأنتم » ، أيها المحيطون بهذا المحتضر العزيز عليكم « حينئذ » ، أى : حين وصل الأمر به إلى تلك الحالة التى تنذر بقرب نهايته ، أنتم « تنظرون » ، إلى ما يقاسيه من غمرات الموت ، وتبصرون ما فيه من شدة وكرب ، ونحروصون كل الحرص على إنجائه مما حل به ولكن خرصكم يذهب أدراج الرياح .

« ونحن » ، فى هذه الحالة وغيرها ، أقرب إليه منكم أى : ونحن أقرب إليه منكم بعلمنا وبقدرتنا ، حيث أنكم لا تظفرون حقيقة ما هو فيه من أهوال ولا تدركون عظم ما فيه من كرب . ولا تقدرون على رفع شيء من مضائنا فيه وفى غيره ..

وقوله : « ولكن لا تبصرون » ، استدراك للكلام السابق . أى : ونحن

أقرب إلى هذا المحتضر منكم ، ولكنكم لا تدركون ذلك لجهلكم بقدرتنا النافذة ، وحكمتنا البالغة ...

« فلولاً إن كنتم غير مدينين ، أى : فملاً إن كنتم غير عاجزين عن رد قضائنا فى هذا المحتضر الحبيب لإيكم ، وغـير مربوبين لنا ، وخاضعين لسلطاننا ... يقال : دان السلطان الرعية ، إذا ساسهم وأخضعهم لنفوذه .

هلا إن كنتم غير خاضعين لنا ، ترجعونها ، أى : ترجعون الروح إلى صاحبها ، إن كنتم صادقين ، فى اعتقادكم بأن آلهتكم تستطيع الدفاع عنكم وفى اعتقادكم بأنه لا بعث ولا حساب بعد الموت ، وفى قوهمكم أن هناك قوة سوى قوة الله - عز وجل - يمكنها أن تساعدكم عند الشدائد والمحن .

وهكذا نجد هذه الآيات الكريمة ، تقيم أوضاع الأدلة وأكثرها تأثيراً فى النفوس ، على كمال قدرة الله - تعالى - ، وعلى نفاذ هيئته وإرادته ...

فهى تتحدى البشر جميعاً أن يعيدوا الروح إلى أحب الناس إليهم ، وهم واقفون من حوله وقفة العائر المستسلم . العاجز عن فعل أى شئ من شأنه أن يدفع عن هذا المحتضر ما فيه من كرب ، أو أن يؤخر انتزاع روحه من جسده ، ولو لزم من قليل

ثم تمضى السورة الكريمة بعد ذلك ، فى بيان مصير هذه الروح ، التى توشك أن تستدبر الحياة الفانية ، وتستقبل الحياة الباقية فتقول : « فأما إن كان من المقربين . فروح وريحان وجنة نعيم » .

والروح : بمعنى الراحة والأمان والاطمئنان . والريحان شجر طيب الرائحة .

أى : فأما إن كان صاحب هذه النفس التى فارقت الدنيا ، من المقربين إلينا السابقين بالخيرات ... فله عندنا راحة لا تقاربها راحة ، وله رحمة واسعة ، وله طيب رائحة عند قبض روحه ، وعند نزوله فى قبره ، وعند وقوفه بين

أيدينا للحساب يوم الدين ، وله جنات يتنعم فيها بما لآعين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على بال بشر .

• وأما ، إن كان هذا الإنسان ، من أصحاب اليمين ، وهم الذين ثقلت موازين حسناتهم ..

• فسلام لك من أصحاب اليمين ، أى : فتقول له الملائكة عند قبض روحه وفى قبره ، وفى الجنة ، سلام لك يا صاحب اليمين ، من أمثالك أصحاب اليمين .

قال الألوسى : وقوله : • فسلام لك من أصحاب اليمين ، قيل هو على تقدير القول : أى : فيقال لذلك المتوفى منهم : سلام لك يا صاحب اليمين من من إخوانك أصحاب اليمين

وجوز أن يكون المعنى : فسلامة لك عما يشغل القلب من جهنم فإنهم فى خير ، أى : كن فارغ البال من جهنم فإنهم بخير ..

وذكر بعض الأجلة أن هذه الجملة ، كلام يفيد عظمة حالهم ، كما يقال : فلان ناهيك به ، وحسبك أنه فسلان ، إشارة إلى أنه ممدوح فوق حد التفصيل (١)

• وأما إن كان ، هذا المتوفى ، من المكذبين الضالين ، وهم أصحاب الشمال • فنزل من حميم ، أى : فله نزل - أى : مكان - • من حميم ، أى : من ماء قد بلغ أقصى درجات الحرارة وعبر عن المكان الذى ينزل فيه بالنزل ، على سبيل التكم ، إذ النزل فى الأصل يطلق على ما يقدم للضيف على سبيل التكرم ... وقوله • وتصليه جحيم ، أى : وله - أيضا - لإدخال فى نار جهنم التى تشوى جسده وتحرقه .

• إن هذا لهُو حق اليقين ، أى : لأن هذا الذى قصصناه عليك - أيها الرسول

الكريم - في هذه السورة وغيرها ، هو الحق الثابت الذي لا يحوم حوله شك أو ريب ...

فقوله : : حق اليقين ، من إضافة الصفة إلى الموصوف ، أى : هو اليقين الحق ...

أو هو من إضافة الشيء إلى نفسه مع اختلاف اللفظين ، كما في قوله - تعالى - : : جبل الوريد ، إذ الجبل هو الوريد . والقصد من مثل هذا التركيب التأكيد .

ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة بقوله : : فسيح باسم ربك العظيم ، أى : إذا كان الأمر كما ذكرنا لك - أيها الرسول الكريم - فزه ربك العظيم في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله ، عن كل ما لا يليق به ...

وبعد فهذا تفسير لسورة الواقعة ، نسأل الله - تعالى - أن يجعله خالصا لوجهه ، ونافعا لعباده . وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .
كتبه الراجي عفوره

محمد سيد طنطاوى

الدوحة - قطر

١٩٨٦/٢/٢٦ م

صباح الأربعاء ١٦ من رجب سنة ١٤٠٦ هـ

التفسير الوسيط
للقرآن الكريم

تفسير سُورَةِ الْحَدِيدِ

لفضيلة
الدكتور محمد السيد طنطاوى
عميد كلية الدراسات الإسلامية والعربية
جامعة الأزهر

(الجزء السابع والعشرون)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة وتمهيد

١ - سورة الحديد ، هي السورة السابعة والخمسون في ترتيب المصحف ، وسميت بذلك لقوله - تعالى - فيها : « وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس ... » .

وعدد آياتها تسع وعشرون آية في المصحف الكوفي ، وثمان وعشرون في غيره .

٢ - وقد اختلف المفسرون في كونها مدنية أم مكية . فابن كثير والقرطبي يقولان بأنها مدنية ، ولا يذكران خلافا في ذلك ...

بينما زى صاحب الكشاف يقول إنها مكية ، ولا يذكر - أيضا - خلافا في ذلك .

ومن المفسرين من يرى بأن سورة الحديد ، منها ما هو مكى ومنها ما هو مدنى . قال الآلوسى : أخرج جماعة عن ابن عباس أنها نزلت بالمدينة . وقال النقاش وغيره : هي مدنية بإجماع المفسرين . ولم يسلم له ذلك ، فقد قال قوم إنها مكية ...

وقال ابن عطية : لا خلاف أن فيها قرآنا مدنيا ، لكن يشبه أن يكون صدرها مكيا ... ويشهد لهذا ما أخرجه البزار فى مسنده ، والطبرانى ، وابن مردويه ... عن عمر - رضى الله عنه - أنه دخل على أخيه قبل أن يسلم ، فإذا صحيفة فيها أول سورة الحديد ، فقرأه حتى بلغ قوله - تعالى - : « آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه ... فأسلم » (١) .

والذى يبدو لنا - بعد تدبرنا لهذه السورة الكريمة - أنها يغلب عليها طابع القرآن المدنى ، الذى يتحدث عن الجهاد فى سبيل الله ، وعن الإنفاق من أجل إعلاء كلمته ، وعن سوء مصير المنافقين ، وعن إرشاد المؤمنين إلى كيفية إقامة الدولة القوية العادلة ... وهذا لا يمنع من أن يكون من بين آياتها ما هو مكي ، متى ثبت ذلك عن طريق النقل الصحيح .

٣ - وقد افتتحت السورة الكريمة ببيان أن الله - تعالى - قد نزهه عن كل ما لا يليق به ، جميع ما فى السموات وما فى الأرض ، وأنه - عز وجل - هو مالكهما ، وهو الأول والآخر ، والظاهر والباطن ، والمحى والمميت ، والخالق لكل شئ ، والعليم بكل شئ ...

قال - تعالى - : سبح لله ما فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم . له ملك السموات والأرض يحيى ويميت وهو على كل شئ قدير . هو الأول والآخر والظاهر والباطن ، وهو بكل شئ عليم ...

٤ - ثم حضرت السورة الكريمة المؤمنين على الثبات على إيمانهم ، وعلى الإنفاق فى سبيل الله ، ووعدهم على ذلك بأجل الثواب ...

قال - تعالى - : من ذا الذى يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له ، وله أجر كريم .

٥ - ثم تتحدث السورة الكريمة بعد ذلك بأسلوبها البليغ المؤثر ، عن حسن عاقبة المؤمنين ، وسوء عاقبة المنافقين ، فتحكى جانباً مما يدور بين الفريقين من محاورات فتقول : يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا فنتبس من نوركم . قيل ارجعوا وراكم فالتمسوا نورا ، فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة ، وظاهره من قبله العذاب . ينادونهم ألم نكن معكم ؟ قالوا : بلى . ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم ، وغرتكم الأمانى ، حتى جاء أمر الله وغركم بالله الغرور .

٦ - وبعد أن تنتقل السورة الكريمة إلى حث المؤمنين على الخشوع لله، وعلى تذكر الموت، وعلى البذل في سبيل الله... بعد كل ذلك تبين لهم مصير الحياة الدنيا، وتدعوم إلى إيثار الآجلة على العاجلة، والباقية على الفانية فتقول: «اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو، وزينة وتفاخر بينكم وتمكث في الأموال والأولاد، كمثل غيث أعجب الكفار نباته، ثم يهيج فغراه مصفرا ثم يكون حطاما، وفي الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان، وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور. ساقبوا إلى مغفرة من ربكم، وجنة عرضها كعرض السماء والأرض، أعدت للذين آمنوا بالله ورسله، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم...».

٧ - ثم تقرر السورة بعد ذلك أن كل شيء بقضاء الله وقدره، وأنه سبحانه - قد أرسل رسلا، وأنزل عليهم كتبه، وأمرهم بفشر العدل بين الناس، كما أمرهم بإعداد القوة لإرهاب أعداء الحق، لأن الناس في كل زمان ومكان فيهم المهتدون، وفيهم الضالون، كما قال - تعالى - : «فمنهم مهتد وكثير منهم فاسقون».

٨ - ثم ختم - سبحانه - السورة بهذا النداء الحكيم للمؤمنين فقال: «يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته، ويجعل لكم نورا تمشون به، ويغفر لكم الله غفورا رحيم. لئلا يعلم أهل الكتاب ألا يقدرون على شيء من فضل الله، وأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم».

٩ - وبعد، فهذا عرض مجمل لسورة «الحديد» ومنه نرى أنها زاخرة بالحديث عن مظاهر قدرة الله - تعالى -، وعن صفاته الجليلة... وعن دعوة المؤمنين إلى التمسك بتعاليم دينهم، تمسكا يكون مقدما على كل شيء من زينة هذه الحياة الدنيا، لأن هذا التمسك يجعلهم يعيشون سعداء في

دينام ، وينالون بسببه الفوز والفلاح في أخراهم . وذلك فضل الله يؤتيه من
يشاء والله ذو الفضل العظيم .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

الدوحة - قطر

د . محمد سيد طنطاوى

عميد كلية الدراسات الإسلامية

والعربية - جامعة الأزهر

مساء الأربعاء ١٦ من رجب سنة ١٤٠٦ هـ

٢٦ / ٣ / ١٩٨٦ م

التفسير

قال الله - تعالى - سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ
 الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١) لَهُ مَلَكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ
 عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢) هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ ، وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ ، وَهُوَ
 بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٣) هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ
 أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ، يَعْلَمُ مَا يَلْجُ فِي الْأَرْضِ ، وَمَا يَخْرُجُ
 مِنْهَا ، وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ، وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنْتُمْ
 وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٤) لَهُ مَلَكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَإِلَى اللَّهِ
 تُرْجَعُ الْأُمُورُ (٥) يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ ، وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ ،
 وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٦) .

افتتحت سورة الحديد، بتزويه الله - تعالى - عن كل ما لا يليق به ،
 وبالفناء عليه - تعالى - بما هو - أهله ، وببيان جانب من صفاته الجليلة ، الدالة
 على وحدانيته ، وقدرته ، وعزته ، وحكمته ، وعلمه المحيط بكل شيء .

افتتحت بقوله - عز وجل - : « سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ
 الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ » .

وقوله : « سَبَّحَ » من التسبيح ، وأصله الإبعاد عن السوء ، من قولهم
 « سَبَّحَ فلان في الماء » ، إذا توغل فيه ، و« سَبَّحَ الفرس » ، إذا جرى بعيداً وبسرعة .

قالوا : وهذا الفعل « سَبَّحَ » قد يتعدى بنفسه ، كما في قوله - تعالى - :
 « وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَأَصْبَحُوا ، وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا » .
 أي : سَبَّحَ اللَّهُ لا غيره ...

والمراد بالتسبيح هنا : تنزيه الله - تعالى - عن كل مالا يليق بجلاله
وكاله .

والمعنى : نزه الله - تعالى - وعظمه وخضع له ، وانقاد لمشيئته ... جميع
ما في السموات والأرض من كائنات ، ومخلوقات ... لا يعطها إلا هو
- سبحانه - .

وقد جاء التسبيح تارة بصيغة الفعل الماضي كما في هذه السورة ، وكما في
سورتي الحشر والصف ، وتارة بصيغة المضارع كما في سورتي الجمعة والتغابن ،
وتارة بصيغة الأمر كما في سورة الأعلى ، وتارة بصيغة المصدر كما في سورة
الإسراء ...

جاء التسبيح بهذه الصيغ المتنوعة ، للإشعار بأن تسبيح هذه المخلوقات
له - تعالى - شامل لجميع الأوقات والأحوال ...

قال - تعالى : « تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن ، وإن
من شيء إلا يسبح بحمده ، ولكن لا تفقهون تسبيحهم ، إنه كان حليماً
غفوراً » (١) .

وختم - سبحانه - الآية الكريمة بقوله : « وهو العزيز الحكيم » ،
والعزيز : هو الغالب على كل شيء ، « إذ العزة معناها : الغلبة على الغير » ، ومنه
قوله تعالى - : « وعزني في الخطاب ، أي : غلبني في الخصام » .

وفي أمثال العرب : « من عَزَّ بَزَّ » ، أي : من غلب غيره تفوق عليه ...
والحكيم مأخوذ من الحكمة ، وهي وضع الأمور في مواضعها
اللائقة بها ...

أي : وهو - سبحانه - الغالب الذي لا يغلبه شيء . الحكيم الذي يضع
الأمور في مواضعها السليمة .

ثم ذكر - سبحانه - صفات أخرى من صفاته الجليلة فقال : له ملك السموات والأرض يحيي ويميت ، وهو على كل شيء قدير ،
 أى : له - سبحانه - وحده دون أن يشاركه مشارك . ملك السموات والأرض ، إذ هو - تعالى - المتصرف فيهما ، الخالق لهما ، إن شاء أبقاهما ، وإن شاء أزالهما ...

وملكه - سبحانه - للسموات والأرض ، ملك حقيقى ، لأنه لا ينازعه فيه منازع ، ولا يشاركه مشارك ... بخلاف ملك غيره لبعض متاع الدنيا ، فإنه ملك زائل مهما طال ، ومفتقر إلى من يحميه ويدافع عنه .

وقوله : يحيي ويميت ، صفة أخرى من صفاته - عز وجل - ، أى : هو الخالق للحياة لمن شاء أن يحييه ، وهو الخالق للوثة لمن أراد أن يميتة .

وهذه الجملة خبر لمبتدأ محذوف ، وهى فى الوقت نفسه بدل إشتغال مما قبلها إذ الإحياء والإماتة ، مما يشتمل عليه ملك السموات والأرض .

وخص - سبحانه - هاتين الصفتين بالذكر ، لأنه هو المتفرد بهما ، ولا يستطيع أحد أن يدعى أن له عملا فيهما ، ومن ادعى ذلك كانت دعواه من قبيل المغالطة والمجادلة بالباطل ، إذ الموجد الحقيقى لهما هو الله - عز وجل - . ما سواه فهو سبب لهما .

وقوله - تعالى - : وهو على كل شيء قدير ، تذييل مؤكد لما قبله . أى : وهو - سبحانه - على كل شيء من الأشياء - التى من جملتها ما ذكر - قدير على إيجادها أو إعدامها .

ثم ذكر - سبحانه - صفات أخرى من صفاته الجليلة فقال : هو الأول والآخر ، والظاهر والباطن ، وهو بكل شيء عليم ،

أو : هو - سبحانه - الأول والسابق على جميع الموجودات ، إذ هو

موجدتها ومحدثها ابتداء ، فهو موجود قبل كل شيء وجودا لا حد ولا وقت لبدايته .

وهو الآخر ، أى : أى الباقي بعد هلاك وفناء جميع الموجودات ، كما قال - تعالى - : كل شيء هالك إلا وجهه ،

وأوثر لفظ « الآخر » على لفظ الباقي ، ليتم الطباق بين الوصفين المتقابلين وهو « الظاهر » ، أى : الظاهر وحوده عن طريق مخلوقاته التى أوجدها بقدرته إذ من المعروف عند كل عاقل ، أن كل مخلوق لا بد له من خالق ، وكل موجود لا بد له من موجد . .

فلفظ « الظاهر » مشتق من الظهور الذى هو ضد الخفاء . والمراد به هنا ظهور الأدلة العقلية والنقلية على وجوده ووحدانيته وقدرته وعلمه . . .

ويجوز أن يكون مشتقا من الظهور ، بمعنى الغلبة والعلو على الغير ، كما فى قوله - تعالى - : : « لهم إن يظهروا عليكم يرجموكم أو يعيدوكم فى ملتهم . . » وعليه يكون المعنى : وهو الغالب العالى على كل شيء .

وهو « الباطن » ، من البطون بمعنى الخفاء والاستتار ، أى : وهو - سبحانه - المحتجب بكنه ذاته عن أن تدركه الأبصار ، أو أن تحيط بحقيقة ذاته العقول ، كما قال - تعالى - : « لا تدركه الأبصار » ، وهو يدرك الأبصار ، وهو اللطيف الخبير ، (١)

ويصح أن يكون « الباطن » بمعنى العالم بما بطن وخفى من الأمور . يقال : فلان أبطن بهذا الأمر من غيره ، أى : أعلم بهذا الشيء من غيره .

ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله : « وهو بكل شيء عليم » ، أى : وهو - سبحانه - عليم بكل ما فى هذا الكون ، لا تخفى عليه خافية من شئونه ، كما قال - تعالى - : « إن الله لا يخفى عليه شيء فى الأرض ولا فى السماء . . » ، (٢)

(١) سورة الأنعام . الآية ١٠٤

(٢) سورة آل عمران الآية ٢

قال ابن كثير : وهذه الآية هي المشار إليها في حديث عرباض بن سارية أنها أفضل من ألف آية ...

وقد اختلفت عبارات المفسرين في هذه الآية على نحو بضعة عشر قولاً وقال البخاري : قال يحيى : الظاهر على كل شيء علماً ، والباطن على كل شيء علماً وروى الإمام مسلم - في صحيحه - ، والإمام أحمد - في سننه - عن أبي هريرة ، أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كان يدعو عند النوم فيقول : اللهم رب السموات ورب العرش العظيم ، ربنا ورب كل شيء ، منزل التوراة والإنجيل والقرآن ، قال الحب والنوى ، لا إله إلا أنت ، أعوذ بك من شر كل شيء أنت آخذ بناصيته . أنت الأول فليس قبلك شيء . وأنت الآخر فليس بعدك شيء . وأنت الظاهر فليس فوقك شيء . وأنت الباطن فليس دونك شيء . اقض عنا الدين ، وأغننا من الفقر ... (١)

ثم ساق - سبحانه - ألواناً أخرى من الأدلة التي تدل على وحدانيته وقدرته فقال : هو الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ، ثم استوى على العرش ...

والأيام : جمع يوم . واليوم في اللغة مطلق الوقت . أي : في ستة أوقات لا يعلم مقدارها إلا الله - تعالى - . وقيل : هذه الأيام من أيام الدنيا ... والاستواء في اللغة : يطلق على الاستقرار ، كما في قوله - تعالى - : واستوت على الجودي ، أي استقرت سفينة نوح - عليه السلام - عند ذلك الجبل المسمى بذلك الاسم ، كما يطلق بمعنى القصد ، ومنه قولهم : استوى إلى بخاصمي . أي : قصد لي ، كما يطلق بمعنى الاستيلاء والقهر ، ومنه قول الشاعر : قد استوى بشر العراق ...

وعرش الله ، مما لا يعلمه البشر إلا بالاسم ، أما حقيقته وكيفيته فلا يعلمها إلا الله - تعالى -

وقد ذكر العرش في إحدى وعشرين آية من القرآن الكريم ، كما ذكر الاستواء على العرش في سبع آيات .

أى : هو - سبحانه - الذى خلق السموات والأرض في ستة أوقات ، ثم إستوى على العرش ، إستواء يليق به - سبحانه - ، بلا كيف ، ولا تمثيل ، ولا تشبيه ، لاستحالة إنصافه - تعالى - بصفات المحدثين ، ولوجوب تزيهه عما لا يليق به « ليس كمثل شيء وهو السميع والبصير » .

قال الإمام مالك - رحمه الله - : الكيف غير معقول ، والاستواء غير محمول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة .

ثم بين - سبحانه - شمول علمه فقال : « يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها ، وما ينزل من السماء وما يعرج فيها ... » .

وقوله : « يلج » من الولوج بمعنى الدخول . يقال : ولج فلان بيته ، إذا دخله .

وفوله : « يعرج » من العروج وهو الذهاب في صعود . والسماء : جهة العلو مطلقا .

أى أنه - سبحانه - يعلم ما يلج في الأرض ، وما يدخل فيها من ماء فازل من السماء ، ومن جواهر وكنوز قد طويت فى باطنها ، ومن بذور ومعادن فى طبائنها .

ويعلم - أيضا - « ما يخرج منها » من نبات وحبوب وكنوز ، وغير ذلك من أنواع الحيات . ويعلم - كذلك - « ما ينزل من السماء » من أمطار ، وثلوج ؛ وبرد ، وصواعق ، وبركات ، من عنده - تعالى - لأهل الأرض .

« ويعلم - أيضا - ما يصعد فيها من الملائكة ، ومن الأعمال الصالحة » ، كما قال - تعالى - : « إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه ... » .

وعدى العروج بحرف في ، تتضمنه معنى الاستقرار ، وهو في الأصل
يعدى بحرف إلى ، كما في قوله - تعالى - : « تعرج الملائكة والروح إليه في
يوم كان مقداره خمسين ألف سنة . . . » .

وقوله - سبحانه - : « وهو معكم أينما كنتم ، أي : وهو معكم بملأه
ولطفه ورحمته . . . أينما كنتم ، وحيثما وجدتم . . . » .

قال : الألوسي : قوله - تعالى - : « وهو معكم أينما كنتم ، تمثيل لإحاطة
عليه - تعالى - بهم ، وتصوير لعدم خروجهم عنه أينما كافوا . وقيل المعية مجاز
مرسل عن العلم بعلاقة السببية والقريضة السباق واللاحق مع استحالة
الحقيقة .

وقد أول السلف هذه الآية بذلك ، أخرج البيهقي في الاسماء والصفات
عن ابن عباس أنه قال فيها : عالم بكم أينما كنتم .

وأخرج - أيضا - عن سفيان الثوري أنه سئل عنها فقال : عليه معكم .

وفي البحر : أنه أجمعت الأمة على هذا التأويل فيها ، وأنها لا تحمل على
ظاها من المعية بالذات . . . ، (١) .

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بقوله : « والله بما تعملون بصير ، أي :
واثق - تعالى - لا يخفى عليه شيء من أفوالكم أو أفعالكم . . . بل هو مطلع
عليكم لإطلاعا تاما .

ثم أكد - سبحانه - كمال قدرته فقال : « له ملك السموات والأرض . . . »
أي : له - سبحانه - التصرف الكلي في السموات والأرض ، وفيما فيهما من
موجودات ، من حيث الإيجاد والإعدام وسائر التصرفات

« وإلى الله ترجع الأمور ، أي : وإلى الله - تعالى - وحده لا إلى غيره ،

(١) تفسير الألوسي ج ٢٧ ص ١٠٨ .

مرد الأمور كلها ، والحكم عليها ، والتصرف فيها ... وليس إلى أحد غيره
لا على سبيل الاستقلال ، ولا على سبيل الاشتراك .

• يوجل الليل في النهار ويوجل النهار في الليل ... أى : يدخل - سبحانه -
طائفة من الليل في النهار ، فيقصر الليل ويزيد النهار ، ويدخل طائفة من النهار
في الليل ، فيقصر النهار ، ويزيد الليل ، ثم يسيران على هذا النظام البديع ،
دون أن يسبق أحدهما الآخر ...

• وهو عليم بذات الصدور ، وذات ، هنا مؤنث ذو بمعنى صاحب .
أى : وهو - سبحانه - عليم علما تاما بمكنونات الصدور ، وما تضره
من خير أو شر وما يتردد فيها من خواطر وأفكار ...

والم تأمل في هذه الآيات الكريمة من أول السورة إلى هنا ، يراها قد
اشتملت على بضع عشرة صفة ، من صفات الله - عز وجل - الدالة على وجوب
إخلاص العبادة له ، والافتقار لأمره ونهيه .

• • •

ثم دعا - سبحانه - عباده المؤمنين إلى التمسك بهذا الإيمان ، وإلى تنفيذ
تكاليفه ، ووعدهم على ذلك بأجل الثواب ، فقال - تعالى - :

« آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلِفِينَ فِيهِ ، فَالَّذِينَ
آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ (٧) وَمَالَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ
وَالرَّسُولِ يَذَّهَبُ عَنْكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ ، وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ
مُؤْمِنِينَ (٨) هُوَ الَّذِي يَنْزِلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ
الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ، وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ (٩) وَمَالَكُمْ أَلَّا
تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَلِلَّهِ مِيرَاتُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، لَا يَسْتَوِي

مِنْكُمْ مَنْ أَتَقَى مِنَ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ ، أُولَئِكَ أَعْظَمَ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ
 أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا ، وَكَلَّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى ، وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ
 خَبِيرٌ (١٠) مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ، فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ
 أَجْرٌ كَرِيمٌ (١١) .

والخطاب في قوله - تعالى - : « آمنوا بالله ورسوله .. » ، إلى الناس جميعا
 ويدخل فيه المؤمنون دخولا أوليا ، ويكرن المقصود بدعوتهم إلى الإيمان ،
 المداومة عليه والتمسك بتعاليمه ، وتنفيذ توجيهاته ... كما قال - تعالى - :
 « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ، وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَلَ عَلَى رَسُولِهِ ،
 وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ ... » (١) .

وقوله : « وَأَنْفَقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ » ، بيان لما يقتضيه هذا الإيمان
 وقوله : « مُسْتَخْلَفِينَ » ، اسم مفعول من الاستخلاف ، بمعنى أن يخلف
 الإنسان غيره ، أو أن يخلفه غيره من بعده .

أى : آمنوا - أيها الناس - بالله - تعالى - ورسوله - صلى الله عليه وسلم -
 لإيماننا حقا ، وإن من مقتضيات هذا الإيمان ، أن تنفقوا من أموالكم في وجوه
 الخير ، فإن هذه الأموال هي عارية في أيديكم « فقد ورثتموها عن غيركم ،
 وغيركم سيرتها عنكم . وهي في جميع الأحوال ملك لله - تعالى - وحده على الحقيقة .
 قال القرطبي : قوله : « وَأَنْفَقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ » ، دليل على أن
 أصل الملك لله - سبحانه - وأن العبد ليس له فيه التصرف الذي يرضى الله
 فيثيبه على ذلك بالجنة ، فن أنفق منها في حقوق الله ، وهان عليه الإنفاق
 منها ، كما يهون على الرجل النفقة من مال غيره إذا أذن له فيه ، كان له الأجر
 الجزيل ...

وقال الحسن : « مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ » : ورثتكم إياه عن كان قبلكم .

وهذا يدل على أنها ليست بأموالكم في الحقيقة ، وما أنتم إلا بمنزلة النواب والوكلاء ، فاعتنموا الفرصة فيها بإقامة الحق ، قبل أن توالى عنكم إلى من بعدكم ... (١) .

ثم بين - سبحانه - ما أعده ل هؤلاء المنفقين فقال : « فالذين آمنوا منكم ، إيماناً حقاً ... « وأنفقوا ، أموالهم فيها يرضى الله - تعالى - « لهم ، منه - عز وجل - « أجر كبير ، لا يعلم مقداره إلا الله - تعالى - .

ثم - رغبتهم - سبحانه - في الثبات على الإيمان بالله ورسوله فقال : « وما لكم لا تؤمنون بالله ، والرسول يدعوكم لتؤمنوا به ، وقد أخذ ميثاقكم إن كنتم مؤمنين .

أى : « وأى مانع يمنعكم من الثبات على الإيمان ، ومن القيام بتكاليفه ، ومن إخلاص العبادة له - تعالى - وحده ، والحال أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - بينكم صباح مساء ، يدعوكم إلى الإيمان بربه ، وقد أخذ - سبحانه - عليكم العهد والمواثيق على هذا الإيمان ، عن طريق ما ركب فيكم من عقول تعقل ، وعن طريق ما نصب لكم من أدلة متنوعة كلها تدل على وجوب إخلاص العبادة لله الواحد القهار .

قال الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية : « أى وأى شئ يمنعكم من الإيمان ، والرسول بين أظهركم يدعوكم إلى ذلك ، ويبين لكم الحجج والبراهين على صحة ما جاءكم به ، وقد روينا في الحديث من طرق ، في أوائل شرح كتاب الإيمان من صحيح البخارى ، أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال يومئذ لأصحابه : « أى المؤمنین أعجب إليكم إيماناً ؟ قالوا : الملائكة .

قال : « وما لهم لا يؤمنون وهم عند ربهم ، ؟ قالوا : فالأنبياء . قال : « وما لهم لا يؤمنون والوحى ينزل عليهم ، ؟ قالوا : فنحن . قال : فاللهم

لا تؤمنون وأنا بين أظهركم ، ؟ - ولكن أعجب المؤمنين إيماناً قوم يحميتون
بهدمكم ، يحدون صحفا يؤمنون بما فيها ، ...

وقوله - تعالى - : : وقد أخذ ميثاقكم ، كما قال - تعالى - : : واذكروا
نعمة الله عليكم وميثاقه الذي واثقكم به ، إذ قلتم سمعنا وأطعنا ، ... ، ويعنى
بذلك بيعة الرسول - صلى الله عليه وسلم - .

وزعم ابن جرير : أن المراد بذلك : الميثاق الذي أخذ عليهم في صلب
آدم ، ... ، (١) .

وجواب الشرط في قوله - تعالى - : : إن كنتم مؤمنين ، محذوف لدلالة
ما قبله عليه .

أى : إن كنتم مؤمنين لسبب من الأسباب ، فعلى رأس هذه الأسباب
وجود الرسول - صلى الله عليه وسلم - بينكم يدعوكم إلى هذا الإيمان ويقنعكم
بوجوب الاعتصام به .

ثم ذكر - سبحانه - جانباً من مظاهر فضله على نبيه - صلى الله عليه وسلم -
وعليه فقال : : هو الذى ينزل على عبده آيات بينات ليخرجكم من الظلمات
إلى النور ، وإن الله بكم لرؤوف رحيم .

والرؤوف : مبالغة فى الاتصاف بالرأفة ، ومعناها : كراهية لإصابة الغير
بما يضره أو يؤذيه .

والرحيم : مبالغة فى الاتصاف بصفة الرحمة ، ومعناها : حبة لإيصال الخير
والنفع إلى الغير .

أى : هو - سبحانه - وحده ، الذى ينزل على عبده ورسوله محمد - صلى الله
عليه وسلم - آيات بينات ، أى : حججاً واضحة ، ودلائل باهرات ، لكي
يخرجكم من ظلمات الكفر والجهل ، إلى نور الإيمان والعلم ...

وإن الله - تعالى - بكم - أيها الناس - لكثير الرأفة والرحمة ، حيث أنزل إليكم كتابه ، وأرسل إليكم رسوله - صلى الله عليه وسلم - .

وكما حضهم - سبحانه - على الثبات على الإيمان ، . . . حضهم أيضا مرة أخرى على الإنفاق في سبيله بأبلغ أسلوب ، فقال : وما لكم ألا تنفقوا في سبيل الله ، وقله ميراث السموات والأرض

والاستفهام في قوله تعالى : وما لكم ألا تنفقوا . . . ، للتعجيب من حال من يمسك عن الإنفاق في سبيل الله ، مع أن كل مقتضيات تدعوه إلى هذا الإنفاق . . . والسكلام في قوله - تعالى - : وقله ميراث السموات والأرض ، على حذف مضاف ، والجملة حال من فاعل ، ألا تنفقوا ، ، أو من مفعوله المعلوم مما تقدم .

وإضافة ميراث إلى السموات والأرض ، من إضافة المصدر إلى المفعول أي : وأي سبب يحملكم على البخل وعدم الإنفاق في سبيل إعلاء كلمة الله ، والحال أن الله - تعالى - ميراث أهل السموات وأهل الأرض . . .

لأنه لا عذر لكم في الشح والإمساك بعد أن بينت لكم ما بينت من وجوب الإنفاق في سبيل الله .

قال الألوسي : قوله : وقله ميراث السموات والأرض ، أي : يرث كل شيء فيهما ، ولا يبقى لأحد مال ، على أن ميراثهما مجاز أو كناية عن ميراث ما فيهما ، لأن أخذ الظرف يلزمه أخذ المظروف . وجوز أن يراد : يرثها وما فيهما . واختير الأول ، لأنه يكفي لتوبيخهم ، إذ لا علاقة لأخذ السموات والأرض هنا . . . والجملة مؤكدة للتوبيخ ، فإن ترك الإنفاق بغير سبب قبيح منكرو ، ومع تحقق ما يوجب الإنفاق أشد في القبح ، وأدخل في الإنكار . . . (١) .

ثم قال - تعالى - : لا يستوى منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل ، أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا

والمراد بمن أنفق من قبل الفتح وقاتلوا : السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار ، الذين أنفقوا الكثير من أموالهم ، قبل فتح مكة . . . وقيل : المراد بالفتح : صلح الحديبية .

ولأنما كان الذين أنفقوا وقاتلوا قبل هذا الوقت ، أعظم درجة ممن فعل ذلك بعد هذا الوقت ، لأن الأيام التي سبقت الفتح تعرض المسلمون خلالها لكثير من المصائب والخوف والجوع ونقص الثروات . . . فكان الإنفاق والجهد فيها أشق على النفس ، والثواب على قدر المشقة .

أى : لا يستوى منكم - أيها المؤمنون - في الفضيلة والدرجة من أنفق الكثير من ماله ، من قبل أن تفتح مكة ، وجاهد في سبيل الله - تعالى - جهادا كبيرا ، أولئك الذين فعلوا ذلك ، أعظم درجة ، ونزلة من الذين أنفقوا وقاتلوا بعد أن فتحت مكة .

فالجملة الكريمة بيان لتفاوت الدرجات ، على حسب تفاوت الأحوال والأعمال . وعطف - سبحانه - القتال في قوله ، وقاتلوا ، على الإنفاق في قوله : د أنفقوا ، للإشعار بشدة ارتباطهما ، وأنه لا غنى لأحدهما عن الآخر . قال القرطبي : أكثر المفسرين على أن المراد بالفتح : فتح مكة . وقال الشعبي والزهري : فتح الحديبية . . . وفي الكلام حذف : أى : لا يستوى منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل ، ومن أنفق من بعد الفتح وقاتل ، لحذف لدلالة الكلام عليه .

ولأنما كانت النفقة قبل الفتح أعظم ، لأن حاجة الناس كانت أكثر لضعف الإسلام ، وفعل ذلك كان على المنفقين حينئذ أشق ، والاجر على قدر النصب . . . (١)

وقوله - تعالى - : د من أنفق . . . عام يشمل جميع من بذل ماله قبل

الفتح فى سبيل الله .

وقيل : المراد به أبو بكر الصديق - رضى الله عنه - ، لأنه أول من أسلم ، وأول من أنفق ،

وقوله - عز وجل - : « وكلا وعد الله الحسنى » مدح للفريقين ، ودفع للتوهم من أن يظن ظان أن الفريق الثانى وهو الذى أنفق من بعد الفتح وقاتل ، محروم من الأجر .

أى : وكلا الفريقين وعده الله - تعالى - المثوبة الحسنى وهى الجنة ، إلا أن الذين أنفقوا من قبل الفتح وقاتلوا ، أعظم درجة من الذين أنفقوا وقاتلوا بعد ذلك .

فهذه الآية أصل فى تفاضل أهل الفضل فيما بينهم ، وأن الفضل ثابت لهم جميعا إلا أنهم تفاوتوا فيه على حسب أعمالهم وجهادهم وسبقهم ...

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بقوله : « والله بما تعملون خبير » أى : أنه - تعالى - لا تخفى عليه خافية من أعمالكم الظاهرة أو الباطنة ، فأخلصوا أقوالكم وأفعالكم لله - تعالى - ، لتنالوا أجره وثوابه .

وقد ساق الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية جملة من الأحاديث التى تدل على فضل الصحابة - رضوان الله عليهم - ومنها ما جاء فى الحديث الصحيح أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : « لا تسبوا أصحابى ، فوالذى نفسى بيده ، لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهابا ، لم يبلغ مدأ أحدهم ولا نصيفه » (١) .

ثم ختم - سبحانه - هذه الآيات الكريمة ، بتحريض أشد وأقوى على الإنفاق فى وجوه الخير ، فقال - تعالى - : « من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا ، فيضاعفه له ، وله أجر كريم » .

قال القرطبي : القرض : اسم لكل ما يلتمس عليه الجزاء . وأقرض فلان

فلان ، أى : أعطاه ما يتجاوز . واستقرضت من فلان . أى : طلبت منه القرض فأقرضنى وأقرضت منه أى : أخذت منه القرض . وأصل الكلمة : القسط . ومنه المقرض . وأقرضته ، أى : قسطت له من مالى قطعة يجازى عليها .

ثم قال : والتعبير بالقرض فى هذه الآية ، إنما هو تأنيس وتقريب للناس بما يفهمونه ، والله هو الغنى الحيد ، لكنه - تعالى - شبه عطاء المؤمن فى الدنيا بما يرجو به ثوابه فى الآخرة بالقرض ، كما شبه إعطاء النفوس والأموال فى أخذ الجفنة بالبيع والشراء . . . (١)

والقرض الحسن : هو الإنفاق من المال الحلال ، مع صدق النية ، دون رياء ، أو سمعة ، أو من أو أذى ، مع تحرى أوسط الأموال . . .

والاستفهام : للحض على البذل والعطاء ، وللتحريض على التحلى بمكارم الأخلاق .

و من ، اسم استفهام مبتدأ ، و ذا ، اسم إشارة خبره ، و الذى ، وصلته صفة لاسم الإشارة ، أو بدل منه .

والمعنى : من هذا المؤمن القوى الإيمان ، الذى يقدم ماله فى الجهاد من أجل إعلاء كلمة الله ، وفى غير ذلك من وجوه الخير كمداراة المحتاجين ، وسد حاجة البائسين . . . و فيضا عفه له ، أى : فيعطيه - سبحانه - أجره على إنفاقه أضعاافا مضاعفة .

وله أجر كريم ، أى : ولهذا المنفق - فضلا عن كل ذلك - أجر كريم عند خالقه ، لا يعلم مقداره إلا هو - تعالى - .

فأنت ترى أن هذه الآية السكرية ، قد اشتملت على ألوان من الحض على الإنفاق فى وجوه الخير .

ومن ذلك التعبير بالاستفهام في ذاته ، لأنه للتنبيه وبعث النفوس إلى التدبر والاستجابة .

ومن ذلك - أيضا - التعبير بقوله : « من ذا الذي ... » ، إذ لا يفهم بتلك الطريقة إلا إذا المقام ذا شأن وخطر ، وكان المخاطب لعظم شأنه ، من شأنه أن يشار إليه ، وأن يجمع له بين اسم الإشارة وبين الاسم الموصول ...

ومن ذلك تسميته ما يبذله الباذل قرصا ، ولمن هذا القرص ؟ إنه لله الذي له خزائن السموات والأرض .

فكانه - تعالى - يقول : أقرضوني ما أعطيتكم ، وسأضاعف لكم هذا القرص أضاعافا مضاعفة ، يوم القيامة ، يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا ...

ومن ذلك إخفاء مرات المضاعفة ، وإضافة الأجر الكريم إليها .

ومن ذلك التعبير عن الإنفاق بالقرض ، إذ القرض معناه : إخراج المال ، وانتظار ما يقابله من بدل .

والخلاصة أن هذه الآية وما قبلها ، فيها مافيها من الدعوة إلى الإنفاق في وجوه الخير ، وإلى الجهاد في سبيله .

• • •

ثم بين - سبحانه - ما أعدّه للمؤمنين الصادقين من ثواب ، وساق جانباً مما يدور بينهم وبين المنافقين من محاورات ... فقال - تعالى - :

«يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ، ذَلِكَ الْفَوْزُ

العظيم (١٢) يومَ يقولُ المنافِقُونَ والمنافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا
نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ ، قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم
بِسُورَةٍ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ ، وَظَاهَرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ (١٣)
بُنَادَوْهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ ، قَالُوا بَلَى ، وَاكُنْكُمْ فَنَنُتِمُّ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ
وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ ، حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ (١٤)
فَالْيَوْمَ لَا يُوْخِذُكُمْ مِنْكُمْ فَذِيَّةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ، مَا وَكُمُ النَّارُ هِيَ
مَوْلَاكُمْ وَبُنَى الْمَصِيرُ (١٥) .

وقوله - تعالى - « يوم ترى المؤمنين ... » منصوب بفعل مقدر ،
والرؤية بصرية ، والخطاب لكل من يصلح له ...

والمعنى : واذكر - أيها العاقل - لتتعض ولتعتبر ، يوم تبصر المؤمنين
والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم ، . والأيمان : جمع يمين .
والمراد جهة اليمين .

أي : يتحرك نورهم معهم من أمامهم ، ومن جهة يمينهم ، على سبيل التشريف
والتكريم لهم .

قال ابن كثير : يقول - تعالى - مخبرا عن المؤمنين المتصدقين ، أنهم يوم
القيامة ، يسعى نورهم بين أيديهم في عرصات القيامة بحسب أعمالهم ، كما قال
عبد الله بن مسعود : يؤتون نورهم على قدر أعمالهم ، يمرون على الصراط ،
منهم من نوره مثل الجبل ، ومنهم من نوره مثل النخلة ، ومنهم من نوره مثل
الرجل القائم ... (١)

وعطف - سبحانه - المؤمنين ، على المؤمنين ، ، للتنبيه على أن كلا من الذكر والأنثى ، له أجره على عمله الصالح ، بدون إجحاف أو محاباة لجنس على جنس ، كما قال - تعالى - : « من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن ، فلننجيئنه حياة طيبة ، ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون » (١).

والباء في قوله : « وبإيمانهم » ، بمعنى عن ، واقتصر على ذكر الإيمان على سبيل التشريف لتلك الجهة . والمراد أن نورهم يحيط بهم من جميع جوانبهم . وقوله : « بشراكم اليوم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ، ذلك الفوز العظيم » .

مقول لقول محذوف . وقوله : « بشراكم » ، اسم مصدر من بشر أى : أخبر بما يسر ...

والمعنى : تقول لهم الملائكة على سبيل التكريم والتحية : نبشركم اليوم بجنات عظيمة ، تجري من تحت ثمارها وأشجارها الأنهار العذبة ، حالة كونكم خالدين فيها خلودا أبديا ، وذلك الذى أتم فيه من نور يسعى بين أيديكم ، ومن جنات أتم خالدون فيها ... هو الفوز العظيم ، الذى لا يعادله فوز أو فلاح ...

وقوله - عز وجل - : « يوم يقول المنافقون والمنافقات ... ، بدل من قوله - تعالى - : « يوم ترى المؤمنين والمؤمنات ... » .

أى : واذكر - أيها العاقل - أيضا - يوم يقول المنافقون والمنافقات ، الذين أظهروا الإسلام ، وأبطنوا الكفر ، يقولون للذين آمنوا ، على سبيل التذلل والتجسر ...

« انظرونا نقبئس من نوركم ... ، أى : انتظرونا وتريثوا في سيركم ،

لسكى نلحق بكم ، فليستخير بنورك الذى حررنا منه ، وننتفع بالافتباس من نوركم الذى أكرمكم الله - تعالى - به .

قال الألوسى : « انظرونا ، أى : انتظرونا » نفتبس من نوركم ، نصب منه . وذلك بأن يلحقوا بهم ، فيستنيروا به ... وأصل الافتباس طلب القبس ، أى : الجذوة من النار ...

وقولهم للمؤمنين ذلك ، لأنهم فى ظلمة لا يدرون كيف يمشون فيها . وروى أن ذلك يكون على الصراط ... (١) .

وقوله - سبحانه - « قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا » ، حكاية لما يرد به عليهم المؤمنون ، أو الملائكة .

أى : قال المؤمنون فى ردهم على هؤلاء المنافقين : ارجعوا وراءكم حيث الموقف الذى كننا واقفين فيه فالتمسوا منه النور ، أو ارجعوا إلى الدنيا فالتمسوا نورا ، عن طريق تحصيل سببه وهو الإيمان ، أو ارجعوا خائبين فلا نور لكم عندنا ...

وهذا القول من المؤمنين لهم ، على سبيل التهكم بهم ، إذ لا نور وراء المنافقين .

وقوله : « وراءكم » ، تأكيد لمعنى « ارجعوا » ، إذ الرجوع يستلزم الورا .

ثم بين - سبحانه - ما حدث للمنافقين بعد ذلك فقال : « فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة ، وظاهره من قبله العذاب » .

أى : فضرب بين المؤمنين وبين المنافقين بحاجز عظيم ، هذا الحاجز العظيم ، والسور الكبير ، له باب ، باطن هذا الباب مما يلى المؤمنين « فيه الرحمة » ، أى : فيه الجنة ، وظاهر هذا الباب مما يلى المنافقين « من قبله العذاب »

أى : يأتى من جهته العذاب . قالوا : وهذا السور ، هو الحجاب المذكور فى سورة الأعراف فى قوله - تعالى - : « وبينهما حجاب وعلى الأعراف رجال يعرفون كلا بسيماهم . . . »

والمقصود بهذه الآية الكريمة ، بيان أن المؤمنين فى مكان آمن تحيط به الجنة ، أما المنافقون فى مكان مظلم يؤدى بهم إلى النار وبئس القرار .

ثم حكي - سبحانه - أن المنافقين لم يكتفوا بهذا الرجاء للمؤمنين ، بل أخذوا ينادونهم فى تحسر وتذلل ، فيقولون لهم - كما حكي القرآن عنهم : « ينادونهم ألم نسكن معكم . . . »

أى : ينادى المنافقون المؤمنين نداء كله حمرة وندامة ، فيقولون لهم : ألم نسكن معكم فى الدنيا ، نصلى كما تصلون ، وننطق بالشهادتين كما تنطقون ؟ قالوا بلى ، أى : قال المؤمنون للمنافقين : بلى كنتم معنا فى الدنيا تنطقون بالشهادتين .

« ولسكنكم ، فى الدنيا ، فتنتم أنفسكم ، أى : أضللتكم أنفسكم بالنفاق الذى هو كفو باطن ، وإسلام ظاهر ... »

« وتربصتم ، والتربص : الانتظار والترقب . أى : وانتظارتم وقوع المصائب بالمؤمنين .

« وارتبتم ، أى : وشككنتم فى الحق الذى جاءكم به الرسول - صلى الله عليه وسلم - ، وأعرضتم عنه .

« وغررتمكم الأمانى ، والأمانى : جمع أمنية ، وهى ما يعمنون به أنفسهم من الباطل ، كزعمهم أنهم مصلحون ، وأنهم على الحق ، وأن المسلمين على الباطل ... »

« حتى جاء أمر الله ، أى : بقيتم على الفتنة ، والارتياح ، والتربص ، والاغترار بالباطل ، حتى جاءكم أمر الله ، وهو قضاؤه فيكم بالموت ... »

وغيركم باقائه الفرور ، أى : وخذعكم فى سعة رحمة الله الشيطان ، فطاعكم -كم بأنكم ستنجون من عقابه - تعالى - ، مهما فتنتم أنفسكم وتربستم بالمؤمنين وارتبتم فى كون الإسلام حق ...

وها أنتم الآن ترون سوء عاقبة نفاقكم ، وإصراركم على كفركم ...
 ، فالיום لا يؤخذ منكم ، أيها المنافقون ، فدية ، وهى ما يبذل من أجل اقتداء النفس من العذاب ...

ولا من الذين كفروا ، أى : ولا يؤخذ - أيضا - من الذين كفروا ظاهرا وباطنا فداء .

، ماؤاكم ، جميعا ، النار ، . أى : المكان الذى تستقرون فيه ، هو النار .
 ، هى مولاكم ، أى : هذه النار هى أولى بكم من غيرها . والأصل هى مكانكم الذى يقال فيه أولى بكم .

ويجوز أن يكون المعنى : هذه النار : هى ناصركم ، من باب التهم-كم بهم ، على حد قول الشاعر : تحيسة بينهم ضرب وجميع . أى : لا ناصر لكم إلا النار .

والمراد نفي الناصر لهم على سبيل القطع ، بعد نفي أخذ الفدية منهم .
 قال صاحب الكشف : قوله : ، هى مولاكم ، قيل : هى أولى بكم ...
 وحقيقة مولاكم ، أى : مكانكم الذى يقال فيه هو أولى بكم كما قيل هو مثته للكرم . أى مكان لقول القائل إنه لكرم .

ويجوز أن يراد : هى ناصركم . أى : لا ناصر لكم غيرها . والمراد : نفي الناصر على البتات ، ونحوه قولهم أصيب فلان بكذا فاستنصر بالجزع .
 ومنه قوله - تعالى - : : وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل ، ، ، ، .

وقيل : هى مولاكم ، أى تتولاكم كما توليتم فى الدنيا أعمال أهل النار .

وعطف - سبحانه - الذين كفروا على المنافقين في عدم قبول الفدية ،
لأنّهم في التكذيب بيوم الدين ، وفي الاستمراء بالحق الذي جاءهم من
عند الله - تعالى - .

والمخصوص بالذم في قوله تعالى - : « وبئس المصير ، محذوف والتقدير :
وبئس المصير جهنم التي هي المكان الذي تصيرون إليه .

فأنت ترى أن المؤمنين قد بينوا المنافقين ، أنهم يوافقونهم على أنهم كانوا
معهم في الدنيا ...

والذي أدى بهؤلاء المنافقين إلى هذا المصير الأليم ، هو : فتنة
أنفسهم ، والترصص بالمؤمنين ، والارتياح في صدق الرسول - صلى الله عليه
وسلم - ، والاعتزاز بخداع الشيطان ... فما نزل بهم من عذاب إنما هو بسبب
أفعالهم القبيحة .

وبعد هذا الحديث المؤثر عن المؤمنين ونورهم ، وعن المنافقين وظلماتهم
وعن تلك المحاورات التي تدور بينهم ... بعد كل ذلك حرص - سبحانه -
المؤمنين ، على أن يروضوا أنفسهم على خشية الله - تعالى - ، وحذرهم من أن
ينهجوا نهج أهل الكتاب في قسوة القلب . ووعده - سبحانه - المؤمنين الصادقين
بالأجر الجزيل ، وبالنور العظيم ، فقال - تعالى - :

« أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنْ
الْحَقِّ ، وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ ، فَطَالَ عَلَيْهِمُ
الْأَمَدُ ، فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ، وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ (١٦) اَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ
يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ، قَدْ يَتَّبِعُكُمُ الْآيَاتِ لِمَعْلُومٍ تَعْلَمُونَ (١٧)
إِنَّ الْمُسَدِّقِينَ وَالْمُصَدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ، يَضَافُ لَهُمْ

ولهم أجرٌ كريمٌ (١٨) والذين آمنوا بالله ورسله، أولئك هم الصديقون والشهداء عند ربهم لهم أجرهم ونورهم، والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم (١٩) .

والاستفهام في قوله - تعالى - : د ألم يأن ... ، للتقرير ، ود بأن ، فعل مضارع ، يقال : أتى الشيء - كرمى - أنشأ وأنساء - بالفتح - ، وإني - بالكسر إذا حان إناه ، أى : وقته ، فهو فعل معتل حذفت منه الياء لسبقه بلم الجازمة . ومنه قوله - تعالى - : د يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم إلى طعام غير ناظرين إناه ... ، أى غير ناظرين حلول وقته .

والخطاب في الآية يحتمل أن يكون من باب العتاب لطائفة من المؤمنين ، أصابهم بعض الفتور أو التسكسل ، فيما أمروا به من الاجتهاد في طاعة الله - تعالى - بعد أن فتح الله - تعالى - لهم أقطار الأرض ، ورزقهم بالكثير من لين العيش ، وخيرات الدنيا ...

ويؤيد هذا ما أخرجه ابن المبارك ، وعبد الرزاق ، وابن المنذر عن الأعشى قال : لما قدم أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - المدينة ، فأصابوا من لين العيش ما أصابوا ، بعد ما كان لهم من الجهد - وشقاف العيش ، فكانهم فتروا عن بعض ما كانوا عليه ، فموتبوا على ذلك . فنزلت هذه الآية .

ويحتمل أن يكون الخطاب في الآية لجميع المؤمنين ، على سبيل الحض على المداومة على طاعة الله - تعالى - ، والتحذير من التقصير ...

قال الألوسي ما ملخصه : قوله - تعالى - : د ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله

استئناف لعتاب المؤمنين على الفتور والتسكسل فيما نذبوا إليه ، والمعاتب -

- على ما قاله الزجاج - طائفة منهم ، وإلا فإن من المؤمنين من لم يزل خاشعاً منذ أن أسلم إلى أنلقى ربه ... (١) .

والخشوع : التذلل والخضوع . واللام في قوله ، لذكر الله ، للتعليل . والمراد بذكر الله - تعالى - : ما يشمل كل قول أو فعل يؤدي إلى الخوف من الله - تعالى - بحيث يظهر أثر ذلك على الجوارح . .

وقيل : المراد به : القرآن الكريم ، فيكون قوله - تعالى - بعد ذلك ، وما نزل من الحق ، من باب عطف الشيء على نفسه ، لاختلاف اللفظين ، كما في قوله - تعالى - : « سبح اسم ربك الأعلى . الذي خلق فسوى . والذي قدر فهدى . . » .

والمعنى لقد آن الأوان أن تخشع قلوب المؤمنين لذكر الله - تعالى - ، وأن تلين قلوبهم لما أنزله - سبحانه - على نبيه - صلى الله عليه وسلم - من قرآن ، تقشع منه جلود الذين يخافون ربهم ، وترق له مشاعرهم ونفوسهم .

وبعد هذا التحريض للمؤمنين على المسارعة في طاعة الله - تعالى - وخشيته والإكثار من ذكره . . . نهام - سبحانه - عن القسبة بأهل الكتاب ، الذين طال عليهم الأمد في الانغماس في شهوات الدنيا فقتت قلوبهم ، فقال - تعالى - : « ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل . فطال عليهم الأمد ، فقتت قلوبهم ، وكثير منهم فاسقون . » .

والمراد بالذين أوتوا الكتاب : اليهود والنصارى . وبالكتاب : التوراة والإنجيل .

والجمله السكرينة معطوفة على قوله - تعالى - : « تخشع ، والاسد : الغاية من زمان أو مكان . والمراد به هنا : الزمان الطويل .

أي : لقد آن الأوان أن تخشع قلوب الذين آمنوا لذكر الله وما نزل من

الحق ، وآن الأوان - أيضا - أن لا يكرهوا كالذين أوتوا الكتاب من قبلهم ، حيث طال عليهم الوقت وهم منغمسون في الشهوات والملذات ، فقست قلوبهم ، وصارت لا تتأثر لا بالترغيب ولا بالترهيب . ولا تفرق بين الحرام والحلال وأصبح كثير عنهم خارجين عن الصراط المستقيم .

فأنت ترى أن الآية السكرية قد حذت المؤمنين على الركون إلى ذكر الله - تعالى - بشدة ومداومة... ونهتهم من التشبه بأهل الكتاب في عدم الخشوع ، وفي قسوة القلوب ، بسبب استيلاء المطامع والشهوات على قلوبهم ...

قال صاحب الكشف ما ملخصه : قوله - تعالى - : « ألم يأن ... » من أنى الأمر إذا جاء أفناه ، أى : وقته ... والآية نهى للمؤمنين عن مماثلة أهل الكتاب في قسوة القلوب ، وذلك أن بنى إسرائيل ، كان الحق يحول بينهم وبين شهواتهم ، وإذا سمعوا التوراة والإنجيل خشعوا لله ورددت قلوبهم ، فلما طال عليهم الزمان ، غلبهم الجفاء والقسوة ، واختطفوا وأحدثوا ما أحدثوا من التحريف وغيره ،

فإن قلت : ما معنى لذكر الله وما نزل من الحق ؟ قلت : يجوز أن يراد بالذكر وبما نزل من الحق القرآن ، لأنه جامع للأمرين : للذكر والموعظة وأنه حق نازل من السماء .

وأن يراد خشوعها إذا ذكر الله ، وإذا تلى القرآن ، كقوله - تعالى - : « إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ، وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا ... » (١) .

والآية السكرية تشير إلى أن الإهمال لذكر الله ، والاسترسال في الشهوات كل ذلك يؤدي إلى قسوة القلوب ، وإلى الفسوق عن أمر الله - تعالى - . . .

ولذا وجدنا كثيرا من الآيات القرآنية ، والأحاديث النبوية ، تحض

على الإكثار من ذكر الله - تعالى - قال - سبحانه - : «والذاكرين الله كثيرا والذاكرات ، أعد الله لهم مغفرة وأجرا عظيما» .

وفي الحديث الشريف : يقول - صلى الله عليه وسلم - : «لا يقعد قوم يذكرون الله - تعالى - ، إلا حفتهم الملائكة ، وغشيتهم الرحمة ، ونزلت عليهم السكينة ، وذكرهم فيمن عنده» .

والقد كان سماع هذه الآية الكريمة ، بتدبر وتفكير وخشوع ، على رأس الأسباب التي أدت إلى توبة بعض العصاة توبة صادقة نصوحا . .

فهذا هو الفضل بن عياض ، يذهب ليلا لارتكاب ما نهى الله عنه ، فيسمع قارئاً يقرأ هذه الآية ، فيرتجف ويعود أدراجه وهو يقول : يلى والله قد آن أو أن الخشوع لذكر الله . . . اللهم إني تبت إليك ، وجعلت توبتي إليك ، جوار يديك الحرام ،^(١) .

ثم وجه - سبحانه - خطابه إلى المؤمنين فقال : «اعلموا أن الله يحمي الأرض بعد موتها ، قد بينا لكم الآيات لعلكم تعقلون» .

وافتح الآية بقوله - تعالى - : «اعلموا . . . يؤذن بأن ما سيلقى على مسامعهم من توجيهات ، جدير بالالتباه إلى مضمونه ، وإلى الامتثال لما اشتمل عليه من أمر أو نهى» .

وليس المقصود من الآية إخبار المؤمنين بأن الله - تعالى - قادر على إحياء الأرض بعد موتها ، فذلك أمر يعتقدونه ، ولا يتم إيمانهم إلا به . .

ولأنما المقصود من هذه الآية الكريمة ، بيان أن المواظبة على ذكر الله - تعالى - ، وعلى تلاوة كتابه ، كل ذلك يكون له أثره في خشوع النفوس ، وفي طهارة القلوب .. كآثر المطر عندما ينزل على الأرض الجذباء المقفرة . .
فما تلبث إلا أن تهتز وتربو وتنبث من كل زوج بهيج .

قال الإمام الرازي : قوله - تعالى - : « ادعوا أن الله يحيي الأرض بعد موتها ، ... » فيه وجهان :

الأول : أنه تمثيل ، والمعنى : أن القلوب التي ماتت بسبب القساوة ، المواظبة على الذي سبب لمودة حياة الخشوع لإيها ، كما يحيي الله - تعالى - الأرض بالغيث .

والثاني : أن المراد من قوله : يحيي الأرض بعد موتها ، : بعث الأموات ، فقد ذكر ذلك ترغيباً في الخشوع والخضوع ، وزجراً عن القساوة ، (١) .
والمراد بالآيات في قوله - تعالى - : « قد بينا لكم الآيات لعلكم تعقلون » :
الدلائل الدالة على وحدانيته وقدرته ، وعليه - سبحانه - .

أي : قد بينا لكم الدلائل والبراهين ، الناطقة بقدرتنا وحكمتنا .. لعلكم بهذا البيان تعقلون ما أرشدناكم إليه ، وتعملون بموجب ما عقلتموه ، وبذلك تتألون الفلاح والسعادة ، وتخشع قلوبكم لذكرنا ولآياتنا ...
ثم بين - سبحانه - ما أعدّه المؤمنين الذين يبذلون أموالهم في سبيله ،
والذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، فقال : « إن المصدقين والمصدقات وأقرضوا الله قرضاً حسناً ، يضاعف لهم ، ولهم أجر كريم ، ... »

وقراءة : « إن المصدقين والمصدقات ، - بقصد الصدقات - من التصديق ، فأدغم التاء في الصاد بعد قلبها صاداً لقرب مخرجيهما ... وأصل الكلام :
والمصدقين والمصدقات .

وقرأ ابن كثير وغيره . « إن المصدقين والمصدقات ، - بتخفيف الصاد -
على أنه من التصديق لما جاء به الرسول - صلى الله عليه وسلم - .

قال صاحب الكشف : فإن قلت : علام عطف قوله : « وأقرضوا ، ؟

(١) تفسير الفخر الرازي ، ج ٢٩ ص ٢٣٢ . طبعة دار الفكر - بيروت .

قلت . على معنى الفعل فى المصدقين ، لأن د آل ، بمعنى الذين ، واسم الفاعل
بمعنى : اصدقوا ، فكأنه قيل : إن الذين اصدقوا وأقرضوا ... (١) .

والمعنى : إن المؤمنين والمؤمنات الذين تصدقوا بأموالهم فى وجوه الخير ،
والذين د أقرضوا الله قرضا حسنا ، بأن أففقوا أموالهم الحلال فى سبيل الله ،
بدون من أو أذى .

هؤلاء الذين فعلوا ذلك د بضاعف لهم ، أجرهم عند الله - تعالى - أضعافا
كثيرة .

د ولهم ، فضلا عن كل ذلك د أجر كريم ، لا يعلم مقداره إلا هو
- سبحانه - .

وقوله : د والذين آمنوا بالله ورسله ، مبتدأ .

وقوله : د أولئك هم الصديقون ، خبره . أى : والذين آمنوا بالله ورسله
إيمانا حقا - لهم منزلة الصديقين ، أى : منزلة المبائعين فى الصدق واليقين .

فالصديق - بتشديد الدال - هو المبالغ فى الصدق بما جاءه به الرسول
- صلى الله عليه وسلم - ، وفى تنفيذ ما كلف به تنفيذا تاما .

د والشهداء عند ربهم ، وهم الذين استشهدوا فى سبيل الله - تعالى - : د لهم
أجرهم ، العظيم عند الله - تعالى - ، ولهم د نورهم ، الذى يسمى بين أيديهم
وهو إيمانهم يوم القيامة .

فلى هذا التفسير يكون قوله : د والشهداء عند ربهم ، مبتدأ ، وجملته لهم
أجرهم ونورهم ، ، خبره . ويكون الوقف على د الصديقون ، وقفا تاما .
والضمائر فى د لهم ، أجرهم ونورهم ، للشهداء .

ويصح أن يكون قوله : والشهداء ، معطوف على : الصديقون ، عطف المفرد على المفرد ، فهو عطف على الخير . أى : وهم الشهداء عند ربهم ... ويكون الوقف على الشهداء تاماً ، وأخير - سبحانه - عن الذين آمنوا بالله ورسله ، أنهم صديقون وشهداء .

والمعنى على هذا الوجه : والذين آمنوا بالله ورسله ، أولئك هم الذين في حكمه - تعالى - بمنزلة الصديقين والشهداء المشهورين بعلو الرتبة ، ورفعة الدرجة .

وقوله : - تعالى - : عند ربهم لهم أجرهم ونورهم ، أى : للذين آمنوا بالله ورسله عند ربهم ، مثل أجر الصديقين والشهداء ولهم مثل نورهم يوم القيامة ، ونأهلك به من أجر عظيم ، ونور عظيم .

وحذف ما يفيد التشبيه في الجملتين ، للتنبيه على قوة المماثلة ، وبلوغها حد الاتحاد .

وإلى هذا المعنى أشار صاحب الكشف بقوله : يريد أن المؤمنين بالله ورسله ، هم عند الله - تعالى - بمنزلة الصديقين والشهداء . وهم الذين سبقوا إلى التصديق ، واستشهدوا في سبيل الله .

وقوله : لهم أجرهم ونورهم ، أى : لهم مثل أجر الصديقين والشهداء ومثل نورهم .

فإن قلت : كيف يسوى بينهم في الأجر ولا بد من التفاوت ؟ قلت : المعنى أن الله - تعالى - يعطى الذين آمنوا بالله ورسله أجرهم . ويضاعفه لهم بفضلهم ، حتى يساوى أجرهم مع إضافة ، أجر أولئك ، أى أجر الصديقين والشهداء ...

ويجوز أن يكون قوله : والشهداء ، مبتدأ ، وقوله : لهم أجرهم ،

خبره

وقوله - تعالى - : «والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم»
بيان لسوء عاقبة الكافرين ، بعد بيان حسن عاقبة المؤمنين الصادقين .

أى : «والذين كفروا باقوه ورسله ، وكذبوا بآياتنا الدالة على وحدانيتنا
وقدرتنا أولئك أصحاب الجحيم ، الملازمون لها ملازمة الشئ - لصاحبه .

وبذلك نرى أن هذه الآيات السريعة قد حضرت المؤمنين على المواظبة
على ذكر الله - تعالى - وطاعته ونهتهم عن التشبيه بالذين قست قلوبهم ،
وبشرت المصدقين والمصدقات ، والذين آمنوا بالله - تعالى - ورسله إيماناً
حقاً ... بالأجر العظيم ، وبالعطاء الجزيل .

• • •

ثم بين - سبحانه - حال الحياة ، التى ركن إليها الكافرون . واطمانوا
بها ... ودعا المؤمنين إلى أن تكون همهم متجهة نحو الآخرة ، عن طريق
التسلح بالأعمال الصالحة ، فقال - تعالى - :

«اعلموا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ، وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ يَنبَغُكُمْ
وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ ، كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ
ثُمَّ يَهْبِجُ فَتَرَاهُ مَصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا ، وَفِي الْآخِرَةِ هَذَا الَّذِي
وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ ، وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ (٢٠)
سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ ، وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ
أُحِدَتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ، ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ ، وَاللَّهُ
ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٢١) » .

أى : اعلموا - أيها المؤمنون - علم استجابة وامثال لما أمركم به - إنما

الحياة الدنيا، التي تعيشون فيها ما شاء الله لكم أن تعيشوا ... ولعب ، واللعب :
هو قضاء الوقت في قول أو فعل لا فائدة من ورائه ..

« ولهو ، واللهو : إسم لفعل أو قول يقصد من ورائه التلذذ والتمتع ،
وصرف الآلام والهموم عن النفس .

« وزينة ، الزينة إسم لما يزين به الإنسان من ملابس أو مسكن أو ما يشبههما
ما يفعله من أجل أن يكون في أعين الناس مهييا جميلا .

« وتفاخر بينكم ، أى : وتفاخر فيما بينكم بالأموال والمناصب والأحساب
والأعمال . « وتكاثر في الأموال والأولاد ، والتكاثر تفاعل من الكثرة -
كما أن التفاخر تفاعل من الفخر - وصيغة التفاعل جى . بها هنا ، للبالغة في
إظهار ما يتفاخرون به ، وما يتكاثرون فيه ، حتى لكأنه ينافس غيره فذلك
ويريد الظهور عليه .

والحرص على التفاخر والتكاثر في الأموال والأولاد ، من طبيعة كثير
من الناس ، كما قال - تعالى - : « ألهاكم التكاثر حتى زرتم المقابر ... »

ثم بين - سبحانه - حال الحياة الدنيا ، التي يلعب الناس فيها ، ويلهون
ويتفاخرون ، ويتكاثرون .

فقال : « كثر غيث أعجب الكفار نباته ... »

أى : هذه الحياة الدنيا حالها وصفتها ومثلها كثر مطر أعجب الكفار
وراقهم وسرهم ، ما ترتب على هذا المطر ، من نبات جميل نبت من الأرض
بعد مطول الغيث عليها .

فقوله - تعالى - : « كثر ، خير لمبتدأ محذوف . أى : مثلها كثر .
والمراد بالكفار هنا : الجاحدون لنعم الله - تعالى - ، الساترون لها ،
وخصوا بالذكر ، لأنهم أشد إعجابا وسرورا وإنغماسا في زينة الحياة الدنيا
من غيرهم .

وروى عن عبد الله بن مسعود - رضى الله عنه - أن المراد بالكفار هنا: الزراع الذين يزرعون الأرض بعد نزول المطر عليها ، و يبذرون فيها البذور سموا كفارا من الكفر بمعنى الستر والإخفاء . يقال: كفر الزارع أو زرعه إذا أخفاه في الأرض ، حتى لا يتعرض للتلف أو الضياع .

وقوله - سبحانه - : « ثم يهيج فتراء مصفرا ثم يكون حطاما ... »

والهيجان : الاضطراب والثوران . ومنه سميت الحرب بالهيجاء ، لأن فيها يضطرب المقاتلون ، ويثور بعضهم على بعض ..

ويرى بعضهم أن معنى « يهيج » هنا : يبس ويجف .

وعطف - سبحانه - جملة « يهيج » بحرف « ثم » ، لافادة التراخي الرتبى ، لئذ أن وصول النبات إلى درجة من الهيجان وبلوغ منتهاه ، لا يتأتى إلا بعد زمن طويل من بدء زراعته ...

ولم يرتض بعض المحققين هذا المعنى فقال : تفسير « يهيج » ببس فيه تسامح ، فإن حقيقته أن يتحرك إلى أقصى ما يتأتى له أى : - من الطول والفظ ، (١)

أى : ثم يتحرك هذا النبات الذى أعجب الكفار إلى أقصى ما يتأتى له من طول وقوة ، ثم يبدأ فى الضعف ، فتراء - أيها الناظر إليه - نباتا مصفرا متغيرا عما كان عليه من النضرة ، آخذا فى الذبول وفى التهيؤ للحصاد ، ثم يكون بعد ذلك حطاما ، أى : نباتا محطما مكسرا .

والمقصود بقوله - تعالى - : « كمثل غيث ... الخ » ، التقرير والتأكيد لما وصفت به الدنيا من كونها لعب ولهو وزينة .

وتشبيها فى سرعة زوالها ولاحضاء نعيمها ، وقلة فائدتها ... بحال نبات ظهر على الأرض بعد هطول المطر عليها ، واستمر فى ظهوره وجماله ونضرتة

وهيجانه ، لفترة ما من الحياة ، أعجب خلالها الكفار به ، ثم حل بهذا النبات
البائع الاصفرار والاضمحلال حتى صار حطاما مفتتا تذروه الرياح ..

والمقصود بهذا التشبيه ، زجر الناس عن الركون إلى الحياة الدنيار كونا
ينسون معه فرائض الله - تعالى - ، وتكاليفه التي كلفهم بها - سبحانه - .

وعطف - سبحانه - : : فترة مصفرا ، بإلقاء الإشعار بقصر المسافة - مهما
طالت في عرف الناس - بين نضرة الزرع وإستوائه ، وبين إصفراره
ونهايته .

قال صاحب الكشف - رحمه الله - : أراد - سبحانه - أن الدنيا ليست
إلا محقرات من الأمور ، وهي اللعب والاهو ... وأما الآخرة فما هي إلا
أمور عظام ...

وشبه حال الدنيا وسرعة تقضيها ، مع قلة جدواها ، بنبات أنبته الغيث
فاستوى واكتهل ، وأعجب به الكفار الجاحدون لنعمة الله ، فيما رزقهم من
الغيث ، والنبات ... فبعث عليه العاهة فهاج واصفر وصار حطاما ... (١).

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة ببيان عظم الآخرة ، وهوان الدنيا
قال : : وفي الآخرة عذاب شديد ، أي : لمن كفر بالله - تعالى - وفسق
عن أمره .

ومغفرة من الله ورضوان ، أي : لمن آمن بالله - تعالى - ، ولاتباع ما جاء
به الرسول - صلى الله عليه وسلم ، وحافظ على أداء ما كلف به بإخلاص
وحسن إقتداء .

وما الحياة الدنيا إلا متاع افزور ، أي : وما أحوال الحياة الدنيا
وما إشتملت عليه من شهوات ، إلا متاع زائل ، لا يقدم عليه ، ولا يتشبع
به إلا من خدع بزخرفته ، وإغتر بمظهره .

فالمراد بالغرور : الخديعة . مصدر غره ، أى : خدعه وأطمعه بالباطل
ثم أمرهم - سبحانه - بالمسارعة إلى ما يسعدهم ، بعد أن بين لهم حال الحياة
الدنيا فقال : « سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء
والأرض ... »

وقوله - تعالى - « سابقوا » من المسابقة وهي محاولة أن يسبق
الإنسان غيره .

و « من » فى قوله « من ربكم » ، ابتدائية ، والجار والمجرور صفة للمغفرة .
أى : سارعوا - أيها المؤمنون - مسارعة السابقين لغيرهم ، إلى مغفرة
عظيمة كائنه من ربكم .

فالتعبير بقوله : « سابقوا » ، لالهاب المحاس وحض النفوس إلى الاستجابة
لأمرها به ، حتى لكأنهم فى حالة مسابقة يحرص كل قرين فيها إلى أن
يسبق قرينه ..

وقوله : « وجنة عرضها كعرض السماء والأرض ... » ، مغطوف على
المغفرة . أى : سابقوا غيركم - أيها المؤمنون - إلى مغفرة عظيمة من ربكم ،
وإلى جنة كريمة ، هذه الجنة عرضها وسعتها ورحابتها ... كسعة السماء
والأرض ...

وهذه الجنة قد أعدت للذين آمنوا بالله ورسوله ، إيماناً حقا ، جعلهم
لا يقصرون فى أداء واجب من الواجبات التى كلفهم - سبحانه - بها ...

قال الامام الفخر الرازى ما ملخصه : وفى كون الجنة عرضها كعرض
السماء والأرض وجوه :

منها : أن المراد لو جعلت السموات والأرضون طبقا طبقا ... لكان
ذلك مثل عرض الجنة ، وهذا غاية فى السعة لا يعلمها إلا الله - تعالى -

ومنها : أن المقصود المبالغ في الوصف بالسعة للجنة ، وذلك لأنه لا شيء
معدنا أعرض منهما ... ، (١) .

وتخص - سبحانه - العرض بالذكر ، ليكون أبلغ في الدلالة على عظمتها ،
واتساع طولها ، لأنه إذا كان عرضها كهذا ، فإن العقل يذهب كل مذهب في
تصور طولها ، فقد جرت العادة أن يكون الطول أكبر من العرض .

قال الإمام ابن كثير : وقد روينا في مسند الإمام أحمد أن هرقل - ملك
الروم - كتب إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - فقال : إنك دعوتني إلى جنة
عرضها السموات والأرض ، فأين النار ؟ فقال - صلى الله عليه وسلم - :
سبحان الله ، فأين الليل إذا جاء النهار ، (٢)

وإسم الإشارة في قوله - تعالى - : ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء . والله
ذو الفضل العظيم ، يعود إلى الذي وعد الله - تعالى - به عباده المؤمنين من
المغفرة والجنة .

أي : ذلك العطاء الجزيل فضل الله - تعالى - وحده وهو صاحب الفضل
العظيم الذي لا يعلم مقداره إلا هو - عز وجل -
فأنت ترى أن الله - تعالى - بعد أن بين حال الحياة الدنيا ... دعا المؤمنين
إلى المسابقة إلى العمل الصالح ، الذي يوصلهم إلى ما هو أكرم وأبقى ...
وهو الجنة .

وشبيه بهذين الآيتين قوله - تعالى - : زين للناس حب الشهوات من النساء
والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة ... قل أؤنبشكم بخير من
ذلكم ... ، (٣)

(١) راجع تفسير الفخر الرازي ج ٩ ص ٤

(٢) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٤٠٤

(٣) سورة آل عمران الآيات ١٤ - ١٧

ثم بين - سبحانه - أن كل شئ . في هذه الحياة ، خاضع لقضاء الله - تعالى - وقدره ، وأن على المؤمن الصادق أن يكون شاكراً عند الرخاء ، صابراً عند البلاء ... فقال - تعالى - :

« مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (٢٢) لَكِنْ لَا تَأْسُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ، وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ (٢٣) الَّذِينَ يَتَخَلَوْنَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ ، وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (٢٤) » .

و ما ، في قوله - تعالى - « مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ ، نافية . و من ، مريدة لتأكيد هذا النفي ، وإفادة عمومته . ومفعول « أَصَابَ ، محذوف . وقوله « فِي الْأَرْضِ ، إشارة إلى المصائب التي تقع فيها من فقر ، وقحط ، وزلازل ...

وقوله : « وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ ، للإشارة إلى ما يصيب الإنسان في ذاته كالأمراض ، والهموم ...

والاستثناء في قوله - تعالى - « إِلَّا فِي كِتَابٍ ، من أعم الأحوال . والمراد بالكتاب : اللوح المحفوظ ، أو علمه - عز وجل - الشامل لكل شئ .

وقوله « نَبْرَأَهَا ، من البدء - بفتح الباء - بمعنى الخلق والإيجاد ، والضمير فيه يعود إلى النفس ، أو إلى الأرض ، أو إلى جميع ما ذكره الله - تعالى - من خلق المصائب والأرض والأنفس .

والمعنى : واعلموا - أيها المؤمنون علماً يقرب عليه آثاره من العمل الصالح - أنه ما أصابكم أو ما أصاب أحداً مصيبة ، هذه المصيبة كاتنة في

الأرض - كالقحط والزلازل - ، أو في أنفسكم - كالأسقام والأوجاع - ،
 إلا وهذه المصائب مسجلة في كتاب لا يغادر مضجرة ولا كبيرة إلا أحصاها ..
 وهذا التسجيل كائن من قبل أن نخلق هذه الأنفس ، وهذه المصائب ..

وكرر - سبحانه - حرف التثني في قوله ، ولا في أنفسكم ، للإيماء إلى أن
 المصائب التي تتعلق بذات الإنسان ، يكون أشد تأثرا واهتماما بها ، أكثر
 من غيرها .

واسم الإشارة في قوله : ، إن ذلك على الله يسير ، يعود إلى الكتابة
 في الكتاب .

أى : إن ذلك الذى أنبتناه في لوحنا المحفوظ وفي علمنا الشامل لكل
 شيء ... قبل أن نخلقكم ، وقبل أن نخلق الأرض ... يسير وسهل علينا ،
 لأن قدرتنا لا يعجزها شيء ، وعلمنا لا يعزب عنه شيء .

فآية الكريمة صريحة في بيان أن ما يقع في الأرض وفي الأنفس من
 مصائب - ومن غيرها من أسرار - مكتوب ومسجل عند الله - تعالى - قبل
 خلق الأرض والأنفس .

وخص - سبحانه - المصائب بالذكر ، لأن الإنسان يضطرب لوقوعها
 واضطرابا شديدا ، وكثيرا ما يكون إحساسه بها ، وإدراكه لآثارها ، أشد
 من إحساسه وإدراكه للأسرار .

ومن الآيات التي تشبه هذه الآية في معناها قوله - تعالى - : « قل لن يصيبنا
 إلا ما كتب الله لنا ، هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون » (١) .

ثم بين - سبحانه - الحكم التي من أجلها فعل ذلك فقال : « ولكي لا تناسوا
 على ما فأنكم ، ولا تفرحوا بما آتاكم »

فاللآلئ في قوله : « لى لا تأسوا ... » متعلقة بمحذف . وقوله : « تأسوا » من الأسى ، وهو الحزن والضيق الشديد . يقال : أسى فلان على كذا - كفرح - فهو يأسى أسى ، إذا حزن واغتم لما حدث ، ومنه قوله - تعالى - حكاية عن شعيب - عليه السلام - : « فتولى عنهم وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالات ربي ونصحت لىكم ، فكيف آسى على قوم كافرين ، (١) » .

أى : فعلنا ما فعلنا من إثبات ما يصيبكم فى كتاب من قبل خلقكم ، وأخبرناكم بذلك ، لى لا تحزنوا على ما أصابكم من مصائب حزنا يؤدى بكم إلى الجزع ، وإلى عدم الرضا بقضاء الله وقدره ، ولى لا تنفروا بما أعطاكم الله - تعالى - من نعم عظمى وكثيرة ... ، فرحاً يؤدى بكم إلى الطغيان وإلى عدم استعمال نعم الله - تعالى - فيما خلقت له ... فإن من علم ذلك علماً مصحوباً بالتدبر والاتعاظ ... هانت عليه المصائب ، واطمأنت نفسه لما قضاه الله - تعالى - ، وكان عند الشدائد صبوراً ، وعند المسرات شكوراً .

ورحم الله صاحب الكشف فقد قال عند تفسيره لهذه الآية : يعنى أنكم إذا علمتم أن كل شىء مقدر مكتوب عند الله ، قل أساكم على الفائت ، وفرحكم على الآتى ، لأن من علم أن ما عنده مفقود لا محالة ، لم يتفاقم جزعه عند فقده ، لأنه وطن نفسه على ذلك ، وكذلك من علم أن بعض الخير واصل إليه ، وأن وصوله لا يفوته بحال ، لم يعظم فرحه عند فيله ...

فإن قلت : فلا أحد يملك نفسه عند مضرة تنزل به ، ولا عند منفعة ينالها ، أن لا يحزن ولا يفرح ؟

قلت : المراد الحزن المخرج إلى ما يذهل صاحبه عن الصبر والتسليم لأمر الله - تعالى - ، ورجاء ثواب الصابرين ، والفرح المطفئ للملئ عن الشكر .

فأما الحزن الذى لا يكاد الإنسان يخلو منه مع الاستسلام والسرور بنعمة الله ، والاعتداد بها مع الشكر ، فلا بأس بهما (١) .

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بقوله : ، والله لا يحب كل مختال فخور . .

أى : والله - تعالى - لا يحب أحدا من شأنه الاختيال بما آتاه - سبحانه - من نعم دون أن يشكره - تعالى - عليها ، ومن شأنه - أيضا - التفاخر والتباهى على الناس بما عنده من أموال وأولاد . . . وإنما يحب الله - تعالى - من كان من عباده متواضعا حليما شاكرا خالقا - عز وجل - . .

فأنت ترى أن هاتين الآيتين قد سكبتا فى قلب المؤمن ، كل معنى الثقة والرضا بقضاء الله وقدره فى كل الأحوال . . .

وليس معنى ذلك عدم مباشرة الأسباب التى شرعها الله - تعالى - لأن ما سجله الله فى كتابه علينا قبل أن يخلقنا . . . لا علم لنا به ، وإنما عليه مرده إليه وحده - تعالى - . .

وهو - سبحانه - لا يحاسبنا على ما نجهله ، وإنما يحاسبنا على ما أمرنا به ، أو نهانا عنه ، عن طريق رسوله - صلى الله عليه وسلم - .

وكما سجل - سبحانه - أحوالنا قبل أن يخلقنا ، فقد شرع الأسباب وأمرنا بمباشرتها ، وبين لنا فى كثير من آياته ، أن جزاءنا من خير أو شر على حسب أعمالنا . . .

وعندما قال بعض الصحابة لالنبي - صلى الله عليه وسلم - : ، أفلا نتشكل على ما قدره الله علينا ، ؟

أجابهم بقوله : : اعملوا فكل ميسر لما خلق له . .

وقرله - سبحانه - بعد ذلك : : الذين ييخلون بأمر من الناس بالبخل ...
بدل من قوله - تعالى - : : كل مختال نفور ، . . والمراد بالذين ييخلون : كل
من ييخل بماله أو بعلمه ... فكأنه - تعالى - يقول : والله لا يحب الذين
ييخلون بما أعطاهم من فضله ، بخلا يحلمهم لا ينفقون شيئاً منه في وجوه الخير ،
لأنهم لا موألهم جدلهم يسكونها ويشحون بها شحاً شديداً ...
ولا يكتفون بذلك ، بل يأمر من غيرهم بالبخل والشح ...

وعلى رأس هؤلاء الذين لا يحبهم الله - تعالى - المنافقون ، فقد كانوا
ييخلون بأموالهم عن إنفاق شيء منها في سبيل الله ، وكانوا يتواصون بذلك
فيما بينهم . فقد قال - سبحانه - في شأنهم : : هم الذين يقولون لا تنفقوا على
من عند رسول الله حتى ينفضوا ، والله خزائن السموات والأرض ، ولكن
المنافقين لا يفقهون ، (١) .

وقوله - سبحانه - : : ومن يقول فإني الله هو الغني الحميد ، تذييل
المقصود به ذم هؤلاء البخلاء على بخلهم . .

وجواب الشرط محذوف ، أغنت عنه جملة : فإن الله هو الغني الحميد ،
والغنى : هو الموصوف بالغنى . وهي صفة من صفات الله - عز وجل - إذ هو
الغنى مطلقاً ، والخلق جميعاً في حاجة إلى عطائه - سبحانه - والحميد :
وصف مبالغة من الحمد . والمراد به أنه - تعالى - كثير الحمد والعطاء للمنفقين
في وجوه الخير .

أى : ومن يعرض عن هدايات الله - تعالى - وعن إرشاداته ... فلن
يضر الله شيئاً ، فإن الله - تعالى - هو صاحب الغنى المطلق الذي لا يستغنى عن

عطائه أحد ، وهو - سبحانه - كثير الحمد والعطاء لمن استجاب لأمره ، فأنفق ماله لله بدون احتيال أو تفاخر أو أذى ...

ثم بين - سبحانه - أن حكمته قد افترضت أن يرسل رسله إلى الناس ، ليهدهم إلى طريق الحق ، وأن الناس منهم من اتبع الرسل ، ومنهم من أعرض عنهم ، ومنهم من ابتدع أمورا من عند نفسه لم يرعها حق رعايتها ... فقال - تعالى - :

« لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ، وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ » (٢٥) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ ، فَمِنْهُمْ مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ (٢٦) ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِرُسُلِنَا ، وَقَفَّيْنَا بِمُوسَى ابْنِ مَرْيَمَ ، وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ ، وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتَغَاءَ رِضْوَانٍ اللَّهِ ، فَمَنْ رَعَاهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ، فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ، وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ (٢٧) .

والمراد بالبينات في قوله - تعالى - : « لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ » ، الحجج والدلائل التي تشهد لهم بأنهم رسل من عند الله - تعالى - ، وقد خل فيها المعجزات دخولا أوليا .

والمراد بالكتاب : جنس الكتب ، وتشمل التوراة والإنجيل وغيرهما .

والميزان : الآلة المعروفة بين الناس لاستعمالها في المكييل وغيرها .
والمراد بها العدل بين الناس في أحكامهم ومعاملاتهم ...

وشاع إطلاق الميزان على العدل ، باستعارة لفظ الميزان على العدل ، على وجه تشبيه المعقول بالمحسوس . والمراد بإزاله : تبليغه ونشره بين الناس .

أى : باق له لقد أرسلنا رسلنا ، وأيدناهم بالحجج والبراهين الدالة على صدقهم ، وأنزلنا معهم كتبنا السماوية ، بأن بلغناهم إياها عن طريق وحيها ، وأنزلنا معهم العدل ، بأن أرشدناهم إلى طريقه ، وإلى إعطاء كل ذى حق حقه ..

قال ابن كثير : يقول الله - تعالى - : لقد أرسلنا رسلنا بالبينات ، أى : بالمعجزات ، والحجج الباهرات ، والدلائل القاطعات ، وأنزلنا معهم الكتاب ، وهو النقل الصدق ، والميزان ، وهو العدل . أو وهو الحق الذى تشهد به العقول الصحيحة المستقيمة المخالفة للآراء السقيمة ... (١) .

وأكد - سبحانه - هذا الإرسال ، للرد على أولئك الجاحدين الذين أنكروا نبوة النبي - صلى الله عليه وسلم - ولبيان أنه واحد من هؤلاء الرسل الكرام ، وأن رسالته إنما هى امتداد لرسالتهم ... وقوله - تعالى - : ليقوم الناس بالقسط ، علة لما قبله . أى : أرسلنا الرسل ، وأنزلنا الكتاب ، وشرعنا العدل ، ليقوم الناس بنشر ما يؤدى إلى صلاح بالهم . واستقامة أحوالهم ، عن طريق التزامهم بالحق والقسط فى كل أمورهم .

قال الألوسى : والقيام بالقسط ، أى : بالعدل ، يشمل التسوية فى أمور التعامل باستعمال الميزان ، وفى أمور المعاد باحتداد الكتاب . وهو - أى - القسط - لفظ جامع مشتمل على جميع ما ينبغى الانصاف به ، معاشا ومعادا ، (٢) .

(١) تفسير ابن كثير ٤ ص ٣١٤

(٢) تفسير الألوسى ٢٧ ص ١٨٨

وقوله - تعالى - : « وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس »
معطوف على ما قبله .

والمراد بإنزال الحديد : خلقه وإيجاده ، وتميئنه للناس ، والإنعام به
عليهم ، كما في قوله - سبحانه - : « وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج
يخلقكم في بطون أمهاتكم خلقاً من بعد خلق ... » (١) .

والمراد بالأس الشديد : القوة الشديدة التي تؤدي إلى القتل وإلحاق
الضرر بمن توجه إليه . أي : لقد أرسلنا رسلنا بالأدلة الدالة على صدقهم ،
وأنزلنا معهم ما يرشد الناس إلى صلاحهم ...

وأوجدنا الحديد ، وأنعمنا به عليكم ، ليكون قوة شديدة لكم في الدفاع
عن أنفسكم ، وفي تأديب أعدائكم ، وليكون كذلك مصدر منفعة لكم في
مصالحكم وفي شئون حياتكم ...

فن الحديد تكون السيوف وآلات الحرب ... ومنه - ومع ، غيره -
تكون القصور الفارهة ، والمباني العالية الواسعة ، والمصانع النافعة ...
وآلات الزراعة والتجارة ...

فالآية الكريمة تلفت أنظار الناس إلى سنة من سنن الله - تعالى - في
خلقه ، هذه السنة تتلخص في أن الله - تعالى - قد أرسل الرسل وزودهم
بالحدايات السماوية التي تهدي الناس إلى ما يسعدهم ... وزودهم - أيضاً -
بالقوة المادية التي تحمي الحق الذي جاءوا به وترد كيد الكافرين له في نحورهم ،
وترهب كل من يحاول الاعتداء عليه ، كما قال - تعالى - : « وأعدوا لهم
ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ، ترهبون به عدو الله وعدوكم » (٢) .

ورحم الله الإمام ابن كثير فقد قال عند تفسيره لهذه الآية : ما ملخصه :

(١) سورة الزمر الآية ٦ .

(٢) سورة الأنفال الآية ٦٠ .

أى : وجعلنا الحديد رادعا لمن أبى الحق ، وعانده بعد قيام الحجة عليه ، ولهذا أقام الرسول - صلى الله عليه وسلم - بمكة ثلاث عشرة سنة ، تنزل عليه السور المسكية ، لبيان أن دين الله حق ...

فلما قامت الحجة على من خالفه ، شرع الله القتال بعد الهجرة ، حماية للحق ، وأمرهم بضرب رقاب من عاند الحق وكذبه .

وقد روى الإمام أحمد عن ابن عمر قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بعثت بالسيف بين يدي الساعة حتى يعبد الله وحده لا شريك له ، فجعل رزقى تحت ظل رحى ، وجعلت الذلة والصغار على من خالف أمرى ، ومن تشبه بقوم فهو منهم .

ولهذا قال - تعالى - : « وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ، يعنى السلاح كالسيف والحرب ... »

« ومنافع للناس ، أى : فى معاشهم كالفأس والقادوم ... » وغير ذلك ، (١) .

هذا ، ومن المفسرين الذين فصلوا القول فى منافع الحديد وفى بيان لماذا خصه الله - تعالى - بالذكر : الإمام الفخر الرازى فقد قال - رحمه الله - ما ملخصه : ثم إن الحديد لما كانت الحاجة إليه شديدة ، جعله الله سهل الوجدان ، كثير الوجود ، والذهب لما كانت حاجة الناس إليه قليلة ، جعله الله - تعالى - عزيز الوجود ...

وبهذا تتجلى رحمة الله على عباده ، فإن كل شئ كانت حاجتهم إليه أكثر جعل الحصول عليه أيسر ...

فالهواء - وهو أعظم ما يحتاج الإنسان إليه - جعل الله - تعالى - الحصول عليه سهلا مبسورا ... فقلنا من ذلك أن كل شئ كانت الحاجة إليه أكثر ، كان وجدانه أسهل ...

ولما كانت الحاجة إلى رحمة الله - تعالى - أشد من الحاجة إلى كل شيء ،
فخرجوه من فضله أن يجعلها أسهل الأشياء . وجدانا كما قال الشاعر :

سبحان من خص العزيز بعزة والناس مستغنون عن أجناسه
وأذل أنفاس الهواء وكل ذي نفَسٍ ، فاحتاج إلى أنفاسه (١)

وقوله : - سبحانه - : « وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب . . . »
معطوف على محذوف يدل عليه السياق .

والمراد قوله : « وليعلم . . . » أي : وليظهر الله - تعالى - للناس ، حتى
يشاهدوا آثاره .

أي : وأنزل - سبحانه - الحديد لكي يستعملوه في الوجوه التي شرعها
الله ، وليظهر - سبحانه - أثر عمله حتى يشاهد الناس ، من الذي سيقبض الحق
منهم ، فينصر دين الله - تعالى - ، وينصر رسوله ، ويستعمل نعمه فيما خلقت له
حالة كونه لا يرى الله - تعالى - بعينه ، وإنما يتبع أمره ، ويؤمن بوحدايته
وجوده وعمله وقدرته . . . عن طريق ما أوحاه - سبحانه - إلى رسوله
- صلى الله عليه وسلم - .

فقوله : « بالغيب » ، حال من فاعل « ينصره » .

ثم ختم - سبحانه - الآية السكينة بقوله : « إن الله قوى عزيز ، أي : إن
الله - تعالى - هو المتصف بالقوة التي ليس بعدها قوة وبالعزة التي لا تقاربها عزة .
وختمت الآية بهذا الختام ، لأنه هو المناسب لإرسال الرسل ، وإزالة
الكتب والحديد الذي فيه بأس شديد ومنافع للناس .

فكان هذا الختام تعليل لما قبله . أي : لأن الله - تعالى - قوى في أخذه
عزيز في إتيانها فعل ما فعل من إرسال الرسل ، ومن إزاله الحديد .

وقوله - سبحانه - : « ولقد أرسلنا نوحا وإبراهيم وجعلنا في ذريتهما

النبوّة والكتاب ... ، معطوف على جملة : ، لقد أرسلنا رسلنا بالبينات ... ، عطف الخاص على العام .

أى : لقد أرسلنا رسلا كثيرين ... وبالله لقد أرسلنا نوحا وإبراهيم ، وجعلنا فى ذريتهما عددا من الأنبياء ، وأوحينا إليهم كتبنا ، التى هى الهدى أقوامهم إلى طريق الحق ، كالتوراة التى أنزلناها على موسى ، وكالزبور الذى أنزلناه على داود ...

وخص - سبحانه - نوحا وإبراهيم - عليهما السلام - بالذكر ، لشهرتهما ولأن جميع الأنبياء من نسلهما .

والضمير فى قوله - تعالى - : د ففهم مهتد وكثير منهم فاسقون ، أى : فن ذريتهم من إلهتدى إلى الدين الحق ، وآمن به ، وقام بأداء تكاليفه ، وكثير من أفراد هذه الذرية فاسقون . أى : خارجون عن الاهتداء إلى الحق ، منغمسون فى الكفر والضلال .

ثم ففينا على آثارهم برسلنا وقفينا بعيسى ابن مريم ، والتقفيه لإتباع الرسول برسول آخر . يقال : قفا فلان أثر فلان ... إذا اتبعه ، وقفى على أثره بفلان ، إذا أتبعه إياه ... وأصله من القفا وهو مؤخر العنق ، فمكان الذى يتبع أثر غيره قد أقامه من جهة قفاه .

وضمير الجمع فى قوله د على آثارهم ... يعود إلى نوح وإبراهيم وذريتهما الذين كانت فيهم النبوّة والكتاب ..

أى : ثم أرسلنا بعدهم رسولا بعد رسول ، حتى لإنهينا إلى عيسى - عليه السلام - الذى د آتيناه الإنجيل ، أى : أوحيناه إليه ليكون هداية لقومه .

قالوا : والإنجيل كلمة يونانية من النجل وهو الأصل ، يقال : رحم الله فاجليه ، أى : والديه . وقيل : الإنجيل مأخوذ من بجلت الشئ ، إذا إستخرجته وأظهرته . ويقال للماء الذى يخرج من البئر : نجل . وقيل هو من النجل الذى هو سعة العين . ومنه قولهم : طعنة نجله ، أى : واسعة .

وسمى الإنجيل بهذا الاسم ، لأنه سعة ونور وضياء ، أنزله الله - تعالى -
على نبيه عيسى ، ليكون بشارة وهداية لقومه (١)

وأعاد - سبحانه - مع عيسى - عليه السلام - كلمة « قفينا » للإشعار بأن
المصافة التي كانت بين عيسى - عليه السلام - وبين آخر رسول من بنى إسرائيل
كانت مسافة طويلة .

ثم بين - سبحانه - بعض السمات التي كانت واضحة في أتباع عيسى فقال :
« وجعلنا في قلوب الذين إتبعوه رأفة ورحمة ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها
عليهم إلا ابتغاء رضوان الله ... »

والرأفة : اللين وخفض الجناح . والرحمة : العطف والشفقة .

قالوا : وعطف الرحمة على الرأفة من باب عطف العام على الخاص ، لأن
الرأفة ، رحمة خاصة ، تتعلق بدفع الأذى والضرر ، أما الرحمة فهي أشمل وأعم ،
لأنها عطف وشفقة على كل من كان في حاجة إليها .

والرهبانية ، معناها الفعلية المنسوبة إلى الرهبان ، وهم النصارى المبالعون
في الرهينة والخوف من الله - تعالى - ، والزهد في متاع الحياة الدنيا .

قال بعض العلماء : والرهبانية : اسم للحالة التي يكون الراهب متصفا بها
في غالب شئون دينه . والياء فيها ياء النسبة إلى الراهب على غير قياس ، لأن
قياس النسب إلى الراهب : الراهبية . والذون فيها مزيدة للمبالغة في النسبة ،
كما زيدت في قولهم : شعرائي ، لكثير الشعر ، ولحيان لعظيم اللحية ... (٢)

وقوله - تعالى - « ورهبانية ابتدعوها ... » منصوب بفعل مضمر
يفسره الظاهر .

(١) راجع تفسير الفخر الرازي ج ٧ ص ١٧١

(٢) تفسير النجاشي والثعلبي ج ٢٧ ص ٤٢١ للشيخ محمد الطاهر ابن عاشور

أى : وإبتدعوا رهبانيه إبتدعوها ، فهو من باب الإشتغال .
 وبصح أن يكون معطوفا على قوله : رافة ورحمه ، وقوله : إبتدعوها ،
 فى موضع الصفه ، والكلام على حذف مضاف ، أى : وجعلنا فى قلوبهم رافة
 ورحمة وحب رهبانية مبتدعة لهم .

وجملة : ما كتبناها عليهم ، مستأنفه مبينة لجملة : إبتدعوها ،
 والإستثناء فى قوله : : إلا إبتغاء رضوان الله ، منقطع
 والضمير فى قوله : : فإرعوها يعود ل هؤلاء الذين إبتدعوا
 الرهبانية . . .

والمعنى : ثم أتبعنا كل رسول من ذرية نوح وإبراهيم برسول آخر ، حتى
 إتهينا إلى عيسى - عليه السلام - ، فأرسلناه إلى بنى إسرائيل وآتيناه الإنجيل
 وجعلنا فى قلوب الذين إتبعوه وآمنوا به ، رافة ، أى ليناً وخفض جناح
 ، ورحمة ، أى : شفقة وعطفا . وحب رهبانيه ، مبتدعة عنهم ، أى : هم
 الذين إبتدعوها واخترعوها واختاروها لأنفسهم ، زهدا فى متاع الحياة الدنيا
 ونحن ما كتبنا عليهم هذه الرهبانية . وإنما هم الذين إبتدعوها من أجل أن
 يرضى الله عنهم ، فإرعوها حق رعايتها ، أى : وليكنهم بمرور الأيام ، لم
 يحافظوا كثير منهم على ما تقتضيه هذه الرهبانية من زهد وتقى وعفاف . . . بل
 صارت طقوسا خالية من العبادة الصحيحة ، ولم يصبر على تكاليفها إلا عدد
 قليل منهم .

ولذا ختم - سبحانه - الآية الكريمه بقوله : : فآتيناهم الذين آمنوا منهم
 أجرهم ، وكثير منهم فاسقون . .

أى : أما الذى استمروا على اتباعهم لعيسى - عليه السلام - ، وعلى الإيمان
 بالحق إيماننا صحيحا خاليا عما يفسده . . فقد أعطيناهم أجورهم الطيبة كاملة
 غير منقوصة . .

وأما الذين بدلوا ماجا به عيسى - عليه السلام - ، حيث كفروا به وقالوا :
الله ثالث ثلاثة ، أو قالوا : المسيح ابن الله .. فسيلاقون ما يستحقونه من عقاب .
وقوله : « وكثير منهم فاسقون ، يدل على أن الذين خرجوا عن الدين
الحق الذي جاء به عيسى - عليه السلام - وفسقوا عن أمر ربهم ... أكثر من
الذين آمنوا به إيماناً صحيحاً .

قال الإمام ابن جرير : واختلف أهل التأويل في الذين لم يرعوا الرهبانية
حق رعايتها . فقال بعضهم : هم الذين ابتدعوها ، ولم يقوموا بها ، ولسكنهم
بدلوا وخالفوا دين الله الذي بعث به عيسى : فتنصروا وتمردوا .

وقال آخرون : بل هم قوم جاؤا من بعد الذين ابتدعوها فلم يرعوا حق
رعايتها ، لأنهم كانوا كفارا فهم الذين وصفهم الله بأنهم لم يرعوا
حق رعايتها .

وأولى الأقوال في ذلك بالصحة أن يقال : إن الذين وصفهم الله بأنهم
لم يرعوا الرهبانية حق رعايتها ، بهض الطوائف التي ابتدعتها ، وذلك لأن
الله - تعالى - قد أخبر أنه آتى الذين آمنوا منهم أجرهم . فدل ذلك على أن
منهم من قد رعاها حق رعايتها ...

وكثير منهم - أى : من الذين ابتدعوا الرهبانية - أهل معاصر ، وخروج
عن طاعة الله - تعالى - وعن الإيمان به ، (١) .

وقال الامام الألوسي ما ملخصه : وقوله - تعالى - « ما كتبناها عليهم ،
جملة مستأنفة ..

وقوله - سبحانه - : « إلا ابتغاء رضوان الله ، استثناء منقطع . أى :
ما فرضناها نحن عليهم رأساً ، ولكن ابتدعوها وألزموا بها أنفسهم ابتغاء
رضوان الله ..

وقوله - تعالى - : « فارعوها حق رعايتها ، أى : ما حافظوا عليها حق

المحافظة ، ذم لهم من حيث إن ذلك كالغدر ، وهو عهد مع الله - تعالى - يجب رعايته ، لا سيما إذا قصد به رضاه - عز وجل - ...

وجائز أن يكون الاستثناء متصلا من أعم العلل . أى : ما قضيناها عليهم لشيء من الأشياء ، إلا ليمتثلوا بها رضوان الله ويستحقوا بها الثواب ، ومن ضرورة ذلك أن يحافظوا عليها إلا أنهم لم يحافظوا عليها ، ولم يراعوها حق رعايتها .

والفرق بين الوجهين : أن الأول يقتضى أنهم لم يؤمروا بها أصلا . وأن الثانى يقتضى أنهم أمروا بها ، لا بتغاء رضوان الله ، فراعوها حق رعايتها . والظاهر أن الضمير فى قوله : فراعوها ، يعود لأولئك الذين ابتدعوا الرهبانية ، والمراد نفي وقوع الرعايه من جميعهم ، أى : فما رعاها كلهم بل بعضهم ... (١)

فآية الذكر به تنهى على الذين أحسنوا اتباع عيسى - عليه السلام - ، فطهروا أرواحهم من كل دنس ، وزهدوا فى متسع الحياة الدنيا وتذم الذين بدلوا ما جاء به عيسى - عليه السلام - وقالوا الأقوال الباطلة فى شأنه ، وفعلوا الأفعال القبيحة التى تفضب الله - تعالى - .

ثم ختم - سبحانه - السورة بالذكرى بهذا النداء للمؤمنين فقال - تعالى - :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرُسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كَفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ ، وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢٨) لئلا يعلم أهل الكتاب ألا يقدرون على شيء من فضل الله ، وأنَّ الفضل بيد الله يُؤْتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم (٢٩) » .

أى : يا من آمنتم بالله - تعالى - حق الإيمان ، اتقوا الله فى كل ما تأتون وما تدرؤن ، وداوموا على الإيمان برسوله - صلى الله عليه وسلم - ، واثبتوا على ذلك ...

« يؤتكم كفلين من رحمته ، أى : يعطكم بسبب ذلك نصيبين وضعفين من رحمته - سبحانه - وفضله .

وأصل الكفل - كما يقول القرطبي كساء يكتفل به الزاكب فيه حفظه من السقوط ... أى يؤتكم نصيبين يحفظانكم من هلكة المعاصى . كما يحفظ الكفل الزاكب من السقوط (١) ...

ويجعل لكم نورا تمشو به ، أى : يجعل لكم بفضله نورا تمشون به يوم القيامة ، كما قال - تعالى - : « يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم ... »

« ويفرر لكم ، أى : ما فرط منكم من ذنوب ، بأن يزيلها عنكم ...

« والله غفور رحيم ، أى : واسع المغفرة والرحمة لمن اتقاه وأطاعه .

فأنت ترى أن الله - تعالى - قد وعد المؤمنين على تقوam وعلى إيمانهم برسوله ، أن يؤتيهم نصيبين من رحمته .. وأن يجعل لهم نورا يمشون به ، فيهديهم إلى ما يسعدهم فى كل شئونهم . وأن يغفر لهم ما سبق من ذنوبهم ... فضلا منه وكرما .

قالوا : وأعطى الله - تعالى - للمؤمنين نصيبين من الأجر ، لأن أولها بسبب إيمانهم بالرسول - صلى الله عليه وسلم - .

وثانيهما : بسبب إيمانهم بالرسول السابقين ، كما أعطى مؤمى أهل الكتاب نصيبين من الأجر : أحدهما للإيمان بالرسول - صلى الله عليه وسلم - والثانى للإيمان - بعيسى - عليه السلام - الذى فسخت شريعته بالشرعة المحمدية .

وقوله - سبحانه - : « لئلا يعلم أهل الكتاب ألا يقدرون على شىء من

فضل الله ... ، رد على مزاعم أهل الكتاب أنهم شعب الله المختار ، وأنهم أفضل من الأمة الإسلامية . . .

قال الجمل ما ملخصه : لما سمع من لم يؤمن من أهل الكتاب قوله - تعالى -
 « أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا ... » ، قالوا للمسلمين : أما من
 آمن منا بكتابكم فله أجره مرتين لإيمانه بكتابنا وكتابكم ، ومن لم يؤمن منا
 بكتابكم فله أجر كأجركم ، فبأي شيء فضلتم علينا ؟ فأزل الله هذه الآية ...
 ود لا ، زائدة . واللام متعلقة بمحذوف ، وهو في الجملة الصليبية المتضادة
 لمعنى الشرط ، إذ التقدير : إن تتقوا وتؤمنوا برسوله ، يؤتكم الله من فضله
 كذا وكذا . وقد أعلمناكم بذلك - لكي يعلم أهل الكتاب عدم قدرتهم على
 شيء من فضل الله .

أي : أنهم لا ينالون شيئاً مما ذكر من فضله - كالكافرين من رحمته
 وكغفرة الذنوب - لأنهم لم يؤمنوا برسوله - صلى الله عليه وسلم ولم يخلصوا
 العبادة له - عز وجل - ... ، (١) .

وقوله - سبحانه - : « وأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله
 ذو الفضل العظيم » ، مما أكد لما قبله ، ومقرر له .

أي : ليعلم أهل الكتاب عدم قدرتهم على الظفر بشيء من فضل الله إلا
 إذا آمنوا بالله ورسوله ... وليعلموا - أيضاً - أن الفضل والعطاء بيد الله
 - تعالى - وحده ، يمنحه لمن يشاء ويختار من عباده ، وهو - سبحانه -
 صاحب الفضل الواسع العظيم .

وعلى هذا التفسير الذي سرفنا عليه يكون المقصود من الآيتين تحريض
 المؤمنين من هذه الأمة على الثبات على تقوى الله - تعالى - واتباع رسالة
 - صلى الله عليه وسلم - في كل ما جاء به ، وتبشيرهم بالعطاء الجزيل إذا
 ما فعلوا ذلك ...

والرد على المتفاجرين من أهل الكتاب ، الذين زعموا أنهم أبناء الله وأحباؤه ، وأنهم ليس أحد أفضل منهم ، وأن الأجر ثابت لهم سواء آمنوا بالرسول - صلى الله عليه وسلم - أم استمروا على كفرهم .

قال الإمام ابن كثير عند تفسيره هاتين الآيتين : لما افتخر أهل الكتاب بأنهم يؤتون أجرهم مرتين ، أنزل الله هذه الآية : يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله . . . ، في حق هذه الأمة . . .

وهي كقوله - تعالى - : يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانا ويكفر عنكم سيئاتكم ، ويغفر لكم ، والله ذو الفضل العظيم .

ومما يؤيد هذا القول . أى : أن هذه الآية في حق هذه الأمة - ، ما رواه الإمام أحمد عن ابن عمر قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : مثلكم ومثل اليهود والنصارى كمثل رجل استعمل عمالا فقال : من يعمل لى من صلاة الصبح إلى نصف النهار على قيراط قيراط ؟ ألا فعلت اليهود .

ثم قال : من يعمل لى من صلاة الظهر إلى صلاة العصر على قيراط قيراط ؟ ألا فعلت النصارى .

ثم قال : من يعمل لى من صلاة العصر إلى غروب الشمس على قيراطين قيراطين ؟ ألا فاتم الذين عملتم . ففضبت النصارى واليهود ، وقالوا : نحن أكثر عملا وأقل عطاء . قال : هل ظلمتكم من أجركم شيئا ؟ قالوا : لا . قال : فإنما هو فضلى أوتيه من أشاء ، (١) .

ويرى بعض المفسرين أن الخطاب لمن آمن من أهل الكتاب ، فيكون المعنى : يا من آمنتم بموسى وبعيسى وبمحمد - عليهم الصلاة والسلام - اتقوا الله وآمنوا برسوله - صلى الله عليه وسلم - وأنبتوا على ذلك ، يؤتكم الله - تعالى - كفلين من رحمته . . .

وليعلم الذين لم يؤمنوا من أهل الكتاب ، أنهم لن ينالوا شيئاً مما قاله
المؤمنون منهم ...

ومن المفسرين الذين ساروا على هذا التفسير الإمام ابن جرير ، فقد قال - رحمه الله - عند تفسيره لهذه الآية : يقول - تعالى ذكره - : يا أيها الذين صدقوا الله ورسوله من أهل الكتابين : التوراة والإنجيل ، خافوا الله ، وآمنوا برسوله محمد - صلى الله عليه وسلم - ، يؤتكم كفاً من رحمته ويجعل لكم نورا تمشون به ويفقر لكم

أي : يؤتكم أجرين لإيمانكم بعيسى وبعدهما - عليهما الصلاة والسلام - (١) .
ويبدو لنا أن الخطاب في هذه الآية المؤمنين من هذه الأمة ، على سبيل
الحض والتبشير ، وأن قوله - تعالى - بعد ذلك : « لئلا يعلم أهل الكتاب ألا يقدرون على شيء من فضل الله » واضح في ذلك ، وأن جعل الخطاب
لمؤمني أهل الكتاب لا دليل عليه ..

ولذا قال بعض المحققين : هذه الآية السكرية من سورة الحديد ، في
المؤمنين من هذه الأمة ، وأن سياقها واضح في ذلك ، وأن من زعم من أهل
العلم أنها في أهل الكتاب فقد غلط ، وأن ما وعد الله به المؤمنين من هذه
الأمة ، أعظم مما وعد به مؤمنى أهل الكتاب ... (٢) .

وبعد : فهذا تفسير لسورة الحديد ، نسأل الله - تعالى - أن يجعله خالصاً
لوجهه ، وذافاً لعباده . وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

فندق الشيراتون بالدوحة - قطر

كتبه الراجي عفوه به .

محمد سيد صنطاوي

صباح الخميس ٢٤ من رجب سنة ١٤٠٦ هـ

٣ من أبريل سنة ١٩٨٦ م

(١) راجع تفسير ابن جرير ٢٧ ص ٢٤٢ .

(٢) تفسير أضواء البيان ٧ ص ٨١٦ للشيخ محمد الأمين الشنقيطي .

تفسير سُورَةِ الْمُجَادَلَةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة وتمهيد

١ - سورة المجادلة ، - بفتح الدال وكسرها والثاني أظهر ، لأن إفتتاح السورة في المرأة التي جادلت النبي - صلى الله عليه وسلم - في شأن زوجها - . وهذه السورة : هي السورة الثامنة والخمسون في ترتيب المصحف ، أما ترتيبها في النزول فكان بعد سورة « المنافقون » ، وقبل سورة « التحريم » وعدد آياتها ثنتان وعشرون آية في المصحف السكوفي والبصري والشامي ، وإحدى وعشرون آية في المصحف المكي والمدني .

٢ - وهي من السور المدنية الخالصة ، ومن قال بأن فيها آيات مكية ، لم يأت به دليل يعتمد عليه في ذلك .

قال القرطبي : هذه السورة مدنية في قول الجميع . إلا رواية عن عطاء : أن العشر الأول منها مدني ، وباقيها مكي . وقال السكبي : نزل جميعها بالمدينة ، غير قوله - تعالى - : « ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم » ، نزلت بمكة ، (١) .

٣ - وقد افتتحت سورة المجادلة ، بالحديث عن المرأة التي جادلت النبي - صلى الله عليه وسلم - في شأن زوجها ، وقد أصدر - سبحانه - حكمه العادل في مسألتها ، مبينا حكم الظهار ، فقال - تعالى - : « والذين يظاهرون من نسائهم هم يبغون لما قالوا فتحرير رقبة من قبل أن يتماسا ، ذلكم توعظون به ، والله بما تعملون خبير . فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين من قبل أن يتماسا » ،

فن لم يستطع فإطعام ستين مسكينا ، ذلك لتؤمنوا بالله ورسوله ، وتلك حدود الله ، وللكافرين عذاب أليم .

٤ - ثم انتقلت السورة إلى الحديث عن الذين يحادون الله ورسوله ، فبينت سوء عاقبتهم ، لأن الله - تعالى - لا يخفى عليه شيء من أحوالهم ، فهو سبحانه ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ، ولا خمسة إلا هو سادسهم ، ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أين ما كانوا ، ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة ، إن الله بكل شيء عليم .

٥ - ثم وجه - سبحانه - ثلاث نداءات إلى المؤمنين ، أمرهم في أول نداء بأن يتناجوا بالبر والتقوى . . . وأمرهم في النداء الثاني أن يفسح بعضهم لبعض في المجالس . . . وأمرهم في النداء الثالث إذا ما ناجوا الرسول - صلى الله عليه وسلم - أن يقدموا بين يدي فجوام صدقة . . .

قال - تعالى - : « يا أيها الذين آمنوا إذا ناجيتم الرسول ، فقدموا بين يدي نجواكم صدقة ، ذلك خير لكم وأطهر ، فإن لم تجدوا ، فإن الله غفور رحيم » .
٦ - وبعد أن عجبت السورة الكريمة من أحوال المنافقين ، وبينت سوء هاقبتهم ، وكيف أن الشيطان قد استحوذ عليهم ، فأناسهم ذكر الله . . .

بعد كل ذلك ختمت السورة الكريمة ببيان حسن عاقبة المؤمنين الصادقين وبيان صفاتهم الكريمة ، فقال - عز وجل - : لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر ، يوادون من حاد الله ورسوله ، ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم ، أولئك كتب في قلوبهم الإيمان ، وأيدهم بروح منه ، ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ، رضى الله عنهم ورضوا عنه ، أولئك حزب الله ، ألا إن حزب الله هم المفلحون . .

٧ - هذا ، والمتأمل في سورة « المجادلة » ، يراها قد بينت حكم الظهار ، وأبطلت ما كان شائعا من أن الرجل إذا ظاهر من زوجته لا تحل له . . .
وساق جانباً من فضل الله - تعالى - على عباده ، حيث أجاب دعاء امرأة

قد اشتكت إليه ، وقضى في مسألتها قبل أن تقوم من مكانها ، وهي بجانب النبي - صلى الله عليه وسلم - تجادله في شأن زوجها ..

كما يراها قد كشفت القناع عن المنافقين ، وفصحتهم على أقوالهم الباطلة ، وأفعالهم الذميمة ، وموالاتهم لأعداء الله ورسوله ..

كما يراها قد ساقط ألوانا متعددة من الآداب التي يجب على المؤمنين أن يتحلوا بها ، وبشرتهم برضا الله - تعالى - عنهم ، متى أخلصوا له - سبحانه - العباداة والطاعة .

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ؟

د . محمد سيد طنطاوي

الدوحة - قطر

صباح الأحد : ٢٧ من رجب سنة ١٤٠٦ هـ عميد كلية الدراسات الإسلامية

والعربية

٦ / ٤ / ١٩٨٦ م

التفسير

قال الله - تعالى - : « قَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْكِي إِلَى اللهِ ، وَاللهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (١) الَّذِينَ يَظَاهَرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتُهُمْ ، إِنَّ أُمَّهَاتَهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ ، وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللهَ لَعَفُوفٌ غَفُورٌ (٢) وَالَّذِينَ يَظَاهَرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يُؤْذُونَ لَمَّا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَنَاسَّاءُ ذَلِكَمُتَّعُكُمْ تُوعِظُونَ بِهِ ، وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٣) فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَنَاسَّاءُ ، فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَإِطَامَةُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ، ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ، وَتِلْكَ حُدُودُ اللهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٤) » .

ذكر المفسرون في سبب نزول هذه الآيات روايات منها ما أخرجه الإمام أحمد عن يوسف بن عبد الله بن سلام ، عن خولة بنت ثعلبة قالت : في واقعه وفي - زوجي - أوس بن الصامت أنزل الله صدر سورة المجادلة .

قالت : كنت عندد ، وكان شيخا كبيرا قد ساء خلقه . قالت : فدخل على يوما فراجعتة بشيء فغضب ، فقال : أنت على كظهر أمي .

قالت : ثم خرج فجلس في نادى قومه ساعة ، ثم رجع ، فإذا هو يريدني عن نفسي . فقلت له : كلا والذي نفس خولة بيده لا تخلص إلى وقد قلت ما قلت ، حتى يحكم الله ورسوله فينا بحكمه ...

قالت : فواثقي، فامتنت عنه ، ففلبته بما تغلب به المرأة الشيخ الضعيف .
فألقيته عني .

ثم خرجت إلى بعض جاراتي ، فاستعرت منها ثيابا ، ثم خرجت حتى
جئت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فجلست بين يديه ، فذكر له - صلى الله
عليه وسلم - ما لقيت من زوجي ، وجملت أشكو إليه ما ألقى من
سوء خلقه .

قالت فجعل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول : يا خويلد ، ابن
عمك شيخ كبير فانقضي الله فيه . .

قالت : فوالله ما برحت حتى نزل في قرآن ، فتغشى رسول الله - صلى الله
عليه وسلم - ما كان يتغشاه ، ثم مرى عنه . فقال لي : يا خويلد قد أنزل الله
فيك وفي صاحبك قرآنا ، ثم قرأ على هذه الآيات ...

وفي رواية . أنها أتت النبي - صلى الله عليه وسلم - فقالت له : يا رسول
الله ، إن أوسا وزوجتي وأنا شابة مرغوب في ، فلما خلا سفي ، ونثرت
بطاني ، جعلني عليه كأمه ، وتركني إلى غير أحد ، فإن كنت تجد لي رخصة
يا رسول الله فخذني بها .

فقال - صلى الله عليه وسلم - : ما أمرت بشيء في شأنك حتى الآن ، وفي
رواية أنه قال لها : ما أراك إلا قد حرمت عليه . .

فقالت : يا رسول الله ، إنه ما ذكر طلاقا ، وأخذت تجادل النبي - صلى الله
عليه وسلم - . ثم قالت : اللهم إني أشكو إليك فاقتي ، وشدة حالي ، وإن لي
من زوجي أولادا صغارا ، إن ضممتهم إليه ضاعوا ، وإن ضممتهم
إلى جاءوا

قالت : وما برحت حتى نزل القرآن . فقال - صلى الله عليه وسلم - :

قبل نزول هذه الآية .

وقوله : « تجادلك » من المجادلة ، وهي المفاوضة على سبيل المنة والمنازعة . وأصلها من جدلت الحبل : إذا أحكمت فتله .

وقوله : « وتشتكى » من الشكو . وأصله فتح الشكوة - وهي سقاء ص يجعل فيه الماء - وإظهار مافيهها ، ثم شاع هذا الاستعمال في إظهار الإذ لما يؤلمه ويؤذيه ، وطلب إزالته .

والمعنى : قد سمع الله - تعالى - سماعاً تاماً ، قول هذه المرأة التي تجاد - أيها الرسول الكريم - في شأن ما دار بينها وبين زوجها ، وفيما صدر عنه في - من الظهار ، وسمع - سبحانه - شكواها إليه ، والناس بها منه - عز وجل - قضيتها ، وتفريج كربتها ، وإزالة ما نزل بها من مكروه ...

(١) راجع تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٣١٨ وتفسير ابن جرير ج ٢٨ ص

(٢) تفسير الكشاف ج ٤ ص ٧٠

وقال - سبحانه - : الذي تجادلك .. ، بأسلوب الإسم الموصول . للإشعار بأنها كانت في نهاية الجدال والشكوى ، وفي أقصى درجات التوكل على ربها ، والأمل في تفريج كربتها ، ورحمة بها وبزوجها وأبنائها .

وقوله - سبحانه - : : والله يسمع تحاوركما ، جملة حالية . والتحاور : مراجعة الكلام من الجانبين . يقال : حاور فلان فلانا في الكلام إذا راجعته فيما يقوله ...

أي : والحال أن الله - تعالى - يسمع ما يدور بينك - أي الرسول الكريم - وبين تلك المرأة ، من مراجعة في الكلام ، ومن أخذ ورد في شأن قضيتها .

والمقصود بذلك ، بيان الاعتناء بشأن هذا التحاور ، والتنويه بأهميته ، وأنه - تعالى - قد تمكرم وتفضل بإيجاد التمريع الحكيم لحل هذه القضية :

وعبر - سبحانه - بصيغة المضارع ، لزيادة التنويه بشأن ذلك التحاور ، واستحضار صورته في ذهن السامع ، ليزداد عظة واعتبارا .

وجملة : : إن الله سميع بصير ، تدبيل قصد به التعليل لما قبله بطريق التحقيق .

أي : أنه - سبحانه - يسمع كل المسموعات . ويبصر كل المبصرات ، على أتم وجه وأكمله ، ومن مقتضيات ذلك ، أن يسمع تحاوركما . ويبصر ما دار بينكما .

قال الفرطبي : أخرج ابن ماجه أن عائشة - رضى الله عنهما - قالت : تبارك الذي وسع سمعه كل شيء . إني لأسمع كلام خولة بنت ثعلبة ، ويخفى على بعضه ، وهي تشتكي زوجها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم - وهي تقول : يا رسول الله ! أكل شبابي ، ونثرت له بطني ، حتى إذا كبر سني .. مظهر مني ! اللهم إني أشكو إليك ..

وفي البخارى عن عائشة قالت : الحمد لله الذى وسع سمعه الأصوات ، لقد جاءت المجادلة تشكو إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ، وأنا فى ناحية البيت ما أسمع ما تقول ، فأنزله الله - تعالى - : ، قد سمع الله قوله الذى تجادلون فى زوجها .. (١)

ثم شرع - سبحانه - فى بيان شأن الظهار فى ذاته ، وفى بيان حكمه المترتب عليه شرعاً فقال : ، الذين يظاهرون منكم من نسائهم ما هن أمهاتهم ، إن أمهاتهم إلا اللاتى ولدنهم ... ،

وقوله : ، يظاهرون ، من الظهار ، وهو لغة مصدر ظاهر ، وهو مفاعلة من الظهر ...

قال الألوسى : والظهار يراد به معان مختلفة راجعة إلى الظاهر معنى ولفظاً باختلاف الأغراض . فيقال : ظاهر زيد عمراً ، أى : قابل ظهري بظاهري حقيقة ، وكذا إذا غايظه ... وظاهره إذا ناصره باعتبار أنه يقال : قوى ظهري إذا نصره ... ، (٢) .

والمراد به هنا : أن يقول الرجل لزوجته : أنت على كظن أمى ، قاصداً بذلك تحريم زوجته على نفسه . كتحريم أمه عليه .

وكان هذا القول من الرجل لا امرأته يؤدى إلى طلاقها منه بحيث لا نحل له حتى تنكح زوجاً غيره وقيل إلى طلاقها منه طلاقاً مؤبداً ، لا تحلل له بعده ..

وقيل . إن هذا القول لم يكن طلاقاً من كل وجه ، بل كانت الزوجة تبقى بعده معلقة ، فلا هى مطابقة ، ولا هى غير مطابقة ...

(١) تفسير القرطابى ج ١٧ ص ٢٧٠ .

(٢) تفسير الألوسى ج ٢٨ ص ٤٠٤ .

و من ، في قوله ، من نساءهم ، بيانية ، الإفادة أن هذا تشريع عام ، وليس خاصا بخولة بنت ثعلبة ، التي نزلت في شأنها هذه الآيات .

وجملة : ، ما هن أمهاتهم ، قائمة مقام الخبر ، ودالة عليه .

والمعنى : الذين يظاهرون منكم - أيها المؤمنون - من نساءهم ، بأن يقولوا لمن : أنتن علينا كظهر - أمهاتنا ، يخطئون فيما يقولون ، فإن زواجاتهم لسن بأمهاتهم ...

، إن : أمهاتهم إلا اللاتي ولدنهم ، أي : ليس أمهاتهم على سبيل الحقيقة والواقع إلا النساء اللاتي ولدنهم وأرضعنهم ، وقرن برعايتهم في مراحل الطفولة والصبا والشباب ...

ثم أكد - سبحانه - هذا المعنى بقوله : ، وإنهم ليقولون منكرا من القول وزورا ...

أي : وإن هؤلاء الرجال الذين يقولون لأزواجهم : أنتن علينا كظهور أمهاتنا في الحرمة ، لتيفوهن بما هو منكرا من القول ؛ في حكم الشرع وفي حكم العقل ، وفي حكم الطبع ، وفضلا عن كل ذلك فهو قول كاذب وباطل إذ لم يحرم الله - تعالى - الزوجة على زوجها . كما حرم عليه أمه ، فملاقة الأزواج بأمهاتهم ، تختلف باختلاف تاما عن علاقتهم بزواجاتهم ...

وإذا فالمقصود بهذه الجملة الكريمة : التوبيخ على هذا القول ، وهو قول الرجل لزوجته : أنت على كظهر أمي ، وذم من ينطق به ، لأنه يعرض مقام الأمهات - وهو مقام في أسمى درجات الاحترام والتبجيل - إلى تخيلات قبيحة تصاحب النطق بهذا الكلام .

وكعادة القرآن الكريم في قرن الترغيب بالترهيب ، حتى لا تياس النفوس من رحمة الله ، ختمت الآية الكريمة بما يدل على فضله - تعالى -

فقال : « وإن الله اعفو غفور ، أى : وإن الله - تعالى - لكثير العفو والمغفرة ، لمن تاب إليه - سبحانه - وأتاب ، وأقلع عن تلك الآقوال والأفعال التى يبتغىها - سبحانه - . »

ثم أخذت السورة الكريمة فى تفصيل حكم الظهار ، بعد بيان كونه منكراً من القول وزوراً ، فقال - تعالى - : « والذين يظاهرون من نساءهم ، ثم يعودون لما قالوا ، فتحرير رقبة من قبل أن يتماسا »

وقد اختلف العلماء فى معنى قوله - تعالى - : « ثم يعودون لما قالوا » . . .

فمنهم من يرى أن المراد منه ، ثم يرجعون عما قالوا ، قاصدين معاشره زوجاتهم ، أو قاصدين تحليل ما حرّمه الله أنفسهم بالنسبة لزوجاتهم بسبب الظهار .

ومنهم من يرى ، أن المراد بهذه الجملة : العوده إلى ما كانوا يقولونه فى الجاهلية ، بعد أن هداهم الله - تعالى - إلى الاسلام . فيكون المعنى : ثم يعودون إلى ما كانوا يقولونه فى الجاهلية من ألفاظ الظهار ، التى يبتغىها الله - تعالى - . .

وهذا القول يبدو عليه الضعف من جهة : جعله الفعل المضارع الدال على الحال والاستقبال وهو يظاهرون ، بمعنى الماضى المنقطع ، ومن جهة جعلهم أن المظاهر بعد الاسلام ، كان قد ظاهر فى الجاهلية ، مع أن هذا ليس بلازم ، إذ لم يثبت أن أوس بن الصامت ، كان قد ظاهر من زوجته فى الجاهلية ، وهذا الحكم إنما هو حق المظاهر فى الاسلام .

ومنهم من يرى أن المراد بهذه الجملة : تكرار لفظ الظهار ، فعنى ثم يعودون لما قالوا : ثم يعودون إلى تكرار لفظ الظهار مره أخرى .

وكان أصحاب هذا القول يرون ، أن الكفارة لا تكون إلا بتكرار

الفاظ الظهار ، وهو قول لا يؤيده دليل ، لأنه لم يثبت أن خولة - أو غيرها - كرر عليها زوجها لفظ الظهار أكثر من مرة ، بل الثابت أنه عندما قال لها : أنت على كظهر أمي ، ذهب إلى الرسول - صلى الله عليه وسلم - وقصت عليه ما جرى بينها وبين زوجها ...

وقد رجح الإمام ابن جرير الرأي الأول فقال : « والصواب من القول في ذلك عندي أن يقال : معنى اللام في قوله : « لما قالوا ، بمعنى إلى أو في ، لأن معنى الكلام : ثم يعودون لنقض ما قالوا من التحريم فيحللونه ، وأن قيل : ثم يعودون إلى تحليل ما حرموا ، أو في تحليل ما حرموا فصواب ، لأن كل ذلك عود له ، فتأويل الكلام : ثم يعودون لتحليل ما حرموا على أنفسهم مما أحله الله لهم » (١)

والمعنى : والذين يظاهرون منكم - أيها المؤمنون - من نسائهم ، ثم يتدمون على ما فعلوا ، ويريدون أن يعودوا عما فالوه ، وأن يرجعوا إلى معاشره زوجاتهم ...

فعليلهم في هذه الحالة إعتاق رقبة من قبل أن يتأسا ، أي : من قبل أن يستمتع أحدهما بالآخر ، أي يحرم عليهما الجماع ودواعية قبل التكفير .

والمراد بالرقبة : المملوك ، من تسمية الكل باسم الجزء .

واسم الإشارة في قوله - سبحانه - : « ذلكم توعدون به والله بما تعملون خبير » ، يعود إلى الحسم بالكفارة .

أي : ذلكم الذي شرعناه لكم - أيها المؤمنون - وهو الحسم بالكفارة ، إنما شرعناه من أجل أن تمتظوا به ، وتنزجروا عن النطق بالالفاظ التي تؤدي إلى الظهار ، والله - تعالى - خبير ومطلع على كل ما تقولونه من أقوال ، وما

تفعلونه من أفعال ، - وسيجاسبكم على ذلك حسابا دقيقا . . .

وما دام الأمر كذلك ، فافعلوا ما أمركم به . واجتنبوا ما نهاكم عنه .

ثم بين - سبحانه - جانباً من مظاهر يسره في أحكامه فقال : : فن لم يجد
فصيام شهرين متتابعين من قبل أن يتماسا

أى : فن لم يجد منكم - أيها المؤمنون - رقبة يعتقها ، أو يجد المال الذي
يشترى به الرقبة فيعتقها . . . فعليه في هذه الحالة ، أن يصوم شهرين متتابعين
من قبل أن يستمتع أحدهما بالآخر . . .

فن لم يستطع فإطعام ستين مسكينا ، أى : فن لم يستطع أن يصوم
شهرين متتابعين ، لسبب من الأسباب كمرض أو غيره فعليه في هذه الحالة أن
يطعم ستين مسكينا ، بأن يقدم لهم طعاما يكفى لغداهم وعشائهم بصورة
مشبعة .

واسم الإشارة في قوله : : ذلك لتؤمروا بالله ورسوله ، إشارة إلى ما سبق
الحديث عنه ، من تشريع يتعلق بالظاهر ومحله إما الرفع على الابتداء ،
أو النصب بمضمر محال بما بعد .

أى : ذلك واقع ، أو فعلنا ذلك ليزداد إيمانكم بالله ورسوله ، وعملكم
بشريعة الإسلام ، وتنفيذكم للتكاليف التي كلفكم الله - تعالى - بها .

وتلك حدود الله ولللكافرين عذاب أليم ، أى : وتلك الأحكام التي
ذكرناها لكم هي حدود الله - تعالى - التي لا يجوز تعديها ، فالزموها وقفوا
عندها ، ولللكافرين الذين يتعدونها ولا يقفون عندها ، عذاب شديد الألم
على من ينزل به .

هذا ، ومن الأحكام والآداب التي أخذها العلماء من هذه الآيات ما يأتي :

١ - أن الدعاء منى صدر عن لسان صادق ، وعن قلب عامر باليقين . . .
أجابه الله - تعالى - لصاحبه في الحال ، أو في الوقت الذي يريده - سبحانه - .
والدليل على ذلك أن السيدة خولة بنت ثعلبة ، عندما تضرعت إلى الله

- تعالى - بالدعاء ، أن يكشف كربها ، وأن يحل قضيتها ... أجاب - سبحانه - دعاءها ، وأنزل قرآنا يتلى ، وأحكما يعمل بها في شأن الظهار ...

ورضى الله عن السيدة عائشة فقد قالت : الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات ، لقد جاءت المجادلة تشكو إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ، وأنا في ناحية البيت ، ما أسمع ما تقول ، فأنزل الله - عز وجل - : قد سمع الله قول لى تجدالك في زوجها

وقال القرطبي : المرأة التى اشتكت هى خولة بنت ثعلبة ... وق - مر بها عمر بن الخطاب في خلافته ، والناس معه ، فاستوقفتها طويلا ووعظته وقالت : يا عمر قد كنت تدعى عميرا ، ثم قيل لك يا عمر ، ثم قيل لك يا أمير المؤمنين ، فائق الله يا عمر ، فإنه من أيقن بالموت خاف الموت ، ومن أيقن بالحساب خاف العذاب ...

فقيل له : يا أمير المؤمنين : أنقف هذا الوقوف لتلك المرأة العجوز ؟ فقال : والله لو حبستنى من أول النهار إلى آخره لازلت إلا للصلاة الممكوبة . أندرون من هذه ؟ إنها خولة بنت ثعلبة ، سمع الله قولها من فوق سبع سماوات ، أسمع رب العالمين قولها ولا يسمعه عمر^(١) .

٢ - أخذ العلماء من قوله - تعالى - : الذين يظاهرون منكم من نسائهم ... أنه ليس للنساء ظهار ، فلو ظاهرت امرأة من زوجها ، لم يلزمها شيء ... لأن الحل والعقد : والتحليل والتحریم في النكاح ، إنما هو بيد الرجل لا بيد المرأة ...

ويرى بعضهم أن عليها كفارة يمين ، ولا يحول قولها هذا بينها وبين زوجها من مجامعتها كما أخذ الأحناف والحنابلة والمالكية من هذه الآية ، أن الظهار خاص بالمسلمين ، لأنهم هم المخاطبون ، ولأن غيرهم من الذين ليسوا من أهل الكفارة ...

وقال الشافعية : كما يصح طلاق الذمي وتترتب عليه أحكامه ، يصح ظهار الذمي وتترتب عليه أحكامه ... كذلك أخذ العلماء من هذه الآية : صحة ظهار العبد من زوجته ، لأن أحكام النكاح في حقه ثابتة ، وإذا تعذر عليه العتق والإطعام ، فإنه قادر على الصوم ...

٣ - يؤخذ من قوله - تعالى - : « وإنهم ليقولون مشكرا من القول وزورا ... » ، أن الظهار حرام ، لأن الله - تعالى - قد وصفه بأنه مشكرا من القول ، وبأنه زور ...

والفعل الذي يوصف بهذا الوصف . يجب على المؤمن أن يتزهد عنه .

٤ - يرى الحنفية والظاهرية أنه يكفي في المكفارة بالنسبة للظهار تحرير رقبة حتى ولو كانت كافرة ، لأن الله - تعالى - يقول : « فتحرير رقبة » ، ولو كان الإيمان شرطاً لبينه كما بينه في كفارة القتل ، فوجب أن يطلق ما أطلقه ، وأن يقيد ما قيده ، ويعمل بكل منهما في موضعه .

وبرى جمهور الفقهاء لإشتراط الإيمان في الرقبة ، لأنه من المعروف حمل المطلق على المقيد إذا كان من جنسه ، وما دام قد ورد النص على كون الرقبة مؤمنة في بعض الآيات ، فيجب حمل بقية الآيات على ذلك .

٥ - دل قوله - تعالى - « من قبل أن يتماسا » على حرمة الجماع قبل التكفير ...

والحق بعضهم بالجماع دواعيه من التقبيل ونحوه ، لأن الأصل في الأحكام أنه إذا حرم شيء منها ، أن يلحق بذلك الشيء المحرم ما يوصل إليه . إذ طريق المحرم محرم .

ويرى بعضهم أن المحرم إنما هو الجماع فقط ، لأن حرمة الجماع ليست لمعنى يخل بالنكاح ، وعليه فلا يلزم من تحريم الجماع تحريم دواعيه ، فإن الخائض يحرم جماعها دون دواعيه ...

قال القرطبي : ولا يقرب المظاهر امرأته ولا يباشرها ، ولا يئلد منها

بشيء حتى يكفر ، خلافا للشافعي في أحد أقواله ... فإن وطئها قبل أن يكفر ، استغفر الله - تعالى - وأمسك عنها حتى يكفر كفارة واحدة .

وقال مجاهد وغيره : عليه كفارتان ... ، (١) .

٦ - قوله - تعالى - : « فصيام شهرين متتابعين » ، صريح في وجوب تتابع الصوم من غير انقطاع بين الأيام ، ولو أفطر يوما من الشهرين من غير عذر انقطع التتابع ، وازمه استئناف الصوم من جديد ...

أما الإفطار بعذر - كمرض ونحوه - ، فيرى بعضهم وجوب الاستئناف ، لزوال التتابع الذي صرحت به الآية ...

ويرى فريق آخر من العلماء ، إلى أن الإفطار بعذر لا يمنع انتتابع ..

٧ - أخذ العلماء من قوله - تعالى - : « فمن لم يستطع فإطعام ستين مسكينا » أن المطلوب من المظاهر أن يطعم هؤلاء المساكين إطعاما يشبعهم في الغداء والعشاء ، سواء أكان ذلك بالتعليك أم بالإباحة ، فأيهما وقع من المكفر أجزاء ، وسواء أطعمهم جملة أم متفرقين ...

وأوجب الشافعية تملك المساكين ... بأن يملك لكل مسكين مدا أو صاعا من غالب قوت البلد الذي يسكنه من عليه الكفارة .

أما حكم من عجز عن الكفارة ، فيرى جمهور العلماء أنها لا تسقط عنه ، بل تستقر في ذمته حتى يتمكن من أدائها ، كسائر الديون والحقوق ... فإنها لا تسقط ، وإنما تبقى في ذمة من عليه ، حتى يتمكن من أدائها .

قال القرطبي : وقد ذكر الله - تعالى - الكفارة هنا مرتبة ، فلا سبيل إلى الصيام إلا عند العجز عن الرقبة ، وكذلك لا سبيل إلى الإطعام إلا عند عدم الاستطاعة على الصيام ... ، (٢) .

(١) راجع تفسير القرطبي > ١٧ ص ٢٧٨ .

(٢) راجع تفسير القرطبي > ١٧ ص ٢٨٠ .

هذا ، ومن أراد التوسع في هذه الأحكام الفقهية ، فليبه بكتب الفروع
وبعض كتب التفسير (١) .

• • •

ثم بير - سبحانه - سوء عاقبة الذين يحاربون الله ورسوله ، ولا يدركون
أنه - سبحانه - معهم أينما كانوا ، ويعلم ما يتناجون به من إثم وعدوان
ومعصية للرسول - صلى الله عليه وسلم - ، فقال - تعالى - :

« إِنَّ الَّذِينَ يَحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كَذَّبُوا كَمَا كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ،
وَقَدْ أُنزِلْنَآ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ » (٥) يوم يبعثهم
الله جميعاً فنبئهم بما عملوا ، أحصاء الله ونسوه ، والله على كل شيء
شهِيدٌ (٦) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ، مَا يَكُونُ
مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ ، وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ ،
وَلَا آدَنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرُ إِلَّا هُوَ معهم أينما كانوا ، ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ
بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٧) أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ
نُهِوا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يُعَادُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ ، وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ
وَمَعَصِيَةِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ ، وَيَتَوَلَّوْنَ
فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ ، حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْطَلُونَهَا
فَبئسَ المصير » (٨) .

وقوله - سبحانه - : « يحادون » ، من المحادة بمعنى المعادة والمباغضة . وأصلها
أن تكون أنت في حد - أى : في جانب - ، وعدوك في حد آخر . فكفى بها
عن المعادة لأنها لازمة لها .

وقوله : « كبتوا » من السكبت بمعنى الخزي والذل . يقال : كبت الله العدو كبتا - من باب ضرب - إذا أهانه وأذله وأخزاه .

قال الجمل : والذين يحادون الله هم الكافرون ، وهذه الآية وردت في فزوة الأحزاب

والمقصود منها البشارة لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - والمؤمنين ، بأن أعداءهم المتحزبين القادمين عليهم ، سيصيبهم السكبت والذل ، وسيتفرق جمعهم (١) .

والمعنى : إن الذين يحاربون دين الإسلام ، الذي شرعه الله - تعالى - ، وجاء به رسوله - صلى الله عليه وسلم - « كبتوا » ، وأصابهم الخزي والذل ، كما كبت الذين من قبلهم ، من أعداء الحق .

وأثرهنا الفعل « يحادون » ، لوقوعه عقب الكلام عن حدود الله - تعالى - في قوله - عز وجل - « وتلك حدود الله للكافرين عذاب ألیم » .

وقوله - تعالى - : « كبتوا » ، بمعنى سيكبتون ، وعبر عن ذلك بالماضي ، للإشعار بتحقيق الذل والخسران ، لأولئك المتحزبين الذين جمعوا جمعهم لمحاربة الله ورسوله

وقد حقق الله - تعالى - وعده ، إذ ردم بغيظهم دون أن ينالوا خيرا ... وجملة : « وقد أنزلنا آيات بينات ... » ، حال من الضمير في « كبتوا » . أي : كبتوا وجملة : « وقد أنزلنا آيات بينات ... » ، حال من الضمير في « كبتوا » . أي : كبتوا . لمحادثهم للحق ، والحال أنا قد أنزلنا آيات واضحات ، تدل على صدق الرسول - صلى الله عليه وسلم - فيما جاء به من عنده ، وتشهد بأن أعداءه على الباطل والضلال .

« وللكافرين » الذين أعرضوا عن دعوة الرسول - صلى الله عليه وسلم - وحاربوها ، عذاب مهين ، أي : عذاب يهينهم ويذلهم ويخزيهم ،

وقوله - تعالى - : « يوم يبعثهم الله جميعا » ، يصح أن يكون متعلقا بقوله : « مهين » ، كما يصح أن يكون منصوبا بفعل مقدر ...

أى : اذكر - أيها العاقل - لتتعضد وتعتبر ، يوم يبعث الله - تعالى - هؤلاء الكافرين جميعا من قبورهم ، فينبئهم ويخبرهم بما عملوا من أعمال سيئة .. والمراد بالإنباء فى قوله : « فينبئهم بما عملوا » : المجازاة والمحاسبة وإنزال حكمه بهم .

وجملة : « أحصاه الله » ، مستأنفة ، لأنها بمنزلة الجواب عما قبلها . فكان سائلا سأل وقال : كيف يذنبهم الله بأعمالهم ؟ فكان الجواب : أحصى الله - تعالى - عليهم عملهم ، وسجله عليهم تسجيلا تاما .

وجملة « ونسوه » ، حال من مفعول « أحصى » ، أى : والحال أنهم قد نسوا ما عملوه ، لتهاونهم به حين أقر فوه ، ولا اعتقادهم بأنهم لن يسألوا عنه يوم القيامة ، فهم قد أنكروا البعث والحساب والثواب والعقاب .

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بقوله : « والله على كل شىء شهيد » ، أى : والله - تعالى - شاهد لكل شىء فى هذا الكون ، ولا تخفى عليه خافية من أحوال خلقه .

وشبه بهذه الآية قوله - تعالى - : « ورضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين عما فيه » ، ويقولون يا ويلتنا مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضرا ولا يظلم ربك أحدا » (١) .

ثم أقام - سبحانه - الأدلة على شمول علمه فقال : « ألم تر أن الله يعلم ما فى السموات وما فى الأرض » ، ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعم

والاستفهام في قوله : « ألم تر .. » ، للتقرير ، والرؤية بمعنى العلم والإدراك القلبي .. والخطاب لسكل من هو أهل له ...

والنجوى : اسم مصدر بمعنى المسارة ، يقال : نجوته نجوا ونجوى وناجيته مناجاة ، أى : ساررته بكلام على انفراد . وأصله : أن تخلو بمن تناجيه بسر عين في نجوة من الأرض ، أى : في مكان مرتفع متفصل عما حوله ...
وقيل : أصله من النجاة ، لأن الإسرار بالشيء فيه معاونة على النجاة .

وتطلق النجوى على القوم المتناجين ، كما في الآية التي معنا .

قال الألوسي : وقوله - تعالى - : « ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابهم .. » استثناء مقرر لما قبله من سعة علمه - تعالى - ، « و يكون ، من كان التامة . و « من ، مزيدة . و « نجوى » فاعل ، وإضافتها إلى ثلاثة من إضافة المصدر إلى فاعله .. والاستثناء في قوله - إلا هو رابهم ، مفرغ من أم الأحوال ... ، (١) .

والمعنى : لقد علمت - أيها العاقل - علما لا يخاطله شك أو تردد ، أن الله - تعالى - يعلم علما تاما ، ما في السموات وما في الأرض من كائنات مختلفة الأجناس والأنواع ... وأنه - سبحانه - ما يقع من تناجي ثلاثة فيما بينهم إلا وهو تعالى - يعلمه ، كأنه حاضر معهم ، ومشاهد لهم ، كما يعلمه الرابع حين يكون معهم في التناجي .

« ولا خمسة إلا هو سادسهم » ، أى : ولا يكون التناجي بين خمسة إلا وهو - سبحانه - معهم ، يعلم ما يتناجون به كما يعلم ذلك سادسهم فيما لو كان تناجي بين ستة .

وقوله - تعالى - ، ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا ،
بيان لشمول عليه لجميع الأحداث .

أى : ولا يقع التناجى بين ما هو أقل من ذلك العدد أو أكثر - كالإثنين
والسنة - إلا وهو - سبحانه - يعلم علماً تاماً ما يجرى بينهم فى أى مكان كانوا ،
وعلى أية حالة وجدوا ...

ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة ، أى : ثم يخبرهم - سبحانه - يوم القيامة
بما عملوه فى الدنيا من أعمال كبيرة أو صغيرة ، ويجازيهم عليها بما يستحقونه
من ثواب أو عقاب .

، إن الله بكل شئ عليم ، فهو - سبحانه - لا يخفى عليه شئ . فى الأرض
ولا فى السماء .

والمقصود بهذه الآية السكرية ، بيان شمول علم الله - تعالى - لكل شئ ،
وأنه - سبحانه - يحصى على الناس أعمالهم لإحصاء الحاضر معهم ، المشاهد لهم ،
الذى لا يعزب عنه شئ من حركاتهم أو سكناتهم ، ولذا افتتح - سبحانه -
الآية بالعلم ، واختتمها بالعلم - أيضاً - .

قال الإمام الرازى ما لم يخصه : ذكر - سبحانه - الثلاثة والخمسة لوجوه :
أحدها : أن هذا إشارة إلى كمال رحمته ، وذلك لأن الثلاثة إذا اجتمعوا ، فإذا
أخذ اثنان فى التناجى والمشاوره بقى الواحد ضائعاً وحيداً ، فيضيق قلبه
فيقول الله - تعالى - له : أنا جليسك وأنتىسك .

وثانيها : أن العدد الفرد أشرف من الزوج ، لأن الله وتر يحب الوتر ،
فخص الأعداد الفردية بالذكر للتنبيه على شرفها ...

وثالثها : أن الآية نزلت فى قوم من المنافقين ، اجتمعوا على التناجى
مقايضة للؤمنين ، وكانوا على هذين العددين : - أى كانوا فى مرة ثلاثة وفى
مرة أخرى خمسة - فنزلت الآية السكرية بيانا للواقع ... (١) .

ويبدو لنا أن ذكر العدد وإنما هو من باب التمثيل، وأن المقصود الأصلي من الآية الكريمة، بيان أن علم الله - تعالى - يشمل كل كبير وصغير، وكثير وقليل، ولذا قال - سبحانه - : « ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا ... »

قال القرطبي : قال الفراء : المعنى غير مصمود ، والعدد غير مقصود ، لأنه - تعالى - إنما قصد - وهو أعلم - أنه مع كل عدد قل أو كثر ، يعلم ما يقولون صراً وجهراً ، ولا تخفى عليه خافية ، فمن أجل ذلك لاكتفى بذكر بعض العدد ، دون بعض ... (١)

ثم عجب الله - تعالى - نبيه - صلى الله عليه وسلم - من حال قوم يؤثرون - الغى على الرشيد ، وينصحون فلا يستجيبون للنصحية ، وينهون عن الشرور فيأبون إلا الانغماس فيها ، فقال - تعالى - : « ألم تر إلى الذين نهوا عن النجوى ، ثم يعودون لما نهوا عنه ، ويتناجون بالإثم والعدوان ومصية الرسول ... »

قال الألوسي : قال ابن عباس : نزلت في اليهود والمنافقين ، كانوا يتناجون دون المؤمنين ، وينظرون لإيهم ويتغامزون بأعينهم عليهم ، يوهمونهم عند أقاربهم أنهم أصابهم شر .. فلما كثر ذلك منهم ، شكوا المؤمنون إلى الرسول - صلى الله عليه وسلم - ، فنهاهم عن التناجى دون المؤمنين ، فعاد والمثل فعلهم

والخطاب الرسول - صلى الله عليه وسلم - ، والهمزة للتعجب من حالهم وصيغة المضارع للدلالة على تكرار فعلهم ونجده ، واستحضار صورته الغريبة (٢)

والمعنى : إن شئت أن تعجب - أيها الرسول الكريم - فاعجب من حال

(١) تفسير القرطبي ج ١٧ ص ٢٩٠

(٢) تفسير الألوسي ج ٢٨ ص ٢٥

هؤلاء اليهود والمنافقين الذين نهيتهم أنت عن التناجى فيما بينهم ، بما يقلق المؤمنين وبغيظهم ولكم لم يستجيبوا لنصحتك ونهيك ، بل استمروا على تناجيتهم بما هو إثم وعدوان ومعصية لك ، ولما جئتهم به من عند الله - تعالى .

وعبر بقوله - تعالى - : : ثم يعودون لما نهوا عنه ، للاشعار بأنهم قوم لا تؤثر فيهم النصائح وإتمامهم يستمعون إليها ، ثم يهجرون العمل بها ، ويعودون إلى فجورهم وفسقهم .

ووصف تناجيتهم بأنه كان مشتملا على الآثم والعدوان ومعصية الرسول لا على الإثم فقط أو على العدوان فقط . . . لبيان أن تناجيتهم مشتمل على كل أنواع السوء والفحشاء . فهم يتناجون بكلام هو إثم وشر في ذاته ، وبأقوال مشتملة على ظلم المؤمنين والاعتداء على دينهم وعلى أعراضهم ، وبأفعال هي معصية الرسول - صلى الله عليه وسلم - ، لأنهم لم يستجيبوا لنهيهم عن المناجاة بما يؤذى المؤمنين ويحزنهم . . . بل استمروا في طغيانهم يعمهون .

والباء في قوله : : بالآثم . . . لللابسة . أى يتناجون متلبسين بالآثم وبالعدوان ومعصية الرسول - صلى الله عليه وسلم - .

ثم بين - سبحانه - أن هؤلاء المنافقين ومن لف لفهم من اليهود ، لم يكتفوا بتلك المناجاة القبيحة التي كانوا يرونها فيما بينهم ، لإغالة المؤمنين . بل أضافوا إلى ذلك النطق أمام الرسول - صلى الله عليه وسلم - بالكلام السيئ وبالعبارات التي تدل على سوء طويتهم ، فقال - تعالى - : : وإذا جاءوك حيوك بما لم يحبك به الله

أى : وإذا جاء هؤلاء المنافقون واليهود إلى مجلسك - أيها الرسول الكريم - ألقوا إليك بتمحية ، هذه التهمة لم يأذن بها الله - تعالى - ، ولم يخاطبك بها .

وقد كان المنافقون عندما يدخلون على الرسول - صلى الله عليه وسلم - لا يقولون له كلمة : « السلام عليكم » - وهي تحية الإسلام ، إنما يقولون له : « أنعم صباحا أو مساء ... متجنبين النطق بتحيةة الإسلام . ومستعملين تحية الجاهلية .

روى الشيخان عن عائشة : أن ناسا من اليهود ، دخلوا على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقالوا : السام أى : الموت عليك يا أبا القاسم . فقال - صلى الله عليه وسلم - : « وعليكم » .

قالت عائشة : قلت عليكم السام ولعنكم الله وغضب عليكم .

فقال - صلى الله عليه وسلم - يا عائشة إن الله لا يحب الفاحش والمتفحش .

فقلت : ألا نسمعهم يقولون : السام ؟ فقال - صلى الله عليه وسلم - : « أو سمعت قولى : عليكم » ، فأمر الله - تعالى - وإذا جاءوك حيوك بما لم يحيك به الله ، (١) .

ثم بين - سبحانه - رذيلة أخرى من رذائلهم المتعددة فقال : « ويقولون فى أنفسهم لولا يعذبنا الله بما نقول ... »

والمراد بأنفسهم هنا : أى فيما بينهم وفى مجامعهم ، أو فيما بينهم وبين أنفسهم أى إذا جارك هؤلاء المنافقون ومن على شاكلتهم فى الضلال ، فعلقوا أمامك بتحية لم يحيك بها الله - تعالى - ولا يكتبون بذلك ، بل يقولون فيما بينهم على سبيل التباهى والجحود للحق : لولا يعذبنا الله بما نقول ، أى : هلا يعذبنا الله بسبب ما قلناه ، لو كان محمدا - صلى الله عليه وسلم - من عنده - تعالى - أى : أنهم يشكرون نبرته - صلى الله عليه وسلم - لأنها - فى زعمهم لو كانت حقا ، لعذبهم الله - تعالى - بسبب إساءتهم إليه ، ولمعاضهم عن نية لهم :

وقد رد الله - تعالى - عليهم بما يكذبهم ، وبما يسلى نبيه - صلى الله عليه وسلم - فقال : « حسبهم جهنم يصلونها فبئس المصير » .

أى : لا نحزن - أيها الرسول الكريم - لمسالك هؤلاء المنافقين معك ومع أصحابك ، فإن هؤلاء المنافقين ومن لف لفهم ، كافهم من العذاب جهنم ، يصلونها ويقاسون حرها ، فبئس المصير جهنم لو كانوا يعلمون .

* * *

وبعد أن فضح الله - تعالى - المنافقين ومن على شاكلتهم فى الكفر والضلال ، وبين سوء عاقبتهم بسبب مسالكهم الخبيثة ... بعد كل ذلك وجه الله - تعالى - ثلاث نداءات إلى المؤمنين ، أدهم فيها بأدبه السامى ... فقال - تعالى - :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَنْصِيَّةِ الرَّسُولِ وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَى ، وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِى إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٩) إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزَنَ الَّذِينَ آمَنُوا ، وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ، وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١٠) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ ، وَإِذَا قِيلَ انشُرُوا فَانْشُرُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ ، وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ، وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١١) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةٌ ، ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ ، فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٢) أَلْأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ ، فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ

عَلَيْكُمْ فَأَقِمْوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ، وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ، وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٣) .

فَقُولْهُ - تَعَالَى - : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ ... ، تَعْلِيمٌ وَإِرْشَادٌ مِنْهُ - سُبْحَانَهُ - لِلْمُؤْمِنِينَ ، لِكَيْ يَكُونَ حَدِيثُهُمْ فِيمَا بَيْنَهُمْ ، يَقُومُ عَلَى الْخَيْرِ لَا عَلَى الشَّرِّ ، وَعَلَى الطَّاعَةِ لَا عَلَى الْمَعْصِيَةِ ، وَعَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى لَا عَلَى الْإِنِّمِ وَالْعُدْوَانِ ، حَتَّى لَا يَتَشَبَّهُوا بِالْمُنَافِقِينَ ، الَّذِينَ كَانُوا عَلَى النِّقِيزِ مِنْ ذَلِكَ .

أى : يامن آمنتم باقه - تعالى - حق الإيمان ، « إذا تناجيتهم ، بأن أسر بعضكم إلى بعض حديثا » فلا تتناجوا بالإثم والعدوان ومعصية الرسول ، كما هو شأن المنافقين ومن على شان كلانهم فى الكفر والضلال .

ولما تناجوا ، فيما بينكم ، بالبر والتقوى ، والبر ضد الإثم والعدوان ، وهو يعم جميع أفعال الخير التي أمر الله - تعالى - بها .

والتقوى : الامتناع لأمر الله - تعالى - ، وصيانة النفس عن كل
مألأرضاء .

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بقوله : « وراقبوا الله الذي إليه تحشرون ، أئى : وراقبوا الله - تعالى - فى كل أحوالكم ، فإنَّه وحده يكون مرجعكم يوم القيامة ، وسيبقيكم وجميعكم للحساب والجزاء ... »

والمراد بالنجوى فى قوله - تعالى - بعد ذلك : «لنما النجوى من الشيطان
ليحزن الذين آمنوا ...» : نجوى المنافقين فيما بينهم ، وهى التى عبر عنها
- سبحانه - قبل ذلك بقوله : «ويتناجون بالإثم والعدوان ومعصية
المرسول» .

فأل في قوله - تعالى - : النجوى ، للممد . أى : إنما النجوى الممودة

التي كان يتناجى المنافقون بها فيما بينهم ، كائنة من الشيطان لا من غيره ،
لأنه هو الذي حرضهم وأغراهم ، بأن يتساروا بالإثم والعدوان ...

وقوله : « لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا ، قرأ الجمهور : « ليحزن » - بفتح الياء
وضم الزاي - مضارع حزن ، فيسكون ، الذين آمنوا ، فاعل . والحزن :
الهم والغم .

أي : زين الشيطان للمنافقين هذه النجوى السيئة ، لكي يحزن المؤمنون
ويغتموا ، بسبب ظنهم أن من وراء هذه النجوى أخبارا سيئة تتعلق بهم
أو بدوهم ...

وقرأ نافع « لِيَحْزِنَ » - بضم الياء وكسر الزاي - ، فيسكون ، الذين آمنوا ،
مفعولا . أي : فعل ما فعل الشيطان مع المنافقين ، لكي يدخل الحزن والغم
على المؤمنين .

وأسند - سبحانه - النجوى إلى الشيطان ، باعتبار أنه هو الذي يوسوس
بها ، ويزينها في قلوب هؤلاء المنافقين وأشباههم .
وجهة : « وليس بضارهم شيئا إلا بإذن الله ... » معترضة لتثبيت
المؤمنين ، وتسليتهم عما أصابهم من المنافقين .

واسم ليس : الشيطان أو التناجى ، والاستثناء مفرغ من أعم الأحوال ،
و « شيئا » منصوب على المفعول المطلق .

أي : لا تحزنوا - أيها المؤمنون - لمسالك المنافقين معكم ، ولا تخافوا
من تناجيمهم فيما بينهم ، فإنها نجوى زينها لهم الشيطان ، واعلموا أن كيد
الشيطان لن يضركم شيئا من الضرر في حال من الأحوال إلا في حال إرادة
الله - تعالى - ومشيئته ...

ومادام الأمر كما بينت لكم ، فاجعلوا توكلكم - أيها المؤمنون - على الله

- تعالى - وحده ، ولا تبالوا بالمنافقين ، ولا بتناجيهم ، ولا بما يسوله الشيطان لهم من قبائح ، إن كل شيء بقضاء الله وقدره .

قال الألوسي ما ملخصه : وحاصل هذا الكلام أن ما يتناجى المنافقون به مما يحزن المؤمنين ، إن وقع فهو إرادة الله - تعالى - ومشيئته ، ولا دخل للمنافقين فيه ، ومادام الأمر كذلك ، فلا يكثر المؤمنون بتناجيهم ، وليتوكلوا على الله - عز وجل - . ولا يخافوا من تناجيهم ...

ثم لم التناجى بين المؤمنين قد يكون منهيًا عنه ، فقد أخرج الشيخان وغيرهما عن ابن مسعود أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : « إذا كنتم ثلاثة ، فلا يتناجى اثنان دون الآخر ، حتى تختلطوا بالناس ، من أجل أن ذلك يحزنه ، »

ومثل التناجى في ذلك ، أن يتكلم اثنان بحضور ثالث بلغة لا يفهما الثالث ، إن كان يحزنه ذلك ، (١) .

وروى الإمام مسلم عن ابن عمر قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون الثالث إلا بإذنه ، فإن ذلك يحزنه ، » (٢) .

والخلاصة أن تعاليم الإسلام ، تنهى عن التناجى في الحالات التي توقع الريبة في القلوب ، وتزعزع الثقة بين الأفراد والجماعات ...

وهذا النهى لون من الأدب الحكيم ، الذي يحفظ للمؤمنين مودتهم ، ومحبتهم ويبعد عن نفوسهم الشكوك والريب ، ويطاردهم عن قلوبهم نزغات الشيطان . « الذي يجري من ابن آدم مجرى الدم ، »

ثم لفت - سبحانه - أظار المؤمنين إلى أدب رفيع آخر فقال : « يا أيها الذين

(١) تفسير الألوسي > ٢٨ ص ٢٧ .

(٢) تفسير ابن كثير > ٤ ص ٢٢٢ .

آمنوا إذا قيل لكم تفسحوا في المجالس فافسحوا يفسح الله لكم ...

وقد ذكر المفسرون في سبب نزول هذه الآية روايات منها : ما روى عن قتادة أنه قال : نزلت هذه الآية في مجالس الذكر ، وذلك أنهم كانوا إذا رأوا أحدا منهم مقبلا ، ضفوا بمجالسهم عند رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فأمرهم الله أن يفسح بعضهم لبعض .

وقال مقاتل بن حيان : أنزلت هذه الآية يوم الجمعة . وكان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يومئذ في الصفه ، وفي المكان ضيق . وكان يكرم أهل بدر من المهاجرين والأنصار . فجاء ناس من أهل بدر وقد سبقوا إلى المجالس فقاموا حيال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقالوا : السلام عليكم أيها النبي ورحمة الله وبركاته ، فرد النبي - صلى الله عليه وسلم - عليهم . ثم سلموا على القوم بعد ذلك ، فردوا عليهم السلام ، فقاموا على أرجلهم فيفتظرون أن يوسع لهم .

فعرف النبي - صلى الله عليه وسلم - ما يحملهم على القيام . فلم يفسح لهم فشق ذلك عليه ، فقال لمن حوله من المهاجرين والأنصار من غير أهل بدر : قم يا فلان ، قم يا فلان ...

فشق ذلك على من أقیم من مجلسه ، وعرف - صلى الله عليه وسلم - الكراهة في وجوههم .

فقال المنافقون : أستم تزعمون أن صاحبكم هذا يعدل بين الناس ؟ والله ما رأينا له قد عدل على هؤلاء ... فبلغنا أن رسول - صلى الله عليه وسلم - قال : رحم الله رجلا يفسح لأخيه . فجعلوا يقومون بعد ذلك سراعا ، ونزلت هذه الآية ... (١)

وقوله : تفسحوا ، من التفسح ، وهو تفعل بمعنى التوسع . يقال فسح فلان لفلان في المجلس - من باب نفع - إذا أوجد له فسحة في المكان ليجلس فيه .

والمعنى : يا من آمنتم بالله حق الإيمان ، إذا قيل لكم توسعوا في مجالسكم لتسع أكبر قدر من إخوانكم فامتثلوا واستجيبوا ، لأن فعلكم هذا يؤدي إلى أن يفسح الله - تعالى - لكم في رحمته ، وفي منازلكم في الجنة ، وفي كل شيء تحبونه .

وحذف - سبحانه - متعلق بفسح الله لكم ، ليشمل كل ما يرجو الناس أن يفسح الله لهم فيه ، من رزق ، ورحمة ، وخير دنيوي وآخرى . والمراد بالمجالس : مجالس الخير ، كمجالس الذكر ، والجهاد . والصلاة ، وطلب العلم ، وغير ذلك من المجالس التي يحبها الله - تعالى - .

وقراءة الجمهور : : إذا قيل لكم تفسحوا في المجلس ، بالإفراد على إرادة الجفس ... أى : قيل لكم تفسحوا في أى مجلس خير فافسحوا ... لأن هذا التوسع يؤدي إلى ازدياد المحبة والمودة بينكم . وقرأ عاصم بصيغة الجمع .

ثم أرشدنا - سبحانه - إلى نوع آخر من الأدب السامى فقال : : وإذا قيل انشروا فانشروا

والنشور الارتفاع عن الأرض . يقال : نشر ينشِر وينشُر - من بابي نصر وضرب - إذا ارتفع من مكانه ،

أى : وإذا قيل لكم - أيها المؤمنون - انهضوا من أماكنكم ، للتوسعة على المقبلين عليكم ، فانهضوا ولا تنكسوا .

وقوله : ويرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات ، جواب الأمر في قوله : : فانشروا

وعطف الذين أرتوا العلم على الذين آمنوا من باب عطف الخاص على العام ، على سبيل التعظيم والتنويه بقدر العلماء .

أى : وإذا قبل لكم ارتفعوا عن مواضعكم في المجالس فارتفعوا ، فإنكم إن تفعلوا ذلك ، يرفع الله - تعالى - المؤمنين الصادقين منكم درجات عظيمة في الآخرة ، ويرفع العلماء منكم درجات أعظم وأكبر .

ويرى بعضهم أن المراد بالموصولين واحد ، والعطف في الآية لتنزيل التغاير في الصفات ، منزلة التغاير في الذات .

والمعنى : يرفع الله الذين آمنوا العالمين درجات عظيمة لا يعلم مقدارها إلا الله - تعالى - .

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بما يدل على شمول علمه فقال : . والله بما تعملون خبير . .

أى : والله - تعالى - مطلع اطلاعا تاما على نواياكم ، وعلى ظواهركم وبواطنكم ، فاحذروا مخالفة أمره ، واتبعوا ما أرشدكم إليه من أدب وسلوك . هذا ، ومن الأحكام التي أخذها العلماء من هذه الآية الكريمة : أن إفساح المؤمن لأخيه المؤمن في المجلس ، من الآداب الإسلامية التي ينبغي التحلي بها ، لأن هذا الفعل بجانب رفعه للدرجات ، فإنه سبب للتواد والتعاضد والتراحم . قال القرطبي ماملخصه : والصحيح في الآية أنها عامة في كل مجلس ، اجتمع المسلمون فيه للحير والاجر ، سواء أكان مجلس حرب ، أم ذكر ، أم مجلس يوم الجمعة ولكن بدون أذى ، فقد أخرج الشيخان عن ابن عمر أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : لا يقيم الرجل الرجل من مجلسه ثم يجلس فيه . . .

وعن ابن عمر - أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - نهى أن يقيم الرجل من مجلسه ثم يجلس فيه آخر ، ولكن تفسحوا وتوسعوا . . . (١) .

وعلى أية حال فإن الآية الكريمة ترشد المؤمنين في كل زمان ومكان ، إلى لون من مكارم الأخلاق ، ألا وهو التوسعة في المجالس ، وتقديم أهل العلم والفضل ، وإنزالهم منازلهم التي تليق بهم في المجلس .

كذلك أخذ العلماء من هذه الآية الكريمة أنه يجوز القيام للقادم .

قال الإمام ابن كثير : وقد اختلف الفقهاء في جواز القيام للوارد إذا جاء على أقوال : فمنهم من رخص في ذلك محتجا بحديث : « قوموا إلى سيدكم » .

ومنهم من منع من ذلك . محتجا بحديث : « من أحب أن يتمثل له الرجال قياما ، فليتبوأ مقعده من النار » .

ومنهم من فصل فقال : يجوز القيام للقادم من سفر ، وللحاج في محل ولايته ، كما دل عليه قصة سعد بن معاذ ، فإنه لما استقبله النبي - صلى الله عليه وسلم - حاكما في بني قريظة ، فرآه مقبلا قال للمسلمين : « قوموا إلى سيدكم » ، وما ذاك إلا ليكون أنفذ لحكمه - والله أعلم - .

فأما إتخاذ - أي القيام - دينا ، فإنه من شعار الأعاجم . . . وفي الحديث المروى في السنن أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كان يجلس حيث انتهى به المجلس ، ولكن حيث يجلس يكون صدر ذلك المجلس ، وكان الصحابة يجلسون منه على مراتبهم ، فالصديق عن يمينه ، وعمر عن يساره ، وبين يديه غالبا عثمان وعلى لأنهما كانا ممن يكتب الوحي ، وكان يأمرهما بذلك (١) .

كذلك أخذ العلماء من هذه الآية الكريمة ، فضـل العلماء ، وسمو منزلتهم .

قال صاحب الكشاف : عن عبد الله بن مسعود أنه كان إذا قرأ هذه الآية قال : يا أيها الناس افهموا هذه الآية ، واترغبكم في العلم . وفي الحديث الشريف :

« بين العالم والعابد مائة درجة .. » وفي حديث آخر : فضل العالم على العابد ،
كفضل القمر ليلة البدر على سائر النجوم .. »

وعن بعض الحكماء انه قال : ايت شعري أى شئ أدرك من فاته العلم ،
وأى شئ فات من أدرك العلم .

وعن الأحنف : كل عز لم يوصل بعلم وإلى ذل يصير ،^(١) .

ثم أرشدكم - سبحانه - إلى لون ثالث من الأدب السامى ، فنأداهم للمرة
الثالثة بقوله : « يا أيها الذين آمنوا إذا ناجيتم الرسول فقدموا بين يدي نجواكم
صدقة ذلكم خير لكم وأطهر فإن لم تجدوا ، فإن الله غفور رحيم » .

والمراد بقوله - تعالى - : « إذا ناجيتم » : إذا أردتم المناجاة ، كما فى قوله
- تعالى - : « إذا قمتم إلى الصلاة .. »

والمراد بقوله : « بين يدي نجواكم ، أى : قبل مناجאתكم للرسول - صلى
الله عليه وسلم - بقليل ، والكلام من باب الاستعارة التمثيلية . حيث شبهت
هيئة قرب الشئ - من آخر ، بهيئة وصول الشخص إلى من يريد الوصول إليه ،
على سبيل تشبيه المعقول بالمحسوس .. »

واسم الإشارة فى قوله : « ذلك خير لكم وأطهر » ، يعود إلى تقديم
الصدقة ، والجملة بمنزلة التعليل للأمر بتقديمها .

والمعنى . يا من آمنتم بالله - تعالى - حق الإيمان ، إذا أردتم مناجاة الرسول
- صلى الله عليه وسلم - . والحديث معه فى أمر ما على سبيل السر ، فقدموا
صدقة للفقراء قبل مناجاته - صلى الله عليه وسلم - ، فذلك التقديم خير لكم
لما فيه من الثواب ، وأكثر طهرا لنفوسكم ، فإن لم تجدوا شيئا تتصدقون به
قبل مناجאתكم له - صلى الله عليه وسلم - ، فلا تحزنوا فإن الله - تعالى - واسع
المغفرة والرحمة .

وقد ذكر المفسرون في سبب نزول هذه الآية روايات منها ما جاء عن ابن عباس - رضي الله عنهما - أنه قال : نزلت بسبب أن المسلمين كانوا يكثرُونَ المسائل على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حتى شقوا عليه ، فأراد الله - تعالى - أن يخفف عن نبيه - صلى الله عليه وسلم - فلما نزلت هذه الآية ، كف كثير من الناس ، ثم وسع الله عليهم بالآية التي بعدها (١) .

وقال بعض العلماء : إن هذا الأمر قد اشتمل على فوائد كثيرة :

منها : تعظيم أمر الرسول - صلى الله عليه وسلم - ولم كبار شأن مناجاته ، كأنها شيء لا ينال بسهولة .

ومنها : التخفيف عن النبي - صلى الله عليه وسلم - بالتقليل من المناجاة - حتى يتفرغ - صلى الله عليه وسلم - للمهام العظمى التي كلفه - سبحانه - بها .

ومنها : تهوين الأمر على الفقراء ، الذين قد يغلبهم الأغنياء على مجالس الرسول - صلى الله عليه وسلم - ، فإنهم إذا علموا أن قرب الأغنياء من الرسول - صلى الله عليه وسلم - ، ومناجاتهم له ، تسبقها الصدقة ، لم يضجروا .

ومنها : عدم شغل الرسول - صلى الله عليه وسلم - بما لا يكون مهما من الأمور ، فيتفرغ للرسالة . فإن الناس وقد جلبوا على الشح بالمال ، يقتصدون في المناجاة التي تسبقها الصدقة .

ومنها : تمييز محب الدنيا من محب الآخرة ، فإن المال محك الدواعي (٢) .

ثم بين - سبحانه - جانباً من مظاهر لطفه بعباده فقال : **وَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَهُ** ...

(١) تفسير القرطبي ١٧ ص ٢٠١

(٢) تفسير آيات الأحكام ٤ ص ١٣١ للشيخ محمد علي السائس

والإشفاق معناه : أن يتوقع الإنسان عدم حصوله على ما يريد . والمراد به هنا : الخوف .

والاستفهام مستعمل فيما يشبه اللوم والعتاب ، لتخاف بعضهم عن مناجاة الرسول - صلى الله عليه وسلم - بسبب تقديم الصدقة .
و ، إذ ، في قوله ، فإذا لم تفعلوا ، ظرفية مفيدة للتعليل .

والمعنى : أخفتم - أي المؤمنون - أن تقدموا قبل مناجاتكم للرسول - صلى الله عليه وسلم - صدقة ، فيصيبكم بسبب ذلك الفقر ، إذا ما واطبتم على ذلك .

« فإذا لم تفعلوا وقاب الله عليكم ، أي : خين لم تفعلوا ما كلفناكم به من تقديم الصدقة قبل مناجاتكم للرسول - صلى الله عليه وسلم - ، وقاب الله - تعالى - عليكم . بأن رخص لكم في هذه المناجاة بدون تقديم صدقة ، وخفف عنكم ما كان قد كلفكم به - سبحانه - والفاء في قوله : فأقيموا الصلاة . وآتوا الزكاة ، وأطيعوا الله ورسوله ، معطوفة على كلام محذوف .

أي : خين خففنا عنكم الصدقة - بفضلنا ورحمتنا - فداوموا على إقامة الصلاة ، وعلى إعطاء الزكاة المستحقة ، وأطيعوا الله ورسوله ، في كل ما أمركم به أو نهاكم عنه .

واعلموا أن الله - تعالى - خير بما تعملون ، ولا يخفى عليه شيء من أقوالكم أو أفعالكم ، وسيجازي الذين أسأوا بما عملوا ، ويجازي الذين أحسنوا بالحسن . وقد ذكر المفسرون أن هذه الآية ناسخة للتي قبلها ، لأنها أسقطت وجوب تقديم الصدقة الذي أمرت به الآية السابقة .

وقد لخص الإمام الألوسي كلام العلماء في هذه المسألة تلخيصاً حسناً فقال : واختلف في أن الأمر للتدب أو للوجوب ، لكنه نسخ بقوله - تعالى - : أشفقتم أن تقدموا .. وهو وإن كان متصلاً به تلاوه ، لكنه غير متصل به نزولاً . وقيل : نسخ بآية الزكاة . والمعول عليه الأول .

ولم يعين مقدار صدقه ، ليجزى القليل والكثير . أخرج الترمذى عن
علي بن طالب قال : لما نزلت ، يا أيها الذين آمنوا إذا ناجيتم الرسول فقدموا
بين يدي نجواكم صدقة ... ،

قال لى النبي - صلى الله عليه وسلم - : ما ترى في دينار ، قلت :
لا يطبقونه . قال : نصف دينار قلت : لا يطبقونه . قال : دفيكم ، قلت :
شعيرة . قال : فإذاك لزهد ، .

فلما نزلت : أأشفقتم أن تقدموا ، قال - صلى الله عليه وسلم -
: خفف الله عن هذه الأمة ، ولم يعمل بها على المشهور - غير على - كرم
الله وجهه

وإختلف في مدة بقاء هذا الأمر - أى الأمر بتقديم الصدقة - : فمن
مقاتل : عشرة أيام .

وقال قتادة : ساعة من نهار ... ، (١)

وقال بعض العلماء : والآية الناسخة متأخرة في النزول ، وإن كانت تأليه
للآية المنسوخة في التلاوة .

والظاهر - والله أعلم - أن الحادثة من باب الابتلاء والامتحان ، ليظهر
للناس حب الدنيا من حب الآخرة ، والله بكل شىء عليم ، (٢)

وقال أحد العلماء : ولا يشتم من قوله - تعالى - : أأشفقتم أن تقدموا
بين يدي نجواكم صدقة ... ، .

أن الصحابة قد وقع منهم تقصير . فان التقصير إنما يكون إذا ثبت أنه
كانت هناك مناجاة لم تصحبها صدقة ، والآية قالت : فإذ لم تفعلوا ، أى :

(١) راجع تفسير الألوسى ج ٢٨ ص ٣١

(٢) صفوة البيان ج ٢ ص ١٢٢ لفضيلة الشيخ حسين محمد مخلوف

ما أمرتم به من الصدق ، وقد يكون عدم الفعل ، لأنهم لم يناجوا ، فلا يكون عدم الفعل تقصيرا .

وأما التعبير بالإشفاق من جانبهم ، فلا يدل على تقصيرهم ، فقد يكون الله - تعالى - علم أن كثيرا منهم إستكثر التصديق عند كل مناجاة في المستقبل لودام الوجوب ، فقال الله - تعالى - لهم : أأشفقتم .

وكذلك ليس في قوله : وتاب عليكم ، ما يدل على أنهم قصروا . فإنه يحمل على أن المعنى أنه تاب عليهم برفع التكليف عنهم تخفيفا . ومثل هذا يجوز أن يعبر عنه بالتوبة ... (١)

• • •

ثم تعود السورة مرة أخرى إلى الحديث عن المنافقين وأشباههم ، فتصور أحوالهم ، وتبين سوء مصيرهم ، وتكشف القناع عن الأسباب التي أدت بهم إلى الخسران والهلاك ، فقال - تعالى - :

« أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ، مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَا مِنْهُمْ ، وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٤) أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٥) اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ (١٦) لَنْ تَغْنِي عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ، أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١٧) يَوْمَ يَبْسُطُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ، وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ ، أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السَّكَادِبُونَ (١٨) اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ (١٩) » .

والاستفهام في قوله - تعالى - : ألم تر إلى الذين تولوا... ، للتعجب من حال هؤلاء المنافقين ، حيث اتخذوا اليهود حلفاء لهم ، يقولون إلههم أُمّير المؤمنين...

أى : ألم يفته إلى علمك - أيها الرسول الكريم - حال أولئك المنافقين ، الذين اتخذوا اليهود أولياء ، يناصحونهم ويطلعونهم على أخباركم .

فالمراد بالقوم الذين غضب الله عليهم : اليهود . ووصفهم بذلك للتنفير منهم ، وليبين أن المنافقين قد بلغوا النهاية في القبح والسوء ، حيث والوا وناصروا من غضب الله عليهم ، لا من - رضى الله عنهم .

ثم دمع - سيجا ٤ - هؤلاء المنافقين برذيلة أخرى فقال : ما هم منكم ولا منهم ، أى : أن هؤلاء المنافقين بمساكنكم هذا ، صاروا بمنزلة الذين ليسوا بكم - أما المؤمنون - وليسوا - أيضا - منهم - أى من اليهود -

ولما هم دائما لا مبدأ لهم ولا عقيدة ، فهم كما قال - تعالى - وذهب بين
بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء . . .

وفي الحديث الشريف : « مثل المنافق كمثل الشاة العائرة بين غنمين - أي
المرتدة بين قاطيعين . لا ندري أيهما تنبعم » .

قال الجمل : وقوله : دما هم منكم ولا منهم ، فيه أوجه : أحدهما : أن هذه الجمله مستأنفة لا محل لها من الإعراب ، فقد أخبر عنهم بأنهم ليسوا من المؤمنين الخالص ، ولا من الكافرين الخالص ، بل هم كقوله - تعالى - : د مذنبين بين ذلك .. ،

والضمير في قوله ، ما هم ، يعود على المنافقين ، وفي قوله ، منهم ، يعود على اليهود .

الثاني : أنها حال من فاعل ، تولوا ، والمعنى ما تقدم .

الثالث : أنها صفة ثانية لقوله « قوما » ، وعليه يكون الضمير في قوله :
« ما هم » ، يعود على اليهود ، والضمير في قوله : « منهم » يعود على المنافقين .

يعنى : أن اليهود ليسوا منكم - أيها المؤمنون - ولا هم المنافقين . ومع ذلك
قولهم المنافقون ، ... إلا في هذا الوجه تنافر بين الضمائر ، فإن الضمير في
« ويحلفون » ، عائد على المنافقين ؛ وعلى الوجهين الأولين تتحد الضمائر ، (١)

ثم دهمهم - سبحانه - برذيله ثالثة أشد تكرار من سابقتها فقال : « ويحلفون
على الكذب وهم يعلمون » ،

أى : أنهم ينقلون إلى اليهود أسرار المؤمنين ، مع أنهم لا تربطهم باليهود
أية رابطة ، لا من دين ولا من نسب ... وفضلا عن كل ذلك ، فإن هؤلاء
المنافقين يواطئون ويستمرون على الحلف الكاذب المخالف للواقع ، والحال
أنهم يعلمون أنهم كاذبون علما لا يخاطله شك أو ريب .

فأنت ترى أن الله - تعالى - قد ذم هؤلاء المنافقين ، بجملة من الصفات
القيحية ، التي على رأسها تعمد الكذب ، وإصرارهم عليه .

قال صاحب الكشف : قوله : « ويحلفون على الكذب » ، أى : يقولون :
والله إنا لمسلمون ، فيحلفون على الكذب الذى هو إدعاء الإسلام « وهم
يعلمون ، أن المحلف عليه كذب بحت .

فإن قلت : فما فائدة قوله : « وهم يعلمون » ، ؟ قلت : الكذب أن يكون
لا على وفاق الخبر عنه ، سواء علم الخبر أم لم يعلم . فالمعنى أنهم الذين يخبرون
وخبرهم خلاف ما يخبرون عنه ، وهم عالمون بذلك متعمدون له ، كمن
يحلف بالغموس ... ، (١)

(١) حاشية الجمل على الجلالين ج ٤ ص ٣٠٨

(٢) تفسير الكشف ج ٤ ص ٧٧

وقد ذكروا في سبب نزول هذه الآية روايات منها : أنها نزلت في رجل يقال له : عبيد الله بن نبتل - وكان من المنافقين الذين يجالسون رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ثم يرفعون حديثه إلى اليهود - وفي يوم من الأيام كان - صلى الله عليه وسلم - جالسا في إحدى حجراته ، فقال لمن حوله : يدخل عليكم الآن رجل قلبه جبار ، وينظر بعيني شيطان ، فدخل ابن نبتل . - وكان أزرق أسمر قصيرا خفيف الماحية - ، فقال له - صلى الله عليه وسلم - : « علام نشتغى أنت وأصحابك ؟ »

خلف بالله ما فعل ذلك . فقال له النبي - صلى الله عليه وسلم - : « فعلت ، فانطلق فجاه بأصحابه ، خلفوا بالله ما سبره . فنزلت هذه الآية ، » (١)

ومن الآيات الكثيرة التي صرحت بأن المنافقين يملفون الإيمان الكاذبة على سبيل التعمد ، قوله تعالى : « ويملفون بالله لو استطعنا لخرجنا معكم ، يهلكون أنفسهم ، والله يعلم لمن ليكاذبون ، » (٢)

ثم بين - سبحانه - ما أعد له من عذاب فقال : « أعد الله لهم عذابا شديدا ... ، أي : هيا الله - تعالى - لهؤلاء المنافقين عذابا قد بلغ النهاية في الشدة والألم ... »

وجملة : « لمن ساء ما كانوا يعملون » ، تعليل ليزول العذاب الشديد بهم . أي : أن هذا العذاب الشديد المهيأ لهم ، سببه سوء أعمالهم في الدنيا ، واستحبابهم العمى على الهدى .

وقوله - سبحانه - : « اتخذوا إيمانهم جنة فصدوا عن سبيل الله ... » ، بيان لرذيلة رابعة أو خامسة ، لا تقل في قبورها عما سبقها من رذائل ، وقوله : « إيمانهم » ، جمع يمين بمعنى الخلف .

(١) تفسير القرطبي ج ١٨ ص ٣٠٤

(٢) سورة التوبة . الآية ٤٣

وقوله : دجنة، من الجنة بمعنى الستر عن الحاسة، وهذه المادة وما اشتق منها تدور حول الستر والحفاء . وتطلق الجنة على الترس الذي يضعه المقاتل على صدره أو على ذراعيه ليتقي به الضربات من عدوه .

ومفعول : د فصدوا ، محذوف للعلم به .

أى : أن هؤلاء المنافقين قد اتخذوا أيمانهم الكاذبة ، وهى حلفهم للمسلمين بأنهم معهم ، وبأنهم لا يضمرون شراً لهم ... اتخذوا من كل ذلك وقاية وسترة عن المؤاخذة ، كما يتخذ المقاتل الترس وقاية له من الأذى ...

د فصدوا ، الناس د عن سبيل الله ، أى : عن دينه الحق ، وطريقه المستقيم .

د فلهم عذاب مهين ، أى : فترتب على نسترهم خلف الأيمان الفاجرة ، وعلى صدم غيرهم عن الحق ، أن أعد الله - تعالى - لهم عذاباً يهينهم ويذلهم .

وقوله - سبحانه - : د لن تغنى عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً ... رد على ما كانوا يزعمونه من أنهم لن يعذبوا ، لأنهم أكثر أموالاً وأولاداً من المؤمنين .

قال القرطبي : قال مقاتل : قال المنافقون إن محمداً يزعم أنه ينصر يوم القيامة لقد شقينا إذا . فوالله لننصرن يوم القيامة بأنفسنا وأولادنا وأموالنا إن كانت قيامة . فزلت ، (١) .

ومن المعروف أن عبد الله بن أبي بن سلول - زعيم المنافقين - ، كان من أغنياء المدينة ، وكان يوطن نفسه على أن يكون رئيساً للمدينة قبيل الإسلام ، وهو القائل - كما حكى القرآن عند - : د لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ...

أى : أن هؤلاء المنافقين المتفافرين بأموالهم وأولادهم ، لن تغنى عنهم أموالهم ولا أولادهم شيئا من الغناء ،

« وأولئك ، المنافقون هم ، أصحاب النار هم فيها خالدون ، خلودا أبديا . ثم بين - سبحانه - حالهم يوم القيامة ، وأنهم سيكونون على مثل حالهم في الدنيا من الكذب والفجور ... فقال - تعالى - : « يوم يبعثهم الله جميعا فيحلفون له كما يحلفون لكم ، ويحسبون أنهم على شيء ، ألا إنهم هم الكاذبون ، .. »

أى : اذكر - أيها الرسول الكريم - يوم يبعث الله - تعالى - هؤلاء المنافقين جميعا للحساب والجزاء ، فيحلفون ، لله - تعالى - في الآخرة بأنهم مسلمون « كما » كانوا يحلفون لكم ، في الدنيا بأنهم مسلمون ... »

« ويحسبون ، في الآخرة - لغباثهم وانطباس بصائرهم ، أنهم ، بسبب تلك الإيمان الفاجرة « على شيء » ، من جلب المنفعة أو دفع المضرة .

أى : يتوهمون في الآخرة أن هذه الإيمان قد تنفعهم في تخفيف شيء من العذاب عنهم .

« ألا إنهم هم الكاذبون ، أى : الذين بلغوا في الكذب حدا لا غاية وراءه ... »

فأنت ترى أن الآية الكريمة قد بينت أن هؤلاء المنافقين في الدنيا ، قد بعثوا والنفاق ما زال في قلوبهم ، وسلوكهم القبيح مادام متلبسا بهم ... فهم لم يكتفوا بكذبهم على المؤمنين في الدنيا ، بل وفي الآخرة - أيضا - يحلفون لله - تعالى - بأنهم كانوا مسلمين .

وشبه هذه الآية قوله - تعالى - : « ثم لم تسكن فتنتهم إلا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين » (١) .

وقوله - سبحانه - : « وارردوا لعادوا لما نهوا عنه وإلهم لكاذبون » (١).

ورحم الله صاحب الكشف فقد قال عند تفسيره لهذه الآية : يعنى ليس العجب من حلمهم لكم - فى الدنيا بأنهم مسلمون - فإنكم بشر تخفى عليكم السرائر ... ولكن العجب من حلمهم لله عالم الغيب والشهادة - بأنهم كانوا مسلمين فى الدنيا ...

والمراد وصفهم بالتوغل فى نفاقهم ، ومرونتهم عليه ، وأن ذلك بعد موقهم وبعضهم باق فيهم لا يضمحل (٢).

وقال بعض العلماء ماملخصه : وقوله : « ويحسبون أنهم على شئ » ، حذف صفة شئ ، لظهور معناها من المقام . أى : ويحسبون أنهم على شئ . نافع .

وهذا يقتضى توغاهم فى النفاق ، ومرونتهم عليه ، وأنه باق فى أرواحهم بعد بعثهم ، لأن نفوسهم خرجت من الدنيا متخلقة به ، فإن النفوس لما تمكتسب تزكية أو خبيثا فى عالم التكليف .

وفى الحديث : أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال : إن رجلا من أهل الجنة يستأذن ربه أن يزرع ، فيقول الله له : أو لست فيما شئت ؟ قال : بلى ياربى ولكن أحب أن أزرع ، فأمرع وبذر ، فيبادر الطرف نباته واستواؤه واستحصاده وتكويره أمثال الجبال .

وكان رجل من أهل البادية عند النبي - صلى الله عليه وسلم - فقال : يا رسول الله لا نجد هذا الرجل إلا قرشيا أو أنصاريا ، فإنهم أصحاب زرع ، فأما نحن - أى أهل البوادي - فلسنا بأصحاب زرع . فضحك النبي - صلى الله عليه وسلم - لإقرارا لما فهمه الأعرابي .

(١) سورة الأنعام الآية ٢٨ .

(٢) تفسير الكشف > ٤ ص ٧٨ .

وفي حديث جابر بن عبد الله الذي رواه الإمام مسلم في صحيحه ، أن
النبي - صلى الله عليه وسلم - قال : يبعث كل عبد على ما مات عليه .

قال عياض : هو عام في كل حالة مات عليها المرء وقال السيوطي .
يبعث الزمار بمزمارة ، وشارب الخمر بقدره .

قلت : ثم تتجلى لهم الحقائق على ما هي عليه ، لإذ تصير العلوم على
الحقيقة ، (١) .

ثم بين - سبحانه - الأسباب التي جعلت المنافقين ينغمسون في نفاقهم
فقال : استحوذ عليهم الشيطان فأنسأهم ذكر الله

وقوله : استحوذ ، من الحوذ ، وهو أن يقبع السائق حاذي البعير .
أي : أدبار نخذه ثم يسوقه سوقا عنيفا ، لا يستطيع البعير الفكك منه . .
والمراد به هنا : شدة الاستيلاء والغلبة وعنه قول السيدة عائشة في عمر
- رضي الله عنهما - : كان أحوذيا ، أي : كان ضابطا للأمور ، ومستوليا
عليها استيلاء تاما

والمعنى : إن هؤلاء المنافقين قد استولى عليهم الشيطان استيلاء تاما ،
بحيث صيرهم تابعين لوساوسه وتزيينه ، فهم طوع أمره ، ورهن إشارته ،
فترتب على طاعتهم له أن أنسأهم طاعة الله - تعالى - ، وحسابه ، وجزاءه ،
فعاشوا حياتهم بتركون ما هو خير ، ويسرعون نحو ما هو شر

و أولئك ، الموصوفون بتلك الصفات القبيحة - حزب الشيطان ، أي :
جنوده وأتباعه - ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون ، خسارة لا تقاربها

(١) راجع تفسير التحرير والتنوير - ٢٨ ص ٥٣ : للشيخ محمد الطاهر

خسارة ، لأنهم آثروا العاجل على الآجل ، والفانى على الباقي ، والضلال على الهدى ...

• • •

ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة ببيان سنة من سننه في خلقه ، وهي أن الذلة والصغار لأهل الباطل ، والعزة والعظمة لأهل الحق ... الذين رضى الله عنهم ورضوا عنه ، فقال - تعالى - :

« إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ (٢٠) كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ (٢١) لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ، وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ، أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِنْهُ ، وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ، أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٢٢) »

أى : إن الذين يحادون دين الله - تعالى - ، ويحاربون ما جاء به رسوله - صلى الله عليه وسلم - ، أولئك الذين يفعلون ذلك ...

« فى الأذلين ، أى : فى عداد أذل خلق الله - تعالى - ، وهم المنافقون ومن لف لفهم ، من الكافرين وأهل الكتاب .

وقال - سبحانه - : « أولئك فى الأذلين ، للإشعار بأنهم مظلوفون وكائنون ، فى ذروة أشد خلق الله ذلا وصغارا ...

ثم بشر - سبحانه - من هم على الحق بأعظم البشارات فقال : « كتب الله لأغلبين أنا ورسلى إن الله قوى عزيز . »

أى : أثبت الله - تعالى - ذلك فى اللوح المحفوظ وقضاء ، وأراد وقوعه فى الوقت الذى يشاؤه .

فالمراد بالكتابة : القضاء والحكم . وعبر بالكتابة ، المبالغة فى تحقق الوقوع .

وقد ذكروا فى سبب نزول هذه الآية ، أنه لما فتح الله - تعالى - للدومنين ما فتح من الأرض ، قال المؤمنون : إنا لئرجوا أن يفتح الله لنا فارس والروم .

فقال بعض المنافقين : أتظنون الروم وفارس كبعض القرى التى تغلبتم عليها ، والله إنهم لا كثر عددا وأشد بطشا ، من أن تظنوا فيهم ذلك فتزلت .

قال الألوسى : كتب الله ، أى : أثبت فى اللوح المحفوظ ، أو قضى وحكم ... وهذا التعبير جار مجرى القسم ، ولذا قال - سبحانه - : « لا غلبن أنا ورسلى ، أى : بالحجة والسيف وما يجرى مجراه ، أو بأحدهما ... » (١) .

« إن الله قوى ، على نصر رسله وأوليائه » عزيز ، لا يغلبه غالب بل هو القاهر فوق عباده .

والمقصود بالآية الكريمة : تقرير سنة من سنته - تعالى - التى لا تتخلف ، وأن النصر سيكون حليفاً لأوليائه ، فى الوقت الذى علمه وأراده ...

وشبه هذه الآية قوله - تعالى - : « إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد » (٢) .

وقوله - تعالى - : « ولقد سبقت كتبنا لعبادنا المرسلين . إنهم لهم المنصورون . وإن جندنا لهم الغالبون » (٣) .

(١) تفسير الألوسى ج ٢٨ ص ٣٤ (٢) سورة غافر الآية ٥ :

(٣) سورة الصافات الآية ١٧ - ١٧٣

ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة بهذه الآية الجامعة لصفات المؤمنين الصادقين فقال : « لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر ، يوادون من حاد الله ورسوله . . . » .

وقوله : « يوادون » من الموادة بمعنى حصول المودة والمحبة .

أى : لا تجد - أيها الرسول الكريم - قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر حق الإيمان ، يوالون ويحبون من حارب دين الله - تعالى - وأعرض عن هدى رسوله .

والمقصود من هذه الآية الكريمة النهى عن موالاته المنافقين وأشباههم ، وإنما جاءت بصيغة الخبر ، لأنه أقوى وأكدر في التنفير عن موالاته أعداء الله ، إذ الإتيان بصيغة الخبر يشعر بأن القوم قد امتثلوا لهذا النهى ، وأن الله - تعالى - قد أخبر عنهم بذلك .

وافتححت الآية بقوله : « لا تجد قوما . . . » ، لأن هذا الافتتاح يشير شوق السامع لمعرفة هؤلاء القوم .

وقوله : « ولو كانوا آباءهم . . . » ، تصريح بوجوب ترك هذه الموادة لمن حارب الله ورسوله ، مهما كانت درجة قرابة هذا المحارب .

أى : من شأن المؤمنين الصادقين أن يبتعدوا عن موالاته أعداء الله ورسوله ، ولو كان هؤلاء الأعداء . « آباءهم » الذين أتوا إلى الحياة عن طريقهم . « أو أبنائهم » الذين هم قطعة منهم . « أو إخوانهم » الذين تربطهم رابطة الدم . « أو عشيرتهم » التي ينتمون إليها ، وذلك لأن قضية الإيمان أن تقدم على كل شئ .

وقدم الآباء لأنهم أول من يجب طاعتهم ، وثنى بالأبناء لأنهم ألصق الناس بهم ، وثالث بالإخوان لأنهم الناصرون لهم ، وختم بالعشيرة لأن التناصر بها يأتي في نهاية المطاف .

ثم أتى - سبحانه - على هؤلاء المؤمنين الصادقين الذين لم يوالوا أعداء الله مهما بلغت درجة قرباتهم فقال : « أولئك كتب في قلوبهم الإيمان ... » .
 أى : أولئك الذين لا يوالون أعداء الله مهما كانوا ، هم الذين كتب الله - تعالى - الإيمان في قلوبهم ، فاختلط بها واختلطت به ، فصارت قلوبهم لا تحب إلا من أحب دين الله ، ولا تبغض إلا من أبغضه .

« وأيدم بروح منه ، أى : وثبتهم وقوام بفور من عنده - سبحانه - ، فصاروا بسبب ذلك أشداء على الكفار ، رحماء بينهم .

« ويدخلهم » - سبحانه - يوم القيامة « جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ، مخلودا أبديا » . رضى الله عنهم ، بسبب طاعتهم له « ورضوا عنه ، بسبب ثوابه لهم .

« أولئك ، الموصوفون بذلك ، حزب الله ، الذين يشرف من ينسب إليه .

« ألا أن حزب الله هم المفلحون ، فلاحا ونجاحا ليس به - دهما فلاح أو نجاح .

وقد ذكروا روايات متعددة في سبب نزول هذه الآية الكريمة ، منها : أنها نزلت في أبي عبيدة عامر بن الجراح ، فقد قتل أباه - وكان كافرا - في غزوة بدر ...

والآية الكريمة تصدق على أبي عبيدة وغيره من حاربوا آباهم وأبنائهم وإخوانهم وعشيرتهم ، عندما استحب هؤلاء الآباء والأبناء الكفر على الإيمان .

وقد أخذ العلماء من هذه الآية الكريمة ، وجوب عدم والاة الكفار والفساق والمتنافقين والمجاهرين بارتكاب المعاصي ... مهما بلغت درجة قرباتهم ، ومهما كانت منزلتهم ...

ومن دعاء رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : اللهم لا تجعل لفاجر ولا
لفاسق عندي بدا ولا نعمة ... (١) .

وبعد فهذا تفسير لسورة المجادلة ، نسأل الله - تعالى - أن يجعله
خالصا لوجهه ، وناظرا لعباده .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

قطر - الدوحة مساء الجمعة

كتبه الراجي عفو ربه

غرة شعبان سنة ١٤٠٦ هـ

محمد سيد طنطاوى

١٩٨٦/٢/١١ م

عميد كلية الدراسات الإسلامية العربية

تفسير
سُورَةُ الْحَشْرِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة ومحمد

١ - سورة « الحشر » ، من السور المدنية الخاصة ، وقد عرفت بهذا الاسم منذ العهد النبوي . وسماها ابن عباس بسورة « بنى النضير » ، فقد أخرج البخاري عن سعيد بن جبير قال : قلت لابن عباس : سورة الحشر . قال : « سورة بنى النضير » ، ولعل ابن عباس - رضى الله عنهما - سماها بهذا الاسم لحديثها المفصل عن غزوة بنى النضير .

٢ - وعدد آياتها أربع وعشرون آية ، وكان نزولها بعد سورة « البقرة » ، وقبل سورة « النصر » ، أى : أنها تعتبر من أواخر ما نزل على النبي - صلى الله عليه وسلم - من سور قرآنية ، فهي السورة الثامنة والتسعون في ترتيب النزول .

أما ترتيبها في المصحف ، فهي السورة التاسعة والخمسون .

٣ - وقد افتتحت سورة « الحشر » ، بتنزيه الله - تعالى - عما لا يليق به ، ثم تحدثت عن غزوة بنى « النضير » ، فذكرت جانباً من نصره لعباده المؤمنين ، ومن خذلانه لأوائك الضالين ...

قال - تعالى - : « هو الذى أخرج الذين كفروا من ديارهم لأول الحشر ، ماظنتم أن يخرجوا ، وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله ، فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا ، وقذف فى قلوبهم الرعب ، يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين ، فاعتبروا يا أولى الأبصار ... »

٤ - ثم تحدثت السورة بعد ذلك عن تقسيم أموال بنى النضير ، وعن حكمه الله - تعالى - فى إرشاده النبي - صلى الله عليه وسلم - إلى هذا التقسيم ،

فقال - سبحانه - : ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى ، فلا ، وللرسول ولذی القربی ، والیتامی ، والمساکین ، وابن السبیل ، کی لا یکون دولة بین الأغنیاء منکم ، وما آتاکم الرسول فخذوه ، وما نهاکم عنه فانتهوا ، واتقوا الله ، إن الله شدید العقاب ...

٥ - وبعد أن أثنت السورة الکریمة على المهاجرین لبلائهم وإخلاصهم وعفة نفوسهم ، كما أثنت على الانصار لسخائهم ، وطهارة قلوبهم ... بعد كل ذلك أخذت السورة فی التعجیب من حال المنافقین ، الذین تحالفوا مع الیهود ضد المؤمنین ، وذكرت جانباً من أقوالهم الکاذبة ، ووعدهم الخادعة ... فقال - تعالى - : « ألم تر إلی الذین نافقوا یقولون لإخوانهم الذین کفروا من أهل الکتاب ، لئن أخرجتم لنخرجن معکم ، ولا نطیع فیکم أحداً أبداً ، وإن قوتلتم لننصرنکم ، والله بشهد إنهم الکاذبون ...

٦ - ثم وجهت السورة فی أواخرها نداء إلی المؤمنین ، أمرهم فیہ بتقوى الله ، ونهتهم عن التشبه بالفاسقین عن أمر الله ، الذین ترکوا ما أمرهم به - سبحانه - ، فكانت عاقبة أمرهم خسراناً ...

وختمت بذكر جانب من أسماء الله - تعالى - وصفاته . قال - تعالى - : « هو الله الذی لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المہیمن العزیز الجبار المتکبر ، سبحانه الله عما یشرکون . هو الله الخالق البارئ المصور ، له الاسماء الحسنی ، یسبح له ما فی السموات والأرض ، وهو العزیز الحکیم ، .

٧ - وبذلك نرى السورة الکریمة قد طوفت بنا مع بعض مغازی رسول الله - صلى الله علیه وسلم - ومع التشریعات الحکیمة الی شرعها الله - تعالى - فی تقسیم الغنائم ، ومع صور زاهية کریمة من أخلاق المهاجرین

والأنصار، ومع صور قائمة كريمة من أخلاق المنافقين وإخوانهم
من اليهود...

ومع جانب من أسماء الله - تعالى - وصفاته ، التي تليق به - عز وجل - .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ؟

د . محمد سيد طنطاوى

قطر - الدوحة

عميد كلية الدراسات الإسلامية

مساء الأحد ٢ من شعبان سنة ١٤٠٦ هـ

والعربية

١٣ / ٤ / ١٩٨٦ م

التفسير

قال الله تعالى : « سَبَّحَ قَدِّ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١) هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ ، لِأَوَّلِ الْحَشْرِ ، مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا ، وَظَنُّوا أَنْهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ ، فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا ، وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ ، يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ ، فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ (٢) وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا ، وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ (٣) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ، وَمَنْ يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٤) مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لَيْنَةٍ أَوْ تَرَكْتُمْ هَآؤَهَا قَاعَةً عَلَى أُصُولِهَا ، فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْرِجَ الْفَاسِقِينَ (٥) » .

افتتحت سورة الحشر ، بالشأن على الله - تعالى - ، وبتنزيهه عن كل ما لا يليق بذاته الجليلة ، فقال - عز وجل - : « سَبَّحَ قَدِّ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ » .

وأصل التسبيح لغة : الإبعاد عن سوء . وشرعا : تنزيه الله - تعالى - عن كل ما لا يليق بجلاله وكبره .

والذي يتدبر القرآن الكريم ، يجد أن الله - تعالى - قد ذكر فيه أن كل شيء في هذا السكون يسبح بحمده - تعالى - ، كما في قوله : « وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يَسْبُحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ » ، كما ذكر - سبحانه - أن الملائكة تسبح له ، كما في قوله : « وَنَحْنُ نَسْبُحُ بِحَمْدِكَ وَقَدِّسُ لَكَ » .

وكذلك الرعد ، كما في قوله : « ويسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته . . . »

وكذلك الجبال والطير قال - تعالى - : « إنا سخرن الجبال معه يسبحن بالعشى والإشراق . . . »

وقد بين أن ذكرنا خلال تفسيرنا لقوله - تعالى - : « وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم . . . » ، أن الرأى الذى تطمئن إليه النفس ، أن التسبيح حقيقى ، ولكن بلغة لا يعلمها إلا الله - تعالى - (١) .

والمعنى : سبح لله - تعالى - ونزهه عن كل ما لا يليق به ، جميع ما فى السموات وجميع ما فى الأرض من كائنات ومخلوقات ، وهو - عز وجل - « العزيز ، الذى لا يغلبه غالب » ، الحكيم ، فى كل أقواله وأفعاله .

وقد افتتحت بعض السور - كسورة الحديد والحشر والصف ، بالفعل الماضى ، لإفادة الثبوت والتأكيد ، وأن التسبيح قد تم فعلا .

وافتمتحت بعض السور - كسورة الجمعة والتغابن - بالفعل المضارع « يسبح » ، لإفادة تجديد هذا التسبيح فى كل وقت ، وحدوثه فى كل لحظة .

ثم بين - سبحانه - جانباً من مظاهر فضله على المؤمنين . حيث نصرهم على أعدائهم ، فقال : « هو الذى أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر . . . »

والمراد بالذين كفروا من أهل الكتاب هنا : يهود بنى النضير ، وقصتهم معروفة فى كتب السنة والسيرة ، وله لمخصص : أن هؤلاء اليهود كانوا يسكنون فى ضواحي المدينة ، فذهب إليهم النبي - صلى الله عليه وسلم - ليستعين بهم فى دفع دية لقتيلين قتلتهما بعض المسلمين خطأ ، فاستقبلوه استقبالا حسنا ،

(١) راجع تفسيرنا لسورة الإسراء ص ١١٦ .

وأظهِرُوا لَهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لِمَسْتَعْدَادِهِمُ الْمُسَاعَدَةَ فِيمَا يَطْلُبُهُ مِنْهُمْ .
ثم خلا بعضهم ببعض وقالوا : لَأَنكُمْ إِن تَجِدُوا الرَّجُلَ عَلَى مِثْلِ حَالِهِ هَذِهِ ، فَنُفِيقْ عَلَيْهِ حَجْرًا فَيَرْيَحُنَا مِنْهُ .

فَتَعَمَّدَ وَاحِدٌ مِنْهُمْ بِذَلِكَ ، وَقَبِلَ أَنْ يَتِمَّ فَعَلُهُ ، نَزَلَ جِبْرِيلُ - عَلَيْهِ السَّلَامُ -
عَلَى النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَأَخْبَرَهُ بِمَا أَضْمَرَهُ الْيَهُودُ مِنْ غَدْرٍ وَخِيَانَةٍ .
فَرَجَعَ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - إِلَى الْمَدِينَةِ ، وَأَخْبَرَ أَصْحَابَهُ بِمَا أَضْمَرَهُ لَهُ
يَهُودُ بَنِي النَّضِيرِ ، وَنَزَلَ قَوْلُهُ - تَعَالَى - : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَةَ
اللَّهِ عَلَيْكُمْ ، إِذْ هُمْ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ ، فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ ،
وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ » (١)

ثم أمر النبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَصْحَابَهُ أَنْ يَسْتَعِدُّوا لِحَصَارِ بَنِي
النَّضِيرِ ، وَتَأْدِيبِهِمْ عَلَى غَدْرِهِمْ . . . فحاصروهم المؤمنون بضعا وعشرين ليلة ،
وَلَمْ يَنْتَهِ الْأَمْرُ بِإِجْلَاتِهِمْ عَنِ الْمَدِينَةِ ، فَفُتِحَ مِنْ ذَهَبٍ إِلَى خَيْبَرِ ؛ وَمِنْهُمْ مَنْ
ذَهَبَ إِلَى غَيْرِهَا .

وَاللَّامُ فِي قَوْلِهِ - تَعَالَى - « لَأَوَّلُ الْحَشْرِ » مُتَعَلِّقٌ بِأَخْرَاجِ - وَالْحَشْرِ : الْجَمْعُ .
يُقَالُ حَشَرَ الْقَائِدَ جُنْدَهُ إِذَا جَمَعَهُمْ ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ - تَعَالَى - : « وَحَشَرَ لِسُلَيْمَانَ
جُنُودَهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ »

أَيُّ : هُوَ - سُبْحَانَهُ - الَّذِي أَخْرَجَ - بِقُدْرَتِهِ - الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ
الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ . وَمِنْ يَهُودِ بَنِي النَّضِيرِ ، عِنْدَ مَبْدَأِ الْحَشْرِ الْمَقْدَرِ لَهْمُ فِي عِلْمِهِ ،
بِأَنْ مَكَانَكُمْ - أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ - مِنْ مُحَاصِرَتِهِمْ وَجَمْعِهِمْ فِي مَكَانٍ وَاحِدٍ ، ثُمَّ طَرَدَهُمْ
مِنَ الْمَدِينَةِ الْمُنُورَةِ إِلَى أَمَاكِنَ أُخْرَى ، بِسَبَبِ غَدْرِهِمْ وَسُوءِ صَنِيعِهِمْ .

قَالَ صَاحِبُ الْكَشَافِ : اللَّامُ فِي قَوْلِهِ : « لَأَوَّلُ الْحَشْرِ » ، تَعَلُّقٌ بِأَخْرَاجِ ؛

وهي مثل اللام في قوله : ^١ يا ليتني قدمت لحياتي ، وفي قوله : ^٢ ولك : ^٣ جثته لوقت كذا ،

والمعنى : أخرج الذين كفروا عند أول الحشر . ومعنى أول الحشر : أن هذا أول حشرهم إلى الشام ، وكافوا من سبط لم يصيبهم جلاء قط . . . أو المعنى : هذا أول حشرهم ، وآخر حشرهم : لإجلاء عمر - رضى الله عنه - لهم من خيبر إلى الشام .

وقيل معناه : أخرجهم من ديارهم لأول ما حشر لقتالهم ، لأنه أول قتال قاتلهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم . . . (١)

وقصر - سبحانه - لإخراجهم عايه فقال : ^٤ هو الذى أخرج الذين كفروا ، مع أن المسلمين قد إشتروا في إخراجهم عن طريق محاصرتهم . للإشعار بأن السبب الحقيقي في إخراجهم من ديارهم ، هو ما قذفه الله - تعالى - في قلوبهم من الرعب . . . ، أما محاصرة المؤمنين لهم فهي أسباب فرعية ، قد تؤدي إلى إخراجهم ، وقد لا تؤدي ، وللإشعار - أيضا - بأن كل شيء إنما هو بقضاء الله وقدره .

ووصفهم - سبحانه - بالكفر وبأنهم من أهل الكتاب ، للتشجيع عليهم وزيادة مذمتهم ، حيث إنهم جمعوا بين رذيلتين : رذيلة الكفر بالحق ، ورذيلة عدم العمل بكتابتهم التى أمرهم بإتباع الرسول - صلى الله عليه وسلم - الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والإنجيل ، والذى يأمرهم بالمعروف ، وينهاهم عن المنكر .

و ^٥ من ، في قوله - تعالى - ^٦ من أهل الكتاب ، للبيان ، حتى لا يظن بأن المراد بالذين كفروا هنا ، مشركو قريش ، ولأن كان الجميع يشتركون في الكفر والفسوق والعصيان .

وقوله - تعالى - : « ما ظننتم أن يخرجوا ... » ، تذكير للمؤمنين بنعم الله - تعالى - عليهم .

أى ما ظننتم أيها المؤمنون - أن يهود بنى النضير سيخرجون من ديارهم بتملك السهولة ، وذلك لأنكم لا لوان من القوة ، كقوة السلاح ، وكثرة العدد ، ووجود من يجمعهم من يسكنون معكم فى المدينة ، وهم حلفاؤهم من بنى قومههم ، كبنى قريظة وغيرهم ، ومن غير بنى قومههم كالمخالفين الذين وعدوهم ومنوهم

وقوله : « وظنوا أنهم ما منعهم حصونهم من عند الله » ، معطوف على ما قبله
أى : أنتم أيها المؤمنون - ظننتم أن اليهود لن يخرجوا من ديارهم لما معهم من قوة ، وهم - أيضا - ظنوا أن حصونهم مستمنع بأمر الله عنهم . وأنها مستحول بينهم وبين خروجهم منها ، ونصركم عليهم

وقوله - سبحانه - : « فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف فى قلوبهم الرعب » ، متفرع على الظن السابق ، الذى ظنه المؤمنون ، والذى ظنه أعداؤهم وهم بنى النضير

أى : أنتم ظننتم أنهم لن يخرجوا من ديارهم ، وهم ظنوا - أيضا - أن حصونهم ستمنعهم من نصركم عليهم ، فكانت النتيجة أن أتاهم بأمر الله وعقابه من حيث لم يحتسبوا ، ومن حيث لم يخطر لهم ببال ، بأن قذف فى قلوبهم الرعب والفرع . فخرجوا من حصونهم التى تمنعوا بها ، ومن ديارهم التى سكنوها زمنا طويلا صاغرين أذلاء .

والتعبير بقوله : « من حيث لم يحتسبوا » ، إشارة إلى أن ما نزل بهم من هزيمة ، لم يكونوا يتوقعونها أصلا ، إذ الإحتساب مبالغة فى الحسبان ، أى : أناهم عقاب الله - تعالى - لهم من المكان الذى كانوا يعتقدون أمانهم فيه ، وفى زمان لم يكونوا أصلا يتوقعون حلول هزيمتهم عندهم .

وعبر - سبحانه - بالقذف ، لأنه كناية عن الرمي بقوة وعنف وسرعة .
والرعب : شدة الخوف والفرع ، وأصله : الامتلاء . تقول رعبت الحوض
إذا ملأته .

أى : وقذف - سبحانه - في قلوبهم الرعب الذى ملأها بالجزع والفرع ،
فاستسلموا بسبب ذلك لما حكم به الرسول - صلى الله عليه وسلم - عليهم .
ثم بين - سبحانه - ما حدث منهم خلال جلائهم فقال : يخربون بيوتهم
بأيديهم وأيدي المؤمنين ، فاعتبروا يا أولى الأبصار ، والتخريب : إسقاط
البناء وهدمه أو إفساده ،

أى : أن هؤلاء اليهود ، بلغ من سوء نيتهم ، ومن اضطراب أمرهم ، أنهم
عندما أجمعوا أمرهم على الرحيل عن المدينة ، أخذوا يخربون بيوتهم بأيديهم ،
عن طريق إسقاط بناتها ، وهدم السليم منها ، وإزالة ما اشتملت عليه من
أبواب وغيرها ... حتى لا ينتفع المسلمون بها من بعدهم ..

وأخذوا يخربونها - أيضا - بأيدي المؤمنين ، أى : بسبب أن المؤمنين كانوا
يزيلون من طريقهم كل عقبة حتى يقتحموا عليهم ديارهم ، فترتب على ذلك أن
هدموا بعض بيوت بنى النضير من الخارج ؛ ليستطيعوا التمكن منهم .

قال صاحب الكشف : ما معنى تخريبهم لها بأيدي المؤمنين ؟ قلت :
لما عرضهم لذلك ، وكانوا السبب فيه ، فكأنهم أمروهم به ، وكلفهم
إياه ، (١) .

أى : أن يهود بنى النضير بسبب تحصنهم في ديارهم ، ومحاولتهم عدم النزول
على حكم الرسول - صلى الله عليه وسلم - حملوا المؤمنين على تخريب هذه
الحصون من الخارج ، أيدخلوها عليهم ...
والخطاب في قوله - تعالى - : فاعتبروا يا أولى الأبصار ، لكل من

يصلح له .

قال الجمل في حاشيته : والاعتبار مأخوذ من العبور والمجازة من شيء إلى شيء ، ولهذا سميت العبارة عبارة ، لأنها تنتقل من العين إلى الخد . وسمى علم التمييز بذلك ، لأن صاحبه ينتقل من المشخيل إلى المعقول ، وسميت الألفاظ عبارات ، لأنها تنقل المعاني من لسان القائل إلى عقل المستمع ، ويقال : السعيد من اعتبر بغيره ، لأنه ينتقل بواسطة عقله من حال ذلك الغير إلى حال نفسه . . .

ولهذا قال القشيري : الاعتبار هو النظر في حقائق الأشياء ، وجهات دلائلها ، لمعرف بالنظر فيها شيء آخر ، (١) .

أى : إذا كان الأمر كما بينا لكم - أيها الناس - ، فاعتبروا واتعظوا يا أصحاب العقول السليمة ، والعيون الناضرة ، بما جرى لهؤلاء اليهود ، حيث دبر الله - تعالى - أمر إخراجهم من ديارهم تديراً حكيماً ، ونصر المؤمنين عليهم بأيسر طريق ، وجعل ديارهم من بعدهم ، خير عبارة وعظة لكل ذى بصر ، فقد خلفوها من بعدهم شاهد صدق على أن الغدر نهايته الحسران ... وعلى أن النصر إنما هو لمن اتبع الصدق والوفاء بالعهد . . .

قال الألوسى : واشتهر الاستدلال بهذه الجملة ، على مشروعية العمل بالقياس الشرعى ، قالوا : لأنه - تعالى - أمر فيها بالاعتبار ، وهو العبور والانتقال من الشيء إلى غيره ، وذلك متحقق فى القياس ؛ إذ فيه نقل الحكم من الأصل إلى الفرع ... ، (٢) .

ثم بين - سبحانه - جانباً من حكمته فى إخراجهم فقال : « ولولا أن كتب الله عليهم الجلاء ، لعذبهم فى الدنيا ، ولهم فى الآخرة عذاب النار » . . .
ولفظ « لولا » هنا حرف امتناع لوجود - أى : امتنع وجود جوابها

(١) حاشية الجمل على الجلالين ج ٤ ص ٢١١

(٢) راجع تفسير الألوسى ٢٨٥ ص ٤١

لوجود شرطها . . . وه أن ، مصدرية ، وهي مع ما في حيزها في محل رفع على الابتداء . لأن لولا الامتناعية لا يليها إلا المبتدأ ، والخبر محذوف .

والجلاء : الإخراج . يقال : جلا فلان عن مكان كذا . إذا خرج منه ، وأجلاه عنه غيره . إذا أخرجه عنه .

قال القرطبي : والجلاء مفارقة الوطن ، يقال : جلا بنفسه جلاء ، وأجلاه غيره إلـاء .

والفرق بين الجلاء والإخراج . وإن كان معناه في الإبعاد واحدا . من وجهين :

أحدهما : أن الجلاء ما كان مع الأهل والولد ، والإخراج قد يكون مع بقاء الأهل والولد .

الثاني : أن الجلاء لا يكون إلا لجماعة ، والإخراج يكون لواحد وجماعة ... (١) .

أي : ولولا أن الله - تعالى - قد قدر على هؤلاء اليهود ، الجلاء عن ديارهم ، لولا أن ذلك موجود ، لعذبهم في الدنيا عذابا شديدا : استأصل معه شأفتهم . وليكن الله - تعالى - كتب عليهم الجلاء دون القتل والإهلاك ، لمصلحة اقتضتها حكمته ، لعل من مظاهرها أن يغنم المسلمون ديارهم وأموالهم ، دون أن تراق دماء من الفريقين . ودون أن يعرض المؤمنون أنفسهم لمخاطر القتال . وجملة : ولهم في الآخرة عذاب النار ، مستأنفة . أي : أن هؤلاء اليهود إن نجوا من القتل والإهلاك في الدنيا ، فلن ينجو في الآخرة من العذاب الذي ينزلهم ويهينهم ، بل سيحل بهم عذاب مقيم ، لا فكك لهم منه .

واسم الإشارة في قوله - تعالى - ، ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ، يعود إلى ما نزل وما سينزل بهم من عذاب .

وقوله : - تعالى - : ، شاقوا ، من المشاقة بمعنى المعادة والمخاصمة ، حتى

لكتاب كل واحد من المتخاصمين في شق ومكان يخالف شق صاحبه
ومكانه

أى : ذلك الذى حل بهم في الدنيا من عقاب ، والذى سيحل بهم في الآخرة
من عذاب ، سببه أن هؤلاء الذين كفروا من أهل الكتاب ، عادوا الله - تعالى -
وخالفوا دعوة رسوله - صلى الله عليه وسلم - .

، ومن يشاق الله ، بأن يخالف ما أمر به ، أو نهى عنه ، يعذبه الله - تعالى -
ويخذله ، فإنه - سبحانه - شديد العقاب .

وجملة : فإن الله شديد العقاب ، قائمة مقام جواب الشرط ، أى : ومن
يخالف أمر الله - تعالى - عذبه ، فإنه - سبحانه - شديد العقاب ، لمن أعرض
عن طاعته وذكره .

ثم ساق - سبحانه - لما يغرس الطمأنينة في قلوب المؤمنين ، الذين اشتهر
في تخريب ديار بنى النضير ، ووقى قطع نخيلهم ، فقال - تعالى - : « ما علمتم
من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها ، فبإذن الله وليخزي الفاسقين ، »

و « ما ، شرطية في موضع نصب ، بقوله : « قطعتم ، وقوله : « ومن لينة ، »
بيان لها .

وقوله : « فبإذن الله ، جزاء الشرط . واللام في قوله - تعالى - : « وليخزي
الفاسقين ، متعلقة بمحذوف .

واللينة واحدة اللين ، وهو النخل كله ، أو كرام النخل فقط .
قال الألوسى ما ملخصه : اللينة هى النخلة مطلقا .. وهى فعلة من اللون ،
وياؤها مقلوبة عن واو لكسر ما قبلها - فأصل لينة : لونة ...

وقيل : اللينة : النخلة مطلقا .. وقيل : هى النخلة القصيرة ، وقيل :
السكرية من النخل ... ويمكن أن يقال : أراد باللينة النخلة السكرية ، (١) .

وقد ذكروا في سبب نزول هذه الآية روايات منها : أن المسلمين عندما أخذوا في تقطيع نخيل اليهود ، قال اليهود للنبي - صلى الله عليه وسلم - : يا محمد إنك تنهى عن الفساد ، فما بالك تأمر بقطع النخيل ؟ فأنزل الله هذه الآية .

وقيل : إن المسلمين بعد أن قطعوا بعض النخيل ، ظنوا أنهم قد أخطأوا في ذلك ، فقالوا : لئن أنزل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فزلت هذه الآية .

وقيل : إن المسلمين نهى بعضهم بعضا عن قطع النخيل ، وقالوا إنما هي مقامم المسلمين ، فزلت هذه الآية لتصدق من نهى عن القطع ، وتحايل من قطع من الإثم .

والمعنى : لا تختلفوا - أيها المؤمنون - في شأن ما فعلتموه بنخيل بني النضير ، فإن الذي قطع شيئا من هذه النخيل لا إثم عليه ، والذي لم يقطع لا إثم عليه - أيضا - ، لأن كلا الأمرين بإذن الله - تعالى - ورضاه ، وفي كليهما مصلحة لكم .

لأن من قطع يكون قد فعل ما يغيظ العدو ويذله ، ويحمّله على الاستسلام والخضوع لأمركم ...

ومن ترك يكون قد فعل ما يعود بالخير عليكم ، لأن تلك النخيل الباقية ، منفعتها مستول إليكم ...

وقد شرع - سبحانه - لكم كلا الأمرين في هذا المقام وليخزي الفاسقين عن أمره ، وهم يهود بني النضير ، ومن فاصرهم ، وأيدهم ، وسار على طريقهم في الخيانة والغدر .

فالآية الكريمة المقصود بها : لإدخال المسرة والبهجة في قلوب المؤمنين ، حتى لا يتأثروا بما حدث منهم بالنسبة للنخيل بني النضير ، وحتى يتركوا الخلاف في شأن هذه المسألة ، بعد أن صدر حكم الله - تعالى - فيها ، وهو (٢٤ - سورة الحشر)

أن القطع والترك بإذنه ورضاه ، لأن كلا الأمرين يغرس الحسرة في قلوب الأعداء ...

وعبر - سبحانه - بالليئة عن النخلة ، لأن لفظ ليئة ، أخف لفظاً ، وأدخل في كونها نخلة من كرام النخل .

وقال - سبحانه - : « أو تركتموها قائمة على أصولها ، ، لتصوير هيئتها وحسنها » وأن فروعها قد بقيت قائمة على أصولها ، التي هي جذورها وجذوعها . قال الألوسي : وقوله : « وليخزي الفاسقين » متعلق بمقدر على أنه علله ، وذلك المقدر عطف على مقدر آخر . أى : ليعز المؤمنين ، وليخزي الفاسقين . أى : لينذلهم ...

والمراد بالفاسقين : أولئك الذين كفروا من أهل الكتاب . ووضع الظاهر موضع المضمهر ، إشعاراً بعلّة الحكم - أى أن فسقهم هو السبب في إخراجهم ... (١) .

هذا ، ومن الأحكام التي أخذها العلماء من هذه الآية : أن تخريب ديار العدو ، وقطع الأشجار التي يملكها ، وهدم حصونه ومعسكراته ... جائز مادام في ذلك مصلحة تعود على المسلمين ، ومادامت هناك حرب بينهم وبين أعدائهم .

• • •

ثم بين - سبحانه - حكم النبي الذي أفاده على المسلمين في غزوة بني النضير وفيما يشبهها من غزوات ، وأمر المؤمنين بأن يطيعوا رسوله - صلى الله عليه وسلم - في أمره ونهيه ، وأثنى - سبحانه - على المهاجرين والأنصار لقوة إيمانهم ، ولتقاء قلوبهم ، وسخاء نفوسهم ... فقال - تعالى - :

« وما آفأ الله على رسوله منهم فإأ أوجفتم عليه من خيل ولا ركابٍ
ولكن الله يسلط رسله على من يشاء والله على كل شيء قدير » (٦)
ما آفأ الله على رسوله من أهل القرى ، فله وللرسول ولذي
القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ، كى لا يكون دولة بين
الأغنياء منكم ، وما آتاكم الرسول فخذوه ، وما نهاكم عنه فانتهوا ،
واتقوا الله إن الله شديد العقاب (٧) للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا
من ديارهم وأموالهم ، يبتغون فضلاً من الله ورضواناً ، وينصرون
الله ورسوله ، أولئك هم الصادقون (٨) والذين تبوءوا الدار والإيمان
من قبلهم ، يحبون من هاجر إليهم ، ولا يجادلون فى صدورهم حاجة
مما أوتوا ، ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ، ومن يوق
شح نفسه فأولئك هم المفلحون (٩) والذين جاءوا من بعدهم يقولون
ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ، ولا تجعل فى قلوبنا
غلا للذين آمنوا ، ربنا إنك رؤوف رحيم (١٠) »

وقوله : « وما آفأ الله على رسوله منهم ، فإأ أوجفتم عليه من خيل
ولا ركاب ... » ، مطوف على قوله - تعالى - : « ما نطقتم من لينة ... »
ليبان نعمة أخرى من النعم التى أنعم بها - سبحانه - على المؤمنين ، فى غزوة
بنى النضير .

و « آفأ » من الفى بمعنى الرجوع . يقال : فآ عليه ، إذا رجع . ومنه
قوله - تعالى - فى شأن الإيلاء : « فإن فآوا فإن الله غفور رحيم » .
والمراد به هنا معناه الشرعى : وهو ما حصل عليه المؤمنون من أموال

أعدائهم بدون قتال ، كأن يكون هذا المال عن طريق الصلح ، كما فعل بنو النضير ، فقد صالحوا المؤمنين على الخروج من المدينة ، على أن يكون لكل ثلاثة منهم حمل بعير - سوى السلاح - وأن يتركوا بقية أموالهم للمسلمين ...

والضمير في قوله « منهم » يعود إلى بنى النضير ، الذين عبر - سبحانه - عنهم بقوله : « هو الذى أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب »

وقوله : « فما أوجفتم ... » من الإيجاف بمعنى الإسراع فى السير ، يقال : وجف الفرس يجف وجفا ووجيفا ، إذا أسرع فى سيره . والجملة خبر « ما » الموصولة فى قوله : « وما أفاء ... » و « ما » فى قوله « فما أوجفتم » نافية .

والركاب : اسم جمع للإبل التى تركب ، وفى الكلام حذف أغنى عنه قوله - سبحانه - « فما أوجفتم ... »

والمعنى : اعلموا - أيها المؤمنون - أن ما أعطاه الله - تعالى - لرسوله - صلى الله عليه وسلم - من أموال بنى النضير التى صالحوه عليها ، فلا حق لكم فيها ، لأنكم لم تنالوها بقتالكم لهم على الخيل أو الإبل ، وإنما تفضل بها - سبحانه - على نبيه - صلى الله عليه وسلم - بلا قتال يذكر ، فقد كانت ديار بنى النضير على بعد ميلين من المدينة ، فذهب إليها المسلمون راجلين ، وحاصروها حتى تم استسلام بنى النضير لهم ...

قال الآلوسى : روى أن بنى النضير لما أجتلوا عن أوطانهم ، وتركوا رباعهم وأموالهم ، طلب المسلمون تخميسها كغنائم بدر ، فأنزل الله - تعالى - : « وما أفاء الله على رسوله منهم فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب ... » فسكانت لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - خاصة .

فقد أخرج البخارى ومسلم وأبو داود ، والترمذى ، والنسائى ، وغيرهم عن عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - قال : كانت أموال بنى النضير ، مما

أفاه الله - تعالى - على رسوله - صلى الله عليه وسلم - مما لم يوجب المسلمون عليه بخيل ولا ركاب ، وكانت لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - خاصة ، فكان ينفق على أهله منها نفقة سنة ، ثم يجعل مابقي في السلاح والكرراع مدة في سبيل الله - تعالى -

وقال الضحاك : كانت أموال بني النضير لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - خاصة ، فأثر بها المهاجرين ، وقسمها عليهم ، ولم يعط الأنصار منها شيئاً . إلا ثلاثة منهم أعطاهم لفقركم ... (١) .

وقوله - سبحانه - : **وَلَا يَكُنْ اللَّهُ يَسْلُطُ رَسُولَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ ...** ، **استدراك على النبي في قوله - تعالى - : دفا أوجفتم عليه ...**

أي : ليس لكم الحق - أيها المؤمنون - في أموال بني النضير ، لأنكم لم تظفروا بها عن طريق قتال منكم لهم ، ولكن الله - تعالى - سلط رسوله - صلى الله عليه وسلم - عليهم وعلى ما في أيديهم ، كما كان يسلط رسوله على من يشاء من أعدائهم ، والله - تعالى - قدير على كل شيء ...

ومادام الأمر كذلك ، فانركوا رسولكم - صلى الله عليه وسلم - يتصرف في أموال بني النضير بالطريقة التي يريدونها ويختارها ، بإلهام من الله - عز وجل - .

وقوله - تعالى - : **وَمَا أَفَاهُ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى ، فَلِلَّهِ وَالرَّسُولِ وَلِلَّذِينَ الْقُرْبَى ...** ، يرى كثير من العلماء أنه وارد على سبيل الاستئناف الابتدائي ، وأنه سبق لبيان حكم شرعي جديد ، يختلف عن الحكم الذي أورده الآية السابقة على هذه الآية ..

إذ أن الآية السابقة ، واردة في حكم أموال بنى النضير بصفة خاصة ، وهذه في حكم الفي . بعد ذلك بصفة عامة .

وعليه يكون المعنى : لقد بينت لكم - أيها المؤمنون - حكم أموال بنى النضير ، وهي أنها لرسولنا - صلى الله عليه وسلم - يضعها حيث يشاء .

أما ما أقاده الله - تعالى - على رسوله - صلى الله عليه وسلم - من أموال أهل القرى الأخرى ، كقريظة وفدك وغيرها فحكم هذا الفي . أنه يقسم إلى خمسة أقسام .

قسم للرسول - صلى الله عليه وسلم - يتفق منه على نفسه وأهله ، وما تبقى منه يكون في مصالح المسلمين .

وقسم لأقاربه - صلى الله عليه وسلم - وهم : بنو هاشم وبنو المطلب ..

وقسم لليتامى : وهم أطفال المسلمين الذين مات آباؤهم عنهم قبل أن يبلغوا .

وقسم للمساكين وهم الذين ليس لهم مال يكفئهم ضروريات الحياة .

وقسم لأبناء السبيل ، وهم ، المسافرون المنقطعون عن مالهم في سفرهم ، ولو كانوا أغنياء في بلدهم ...

وقد رجح الإمام ابن جرير هذا الرأي ، فقال - بعد استعراضه للأقوال - : والصواب من القول في ذلك عندى أن هذه الآية حكمها غير حكم الآية التي قبلها وذلك أن الآية التي قبلها ، مال جعله الله - عز وجل - لرسوله - صلى الله عليه وسلم - خاصة دون غيره . لم يجعل فيه لأحد نصيبا ..

فإذا كانت هذه الآية التي قبلها مضت ، وذكر المال الذي خص الله به رسوله - صلى الله عليه وسلم - ، ولم يجعل لأحد منه شيئا ، وكانت هذه الآية نخباً عن المال الذي جعله الله لأصناف شتى ، كان معلوماً بذلك أن المال الذي

جعله لأصناف من خلقه ، غير المال الذي جعله للنبي - صلى الله عليه وسلم - ، (١) .

وقال الألوسي عند تفسيره لهذه الآية ما ملخصة : قوله - تعالى - :
 « ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى » ، بيان لحكم ما أفاءه الله على رسوله
 من قرى الكفار على العموم ، بعد بيان حكم ما أفاءه من بني النضير ...

فالمجلة جواب سؤال مقدر ناشئ عما فهم من الكلام السابق ، فكان قائلًا
 يقول : قد علمنا حكم ما أفاء الله - تعالى - من بني النضير ، فما حكم ما أفاء
 - عز وجل - من غيرهما ؟

فجبل : ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فله وللرسول ولذئ القرى .
 ولذا لم يعطف على ما تقدم ، ولم يذكر في الآية فيه الإيجاف ولا عدمه ...

وسمه - سبحانه - وسهم رسوله واحد . وذكره - تعالى - : افتتاح
 كلام للتيمن والتبرك . فإن الله له ما في السموات وما في الأرض ، وفيه تعظيم
 لشأن الرسول - صلى الله عليه وسلم - .

وأهل القرى المذكورون في الآية ، هم : أهل الصفراء ؛ وينبع ، ووادي
 القرى ، وما هنالك من قرى العرب ، التي تسمى قرى عربية ، وحكمها مخالف
 لحكم أموال بني النضير ، (٢) .

ومن العلماء من يرى أن الآية التي معنا ، بمنزلة البيان والتفسير للآية التي
 قبلها ، لأن الآية الأولى لم تبين المستحقين للفيء الذي أفاءه الله - تعالى -
 على رسوله من أموال بني النضير ، فخامت الآية الثانية وبيئت المستحقين له .
 وعلى رأس المفسرين الذين قالوا بهذا الرأي صاحب الكشاف ، فقد

(١) راجع تفسير ابن جرير > ٢٥ ص ٢٨

(٢) راجع تفسير الألوسي > ٢٨ ص ١٥

قال عند تفسيره لهذه الآية : لم يدخل - سبحانه - العاطف على هذه الجملة - وهي قوله : ما أفاء ... - لأنها بيان للأولى ، فهي منها غير أجنبية عنها . بين لرسوله - صلى الله عليه وسلم - ما يصنع بما أفاء الله عليه ، وأمره أن يضعه حيث الخس من الغنائم ، مقسوما على الأقسام الخمسة ، (١) .

وقال الإمام ابن كثير : قوله - تعالى - : « ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى » ، أي جميع البلدان التي تفتح هكذا ، فحكمها أموال بني النضير ، ولهذا قال : فله والرسول ولذی القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ، . فلهذه مصارف أموال القبي ووجوهه ... ، (٢) .

ومر هذا نرى أن أصحاب الرأي الأول ، يقولون إن الآيتين في حكمين مختلفين ، لأن الآية الأولى في بيان حكم أموال بني النضير ، وأن الله - تعالى - قد جعلها للرسول صلى الله عليه وسلم - يضعها حيث يشاء ، وأما الآية الثانية فهي في حكم أموال القرى الأخرى ، التي أفاءها الله - تعالى - على رسوله - صلى الله عليه وسلم - ، وأن الله - تعالى - قد حدد له وجوه صرفها ، فقال : « فله والرسول ولذی القربى » .

وأما أصحاب الرأي الثاني فيرون أن الآية الثانية مفصلة لما أجملته الآية الأولى ، وأن كل فيء يقسم بالطريقة التي يثبتها الآية الثانية .

ويبدو لنا أن الرأي الأول أقرب إلى الصواب ، لأن الثابت في السنة الصحيحة ، أن أموال بني النضير ، لم يخدمها - صلى الله عليه وسلم - بل كانت له خاصة ، يوزعها كما يشاء ، وقد آثر بها المهاجرين ، وقسمها عليهم : ولم يعط الأنصار منها شيئا سوى ثلاثة رجال منهم ، كانت بهم حاجة فأعطاهم ، وبذلك

(١) راجع تفسير الكشاف ج ٤ ص ٨٢

(٢) تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٢٣٥

نرى أنه - صلى الله عليه وسلم - لم يتقيد في التوزيع لهذه الأموال ، بمن ورد ذكرهم في الآية الثانية .

وما دام الأمر كذلك ، فلا حاجة إلى القول بأن الآية الثانية ، ببيان وتفضيل الآية الأولى .

هذا ، وهناك أقوال أخرى في معنى هذه الآية ، مبسوطه في كتب الفقه والتفسير ، فليرجع إليها من شاء المزيد من الأحكام الفقهية (١)

وقوله سبحانه - : : كي لا يكون دولة بين الأغنياء منكم ... ، بيان للحكمة هنا المشرع الذي شرعه - سبحانه - بالنسبة للأموال التي أتت عن طريق الفتي والضمير المستتر في قوله : : يكون ، للفتي .

و ، الدولة ، بضم الدال المشددة - لسم لما يتداوله الناس فيما بينهم من أموال ، فيكون في يد هذا تارة ، وفي يد ذلّا تارة أخرى .

و ، الدولة ، بفتح الدال المشددة - لسم للفتوة من الظفر والنصر في الحرب وغيرها .

يقال لفلان على فلان دولة ، أي : غلبة ونصر .

وبعضهم يرى أن الدولة - بالضم والفتح - بمعنى واحد ، وهو ما يدور ويدول للإنسان من الفتي والنصر .

والمعنى : شرعنا لكم هذه الأحكام المتعلقة بتقسيم الفتي . كي لا يكون المال الناجم عنه ، متداولاً بين أيدي أغنيائكم دون فقرائكم .

والمقصود بهذه الجملة الكريمة ، إبطال ما كان شائعاً في الجاهلية ، من

لإستئثار قواد الجيوش ، ورؤساء القبائل ، بالكثير من الغنائم دون غيرهم من
لإشتراك معهم فى الحروب ، كما قال أحد الشعراء ، لأحد الرؤساء أو القادة :

لك المربع منها والصفايا وحكمك والنشيطه والفضول

أى : لك - أيها القائد وحدك من الغنيمة ربعها ، والصفايا أى :
والنفيس منها ، ولك - أيضا - ما تحكم به على العدو ، ولك النشيطه ، وهى
ما يصيبه الجيش من العدو قبل الحرب ، ولك - كذلك - الفضول ، أى :
ما يبقى بعد قسمة الغنائم .

وقد أبطل الإسلام كل ذلك ، حيث جعل مصارف الفيه ، تعود إلى
المسلمين جميعا ، بطريقة عادلة ، بينها - سبحانه - فى هذه الآية وفى غيرها .

قال بعض العلماء : والجدير بالذكر هنا : أن دعاة بعض المذاهب الاقتصادية
الفاسدة ، يحتجون بهذه الآية على مذهبهم الفاسد ، ويقولون : يجوز للدولة
أن تستولى على مصادر الإنتاج وروس الأموال ، لتعطىها أو تشرك فيها
الفقراء ، وما يسمونهم طبقة العمال ، وهذا على ما فيه من كساد إقتصادى ،
وفساد إجتماعى ، قد ثبت خطؤه وظهر بطلانه مجانا الحقيقة الاستدلال .

لأن هذا المال ترك لمرافق المسلمين العامة ، من الإنفاق على المجاهدين ،
وتأمين الغزاة فى الحدود والنفوس ، وليس يعطى الأفراد كما يقولون ، ثم -
هو أساسا - مال جاء غنيمة للمسلمين ، وليس نتيجة كدح الفرد وكسبه الحلال
ولما كان مال الغنيمة ليس ملكا لشخص ، ولا هو - أيضا - كسب
لشخص معين ، تحقق فيه العموم فى مصدره ، وهو الغنيمة ، والعموم فى مصرفه
وهو عموم مصالح الأمة ، ولا دخل ولا وجود للفرد فيه ، فشتان بين هذا
الأصل فى التشريع ، وهذا الفرع فى التضييل ... (١)

ثم أمر - سبحانه - المسلمين ، أن يمثلوا أمر رسولهم - صلى الله عليه

(١) راجع تفسير أضواء البيان ج ٨ ص ٤٤ للشيخ الشنقيطى - رحمه الله - .

وسلم - إمتثالا تاما ، فقال : وما آتاكم الرسول فخذوه ، وما نهاكم عنه فانتهوا وإتقوا الله إن الله شديد العقاب .

وقوله : « آتاكم » من الإتياء ، والمقصود به هنا ما جاءهم به الرسول - صلى الله عليه وسلم - من هدايات ، ونشرعات ، وآداب .. ويدخل في ذلك دخولا أوليا قسمته لفقيه - بفي النصير بين المهاجرين ، دون الأنصار .

أى : ما أمركم الرسول - صلى الله عليه وسلم - بفعله - أيها المؤمنون - فافعلوه ، وما نهاكم عن فعله فاجتنبوه ، وأنقوا الله في كل أحوالكم ، فإنه - سبحانه - شديد العقاب لمن خالف أمره . ومنهم من جعل « آتاكم » هنا بمعنى أعطاكم من الفقيه ، وجعل « نهاكم » بمعنى نهاكم عن الأخذ منه ، وكان صاحب هذا الرأي يستعين على ما ذهب إليه بفحوى المقام .

قال صاحب الكشف : قوله « وما آتاكم الرسول » من قسمة غنيمة أو فيء . « فخذوه » وما نهاكم عنه ، أى : عن أخذه منها « فانتهوا » عنه .

والاجود أن يكون - الأمر والنهى - عاما في كل ، ما آتى - رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ونهى عنه ، وأمر الفقيه . داخل في عمومته ، (١)

وقال الامام ابن كثير : وقوله - تعالى - : « وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا »

أى : مهما أمركم به فافعلوه ، ومهما نهاكم عنه فاجتنبوه ، فإنه إنما يأمر بخير ، وينهى عن شر ...

أخرج الشيخان عن ابن مسعود أنه قال : لعن الله الواشيات ، والمستوشيات والمتنميات ، والمتفلجات للحسن ، والمغيرات لخلق الله - عز وجل - . فبلغ ذلك امرأة من بني أسد يقال لها أم يعقوب ، وكان - تقرأ القرآن ، فأتته فقالت : بلغني أنك قلت كذا وكذا ، فقال : وما لى لا ألعن من لعن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهو في كتاب الله .

فقلت : لقد قرأت ما بين لوحى المصحف فما وجدته . فقال : إن كنت قرأته فقد وجدته ، أما قرأت : وما آتاكم الرسول فخذوه ، وما نهاكم عنه فانتهوا ، قالت بلى .

قال : فإن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - نهى عنه . قالت : لاني لأظن أم لك يفعلونه !!

قال : اذهبي فانظري ، فذهبت فلم تر من حاجتها شيئاً . فجاءت ، فقالت : ما رأيت شيئاً . قال : لو كان كذا لم نجامعنا ، (١)

وقال بعض العلماء : وفي الآية دليل على وجوب الأخذ بالسنن الصحيحة في كل الأمور .

وعن أبي رافع أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : لا الذين أحكم متكثبا على أريكتيه أمر مما أمرت به أو نهيت عنه فيقول لا أدري !! ما وجدنا في كتاب الله اتبعناه .

وهذا الحديث من أعلام النبوة ، فقد وقع ذلك بعد من الجاهلين بكتاب الله ، ويمنصب الرسالة ، ومن الزنادقة الصادين عن سبيل الله ، (٢)

ثم أتى - سبحانه - على المهاجرين الذين فارقوا أموالهم وعشيرتهم ، من أجل إعلاء كلمته - تعالى - فقال : وللفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلا من الله ورضوانا وينصرون الله ورسوله ، أولئك هم الصادقون ،

قال الإمام الرازي : أعلم أن هذا بدل من قوله - تعالى - : ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل . . . ، كأنه قيل : أعني بأولئك الأربعة ، هؤلاء الفقراء والمهاجرين الذين من صفتهم كذا وكذا .

(١) راجع تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٣٣٦

(٢) تفسير ، صفوة البيان ، ج ٢ ص ١٦٤ ، لفضيلة الشيخ حسين مخلوف

ثم لأنه - تعالى - وصفهم بأمور أولها : أنهم فقراء ، ثانيها : أنهم مهاجرون وثالثها : أنهم أخرجوا من ديارهم وأموالهم . يعني أن الكفار أجبروهم على الخروج .. ورابعها : أنهم يستغنون فضلا من الله ورضوانا . والمراد بالفضل ثواب الجنة ، وبالرضوان : قوله : « ورضوان من الله أكبر » .

وخامسها : قوله : « وينصرون الله ورسوله » ، أى : بأنفسهم وأموالهم . وسادسها : قوله : « أولئك هم الصادقون » ، يعني أنهم لما هجروا لذات الدنيا ، ومحمّلوا شدائدنا لأجل الدين ، ظهر صدقهم في دينهم ... (١)

فأنت ترى أن الله - تعالى - قد وصف المهاجرين في مسيبله ، بحمله من المناقب الحميدة ، والتي يستحقوا بسببها الفلاح والفوز برضوان الله .

ثم مدح - سبحانه - بعد ذلك الأنصار ، الذين يحبون من هاجر إليهم فقال : « والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم ، يحبون من هاجر إليهم » ، والجملة الكريمة معطوفة على « المهاجرين » ، أو مبتدأ وخبره : « يحبون » ، والتبوء : النزول في المكان ، ومنه المباشرة للمنزل الذي ينزل فيه الإنسان .

والمراد بالدار : المدينة المقورة . وأل للعهد . أى : الدار المعهودة المعروفة وهي دار الهجرة .

وقوله : « الإيمان » منصوب بفعل مقدر . أى : وأخلصوا الإيمان .

قال صاحب الكشف : فإن قلت : ما معنى عطف الإيمان على الدار ، ولا يقال : تبوءوا الإيمان ؟ .

قلت معناه : تبوءوا الدار وأخلصوا الإيمان ، كقوله : علفتمنا تنبأ وماء بارداً ...

أى : وجعلوا الإيمان مستقرا ومتوطنا لهم ، لئلا يفرغ منه ، واستقامتهم عليه ، كما جعلوا المدينة كذلك .

أو أراد : دار الهجرة ودار الإيمان ، فأقام لام التعريف في الدار مقام المضاف إليه ، وحذف المضاف من دار الإيمان ، ووضع المضاف إليه مقامه .

أو سمي المدينة - لأنها دار الهجرة ، ومكان ظهور الإيمان - بالإيمان (١) .
وقوله : « من قبلهم » أي : من قبل المهاجرين . وهو متعلق بقوله « تبوءوا » .

وقوله : « يحبون من هاجر إليهم » خبر المبتدأ ، أو حال من الذين تبوءوا الدار ...

أي : هذه هي صفات المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم ... وهذا هو جزاؤهم ...

أما الذين سكنوا دار الهجرة وهي المدينة المنورة ، من قبل المهاجرين ، وأخلصوا لإيمانهم وعبادتهم لله - تعالى - ، فإن من صفاتهم أنهم يحبون إخوانهم الذين هاجروا إليهم حبا شديدا ، لأن الإيمان ربط بين قلوبهم برابط المودة والمحبة . وقوله : « ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا » ، صفة أخرى من صفات الأنصار .

ومعنى « يجدون » هنا : يحسون ويعلمون . والضمير الأنصار ، وفي قوله « أوتوا » للمهاجرين . والحاجة في الأصل : اسم مصدر بمعنى الاحتياج ، أي : الافتقار إلى الشيء .

والمراد بها هنا : المأرب أو الرغبة الناشئة عن التطلع إلى ما منحه النبي - صلى الله عليه وسلم - للمهاجرين دون الأنصار ، من فقه أو غيره .

أي : أن من صفات الأنصار - أيضا - ، أنهم لا تتطلع نفوسهم إلى شيء .

مما أعطى للمهاجرين ، من الفقيه أو غيره ، لأن المحبة التي ربطت قلوب الأنصار بالمهاجرين ، جعلت الأنصار يرتفعون عن التشوف إلى شيء مما أعطاه النبي - صلى الله عليه وسلم - للمهاجرين وحدهم ...

ثم وصفهم - سبحانه - بصفة ثالثة كريمة فقال : « ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة »

والإشارة معناه : أن يؤثر الإنسان غيره على نفسه ، على سبيل الإكرام والنفع والخصاصة : شدة الحاجة ، وأصلها من خصاص البيت ، وهو ما يبق بين عيادته من الفرج والفتحات .

أي : أن من صفات الأنصار أنهم كانوا يقدمون في النفع لإخوانهم المهاجرين على أنفسهم ، ولو كانوا في حاجة ماسة ، وفقر واضح ، إلى ما يقدمونه لإخوانهم المهاجرين .

ولقد ضرب الأنصار - رضى الله عنهم - أروع الأمثال وأسمها في هذا المضمار ، ومن ذلك ما رواه الشيخان والترمذي والنسائي وغيرهم عن أبي هريرة قال : أتى رجل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال : يا رسول الله ، أصابني الجهد ، فأرسل إلى نساءه فلم يجد شيئاً فقال - صلى الله عليه وسلم - : ألا رجل يضيف هذا الرجل الليلة رحمه الله ؟ فقام رجل من الأنصار وفي رواية أنه أبو طلحة - فقال : أنا يا رسول الله ، فذهب به إلى أهله ، فقال لامرأته : أكرمي ضيف رسول الله - صلى الله عليه وسلم - . قالت : والله ما عندي إلا قوت الصبية ١١ قال : إذا أراد الصبية العشاء فتوميهن ، وتعالى فأطفئ السراج ، ونطوى بطوننا لليلة لضيف رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ففعلت .

ثم غدا الضيف على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : لقد عجب الله الليلة من فلان وفلانة ، وأنزل الله فيهما : « ويؤثرون على أنفسهم ولو كان

بهم خصاصة . . . ، (١) .

وقوله - سبحانه - : « ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون » ، تذييل قصد به حض الناس على التخلي بفضيلة السخاء والكرم .

والشح يرى بعضهم أنه بمعنى البخل ، ويرى آخرون أن الشح غريزة في النفس تحملها على الإمساك والتقتير ، وأما البخل فهو المنع ذاته ، فكأن البخل أثر من آثار الشح .

قال صاحب الكشف : الشح - بالضم والكسر - وقد قرى بهما - : اللؤم ، وأن تكون نفس المرء كزرة حريصة على المنع ، كما قال الشاعر :
يمارس نفسا بين جنبيه كزرة إذا هم بالمعروف قالت له مهلا .

وقد أضيف إلى النفس لأنه غريزة فيها ، وأما البخل فهو المنع نفسه ، ومنه قوله - تعالى - : « وأحضرت الأنفس الشح . . . » (٢) .

أى . ومن يوق بتوفيق الله وفضله ، شح نفسه وحرصها على الإمساك ، فيخالفها فيما تأمره به من المنع والتقتير ، فأولئك الذين يخالفونهم المفلحون ، الفاتزون برضا الله - عز وجل - .

ومن الأحاديث التي وردت في النهي عن الشح ، ما أخرجه مسلم - في صحيحه - عن جابر بن عبد الله ، أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : « إياكم والظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة ، واتقوا الشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم ، حملهم على أن سفكوا دماءهم ، واستحلوا محارمهم » (٣) .

(١) تفسير الألوسي ج ٢٨ ص ٥٢ . وراجع تفسير القرطبي ج ١٨

ص ٥٤

(٢) تفسير الكشف ج ١ ص ٣٢٩ .

(٣) راجع تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٣٢٩ .

ثم مدح - سبحانه - كل من سار على نهج المهاجرين والأنصار في قوة الإيمان ، وفي طهارة القلب ، وسماحة النفس فقال - تعالى - : « والذين جاؤا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ، ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ... » .

قال الألوسي : قوله : « والذين جاؤا من بعدهم ... » ، عطف عند الأكثرين أيضا على المهاجرين . والمراد بهؤلاء : قيل : الذين هاجروا حين قوى الإسلام ، فالجىء حسى ، وهو يجيئهم إلى المدينة ، وضمير : من بعدهم ، للمهاجرين الأولين .

وقيل : هم المؤمنون بعد الفريقين إلى يوم القيامة ، فالجىء إما إلى الوجود أو إلى الإيمان ، وضمير : من بعدهم ، للفريقين : المهاجرين والأنصار .

وهذا هو الذى يدل عليه كلام عمر - رضى الله عنه - وكلام كثير من السلف كالصريح فيه ، فالآية قد استوعبت جميع المؤمنين ، (١) .
ويبدو لنا أن هذا الرأى الثانى ، وهو كون الذين جاؤوا من بعدهم يشمل المؤمنين الصادقين جميعا ، أقرب إلى الصواب ، لأنهم هم التابعون بإحسان للمهاجرين والأنصار ، والذين اتبعوهم بإحسان رضى الله عنهم ورضوا عنه ... ، (٢) .

وعليه يكون المعنى : « والذين جاؤا من بعد المهاجرين والأنصار ، واتبعوهم بإحسان إلى يوم القيامة ، يقولون ، على سبيل الدعاء لأنفسهم ولإخوانهم فى العقيدة ، « ربنا اغفر لنا ، أى : ياربنا اغفر لناذنوبنا ، واغفر لناذنوبنا ، واغفر لإخواننا ، فى الدين » الذين سبقونا بالإيمان ، فهم أسبق منا إلى

(١) تفسير الألوسى ج ٢٨ ص ٥٤ .

(٢) سورة التوبة الآية ١٠٠ .

الخير والفضل ... ولا تجعل ، ياربنا ، في قلوبنا غلا ، أى : حسدا وحقدًا
 ، للذين آمنوا ، أى : ياربنا لا تجعل في قلوبنا أى غل أو حسد لإخواننا
 المؤمنين جميعا .

« ربنا إنك رؤوف رحيم ، أى : ياربنا إنك شديد الرأفة بعبادك ، واسع
 الرحمة بهم »

وقد أخذ العلماء من هذه الآية الكريمة ، أن من حق الصحابة - رضوا الله
 عنهم - على من جاء بعدهم ، أن يدعو لهم ، وأن ينزلهم في قلوبهم منزلة
 الاحترام والتبجيل والتكريم ...

ورحم الله الإمام القرطبي فقد أقصر في بيان هذا المعنى ، فقال ما ملخصه :
 قوله - تعالى - : « والذين جاؤا من بعدهم » ، يعنى التابعين ، ومن دخل في
 الإسلام إلى يوم القيامة .

قال ابن أبي ليل : الناس على ثلاثة منازل : المهاجرون ، والذين تبوءوا
 الدار والإيمان ، والذين جاؤا من بعدهم . فاجتهد ألا يخرج من هذه
 المنازل ...

وهذه الآية دليل على وجوب محبة الصحابة ...

وقال الإمام الرازى : واعلم أن هذه الآيات قد استوعبت جميع
 المؤمنين ، لأنهم إما المهاجرون ، أو الأنصار ، أو الذين جاؤا من بعدهم ،
 وبين أن من شأن من جاء من بعد المهاجرين والأنصار ، أن يذكر السابقين ،
 وهم المهاجرون والأنصار بالدعاء والرحمة ، فن لم يكن كذلك ، بل ذكرهم
 بسوء ، كان خارجا من جملة أفسام المؤمنين ، بحسب نص هذه الآية ، (١) .

وبعد أن رسمت السورة الكريمة ، تلك الصورة الوضيئة المهاجرين
والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان ... بعد كل ذلك أخذت في رسم صورة
أخرى ، متباعدة تمام المتباعدة مع صورة هؤلاء الصادقين ، ألا وهي صورة
المنافقين ، الذين انضموا إلى كل مناوئ الدعوة الإسلامية ؛ فقال - تعالى - :

« لم تر إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من
أهل الكتاب ، إئن أخرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحداً
أبداً ، وإن قوتلتم لننصرنكم ، والله يشهد إئنهم لكاذبون (١١) لئن
أخرجوا لا يخرجوا معهم ، ولئن قوتلوا لا ينصرونهم ، ولئن
نصروهم ليوئن الأديبار ثم لا ينصرون (١٢) لأنتم أشد رهبة في
صدورهم من الله ، ذلك بأنهم قوم لا يفقهون (١٣) لا يقائلونكم جميعاً
إلا في قري محصنة ، أو من وراء جدر ، بأسهم بينهم شديد ،
تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى ، ذلك بأنهم قوم لا يعقلون (١٤) كمثل
الذين من قبلهم قريباً ، ذاقوا وبال أمرهم ولهم عذاب أليم (١٥)
كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر ، فلما كفر قال إئنئ برىء منك
إئنئ أخاف الله رب العالمين (١٦) فكان عاقبتهم أنهما في النار خالدين
فيها ، وذلك جزاء الظالمين (١٧) »

قال الألوسي : قوله - تعالى - : « لم تر إلى الذين نافقوا » حكاية
لما جرى بين الكفرة والمنافقين من الأقوال الكاذبة ، والأحوال الفاسدة ،
وتعجيب منها بعد حكاية محاسن أحوال المؤمنين على اختلاف طبقاتهم .
والخطاب لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - ، أو لكل أحد ممن يصلح
للخطاب ...

والآية - كما روى عن ابن عباس - نزلت في رهط من بنى عوف منهم
 هبذ الله بن أبي سلول ... بعثوا إلى بنى النضير بما تضمنته الجمل المحكية ،
 بقوله - تعالى - : يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب ... (١) ،
 والمراد بالآخوة في قوله - سبحانه - : : يقولون لإخوانهم ، : أخوة في
 الكفر والفسوق والعصيان ...

والمعنى : ألم يصل إلى عليك - أيها الرسول الكريم - حال أولئك المنافقين
 الذين أظهروا الإسلام ، وأبطنوا الكفر ، وهم يقولون لإخوانهم في الكفر
 من أهل الكتاب ، وهم : يهود بنى النضير ، أثناء محاصرته لهم - أيها
 المؤمنون - .

يقولون لهم : : والله لئن أخرجتم ، من دياركم ، لنخرجن معكم ، أى :
 لنخرجن من ديارنا معكم ، لنكون مصاحبين لكم حينما سرتهم .
 ويقولون لهم : - أيضا - : : ولا تطيع فيكم أحدا أبدا ... ، أى : ولا تطيع
 في شأنكم أحدا أبدا ، يريد العدوان عليكم ، أو يديد منعنا من الخروج معكم
 ومؤازرتكم ...

ويقولون لهم - كذلك - : : وإن قوتلتم لننصرنكم ، أى : وإن قاتلكم
 المسلمون ، لنقفن إلى جواركم ، ولنقدمن لكم العون الذى يؤدى إلى
 نصركم .

وقوله - سبحانه - : : والله يشهد إنهم لكاذبون ، رد عليهم ، وإبطال
 لمزاعمهم .

أى : والله - تعالى - يشهد بأن هؤلاء المنافقين لكاذبون في أقوالهم ،
 وفي عهودهم ...

ثم أبطل - سبحانه - أقوالهم بصورة أكثر تفصيلا فقال : : لئن أخرجوا

لا يخرجون معهم ، ولئن قوتلوا لا ينصرونهم ، ولئن نصروهم ليولن الأدبار
ثم لا ينصرون .

أى : واقه لئن أخرج المؤمنون اليهود من ديارهم ، فإن هؤلاء المنافقين
لا يخرجون معهم ، ولئن قاتل المؤمنون اليهود ، فإن المنافقين لن ينصروا
اليهود ، ولئن نصروهم على سبيل الفرض والتقدير - ، ليولن المنافقون
الأدبار فرارا منكم - أيها المؤمنون - ، ثم لا ينصرون بعد ذلك ، لا هم
ولا من قاموا بنصرهم ، لأن الفريقين اجتمعوا على الباطل واتحدت قلوبهم
في الجبن والخور والحرص على الحياة ...

فأنت ترى أن هاتين الآيتين الكريمتين ، قد وصفتا المنافقين ، بالكفر
والعصيان ، وبالتحالف مع كل محارب للدعوة الإسلامية ، وبنقض العهد ،
وخلف الوعود ، وبالجبن الخالع ، والكذب الواضح ...

وقد تحقق ما أخبرت عنه الآيتان عن هؤلاء المنافقين ، فإن يهود بني
النضير عندما جد الجد ، وحانت ساعة رحيلهم ... أرسلوا إلى المنافقين
يطلبون عونهم ، فما كان من المنافقين إلا أن خذلهم ، وتحللوا من
وعودهم لهم ...

قال صاحب الكشف : فإن قلت : كيف قيل : « ولئن نصروهم ... » ،
بعد الإخبار بأنهم لا ينصرونهم ؟ قلت : معناه ، ولئن نصروهم على سبيل
الفرض والتقدير ... كقوله : لئن أشركت ليحبطن عملك ، ، وكما يعلم
- سبحانه - ما يكون ، فهو يعلم ما لا يكون ...

والمعنى : ولئن نصر المنافقون اليهود اينزه من المنافقون ثم لا ينصرون
بعد ذلك . أى : يهلكهم الله - تعالى - ولا ينفعهم نفاقهم ، لظهور كفرهم ،
أو لينزه من اليهود ثم لا ينفعهم نصر المنافقين لهم .

وفيه دليل على صحة النبوة لأنه لإخبار بالغيب ... (١).

وبعد أن بشر الله - تعالى - المؤمنين بهزيمة أعدائهم أمامهم ، أتبع ذلك ببشارة أخرى ، وهى أن هؤلاء المنافقين وإخوانهم فى الكفر ، يخشون المؤمنين خشية شديدة ، فقال - سبحانه - : « لآتتم أشد رهبة فى صدورهم من الله ... » .

والرهبة : مصدر رهب ، بمعنى خاف . يقال : رهب فلان فلانا ، إذا خافه خوفا شديدا من داخل نفسه ...

أى : لآتتم - أيها المؤمنون - أشد خوفا فى نفوس هؤلاء المنافقين واليهود ، من ربهم الذى خلقهم وأوجدهم .

وقوله ذلك بأسم قوم لا يفقهون ، تعليل لسبب جبنهم وخوفهم . واسم الإشارة يعود إلى كون المؤمنين أشد رهبة فى صدور المنافقين واليهود من الله - تعالى - .

أى : أآتم أشد رهبة فى قلوبهم من الله - تعالى - ، بسبب أنهم قوم لا يفقهون الحق ، ولا يعلمون شيئا عن عظمة الله - سبحانه - وجلاله وقدرته ...

والمقصود من هذه الآية السكرية ، تهوين أمر هؤلاء الأعداء فى نفوس المؤمنين ، وبيان أن هؤلاء الأعداء قد باغ الجبن والخور فيهم مبلغا كبيرا ، لدرجة أن خشيتهم لكم ، أشد من خشيتهم لله - تعالى - .

والتعبير بالرهبة للإشعار بأنها رهبة خفية لا يعلمها إلا الله - تعالى - وأن هؤلاء المنافقين واليهود ، مهما تظاهروا أمام المؤمنين بالباس والقوة ، فهم فى قرارة نفوسهم يخافون المؤمنين خوفا شديدا ...

قال صاحب الكشف : رهبة مصدر رهب المبني المفعول ، كأنه قيل أشد رهوبة .

وقوله : : في صدورهم ، : دلالة على نفائهم يعني : أنهم يظهرون لكم في العلانية خوف الله ، وأنتم أهيب في صدورهم من الله - تعالى - .

فإن قلت : كأنهم كانوا يرهبون من الله حتى تكون رهبتهم منهم أشد ؟

قلت : معناه أن رهبتهم في السر منكم ، أشد من رهبتهم من الله التي يظهرونها لكم ، وكانوا يظهرون لهم رهبة شديدة من الله ... ، (١) .

فأنت ترى أن الآية الكريمة قد قررت حقيقة راسخة في نفوس المنافقين وأشباههم ، وإن كانوا يحاولون إخفاءها وسقراطها ، وهي أن خشيتهم من الناس أشد من خشيتهم من الله - تعالى - .

ثم يقرر - سبحانه - حقيقة أخرى ، أيدها التجارب والمشاهد الواقعية ، فقال - تعالى - : : لا يقاتلونكم جميعا إلا في قرى محصنة أو من وراء جدر ، بأسهم بينهم شديد . تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى ... ، .

والآية الكريمة بدل اشتغال من التي قبلها ، لأن شدة الخوف من المؤمنين ، جعلت اليهود وحلفاءهم ، لا يقاتلون المسلمين ، إلا من وراء الخنادق والحصون ..

والجدر : جمع جدار ، وهو بناء مرتفع يحتمى به من يقاتل من خلفه .
و : جميعا ، بمعنى مجتمعين كلهم ...

أي : أن هؤلاء اليهود وحلفاءهم من المنافقين ، لا يقاتلونكم مجتمعين كلهم في موطن من المواضع إلا في قرى محصنة بالخنادق وغيرها . أو يقاتلونكم

من وراء الجدران التي يقدمون بها ، لأنهم يميزون عن مبارزتهم ، وعن مواجهتهم وجها لوجه ، لفرط رهبتهم منكم ...

قال ابن كثير : يعنى أنهم من جبنهم واهلهم ، لا يقدرّون على مواجهة جيش الإسلام ، بالمبارزة والمقاتلة ، بل إما فى حصون ، أو من وراء جدران حصرين ، فيقاتلونكم للدفع عنهم ضرورة ... (١) .

وقوله - تعالى - : « بأسهم بينهم شديد » جملة مستأنفة ، كأن قائلها قال : ولماذا لا يقاتلون المؤمنين إلا على هذه الصورة ؟ فكان الجواب : بأسهم بينهم شديد . أى : عداوتهم فيما بينهم عداوة شديدة ، بحيث لا يشفقون على رأى ، وقوتهم يستعملونها فيما بينهم استعمالا واسعا ، فإذا ما التقوا بكم تحولات هذه القوة إلى جبن واهل ...

قال صاحب الكشف : يعنى أن البأس الشديد الذى يوصفون به ، إنما هو فيما بينهم إذا اقتتلوا ، ولو قاتلوكم لم يبق لهم ذلك البأس والشدّة ، لأن الشجاع يحسن ، والعزيز يذل ، عند محاربة الله ورسوله ، (٢) .

وقوله - تعالى - : « تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى » استئناف آخر للإجابة عما يقال : من أنه كيف تكون عداوتهم فيما بينهم شديدة ، ونحن نراهم متفقين ؟

فكان الجواب : ليس الأمر كما يظهر من حالهم من أن بينهم تضامن وترايط ... بل الحق أنهم متدابرون مختلفون متباغضون ... وإن كانت ظواهرهم تدل على خلاف ذلك ...

أى : تحسبهم أيها الناظر إليهم مؤلفين ... والحال أن قلوبهم متفرقة ،

(١) تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٣٤٠ .

(٢) تفسير الكشف ج ٤ ص ٨٥ .

ومناقضهم مختلفة ، وبواطنهم تباين ظواهرهم ... ومادام الأمر كذلك فلا تبالوا بهم - أيها المؤمنون - ، بل أغلظوا عليهم ، واجاهدوهم بكل قوة وجسارة ...

واسم الإشارة في قوله : ذلك بأنهم قوم لا يعقلون ، يعود إلى ما سبق ذكره ، من شدة عداوتهم فيما بينهم ، ومن مخالفة بواطنهم لظواهرهم .

أي : ذلك الذي ذكرناه لكم من شدة بأسهم فيما بينهم ، ومن مخالفة بواطنهم لظواهرهم ، سببه أنهم قوم لا يعقلون الحق والهدى ولرشاد ... وإنما هم ينساقون وراء أهوائهم بدافع من الأحقاد والمطامع والشهوات ، بدون إدراك لعواقب الأمور ، أو للفهم الصحيح ...

ثم ساق - سبحانه - مثلين زيادة في تثبيت المؤمنين ، وفي التهوين من شأن أعدائهم فقال - تعالى - : «كمثل الذين من قبلهم قريبا ذقوا وبال أمرهم ولهم عذاب أليم» .

وقوله : «كمثل ...» خير لمبتدأ محذوف . والمراد بالذين من قبلهم : يهود بنى قينقاع ، وكفار قريش الذين حل بهم ما حل من هزائم في غزوة بدر .

والوبال : المرعى الضار الذي ترعاه الماشية ، دون أن تدرك سوء عاقبته .

أي : مثل هؤلاء اليهود والمنافقين ، وحالهم العجيبة ... كمثل الذين من قبلهم ، وهم يهود بنى قينقاع ، الذين أخرجوا من المدينة بسبب غدرهم ، وكان خروجهم قبل خروج بنى النضير بزمان ليس بالطويل ، وكمثل مشركي قريش الذين حلت بهم الهزيمة في غزوة بدر ، فإن هؤلاء وهؤلاء قد ذاقوا في الدنيا سوء عاقبة كفرهم بدون إعمال ...

أما في الآخرة فلمهم عذاب شديد الألم والإهانة .

ووجه الشبه بين السابقين واللاحقين ، أن الجميع قد اغتروا بما لهم وقوتهم فتطاولوا على المؤمنين ، ونقضوا عهودهم معهم . . . فكانت عاقبتهم جميعاً أن أذلهم الله - تعالى - في الدنيا ، ولعذاب الآخرة أشد وأبقى . . .

وأما المثل الثاني فيتجلى في قوله - تعالى - : « كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر ، فلما كفر قال إني بريء منك . . . »

أى : مثل المنافقين في تزوينهم الشر وإفساد ليهود بنى النضير . . . كمثل الشيطان إذ قال للإنسان في الدنيا اكفر بالله - تعالى - فلما كفر ذلك الإنسان ومات نلى الكفر ، وبعث يوم القيامة ، ووجد مصيره السيء . . . ندم وألقى التبعة على الشيطان الذى قال له : إني بريء منك ، ومن كفرك . . . إني أخاف الله رب العالمين ووجه الشبه : أن المنافقين تبرؤا من معاشرتهم ومن مناصرتهم . . . عندما حانت ساعة الجدة ، كما يتبرأ الشيطان من كفر الكافر يوم القيامة .

ومن الآيات التى وردت في هذا المعنى قوله - تعالى - : ، وقال الشيطان لما قضى الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ، ووعدتكم فأخلفتكم ، وما كان لى عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لى ، فلا تلومونى ولوموا أنفسكم ، ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخى . . . ، (١) .

وقوله - سبحانه - : فكان عاقبتهم أنهما في النار خالدين فيها . . . ، من تمام المثل الذى ضرب به الله - تعالى - للمنافقين واليهود .

أى : فكان عاقبة ذلك الشيطان وذلك الإنسان ، أنهما كائنين في النار ، حانة كونهما خالدين فيها خلوداً أبدياً ، وكذلك حال المنافقين واليهود . . . وذلك ، الخلود في النار ، جزاء الظالمين ، الذين تجاوزوا حدود الله - تعالى - ، وحاربوا أوليائه - سبحانه - .

والمراد بالشيطان والإنسان جنسهما ، وقد ذكر بعضهم هنا قصصا تدل على أن المراد بالإنسان شخص معين ، وقد أضربنا عنها صفحا لضعفها (١) .
وبذلك نرى أن هذه الآيات الكريمة قد ذمت المنافقين واليهود ذما شنيعا ، وأضعفت من شأنهم ، وسافت لهم من الأمثلة ما يحمل المؤمنين يستخفون بهم ، ويجاهرونهم بغلظة وشدة .

• • •

ثم وجه - سبحانه - نداء إلى المؤمنين أمرهم فيه بتقواه وبتقديم العمل الصالح الذي ينفعهم يوم يلقونه . ونهاهم عن التشبه بالقوم الفاسقين . . .
فقال - تعالى - :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ، وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ خَيْرَ مَا تَعْمَلُونَ (١٨) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (١٩) لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ (٢٠) لَوْ أَنْزَلْنَاهُ - هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْنَاهُ خَامِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ، وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (٢١) » .

والمراد بالغد في قوله - تعالى - : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ . . . : يوم القيامة . . .

أى : يا من آمنتم بالله - تعالى - حق الإيمان ، اتقوا الله ، أى صوفوا أنفسكم عن كل ما يغضب الله - تعالى - ، وراقبوه في السر والعلن ، وقفوا عند حدوده فلا تتجاوزها .

(١) راجع تفسير ابن كثير ٤ ص ٣٤١ . وتفسير القرطبي ١٨ ص ٢٨ .

« ولتنظر نفس ما قدمت لغد ، أى : ولتنظر كل نفس ، ولتأمل في الأعمال التى عملتها في الدنيا ، والتى ستحاسب عليها في يوم القيامة ، فإن كانت خيرا ازدادت منها ، وإن كانت غير ذلك أقلعت عنها .

وعبر - سبحانه - عن يوم "قيامه بالغد" بالإشعار بقربه ، وأنه آت لا ريب فيه ، كما يأتى "يوم الذى بلى يرمك" . والعرب نخبر عن المستقبل القريب بالغد كما فى قول الشاعر :

فإن يك صدر هذا اليوم ولى فإن غدا انما ظره قريب

وقال - سبحانه - : « ولتنظر نفس ، لإفادة العموم ، أى : كل نفس عليها أن تنظر نظر محاسبة ومراجعة فى أعمالها ، بحيث لا تقدم إلا على ما كان صالحا منها .

قال صاحب الكشف : فإن قلت : ما معنى تنكير النفس والغد ؟ قلت : أما تنكير النفس فاستقلال الأتيس النواظر فيما قدمت للآخرة . كأنه قيل : ولتنظر نفس واحدة فى ذلك . وأما تنكير الغد ، فلتعظيمه وإبهام أمره ، كأنه قيل : لغد لا يعرف كمه لعظمه .

وعن مالك بن دينار : مكتوب على باب الجنة : وجدنا ما عملنا ، وربحنا ما قدمنا ، وخسرنا ما خلفنا ، (١) .

وكرر - سبحانه - الأمر بالتقوى فقال : « واتقوا الله ، للتأكيد . أى : اتقوا الله بأن تؤدوا ما كلفكم به من واجبات ، وبأن تجتنبوا ما نهاكم عنه من سيئات .

وقوله - سبحانه - : « إن الله خبير بما تعملون » ، تعليل للحض على التقوى

أى . اتقوه فى كل ما تأنون وما تذرّون ، لأنه - تعالى - لا نخفى عليه خافية من أعمالكم ، بل هو - سبحانه - محيط بها إحاطة تامة ، وسيجازيكم عليها بما تستحقّون يوم القيامة .

وقد جاء الأمر بتقوى الله - تعالى - فى عشرات الآيات من القرآن الكريم ، لأن تقوى الله - تعالى - هى جماع كل خير ، وملاك كل بر وفضيلة ، ومن الأدلة على ذلك :

أنا نرى القرآن يبين لنا أن تقوى الله ، قد أمر بها كل نبي قومه . قال - تعالى - : كذبت قوم نوح المرسلين . إذ قال لهم : أخوهم نوح ألا تتقون . لئنى لىكم رسول أمين . فاتقوا الله وأطيعون

وقارة نجد القرآن الكريم يبين لنا الآثار الطيبة التى تقرّب على تقوى الله فى الدنيا والآخرة ، فيقول : « ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض »

ويقول : « ومن يتق الله يجعل له مخرجا . ويرزقه من حيث لا يحتسب . . »
ويقول : « سبحانه - : « الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين . . »
ويقول - عز وجل : « إن المتقين فى جنات ونهر . فى رفعة صدق عند ملك مقتدر . . »

وبعد هذا الأمر المؤكّد بالتقوى ، جاء النهى عن التشبه بمن خلت قلوبهم من التقوى ، فقال - تعالى - : « ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم »

أى تمسكوا - أيها المؤمنون - بتقوى الله - تعالى - وراقبته . والبعد عن كل ما لا يرضيه ، واحذروا أن تكونوا كأولئك الذين تركوا التكليف الذى كلفهم الله - تعالى - بها ، فتركهم - سبحانه - إلى أنفسهم ، بأن جعلهم فاسدين لها ، فلم يسعوا إلى ما ينفعها ، بل سعوا فيها بضرها وبردائها

فلما راد بالنسيان هنا : الترك والإهمال ، والكلام على حذف مضاف .
أى : نسوا حقوق الله - تعالى - وما أرجب عليهم من تكاليف .

والقاء في قوله : « فأنساهم ... » للسببية ، أى : أن نسيانهم لما يجب عليهم
نحو أنفسهم من تهذيب وتأديب ... كان سببه نسيانهم لما يجب عليهم نحو
خالقهم من صاعته وخشيته .

ثم بين - سبحانه - سوء مصيرهم فقال : « أولئك هم الفاسقون » أى :
أولئك الذين تركوا ما يجب عليهم نحو خالقهم ونحو أنفسهم ، هم الفاسقون
عن أمره ، الخارجون على شريعته ودينه ، الخالدون يوم القيامة في
العذاب الممين .

ثم حذر - سبحانه - المؤمنين من نسيان طاعته وخشيته بأسلوب آخر
فقال : « لا يستوى أصحاب النار وأصحاب الجنة ، أصحاب الجنة هم
الفائزون » .

أى : لا يستوى في حكم الله - تعالى - وفي جزائه ، أصحاب النار ، الذين
استحقوا الخلود فيها ، وأصحاب الجنة ، الذين ظفروا برضوانه - تعالى -
بسبب إيمانهم وعملهم الصالح ...

« أصحاب الجنة هم الفائزون ، بالسعادة التى ليس بعدها سعادة ، وبالنعيم
الذى لا يقاربه نعيم .

وقال - سبحانه - : « لا يستوى أصحاب النار وأصحاب الجنة ... » بدون
بيان ما لا يستويان فيه ، الإشعار بالبون الشاسع بين الفريقين ، في سلوكهم ،
وفي أعمالهم ، وفي تفكيرهم ، وفي نظرهم إلى الحياة ، وفي العاقبة التى ينتهى
إليها كل فريق ...

قال صاحب الكشف : هذا تنبيه للناس ، وإيذان لهم بأنهم لفرط
غفلتهم ، وقلة فكيرهم فى العاقبة ، وتهالكلهم على إيثار المأجلة ، واتساع

الشهوات : كأنهم لا يعرفون الفرق بين الجنة والنار والبون العظيم بين أصحابهما وأن الفوز مع أصحاب الجنة ، فمن حقهم أن يملوا ذلك وينبها عليه . كما تقول لمن يعق أباه ، هو أبوك ، تجعله بمنزلة من لا يعرفه ، فتنبه بذلك على حق الأبوة ، الذي يقتضى البر والتعطف . . . (١) .

ومن الآيات الكثيرة التي تشبه هذه الآية في معناها ، قوله - تعالى - : « وما يستوى الأعمى والبصير ، والذين آمنوا وعملوا الصالحات ، ولا المسىء قليلا ما تتذكرون » (٢) .

ثم فوه - سبحانه - بشأن القرآن الكريم ، المشتمل على ألوان من الهدايات والمواعظ ، والآداب والأحكام ، التي في إتباعها سعادة الناس وفوزهم فقال : « لو أنزلنا هذا القرآن على جبل ، لرأيت خاشعا متصدعا من خشية الله . . . » والمراد بالجبل : حقيقة ، والسكلام على سبيل الفرض والتقدير ، واختير الجبل ، لأنه أشد الأشياء صلابة وقلة تأثر بما ينزل به .

أى : لو أنزلنا - على سبيل الفرض والتقدير - هذا القرآن العظيم الشأن على جبل من الجبال العالية الشاخنة الصلبة وخاطبناه به . . . لرأيت - أيما الماقل - هذا الجبل الذي هو مثال في الشدة والغلظة والصلابة وعدم التأثر . . . لرأيت « خاشعا متصدعا من خشية الله » .

أى : لرأيت متدلا متدققا من شدة خوفه من الله - تعالى - ، ومن خشيته . . .

قال الألوسي وهذا ، تمثيل لما لو شأن القرآن ، وقوة تأثيره والغرض - من هذه الآية - توبيخ الإنسان على قسوة قلبه ، وقلة تحشعه عند تلاوة القرآن

(١) تفسير الكشاف - ج ٢ ص ٥٠٨ .

(٢) سورة غافر الآية ٥٨ .

السكريم ، وتدبر ما فيه من القوارع . وهو الذي لو أنزل على جبل - وقد ركب فيه العقل - لحشع وتصدع .

ويشير إلى كونه تمثيلاً ، قوله - تعالى - : « وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون » (١) .

أى : تلك الأمثال الباهرة التي أشمل عليها هذا القرآن العظيم ، نضربها ونسوقها للناس ، لكي يتفكروا فيها ، ويعملوا بما تقتضيه من توجهات حكيمة ومن مواضع سديدة : ومن إرشادات نافعة .

• • •

ثم ختم - سبحانه - السورة السكرية بالشأن على ذاته - تعالى - ، وبينان بعض أسمائه الحسنى ، فقال - تعالى - :

« هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ، عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ (٢٢) هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيَّمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ ، سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٢٣) هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ ، لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ، يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ الْأَرْضِ ، وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٤) » .

قال الجمل : لما وصف - تعالى - القرآن بالعظم ، معلوم أن عظم الصفة تابع لعظم الموصوف ، أتبع ذلك بوصف عظمه - تعالى - فقال : « هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ، أَيْ : هُوَ اللَّهُ الَّذِي وجوده من ذاته ، فلا عزم له بوجه من الوجود ، فلا شيء يستحق الوصف بهذا غيره ، لأنه هو الموجود أزلاً

وأبدا ، فهو حاضر في كل ضمير ، غائب بعظمته عن كل حس ، فذلك تصدع الجبل من خشيته .

أى : هو المعبود الذى لا تنبغى العبادة والالوهية لإلهه ، الذى لا إله هو ، فإنه لا يجانس له ، ولا يليق ولا يصح ، ولا يتصور ، أن يكافئه أو يدانيه شىء (١) .

وقوله : د عالم الغيب والشهادة ، أى : هو - سبحانه - العليم علما تاما بما غاب عن أذهان الخلائق وعقولهم ، وبما هو حاضر ومشاهد أمام أعينهم .

فلما راد بالغيب : كل ما غاب عن إحساس الناس وعن مداركهم . . .

والمراد بالشهادة : ما يشاهدونه بعيونهم ، ويدركونه بعقولهم

والتعريف فيهما للاستغراق الحقيقى ، لأن الله - تعالى - لا يخفى عليه شىء في هذا الكون .

وقوله - تعالى - : د هو الرحمن الرحيم ، أى : هو العظيم الرحمة الدائمها . لأن لفظ د الرحمن ، صيغة مبالغة لكثرة الشىء وعظمته ، ولفظ د الرحيم ، صيغة تدل على الدوام والاستمرار .

وقوله - سبحانه - : د هو الله الذى لا إله إلا هو . . . تأكيد لأمرا التوحيد لأن مقام التعظيم يقتضى ذلك .

ثم عدد - سبحانه - بعد ذلك بعض أسمائه الحسنى ، وصفاته الجميلة فقال : د الملك ، أى : المالك لجميع الأشياء ، والحاكم على جميع المخلوقات ، والمتصرف فيها تصرف المالك فى ملكه .

د القدوس ، أى : المنزه عن كل نقص ، البالغ أقصى ما يتصوره

(١) حاشية الجبل على الجلالين ص ٤٠ ص ٢٢١ .

العقل في الطهارة وفي البعد عن النقائص والعيوب ، وعن كل مالا يليق .
من القدس بمعنى الطهارة ، والقدس - بفتح الدال - اسم للإله الذي
يتطهر به ، ومنه القادوس .

وجاء لفظ القدرس بعد لفظ الملك ، للإشهار بأنه - تعالى - وإن كان
مالكاً لكل شيء ، إلا أنه لا يتصرف فيما يملكه تصرف الملوك المغرورين
الظالمين ، وإنما يتصرف في خلقه تصرفاً منزهاً عن كل ظلم ونقص وعيب . .

ه السلام ، أى : ذو السلامة من كل مالا يليق ، أو ذو السلام على عباده
في الجنة ، كما قال - تعالى - : « سلام قولاً من رب رحيم » .

المؤمن ، أى : الذى وهب لعباده نعمة الأمان والاطمئنان ، والذى
صدق رساله بأن أظهر على أيديهم المعجزات التى تدل على أنهم صادقون فيما
يبلغونه عنه .

المهيمن ، أى : الرقيب على عباده ، الحافظ لأقوالهم وأفعالهم وأحوالهم ،
من الأمن ، ثم قلبت همزته هاء . وقبل أصله هيمن بمعنى رقيب ، فهاؤه أصلية .
العزیز ، أى : الذى يفلب غيره ، ولا يتجاسر على مقامه أحد ...

الجبار ، أى : العظيم القدرة ، القاهر فوق عباده .

قال القرطبي : قال ابن عباس : الجبار : هو العظيم . وجبروت الله عظمتة .
وهو على هذا القول صفة ذات ، من قولهم : نخلة جبارة ...

وقيل هو من الجبر وهو الإصـلاح ، يقال : جبرت العظم فجبر ، إذا
أصلحته بعد الكسر ، فهو فعال من جبر ، إذ أصلح الكسير وأغنى
الفقير ، (١) .

المتكبر ، أى : الشديد الكبرياء ، والعظمة والجلالة ، والتنزه عما

لا يليق بذاته ، وهاتان الصفتان - الجبار المتكبر - صفتا مدح بالنسبة لله تعالى - ، وصفتا ذم بالنسبة لغيره - تعالى - ، وفي الحديث الصحيح عن أبي هريرة أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال فيما يرويه عن ربه : «الكبرياء ردائي ، والعظمة إزاري ، فن نازعني في واحد منهما ، قصمته ثم قذفته في النار» .

«سبحان الله عما يشركون ، أى : تنزه - سبحانه - وتقدس عن إشراك المشركين ، وكفر الكافرين .

«هو الخالق ، لكل شيء ، الموجد لهذا الكون على مقتضى حكمته ..

«البارئ» أى : المبدع المخترع للأشياء ، والمبرز لها من العدم إلى الوجود .

«المصور» أى : المصور للأشياء والمركب لها ، على هيئات مختلفة ،

وأشكال شتى ، من التصوير ، وهو التخطيط والتشكيل ...

«له الأسماء الحسنى ، والحسنى تأنيث الأحسن ، أى : له الأسماء التى هى

أحسن الأسماء ، لدلالاتها على أفضل المعاني ، من تحميد ، وتقديس ، وقدره ،

وسمع ... وغير ذلك من الأسماء السكرية ، والصفات الجلية .

«ويسبح له ، - تعالى - وينزهه عن كل سوء وما فى السموات

والأرض ، من مخلوقات .

«وهو العزيز الحكيم ، أى : وهو - عز وجل - الغالب لغيره ، الحكيم

فى كل تصرفاته .

قال الإمام ابن كثير : وفى الصحيحين عن أبي هريرة أن رسول الله

- صلى الله عليه وسلم - قال : «إن لله تسعة وتسعين اسما - مائة إلا واحدا -

من أحصاها دخل الجنة ، وهو وتر يحب الوتر» ...

ثم ذكر - رحمه الله - هذه الأسماء نقلا عن سنن الترمذى فقال : هو الله

الذى لا إله إلا هو ، الرحمن الرحيم ، الملك ، القدوس ، السلام ، المؤمن ،

المهيمن ، العزيز ، الجبار . المتكبر . الخالق ، الباري . المصور ، الغفار ،
 القهار ، الوهاب ، الرزاق ، الفتاح ، العليم ، القابض ، الباسط ، الخافض ،
 الرافع ، المعز المذل ، السميع ، البصير الحكيم ، العدل ، اللطيف ، الخبير ،
 الحليم ، العظيم ، الغفور ، الشكور ، العلي ، الكبير ، الحفيظ ، المقيت ،
 الحسيب ، الجليل الكريم ، الرقيب ، المجيب ، الواسع ، الحكيم ، الودود ،
 المجيد ، الباعث ، الشهيد ، الحق ، الوكيل ، القوي ، المتين ، الولي ، الحميد ،
 المحصي ، المبدئ ، المعيد . المحي ، المميت ، الحي ، القيوم ، الواحد ، الماجد ،
 الواحد ، الصمد ، القادر ، المقدر ، المؤخر ، الأول ، الآخر ، الظاهر ،
 الباطن ، الوالي ، المتعالي ، البر ، التواب ، المنتقم ، العفو ، الرؤوف ،
 مالك الملك ، ذو الجلال والإكرام ، المقسط الجامع ، الغني المغني ، المانع ،
 الضار ، النافع ، النور ، الهادي ، البديع ، الباقي ، الوارث الرشيد الصبور .

ثم قال الإمام ابن كثير : وسياق ابن ماجه - لهذا الحديث - بزيادة
 ونقصان ، وتقديم وتأخير . . والذي عول عليه جماعة من الحفاظ ، أن سرد
 الأسماء في هذا الحديث مدرج فيه - أي : ذكر الراوي في الحديث كلاما
 لنفسه أو لغيره من غير فصل بين ألفاظ الحديث وألفاظ الراوي - وأن
 أهل العلم جمعوا هذه الأسماء من القرآن الكريم .

ثم ليعلم أن الأسماء الحسنى ليست منحصرة في التسعة والتسعين ، بدليل
 ما رواه الإمام أحمد عن ابن مسعود ، عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم -
 أنه قال : ما أصاب أحدا قط هم ولا حزن فقال : اللهم اني عبدك ، وابن
 عبدك ، ابن أمتك ، فاصيقي بي - يدك ، ماض في حكمك ، عدل في قضاؤك ،
 أسألك بكل اسم هو لك ، سميت به نفسك ، أو أعلته أحدا من خلقك ، أو
 أنزلته في كتابك ... أن تجعل القرآن ربيع قلبي ، ونور صدري ، وجلاء
 حزني ، وذهاب همي ، إلا أذهب به همه وحزنه ، وأبدله مكانه فرحا .

فقيل يا رسول الله ، أفلا تعلمها ؟ فقال : بلى : ينبغي لكل من سمعها أن يتعلمها وذكر أبو بكر بن العربي أن بعضهم جمع من الكتاب والسنة ألف اسم لله - تعالى - (١) .

وبعد : فهذا تفسير لسورة الحشر ، نسأل الله - تعالى - أن يجعله خالصا وجه ونافعنا لعباده .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

القاهرة - مساء الخميس ٢٢ من شعبان

كتبه الراجى عفوه

محمد سيد طنطاوى

١٩٨٦/٥/١ م

تفسير
سورة الحج

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة وتمهيد

١ - سورة الممتحنة ، هي السورة الستون في ترتيب المصحف ، أما ترتيبها في النزول فكان بعد سورة الأحزاب ، وقبل سورة النساء . وهي من السور المدنية الخالصة . وعدد آياتها ثلاثة عشرة آية .

واشتهرت بهذا الاسم منذ العهد النبوي ، إلا أن منهم من يقرؤها بفتح الحاء ، على أنها صفة للمرأة التي نزلت فيها ، ومنهم من يقرؤها بكسر الحاء على أنها صفة للسورة .

قال القرطبي : الممتحنة - بكسر الحاء - أى : المختبرة ، أضيف الفعل إليها مجازاً ، كما سميت سورة براءة بالفاضحة ، لما كشفت من رذائل المنافقين . ومن قال في هذه السورة الممتحنة - بفتح الحاء - فإنه أضافها إلى المرأة التي نزلت فيها . وهي أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط . قال الله - تعالى - : « فامتنحوا منه لعلكم يراهم » . وهي امرأة عبد الرحمن بن عوف ، ولدت له إبراهيم بن عبد الرحمن ، (١) .

وقال صاحب الإتيقان : وتسمى سورة الامتحان ، وسورة المودة .

٢ - وقد افتتحت هذه السورة بتوجيه نداء إلى المؤمنين ، نهتهم فيه عن اتخاذ أعداء الله وأعدائهم أولياء ، وبينت لهم ما جبل عليه هؤلاء الأعداء من كراهية للحق ، كما بينت لهم سوء عاقبة من يوالى هؤلاء الأعداء ..

قال - تعالى - : يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء ، تلقون إليهم بالمودة ، وقد كفروا بما جاءكم من الحق ، يخرجون الرسول وإياكم أن تؤمنوا بالله ربكم ، إن كنتم خرجتم جهادا في سبيلي ، وابتغاء مرضاتي تصرون إليهم بالمودة ، وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم ، ومن يفعله منكم فقد ضل سواء السبيل

٣ - ثم انتقلت السورة الكريمة إلى دعوتهم إلى الاقتداء بأبيهم إبراهيم عليه السلام - ، الذي قطع صلاته بأقرب الناس إليه ، عندما رآه مصرا على كفره ، وأعلن أنه عدو لكل من أشرك مع الله - تعالى - في العبادة آلهة أخرى . . .

قال - تعالى - : قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه ، إذ قالوا لقومهم إنا برءا منكم وما تعبدون من دون الله ، كفرنا بكم ، وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدا حتى تؤمنوا بالله وحده إلا قول إبراهيم لأبيه ، لا ستغفرن لك ، وما أملك لك من الله من شيء ، ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا ، وإليك المصير

٤ - ثم بشر - سبحانه - المؤمنين ، بأنه - بفضلہ وكرمه - سيجمع شملهم بأقاربهم الذين تشددوا في عداوتهم ، بأن يهدي هؤلاء الأقارب إلى الحق ، فيتصل حبل المودة بينهم جميعا ، ببركة اجتماعهم تحت كلمة الإسلام ، فقال - تعالى - : عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودة ، والله قدير والله غفور رحيم

٥ - وبعد أن رخص للمؤمنين في مودة الكفار الذين لم يقاتلهم ولم يلحقوا بهم أذى . . . ونهاهم عن مودة الكفار الذين قاتلهم وآذوهم . . . بعد كل ذلك وجه - سبحانه - نداء ثانيا إلى المؤمنين بين لهم حكم النمام

اللاتي اتين مؤمنات إليهم ، بعد أن تركن أزواجهن الكفار ، وفصل
- سبحانه - هذه الأحكام حرصا على النساء المؤمنات ...

فقال - تعالى - : يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات
فامتحنوهن ، الله أعلم بإيمانهن ، فإن علمتموهن مؤمنات فلا ترجعهن إلى
الكفار ، لانهن حل لهن ، ولا هم يحلون لهن ...

٦ - ثم أمر - سبحانه - نبيه - صلى الله عليه وسلم - أن يبائع النساء
المؤمنات على ما يبائع عليه الرجال ، وأن يأخذ عليهن العهود على الطاعة لله
- تعالى - ، والبعد عن محارمه ...

قال - تعالى - : يا أيها النبي إذا جاءك المؤمنات يبائعنك على أن لا يشركن
بالله شيئا ، ولا يسرقن ولا يزنین ولا يقتلن أولادهن ، ولا يأنبن بهتان
يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ، ولا يعصينك في معروف ، فبائعهن واستغفر
لهن الله ، إن الله غفور رحيم .

٧ - ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة بتوجيه فداء ثالث إلى المؤمنين ،
نهام فيه مرة أخرى عن موالاة أعداء الله وأعدائهم ... فقال - سبحانه - :
يا أيها الذين آمنوا لا تتولوا قوما غضب الله عليهم ، قد يئسوا من الآخرة
كما يئس الكفار من أصحاب القبور .

٨ - هذا والمتأمل في هذه السورة الكريمة ، يراها قد ساقط المؤمنين
ألوانا من القرية التي تغرس العقيدة السليمة في قلوبهم ، وتجعلهم يضحون
من أجلها بكل شيء ، ويقدمونها في تصرفاتهم على محبة الآباء والأبناء والعشيرة
والأموال ، وتكشف لهم عن سوء نيات الكافرين نحوهم ، وعن حرصهم
على إنزال الضر بهم ، كما ضربت لهم الأمثال بإبراهيم - عليه السلام - لكي
يقتدوا به في قوة إيمانه ، وفي إخلاصه لدينه ، كما بينت لهم من يجوز لهم

مودتهم من الكافرين ، ومن لا يجوز لهم ذلك منهم .. ثم ختمت ببيان
بعض الأحكام التي تتعلق بالنساء المؤمنات المتزوجات من الكافرين ،
وبالنساء اللاتي جئن إلى الرسول - صلى الله عليه وسلم - لكي يبايعنه على
الإيمان والطاعة ...

وسنفصل القول في هذه الأحكام خلال تفسيرنا لهذه السورة الكريمة .
نسأل الله - تعالى - أن يلهمنا الرشد ، وأن يجنبنا الزلل . وصلى الله على
سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

د . محمد سيد طنطاوي
عميد كلية الدراسات الإسلامية
والعربية

القاهرة - مدينة نصر
٢٣ من شعبان سنة ١٤٠٦ هـ
١٩٨٦ / ٥ / ٢ م

التفسير

قال الله - تعالى - :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ ، تُقَاتُونَ إِلَيْهِمْ ، بِالْمُودَّةِ ، وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ ، يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي ، وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمُودَّةِ ، وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ (١) إِنْ يَشَقَّقُواكُمْ يُكَونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً ، وَيَسْطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَسْنَانَهُمْ بِالْأَسْوَاءِ ، وَذُودُوا لَوْ تَكْفُرُونَ (٢) لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، يَفْضِلُ بَيْنَكُمْ ، وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٣) » .

. افتتحت سورة « الممتحنة » بهذا النداء للمؤمنين ، وقد تضمن هذا النداء نهيهم عن موالاته أعداء الله وأعدائهم .

وقد ذكر المفسرون في سبب نزول هذه الآيات روايات منها . ما ذكره الإمام الآلوسی فقال : نزلت في حاطب بن أبي بلتعة ... فقد أخرج الإمام أحمد ، والبخاري ، ومسلم ، وأبو داود ، والترمذي ، والنسائي ، وابن حبان ، وجماعة عن علي بن أبي طالب - رضى الله عنه - قال : بعثني رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أنا والزيبر والمقداد فقال : انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ - وهو مكان بين مكة والمدينة - ، فإن بها ظعينة معها كتاب ، فخذوه منها فاتوني به . فخرجنا حتى أتينا الروضة ، فإذا نحن بالظعينة فقلنا لها : أخرجي الكتاب . قالت : ما معي من كتاب . فقلنا : أخرجي الكتاب أو لنلقين

الثياب ، فأخرجته من عقاصها . فأتينا به رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فإذا فيه : من حاطب بن أبي بلتعة ، إلى أناس من المشركين بمكة ، يحذرون ببعض أمر النبي - صلى الله عليه وسلم - .

فقال - صلى الله عليه وسلم - : وما هذا يا حاطب ، ؟ فقال حاطب : لا تعجل على يا رسول الله ، إني كنت إنسانا ملصقا في قريش ، ولم أكن منها ، وكان من مملكتهم المهاجرين لهم قرابات يحمون بها أهلهم وأموالهم بمكة ، فأحببت إذ فاتني ذلك من الذنب فيها ، أن اصطنع إليهم يدا ، يحمون بها قرابتي ، وما فعلت ذلك كفرا ولا ارتدادا عن الإسلام .

فقال عمر : دعني يا رسول الله أضرب عنقه . فقال - صلى الله عليه وسلم - : إنه شهد بدرا ، وما يدريك لعل الله اطلع على أهل بدر فقال : اعملوا ما كنتم قد غفرت لكم ، فزال هذه الآيات . . . ، (١) .

وقد ذكروا أن هذه القصة كانت في الوقت الذي أعد فيه النبي - صلى الله عليه وسلم - الهدنة لأجل العمرة ، سنة صلح الحديبية . وقيل كانت هذه القصة في الوقت الذي نهى النبي - صلى الله عليه وسلم - لفتح مكة ، وكان من بين الذين علموا ذلك حاطب بن أبي بلتعة .

والمراد بالعدو هنا : الأعداء عموما ، ويدخل فيهم دخولا أولياء كفار قريش ، الذين أرسل إليهم حاطب بن أبي بلتعة خطابه ، لكي يحذروا من مهاجمة المسلمين لهم .

والمراد بالعداوة : العداوة الدينية التي جعلت المشركين ، يحرصون كل الحرص على أذى المسلمين . أي : يا من آمنتم بالله - تعالى - إيماننا حقا ،

(١) راجع تفسير الألوسي > ٢٨ ص ٦٥ . وتفسير ابن كثير > ٨

احذروا أن تتخذوا أعدائكم أولياء وأصدقاء وحلفاء ، بل جاهدوهم وأغلظوا عليهم ، واقطعوا الصلة التي بينكم وبينهم . . .

وناداهم بصفة الإيمان ؛ لتحريك حرارة العقيدة الدينية في قلوبهم ، ولخصهم على الاستجابة لما نهام عنه .

وقدم - سبحانه - عداوته للمشركين ، على عداوة المؤمنين لهم ، لأن عداوة هؤلاء المشركين لله - تعالى - أشد وأقبح ، حيث عبدوا غير خالقهم ، وشكروا غير رازقهم ، وكذبوا رسل ربهم وأذوهم . . .

وفي الحديث القدسي : إني والجن والإنس في نبأ عظيم . أخلق ويعبد غيري ، وأرزق ويشكر غيري . . . خيري إلى العباد نازل ، وشرهم إلى صاعد ، أنحب إليهم بالنعم ، ويتبغضون إلي بالمعاصي

وعبر - سبحانه - بالإنخاذ الذين هو افتعال من الأخذ ، للبالغة في نهيم عن موالاته هؤلاء الأعداء ، إذ الإنخاذ يشعر بشدة الملازمة والملازمة .

والمفعول الأول لقوله « تتخذوا » قوله : « عدوى » والمفعول الثاني قوله : « أولياء » . .

وقوله - سبحانه - : « تلقون إليهم بالمودة » تفسير وتوضيح لهذه الموالات التي نهوا عنها . أو في موضع الحال من ضمير « لاتتخذوا » .

وحقيقة الإلقاء : قذف ما في اليد على الأرض أو في الفضاء ، والمراد به هنا : إيصال ما يدخل السرور على قلوب أعدائهم . والباء في قوله : « بالمودة » لتأكيد اتصال الفعل بمفعوله .

أي : احذروا أن تعاملوا أعدائكم وأعداءكم معاملة الأصدقاء والحلفاء ، بأن تظهروا لهم المودة والمحبة .

ويصح أن تكون الباء للسببية فيكون المعنى : تلقون إليهم بأخباركم التي لا يجوز لكم إظهارها لهم ، بسبب مودتكم لهم .

وقد ذكروا أن حاطبا أرسل بهذه الرسالة إلى أهل مكة ، عندما تجهز النبي - صلى الله عليه وسلم - وأصحابه للذهاب إليها لأجل العمرة عام الحديبية ، أو لأجل فتح مكة . . .

قال صاحب الكشف : فإن قلت : « تلقون » هم يتعلق ؟ قلت : يجوز أن يتعلق بقوله : « لا تتخذوا » حالا من ضميره . . . ويجوز أن يكون استئنافا . . .

والإلقاء : عبارة عن إيصال المودة والإفضاء بها إليهم . قال : ألقى إليه خراشي صدره - أي أسرار صدره - ، وأفضى إليه بقشوره .

والباء في « بالمودة » إما زائدة مؤكدة للتعدي مثلها في قوله : « ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة » ، وإما ثابتة على أن مفعول تلقون محذوف ، ومعناه : تلقون إليهم أخبار رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بسبب المودة التي بينكم وبينهم . . . (١) .

ثم ساق - سبحانه - الأسباب التي من شأنها أن تحمل المؤمنين على عدم موالاته أعداء الله وأعدائهم ، فقال : « وقد كفروا بما جاءكم من الحق ، أي : لا تتخذوا - أيها المؤمنون - هؤلاء الأعداء أولياء ، وتلقون إليهم بالمودة » ، والحال أن هؤلاء الأعداء قد كفروا بما جاءكم على لسان رسولكم - صلى الله عليه وسلم - من الحق الذي يتمثل في القرآن الكريم ، وفي كل ما أوحاه - سبحانه - إلى رسوله .

فالمقصود من هذه الجملة الكريمة : تصوير حال هؤلاء الكافرين ، بما ينفر المؤمنين من إلقاء المودة إليهم . وهي حال من قابل ، تلقون .

وقوله - تعالى - : « يخرجون الرسول وإياكم أن تؤمنوا بالله ربكم ، بيان لسبب آخر من الأسباب التي تدعو المؤمنين إلى مقاطعة أعدائهم الكافرين .

وجملة : « يخرجون الرسول ، يصح أن تكون مستأنفة لبيان كفرهم ، أو في محل نصب من فاعل « كفروا » ، وقوله : « وإياكم » معطوف على الرسول ، وقدم عليهم على سبيل التشريف لمقامه - صلى الله عليه وسلم - ، وجملة « أن تؤمنوا » في محل نصب مفعول لأجله .

أي : أن هؤلاء الكافرين لم يكتفوا بكفرهم بما جاءكم - أي المؤمنون - من الحق ، بل تجاوزوا ذلك إلى محاولة إخراج رسوالتكم - صلى الله عليه وسلم - وإخراجكم من مكة ، من أجل إيمانكم بالله ربكم ، وإخلاصكم للعبادة له - تعالى - .

وأُسند - متبحرانه - محاولة الإخراج إلى جميع الأعداء ، لأنهم كانوا راضين بهذا الفعل ، ومتواصين على تنفيذه ، بعضهم عن طريق التخطيط له ، وبعضهم عن طريق التنفيذ الفعلي .

والمآمل في هذه الجملة الكريمة ، براها قد ساقى أقوى الأسباب وأعظمها ، للتفنيح على مشركي قريش ، ولإلهاب حماس المؤمنين من أجل عدم إلقاء المودة إليهم .

وجواب الشرط في قوله - تعالى - : « إن كنتم خرجتم جهاداً في سبيلي وإبتغاء مرضاتي ... » محذوف لدلالة ما قبله عليه .

أي : إن كنتم - أي المؤمنون - قد خرجتم من مكة من أجل الجهاد في

سبيلى ، ومن أجل طلب مرضاتى ، فتركوا اتخاذ عدوى وعدوكم أولياء ،
واتركوا مودتهم ومصافاتهم .

فالمقصود من الجملة السكينة ، زيادة التهييج للمؤمنين ، حتى لا يبقى في
قلوبهم أى شيء من المودة نحو الكافرين .

وقوله سبحانه - : تسرون إليهم بالمودة ، بدل من قوله تعالى -
قبل ذلك : تلقون إليهم بالمودة ، بدل بعض من كل ، لأن إلقاء المودة .
أعم من أن تكون في السر أو في العلن .

ويصح أن يكون بدل اشتغال ، لأن الإصرار إليهم بالمودة ، مما اشتمل
عليه إلقاء المودة إليهم .

وهذه الجملة جىء بها على سبيل العتاب والتعجيب من في قلبه مودة
لهؤلاء الكافرين ، بعد أن بين الله تعالى - له ، ما يوجب قطع كل
صلة بهم .

ومفعول تسرون ، محذوف . أى : ترسلون إليهم أخبار المسلمين سرا ،
بسبب مودتكم لهم ؟ وجملة : وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم ، هى مناط
التعجيب ممن يتخذ هؤلاء الأعداء أولياء ، أو من يسر إليهم بالمودة . وهى
حالية من فاعل تلقون وتسرون ، .

أى : تفعلون ما تفعلون من إلقاء المودة إلى عدوى وعدوكم ، ومن
الإصراركم بها إليهم ، والحال أنى أعلم منهم ومنكم بما أخفيتموه في قلوبكم ،
وما أعلنتموه ، وغير رسوانا - صلى الله عليه وسلم - بذلك ...

وبإدام الأمر كذلك ، فكيف أباح بعضكم لنفسه ، أن يطلع عدوى
وعدوكم على ما لا يجوز إضلاعه عليه ؟ !

قال الألوسي : قوله : « وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلمتم » ، في موضع الحال
و « أعلم » ، أفعل تفضيل . والمفضل عليه محذوف ، أي : منكم . . . و « ما » ،
موصولة أو مصدرية ، وذكر « ما أعلمتم » مع الاستغناء عنه ، للإشارة إلى
تساوي العلمين في علمه - عز وجل - .

ولذا قدم « ما أخفيتم » ، وفي هذه الحال إشارة إلى أنه لا طائل لهم في
إصرار المودة إليهم ، كأنه قيل : تنرون إليهم بالمودة والحال أني أعلم ما أخفيتم
وما أعلمتم ، ومطلع رسولي على ما تنرون ، فأى فائدة وجدوى لكم في
الإصرار ؟ (١) ،

ثم ختم - سبحانه - الآية المكرمة ببيان سوء عاقبة من يخالف أمره فقال
« ومن يفعله منهكم فقد ضل سواء السبيل » .

والضمير في قوله : « يفعله » يعود إلى الإتيان بالمفهوم من قوله
« لا تتخذوا » . . .

أي : ومن يفعل ذلك الاتخاذ لعدوى وعدوكم أولياء ، ويلقى إليهم بالمودة
فقد أخطأ طريق الحق والصواب ، وضل عن الصراط المستقيم .

ثم بين - سبحانه - حال هؤلاء الأعداء عندما يتمكنون من المؤمنين
فقال : « إن يشفوكم يشفوكم يكتفونوا لكم أعداء ويبسطوا إليكم أيديهم وألسنتهم
بالسوء ، وودوا لو تكفرون » .

ومعنى « يشفوكم » ، يظفروا بكم ، ويدركوا طلبتهم منكم . وأصل الثقف :
الحذق في إدراك الشيء وفعله ، ومنه رجل ثقف إذا كان سريع الفهم ، ويقال :
ثقت الرجل في الحرب إذا أدركته وظفرت به . . .

أي إن يظفر بكم هؤلاء الأعداء - أيها المؤمنون - ، ويتمكنوا منكم ، يظفروا

لبيكم ما انطوت عليه قلوبهم نحوكم من بغضاء ، ولا يكتفون بذلك ، بل يمدون
إليكم أيديهم بما يضركم ، وألسنتهم بما يؤذيكم ...

ثم هم بعد كل ذلك يودون ويتمنون أن تصيروا كفارا مثلهم ...
فأنت ترى أن الآية الكريمة ، قد وضحت أن هؤلاء الكافرين ، قد
سلوكوا في عداوتهم المؤمنين كل مسلك ، فهم عندئذ يكتفون من المؤمنين بظهورهم
حقدهم القديم ، ويؤذونهم بأيديهم وألسنتهم ، ويتمنون في جميع الأحوال ،
أن يردوهم بعد إيمانهم كافرين .

وقال - سبحانه - : « ويبسطوا إليكم » ، « للشعار بكثرة ما ينزلونه
بالمؤمنين من أذى . إذ التعبير بالبسط يدل على الكثرة والسعة .

وقوله : « وودوا لو تكفرون » معطوف على جملة الشرط والجزاء ،
ويكون - سبحانه - قد أخبر عنهم بخبرين :

أحدهما : ما تضمنته الجملة الشرطية من عداوتهم للمؤمنين .

وثانيهما : تمنيتهم ارتدادهم من الإيمان إلى الكفر .

قال صاحب الكشف : فإن قلت : كيف أورد جواب الشرط مضارعا
مثله . ثم قال : « وودوا » بلفظ الماضي ؟

قلت : الماضي وإن كان يجري في باب الشرط مجرى المضارع في علم
الإعراب . فإن فيه نكتة . كأنه قيل : وودوا قبل كل شيء كفركم وارتدادكم
بمعنى : أنهم يريدون أن يلحقوا بكم مضار الدنيا والدين جميعاً . من قتل النفس
وتمزق الأعراض ، وردكم كفارا .

وهذا الرد إلى الكفر أسبق المضار عندهم وأولها ، لعلمهم أن الدين أعز
عليكم من أرواحكم ، لأنكم بذالون لها دونه . والعدو أهم شيء عنده . أنه
يقصد أعز شيء عند صاحبه ، (١) .

ثم بين - سبحانه - الآثار السيئة التي تترتب على ضلالهم عن سواء السبيل فقال : **«لن تنفعكم أرحامكم ، ولا أولادكم ، يوم القيامة يفصل بينكم»**

والأرحام : جمع رحم ، والمراد بهم الأقارب ، الذين كان بعض المؤمنين يوالون المشركين من أجلهم .

أى : منكم - أيها المؤمنون - من أفشى أسراركم للكافرين خوفا على أقرابه أو أولاده الذين يعيشون في مكة مع هؤلاء الكافرين ، والحق أنه لن تنفعكم قراباتكم ولا أولادكم الذين يوالون المشركين من أجلهم شيئا من النفع يوم القيامة ، لأنه في هذا اليوم يفصل بينكم ، أى يفرق بينكم وبين أقراركم وأولادكم يوم القيامة ، كما قال - تعالى - : **«فإذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون ، وكما قال - سبحانه - : يوم يفر المرء من أخيه ، وأمّه وأبيه ، وصاحبته وبنيه . لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه .»**

وخص - سبحانه - الأولاد بالذكر مع أنهم من الأرحام ، لمزيد المحبة لهم - والحنو عليهم .

قال الشوكاني : وجملة يوم القيامة يفصل بينكم ، مستأنفة لبيان عدم نفع الأرحام والأولاد في ذلك اليوم : ومعنى يفصل بينكم ، يفرق بينكم ، فيدخل أهل طاعته الجنة ، وأهل معصيته النار . وقيل المراد بالفصل بينهم ، أنه يفر كل منهم من الآخر من شدة الهول . . . قيل : ويجوز أن يتعلق «يوم القيامة» بما قبله . أى : لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم يوم القيامة ، فيوقف عليه . ويبدأ بقوله : يفصل بينكم . والأولى أن يتعلق بما بعده - أى : يفصل بينكم يوم القيامة ، فيوقف على أولادكم ، ويبدأ بيوم القيامة ،^(١) . وقراءة الجمهور يفصل بينكم ، - بضم الياء وتخفيف الفاء رفثا الصاد -

(١) تفسير فتح القدير للهو كاني ٥ ص ٢١١ .

على البناء للمجهول . وقرأ عاصم ، يفصل بينكم ، - بفتح الياء وكسر الصاد -
على البناء للفاعل . وقرأ حمزة والكسائي ، يفصل بينكم ، - بضم الياء وفتح
الفاء وتشديد الصاد مع الكسر - بالبناء للفاعل - أيضا .

وقرأ ابن عامر ، يفصل بينكم ، - بضم الياء وفتح الفاء وتشديد الصاد مع
الفتح - على البناء للمجهول .

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بقوله : : والله بما تعملون بصير ، أى :
والله - تعالى - لا يخفى عليه شيء من أعمالكم ، بل هو مطلع عليها لإطلاعا تاما
وسيجازيكم يوم القيامة بما تستحقونه من ثواب أو عقاب .

هذا ، ومن الأحكام والآداب التى أخذها العلماء من الآيات الكريمة
ما يأتى :

١ - أن هذه الآيات أصل فى النهى عن موالاة الأعداء ومصافاتهم بأية
صورة من الصور ، وشيبه بها قوله - تعالى - : : يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا
الكافرين أولياء من دون المؤمنين ، أتريدون أن تجعلوا لله عليكم سلطانا
مبيناً ، (١) .

وقوله - سبحانه - : : يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم
لا يآلؤنكم خبالا ، ودوا ما عنتم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفى
صدورهم أكبر ، (٢) .

٢ - أن هذه الآيات الكريمة نتجلى فيها رحمة الله - تعالى - بعباده
المؤمنين ، حيث ناداهم بهذه الصفة مع وقوع بعضهم فى الخطأ الجسيم ، وهو
إفشاء أسرار المؤمنين لأعدائهم . قالوا وفى هذا رد على المعتزلة الذين يقولون :
إن المصية تنافى الإيمان ...

(١) سورة النساء الآية ١٤٤ .

(٢) سورة آل عمران الآية ١١٨ .

٣ - أن هذه الآيات الكريمة فيها ما فيها من الأساليب الحكيمية في الدعوة إلى الفضائل واجتناب الرذائل ، لأن الله - تعالى - عندما نهى المؤمنين عن موالاة أعدائه وأعدائهم ، ساق لهم الأسباب التي تجعلهم على قطع كل صلة بهؤلاء الأعداء ، بأن ذكر لهم أن هؤلاء الأعداء قد كفروا بالحق ، وحرصوا على إخراج الرسول والمؤمنين من ديارهم ، وأنهم إن يتمكنوا من المؤمنين ، فسينزلون بهم أشد ألوان الأذى .

وهكذا يجب أن يتعلم لدعاة إلى الله - تعالى - ، أن على رأس الوسائل التي توصلهم إلى النجاح في دعوتهم ، أن يأنوا في دعوتهم بالأسباب المقنعة لاعتناق الحق ، واجتناب الباطل .

٤ - أن هذه الآيات الكريمة صريحة في أن ما يتعلق بالدين والعقيدة ، يجب أن يقدم على ما يتعلق بالأرحام والأولاد . لأن الأرحام والأولاد لن تنفع يوم القيامة ، وإنما الذي ينفع هو ما يتعلق بالاستجابة لما يفرضه دين علينا من واجبات وتكاليف .

○ ○ ○

وبعد هذا النهى للمؤمنين عن موالاة أعداء الله وأعدائهم ... ساقى لهم السورة الكريمة . جانباً من قصه إبراهيم - عليه السلام - الذي تبرأ من كل صلة تربطه بغيره سوى صلة الإيمان ، وإخلاص العبادة لله - تعالى - ، وأمرتهم بأن يقتدوا به في ذلك . أيثا لوارضا الله - عز وجل - ، فقال :

« قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ ، إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَاءُ مِنْكُمْ ، وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ، كَفَرْنَا بِكُمْ ، وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا ، حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ ، إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ ، لِاسْتَغْفِرَ لَكَ ، وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ

من شيء، ربنا عليك توكلنا ، وإليك أنبنا وإليك المصيرُ (٤) ربنا
لا تجملنا فتنة للذين كفروا واغفر لنا ربنا ، إنك أنت العزيزُ
الحكيمُ (٥) لقد كان لكم فيهم أسوة حسنة لمن كان يرجو الله
واليوم الآخر ، ومن يتول فإن الله هو الغني الحميدُ (٦) .

والأسوة كالقدوة ، وهي إتباع الغير على الحالة التي يكون عليها . قال
- تعالى - : : لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة

قال الألوسي : قوله - تعالى - : : قد كانت لكم أسوة حسنة في
إبراهيم . . . ، نأكد لأمر الإتيان عليهم ، والتخطئة في موالاة الكفار ،
بقصة إبراهيم - عليه السلام - ومن معه ، ليعلم أن الحب في الله - تعالى - ،
والبغض فيه - سبحانه - ، من أوثق عرا الإيمان ، فلا ينبغي أن
يغفل عنهما .

والأسوة - بهمهم الهمزة وكسرها - بمعنى الاتساء والافتداء ، وتطلق
على الخصلة التي من حقها أن يؤتسى ويقتدى بها ، وعلى فمى الشخص
المؤتسى به (١) .

والمعنى : قد كان لكم - أيها المؤمنون - أسوة حسنة ، وخصلة
حميدة ، ومنقبة كريمة ، في قصة أبيكم إبراهيم - عليه السلام - ، وفي
قصة الذين آمنوا معه .

وافتح - سبحانه - الكلام بقوله : : قد كانت . . . ، لتأكيد الخير ،
فإن هذا الأسلوب المشتمل على قد وفعل الكون ، يفيد التأكيد بموجب
الخبر ، والتعريض بغفلة من يخالفه .

ورصف - سبحانه - الأسوة بالحسن ، على سبيل المدح لها ، والتحريض
على الاقتداء بصاحبها .

وعطف - سبحانه - على إبراهيم الذين آمنوا معه ، أيتهم التفضل لخال المسلمين مع رسولهم - صلى الله عليه وسلم - أى : كوفوا - أيها المؤمنون - متأسين ومقتدين برسولكم - صلى الله عليه وسلم - ومطيعين له . ومستجيبين لتوجيهاته ، كما كان أتباع أيكم إبراهيم كذلك .

ثم بين - سبحانه - ما يجب عليهم الاقتداء به من حال إبراهيم - عليه السلام - والمؤمنين معه ، فقال : إذ قالوا لقومهم إنا برءاء منكم ، ومما تعبدون من دون الله كافرين ، وبدأ بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدا ، حتى تؤمنوا بالله وحده ... ، ود إذ ، ظرف زمان بمعنى وقت وحين ، وهو بدل اشتمال من إبراهيم والذير معه . أو خبر لكان ...

و د برءاء ، جمع برىء . يقال : برىء فلان من كذا يبرأ برء وبراءة ... إذا ابتعد عنه ، لكراهته له .

أى : قد كان لكم - أيها المؤمنون - أسوة حسنة في إبراهيم - عليه السلام - ، وفي الذين آمنوا معه ، رقت أن قالوا لقومهم الكافرين ، بشجاعة وقوة : إنا برءاء منكم ، ومن آلهةكم التى تعبدونها من دون الله - عز وجل - وإننا قد كفرنا بكم وبعبوداتكم ، وبدأ ، أى : وظهر بيننا وبينكم العداوة والبغض على سبيل التأييد والاستمرار ، ولن فتخلى عن ذلك معكم ، حتى تؤمنوا بالله - تعالى - وحده ، وتتركوا عبادتكم لغيره - تعالى - .

فأنت ترى أن إبراهيم - عليه السلام - والمؤمنون معه ، قد أعلنوا بكل شجاعة وشدة ، وإيمانهم الكامل بالحق ، وبرأيتهم وكراميتهم واحتقارهم ، لكل من أشرك مع الله - تعالى - في العبادة آلهة أخرى .

وأنهم لم يكتفوا بالتغيير القلبي المنسكر ، بل جاهرُوا بعدواتهم له ، وبالتنزه عن اقترابهم منه ، وبتجافهم عنه ... وأهل هذا هو أقهى ما كانوا يعملونه بالنسبة لتغيير هذا المنسكر في ذلك الوقت ..

وقد أخبرنا القرآن أن إبراهيم - عليه السلام - لم يكتف بذلك ، بل حطم الأصنام التي كان يعبدونها قومه . وقال لهم : دأف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون . .

قال صاحب الكشف : أي كان فيهم - أي : في إبراهيم ومن آمن معه - مذهب حسن مرضى ، جدير بأن يؤتى به ، ويقع أثره ، وهو قولهم لكفار قومهم ما قالوا ، حيث كاشفهم بالعداوة ، وقشروا لهم العصا ، وأظهروا البغضاء والمقت ، وصرحوا بأر سبب عدوانهم وبغضائهم ، وليس إلا كفرهم بالله .

وما دام هذا السبب قائما ، كانت العداوة قائمة ، حتى إن أولاده وآمنوه بالله وحده ، انقلبت العداوة موالاة ، والبغضاء محبة ، والمقت مقة . أي : محبة - فأنصحوا عن محض الإخلاص ... ، (١)

وقوله - تعالى - : دأف لكم ولما تعبدون من دون الله ، كلام معترض بين الأقوال التي حكاهما - سبحانه - عن إبراهيم - عليه السلام -

والاستثناء يرجح أنه منقطع ، لأن هذا القول من إبراهيم لأبيه ، ليس من جنس الكلام السابق ، الذي تبرا فيه هو ومن معه مما عليه أقوامهم الكافرون

والمعنى : اقتدوا - أيها المؤمنون - بأبيكم إبراهيم - عليه السلام - وبالذين آمنوا معه ، في برائتهم من الشرك والمشركين ... ولكن لا تقتدوا به في استغفاره لأبيه الكافر ، لأن استغفاره له كان عن مودة وعدها إياه ، فلما تبين له أنه عدو لله تبرا منه .

قال الإمام الشوكاني ما ملخصه : قوله : دأف لكم ولما تعبدون من دون الله ، هو استثناء متصل من قوله : دأف لكم ولما تعبدون من دون الله ، أي : لا تقتدوا به في استغفاره لأبيه الكافر ، بتقدير مضاف .. أي : لا

قد كانت لكم أسوة حسنة في مقالات إبراهيم ، إلا في قوله لأبيه :
لاستغفرن لك .

ويصح أن يكون استثناء متصل من قوله : « أسوة حسنة » ، وصح ذلك
لأن القول من جملة الأسوة ، فكأنه قيل : قد كانت لكم أسوة حسنة في
إبراهيم في جميع أقواله وأفعاله ، إلا في قوله لأبيه لاستغفرن لك .

أو هو استثناء منقطع ، أى : اقتدوا بإبراهيم في كل أقواله وأحواله ،
لكن لا تقتدوا به في قوله لأبيه المشرك : لاستغفرن لك ، بأن تستغفروا
لابائكم المشركين ، لأن استغفار إبراهيم لأبيه المشرك كان عن موعدة
وعدها إياه ، أو أنه ظن أن أباه قد أسلم . (١) .

وقوله - سبحانه - « وما أملك لك من الله من شيء » ، حكاية لبقية كلام
إبراهيم لأبيه ، وليس الاستثناء مترجها إليه ، لأن هذه الجملة بيان لما نحلى
به إبراهيم عليه السلام - من آداب مع ربه - تعالى - ، حيث فرض الأمر
لإيه - سبحانه .

أى : وعد إبراهيم أباه بالاستغفار له ، أملا في هدايته ، وقال له : يا أبت
إني لا أملك لك من أمر قبول الاستغفار شيئا ، بل الأمر كله لله ، إن شاء
عذبك وإن شاء عفا عنك ، والجملة الكريمة في محل نصب على الحال من فاعل
« لاستغفرن لك » . أى : لاستغفرن لك حالة كونى لا أملك من أمر المغفرة
أو غيرها شيئا ، وإنما الذى يملك ذلك هو الله - عز وجل - .

ثم حكى - سبحانه - بعد ذلك جانبها مما تضرع به إبراهيم - عليه السلام -
إلى خالقه فقال : « ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير » .

أى : يا ربنا عليك وحدك فوضنا أمورنا ، وإليك وحدك قبول توبتنا ،
وإليك لا إلى أحد سواك مرجعنا ومصيرنا .

«ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا...» والفتنة هنا مصدر بمعنى المفتنون ،
أى : الممذب ، مأخوذ من فتن فلان الفضة إذا أذابها ...

أى : ياربنا لا تجعلنا مفتونين معذبين لهؤلاء الكافرين ، بأن تسلطهم
علينا فيفتنونا بعذاب لا نستطيع صده ، كما قال - تعالى - : «إن الذين فتنوا
المؤمنين والمؤمنات...» أى : عذروهم وحاولوا إزال الضرر والأذى بهم .
ويصح أن يكون المعنى : ياربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا ، بأن تعذبنا
بأيديهم ، فيظنوا بسبب ذلك أنهم على الحق ، ونحن على الباطل ، لأننا لو كنا
على الحق لما انتصروا علينا .

وابعض العلماء رأى آخر فى فهم هذه الآية ، وهو أن المراد بالفتنة هنا :
إضطراب حال المسلمين وفساده . وكونهم لا يصلحون أن يكونوا أقدرة لغيرهم
فى وجوه الخير... فىكون المعنى : ياربنا لا تجعل أعمالنا وأقوالنا سيئة .
فيترب على ذلك أن ينفر الكافرون من ديننا ، بحجة أنه لو كان ديننا سليما ،
لظهر أثر ذلك على أتباعه . ولا كانوا بهيدين عن كل تفرق وتباعد وتأخر .

قال بعض العلماء ماملخصه : قوله : «ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا» :
الفتنة : اضطراب الحال وفساده ، وهى اسم مصدر ، فتجىء بمعنى المصدر ،
كقوله - تعالى - : «والفتنة أشد من القتل» .

وتجىء وصفا للمفتنون والقاتن .

ومعنى جعلهم فتنة للذين كفروا : جعلهم مفتونين يفتنهم الذين كفروا ،
فيصدق ذلك بأن يسلط عليهم الدين كفروا فيفتنون ...

وبصدق - أيضا - بأن تختل أمور دينهم بسبب الذين كفروا ، أى : بسبب
محببتهم والتقرب منهم .

وعلى الوجهين ، فالفتنة من إطلاق المصدر على اسم المفعول ...

واللام في الذين كفروا ، على الوجهين - أيضا - للملك ، أى : مفتونين مسخرين لهم -

ويجوز عندى أن تكون فتنة ، مصدرا بمعنى اسم الفاعل . أى : لا نجعلنا فائنين ، أى : بسبب فتنة للذين كفروا ، فيكون كناية عن معنى : لا تغلب الذين كفروا علينا ، واصرف عنا ما يكون من اختلال أمرنا ، وسوء الأحوال ، كى لا يكون شئ من ذلك فائنا للذين كفروا .. أى : يذبدهم كفرا ، لأنهم يظنون أننا على الباطل وأنهم على الحق .. (١)

وقوله : د واغفر لنا ربنا إنك أنت العزيز الحكيم ، أى : واغفر لنا يا ربنا ذنوبنا ، إنك أنت الغالب الذى لا يغالب ، الحكيم فى كل أقواله وأفعاله .

وقوله - سبحانه - : د لقد كان لكم فىهم أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر ... ، تأكيد لقوله - تعالى - قبل ذلك : د قد كانت لكم أسوة حسنة فى إبراهيم ... ، والغرض من هذا التأكيد ، تحريض المؤمنين على التأسى بالسابقين فى قوة إيمانهم ، وشدة إخلاصهم ..

أى : لقد كان لكم أبها المؤمنون - أسوة حسنة ، وقدوة طيبة . فى أبيكم إبراهيم - عليه السلام - ، وفيمن آمن به ، وهذه القدوة إنما ينتفع بها من كان يرجو لقاء الله - تعالى - ورضاه ، ومن كان يرجو ثوابه وجزاءه الطيب ..

وجىء بلام القسم فى قوله : د لقد كان لكم ... على سبيل المبالغة فى التأكيد بوجوب التأسى بإبراهيم ، وبمن آمن معه .

وجملة : لمن كان يرجو الله واليوم الآخر ... بدل من قوله : لكم . بدل اشتغال .

وفائدة هذا البدل : الإيذان بأن من يؤمن بالله واليوم الآخر ، لا يترك

(١) تفسير التحرير والتنوير ج ٢٨ ص ١٢٩ للشيخ محمد الطاهر بن عاشور

الافتداء بإبراهيم - عليه السلام - وبمن آمن معه ، وإن ترك ذلك من علامات عدم الإيمان الحق ...

كما ينبى عنه التحذير فى قوله - تعالى - بعد ذلك : « ومن يتول فإن الله هو الغنى الحيد » .

أى : ومن يعرض عن هذا التأسى ، فوبال إعراضه عليه وحده ، فإن الله - تعالى - هو الغنى عن جميع خلقه ، الحيد لمن يمثل أمره .

والمتمدبر فى هذه الآيات الكريمة ، من أول السورة إلى هنا ، يجد أن الله - تعالى - لم يترك وسيلة للتنفير من موالاة أعدائه ، إلا أظهرها وكشف عنها .

• • •

ثم فتح - سبحانه - لعباده باب رحمته وفضله ، فبشرهم بأنه قد يمدى إلى الاسلام قوما من الأعداء الذين تربط بينهم وبين المؤمنين رابطة الدم والقرابة وحدد لهم القواعد التى عليها يبنون مودتهم وعداوتهم لغيرهم ، فقال - تعالى - :

« عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوْدَّةً ، وَاللَّهُ قَدِيرٌ ، وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٧) لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ ، وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ ، إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٨) إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ ، وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ، وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ ، وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٩) » .

وعسى ، فعل مقاربة يدل على الرجاء ، وإذا صدر من الله - تعالى - كان متحقق الوقوع ، لصدوره من أكرم الأكرمين .

قال صاحب الكشف : « عسى » وعد من الله على عادات الملوك حيث

يقولون في بعض الحوائج : عسى أو لعل ، فلا تبقى شبهة للمحتاج في تمام ذلك . أو قصد به لإطعام المؤمنين . . . (١)

وقال الجمل في حاشيته : ولما أسراقة المؤمنين بعداوة الكفار ، عادى المؤمنون أقرباءهم المشركين وأظهروا لهم العداوة والبراءة ، وعلم الله شدة ذلك على المؤمنين ، فوعده سبحانه المسلمين بإسلام أقاربهم الكفار ، غير الوهم موالاة جائزة ، وذلك من رحمته - تعالى - بالمؤمنين ، ورأفته بهم ، فقال : ، عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاويتم منهم مودة . . . (٢)

والمعنى : عسى الله - تعالى - أن يجعل بينكم - أيها المؤمنون - وبين الذين عاديتهم من أقاربكم الكفار ، مودة ومحبة . . . بأن يهديهم إلى الدخول في دين الإسلام ، فتتحول عداوتكم لهم ، إلى أخوة صادقة ، وصلة طيبة ، ومحبة شديدة .

وقد أجز الله - تعالى - وعده ، فهدى كثيراً من كفار قريش إلى الدخول في الإسلام ، والتقواهم وأقاربهم الذين سبقوهم إلى الإسلام ، على حاجة الله ومحبته ، والدفاع عن دينه ، وبذل أنفسهم وأموالهم في سبيله .

والله قدير ، والله غفور رحيم ، أي : والله - تعالى - شديد القدرة على أن يغير أحوال القلوب ؛ فيصبح المشركون مؤمنين ، والأعداء أصدقاء ، والله - تعالى - وأوسع المغفرة والرحمة ، لمن استجاب لأمره ونهيه ، وأطاع عن المعصية إلى الطاعة ، ونبتذ الكفر وتحول إلى الإيمان .

فالآية السكرية بشارة عظيمة للمؤمنين ، بأنه - سبحانه - كفيل بأن يجمع شملهم بكثير من أقاربهم الكافرين ، وبأن يحول العداء الذي بينهم ، إلى مودة

(١) تفسير الكشاف ج ٤ ص ١٥٥

(٢) حاشية الجمل على "جلالين" ج ٤ ص ٢٢٨

ومحبة ، بسبب انتقام الجميع على طاعة الله - تعالى - وإخلاص العباد له . . .
وقد تم ذلك بصورة موسعة ، بعد أن فتحت مكة ، ودخل الناس في
دين الله أفواجا .

ثم بين - سبحانه - للذين القاعة التي يسرون عليها في مودتهم وعداوتهم
وصلتهم ومقاتلتهم . . . فقال - تعالى - : « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلواكم في
الدين ولم يخرجوكم من دياركم ، أن تبرؤهم وتقسطوا إليهم ، إن الله يحب
المقسطين » .

وقد ذكر المفسرون في سبب ذلك نزول هذه الآية والتي بعدها روايات
منها ، ما أخرجه البخاري وغيره عن أسماء بنت أبي بكر الصديق قالت : أتاني أمي
راغبة - أي : في عطائي - وهي مشركة في عهد قريش . . . فسألت رسول الله
- صلى الله عليه وسلم - أصلها ؟ فأنزل الله - تعالى - : « لا ينهاكم الله . . . »
فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « نعم صلى أمك » .

وروى الامام أحمد وجماعة عن عبد الله بن الزبير قال : قدمت فتيلة بنت
عبد العزى - وهي مشركة - على إبنتها أسماء بنت أبي بكر يهدايا ، فأبى أسماء
أن تقبل هديتها ، أو تدخلها بيتها ، حتى أرسلت إلى عائشة ، لكي تسأل رسول الله
- صلى الله عليه وسلم - عن هذا ، فسأله ، فأنزل الله - تعالى - : « لا ينهاكم الله
عن الذين لم يقاتلوكم في الدين » .

وقال الحسن وأبو صالح : نزلت هذه الآية في قبائل من العرب كانوا قد
صالحوا النبي - صلى الله عليه وسلم - على أن لا يقاتلوه ، ولا يعينوا عليه .

وقال مجاهد : نزلت في قوم بمكة آمنوا ولم يهاجروا ، فكان المهاجرون
والأنصار يتخرجون من برهم - لتركمهم فرص الهجرة

قال الألوسي - بعد أن ذكر هذه الروايات وغيرها - : والأكثرون على أنها في كفرة إنصفوا بما في حين الصلة . ، (١)

والذي تطمئن إليه النفس أن هاتين الآيتين ، ترسمان للمسلمين المنهج الذي يجب أن يسيروا عليه مع غيرهم ، وهو أن من لم يقاثلنا من الكفار ، ولم يعمل أو يساعد على إلحاق الأذى والضرر بنا . فلا بأس من بره وصلته .

ومن قائلنا ، وحاول إيداءنا منهم . فعلمينا أن تقطع صلتهما به ، وأن تتخذ كافة الوسائل لردعه وتأديبه ، حتى لا يتجاوز حدوده معنا .

والمعنى : لا ينهاكم الله - تعالى - أبها المؤمنون - عن ، مودة وصلة الكافرين ، الذين لم يقاثلوكم ، في الدين ، ولم يخرجوكم من دياركم ، أي : لم يقاثلوكم من أجل أنكم مسلمون ، ولم يحاولوا إلحاق أي أذى بكم ، كالعمل على إخراجكم من دياركم

لا ينهاكم الله - تعالى - عن ، أن تبرؤم ، أي : عن أن تحسنوا معاملتهم وتكرمهم . وعن أن تقتطوا إليهم ، أي تفضوا إليهم بالعدل ، وتعاملوهم بمثل معاملتهم لكم ، ولا تجوروا عليهم في حكم من الأحكام .

، إن الله يحب المقسطين ، أي : العادلين في أقوالهم وأفعالهم وأحكامهم ، الذين ينصفون الناس ، ويعطونهم العدل من أنفسهم ، ويسنون إلى من أحسن إليهم .

، إنما ينهاكم الله - تعالى - ، عن بر وصلة ، الذين يقاثلوكم في الدين ، أي قاتلوكم لأجل أنكم على غير دينهم ، وأخرجوكم من دياركم ، التي تسكنونها ، وظاهروا على إخراجكم ،

(١) راجع تفسير الألوسي ٢٨٥ - ٢٨٦ ض ٧٤

أى : وعاونوا غيرهم على إخراجكم من دياركم ، يقال : ظاهر فلان فلانا على كذا ، إذا عاوناه فى الوصول إلى مطلبه .

وقوله : « أن تولهم » بدل لإشتغال « من الذين قاتلوكم » ، أى : بينماكم - سبحانه - عن موالاته ومواصلة وبر ، الذين قاتلوكم فى الدين ، وأخرجوكم من دياركم .

« ومن يتولهم » ، أى : من يبرمهم - أيها المؤمنون - هؤلاء الذين قاتلوكم « فأولئك » الذين يفعلون ذلك « هم الظالمون » لأنفسهم ظلما شديدا ، يستحقون بسببه العقاب الذى لا يعلمه إلا هو - سبحانه -

فأنت ترى أن الآية الأولى قد رخصت لنا فى البر والصلة - قولا وفعلًا - للكفار الذين لم يقاتلونا لأجل ديننا ، ولم يحاولوا الإساءة إلينا .

بينما الآية الثانية قد نهضتنا عن البر أو الصلة لأولئك الكافرين ، الذين قاتلونا من أجل مخالفتنا لهم فى العقيدة ، وحاولوا إخراجنا من ديارنا أو أخرجوا بعضنا بالفعل - ، وعاونوا غيرهم على إنزال الأذى بنا .

هذا ، ويرى بعض العلماء أن الآية الأولى منسوخة .

قال القرطبى : قال ابن زيد : كان هذا فى أول الاسلام عند الموقعة ، وترك الأمر بالقتال ، ثم نسخ هذا الحكم .

قال قتادة : نسخها قوله - تعالى - : « فاقتلوا المشركين حيث وجدتمهم » (١)

والذى عليه المحققون من العلماء ، أن الآية محكمة وإبست منسوخة ، لأنها تقرر حكما يتفق مع شريعة الاسلام فى كل زمان ومكان ، وهو أننا لا نؤذى إلا من آذانا ، ولا نقاتل إلا من أظهر العداء لنا بأية صورة من الصور .

وأقوال النبي - صلى الله عليه وسلم - وأفعاله يؤيد عدم النسخ ، فقد كان - صلى الله عليه وسلم - يستقبل الوفود التي تأتيه لمناقشتها في بعض الأمور الدينية ، مقابلة كريمة ، ويتجلى ذلك فيما فعله مع وفد نجران ، ووفد تميم وما ...

كذلك مما يؤيد عدم النسخ ، أنه لا تعارض بين هذه الآية ، وبين آية سيف ، لأن الأمد بالقتال إنما هو بالنسبة لقوم يستحقونه ، بأن يكونوا قد تولوا أو أخرجوا من ديارنا ، كما جاء في الآية الثانية .

وأما الرخصة في البر والصلة . فهي في شأن الذين لم يقاتلونا ، ولم يخرجونا من ديارنا ، وهذا ما صرحت به الآية الأولى .

ورحم الله الامام ابن جرير فقد قال بعد أن ذكر الآراء في ذلك : ، وأولى الأقوال في ذلك بالصواب ، قول من قال : عني بقوله - تعالى - : « لا ينهاكم عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ... » ، جميع أصناف الملل والأديان ، أن تقاتلهم وتصلوهم وتقسطوا إليهم .. ويشمل ذلك من كانت صفته ، دون بعض لبعض دون بعض .

ولا معنى لقول من قال : ذلك منسوخ ، لأن بر المؤمن من أهل الحرب ، من بينه وبينه قرابة نسب ، أو ممن لا قرابة بينه ولا نسب ، غير محرم ، لا منهي عنه ، إذا لم يكن في ذلك ، دلالة له ، أو لأهل الحرب ، على عورة أهل الاسلام ، أو تقوية لهم بكراع أو سلاح ، (١)

ثم انتقلت السورة الكريمة إلى بيان بعض الأحكام التي تتعلق بالفساد المؤمنات ، اللاتي تركن أزواجهن الكفار ، ورغبن في الهجرة إلى دار الاسلام فقال - تعالى - :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مَهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ »
 اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ
 لَأَمِّنَ لَهُنَّ وَلَا لَكُمْ يَحْلُونَ لَهُنَّ وَأَتَوْهُنَّ مَا نَفَقُوا ، وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ
 أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أَجْرَهُنَّ ، وَلَا تُمْسِكُوا بِعَمِ
 الْكُفَّارِ ، وَاسْأَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنْفَقُوا ، ذَلِكَ حُكْمُ اللَّهِ
 يُحْكُمُ بَيْنَكُمْ ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٠) وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ
 إِلَى الْكُفَّارِ فَمَا قَبَّيْتُمْ ، فَأَتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ مِثْلَ مَا أَنْفَقُوا ،
 وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ (١١) .

قال الإمام القرطبي : قوله - تعالى - « يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ
 مَهَاجِرَاتٍ ... » ، لما أمر الله المسلمين بترك موالاة المشركين ، اقتضى ذلك
 مهاجرة المسلمين عن بلاد الشرك إلى بلاد الإسلام وكان التناكح من أوكد
 أسباب الموالاة ، فبين - سبحانه - أحكام مهاجرة النساء .

قال ابن عباس : جرى الصلح مع مشركي قريش عام الحديبية ، على أن من
 أتاه من أهل مكة رده إليهم ، فجاءت سعيدة بنت الحارث الأسلمية بعد الفراغ
 من الكتاب ، والنبي - صلى الله عليه وسلم - بالحديبية بعد ، فأقبل زوجها -
 وكان كافرا ... فقال : يا عمة ، اردد على امرأتى فإنك شرطت ذلك .
 وهذه طينة الكتاب لم تجف بعد ، فأنزل الله - تعالى - هذه الآية .

وقيل : جاءت أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط ، فجاء أهلها يسألون رسول
 الله - - صلى الله عليه وسلم - أن يردها .

وقيل : هربت من زوجها عمرو بن العاص ومعهما أخوها ، فرد رسول الله صلى الله عليه وسلم - أخويها وحبسها ، فقالوا للنبي - صلى الله عليه وسلم - : ردنا علينا للشرط ، فقال : « كان الشرط في الرجال لا في النساء » ، فأنزل الله هذه الآية ... (١)

والمعنى : يا من آمنتم بالله - تعالى - حق الإيمان ، « إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات ، من دار الكفر إلى دار الإيمان ، وراغبات في فراق الكافرين ، والبقاء معكم ... »

« فامتحنوهن ، أي : فاخترنوهن اختباراً يغلب به الظن بأنهن صادقات في هجرتن وفي إيمانن ، وفي موافقة قلوبهن لألسنتهن . »

وقد ذكر ابن جرير في كيفية امتحانن صيفاً منها : ما جاء عن ابن عباس أنه قال : كانت المرأة إذا أتت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حلفها بأنها ما خرجت بفضالزوجها ، ولا رغبة في الانتقال من أرض إلى أرض ، ولا التماساً لدنيا ، وإنما خرجت حباً لله ورسوله ، (٢)

وجملة : « الله أعلم بإيمانن » معترضة لبيان أن معرفة خفايا القلوب ، مردها إلى الله - تعالى - وحده ..

قال صاحب الكشف : قوله : « الله أعلم بإيمانن » ، أي : منكم : لأنكم لا تكسبون فيه علماً تطمئن معه نفوسكم ، وإن استحلقتموهن ورزتم أحوالهن ، وعند الله حقيقة العلم به ، (٣)

والمراد بالعلم في قوله - تعالى - : « فإن عليتوهن مؤمنات فلا ترجموهن إلى الكمار » ، الظن الغالب ..

(١) راجع تفسير القرطبي ج ١٨ ص ٦١ .

(٢) راجع تفسير ابن جرير ج ٢٨ ض ٤٥ .

(٣) تفسير الكشف ج ٤ ص ١٧٥ .

أى : فإن غلب على ظنكم بعد امتحانهم أنهم مؤمنات صادقات في إيمانهم ، فأبقوهن عندكم ، ولا ترجعوهن إلى أزواجهن أو إلى أهلن من الكفار .

وسمى الظن القوى علماء الإيزان بأنه كالألم في وجوب العمل بمقتضاه وإنما رد الرسول - صلى الله عليه وسلم - الرجال الذين جاءوه مؤمنين بعد صلح الحديبية ، ولم يرد النساء المؤمنات ، لأن شرط الرد كان في الرجال ولم يكن في النساء - كما سبق أن ذكرنا نقلا عن القرطبي - ، ولأن الرجل لا يخشى عليه من الفتنة في الرد ، ما يخشى على المرأة ، من إصابتها المشرك إياها ، وتخوينها ، ولم كراهها على الردة ...

قال بعض العلماء : قال كثير من المفسرين : إن هذه الآية مخصصة لما جاء في معاهدة صلح الحديبية ، والتي كان فيها من جاء من الكفار مسلما إلى المسلمين ، ودوه إلى المشركين ، ومن جاء من المسلمين كافرا للمشركين ، لا يردونه على المسلمين ، فأخرجت الآية النساء من المعاهدة ، وأبقت الرجال ، من باب تخصيص العموم .

وتخصيص السنن بالقرآن : وتخصيص القرآن بالسنة ، أمر معلوم . ومن أمثله تخصيص السنة بالكتاب ، قوله - صلى الله عليه وسلم - : ما أبين أن حتى فهو ميت ، أى : فهو محرم . فقد جاء تخصيص هذا العموم بقوله - تعالى - : « ومن أصوافها وأوبارها ، أى : لبس محرما . ومن أمثله تخصيص الكتاب بالسنة قوله - تعالى - : « حرمت عليكم الميتة والدم ... » فقد جاء تخصيص هذا العموم بحديث : « أحلت لنا ميتتان ودمان : أما الميتتان فالجراد والحوت ... »

وقال بعض المفسرين : إنها ليست مخصصة للمعاهدة . لأن النساء لم يدخلن فيها ابتداء ، وإنما كانت في حق الرجال فقط . . .

والذي يظهر - والله أعلم - أنها مخصصة لمعاهدة الحديبية ، وهي من أحسن

الأمثلة لتخصيص السنة بالقرآن - كما قال الإمام ابن كثير - ، (١)

وقوله - سبحانه : لا هن حل لهم ولا هم يحلون لهن ، تعليل للنهي عن رد المؤمنات المهاجرات إلى دار الكفر ، أو إلى أزواجهن الكفار .

أى : لا ترجعوا - أيها المؤمنون - النساء المؤمنات المهاجرات إليكم من أرض الكفر إلى أزواجهن الكافرين ، فإن هؤلاء المؤمنات حرق بسبب إيمانهن لا يصح ارتباطهن بأزواجهن الكفار ، كما لا يصح لهؤلاء الكافرين الارتباط بالنساء المؤمنات .

فالجملة الكريمة المقصود بها تأكيد النهي عن رد المؤمنات المهاجرات إلى أرض الكفر ، ووجوب التفرقة بين المرأة المؤمنة وزوجها الكافر في جميع الأحوال .

قال ابن كثير : هذه الآية هي التي حرمت المسلمات على المشركين ، وقد كان ذلك جائزاً في أول الإسلام ، أن يتزوج المشرك المؤمنة .. ، (٢)
وقوله - تعالى - : وآتوهم ما أنفقوا ، بيان لمظهر من مظاهر عدالة الإسلام في أحكامه . والخطاب لولاة الأمور . وهذا الإيتاء إنما هو للأزواج المماهدين ، أما إذا كانوا حربيين فلا يعطون شيئاً .

أى : وسلموا إلى المشركين الذين جاءكم نساءهم مؤمنات ، ما دفعوه لهن من مهر قال القرطبي : قوله : وآتوهم ما أنفقوا ، : أمر الله - تعالى - إذا أمسكت المرأة المسلمة ، أن يرد إلى زوجها المشرك ما أنفق ، وذلك من الوفاء بالعهد ، لأنه لما منع من أهله ، بحرمة الإسلام ، أمر - سبحانه - برد المال إليه ، حتى لا يقع عليهم خسران من الوجهين : الزوجة والمال ، (٣) .

(١) راجع أضواء البيان ج ٨ ص ١٦٠ .

(٢) تفسير ابن كثير ج ٨ ص ١١٨ .

(٣) تفسير القرطبي ج ١٨ ص ٦٥ .

فالمراد بقوله - تعالى - : « ما أنفقوا » : ما دفعه المشركون لأزواجهم المؤمنات .

وعبر عن هذه المهور بالنفقة ، للإشعار بأن هؤلاء الزوجات المؤمنات ، أصبحن لا صلة لهن بأزواجهن المشركين .

وقوله - سبحانه - : « ولا جناح عليكم أن تنكحوهن إذا آتيتهن أجورهن ، تكريم لهن - هؤلاء النساء المسلمات اللاتي فررن بدينهن من أزواجهن المشركين .

أى : ولا حرج عليكم - أيها المؤمنون - في نكاح هؤلاء المؤمنات ، بعد فراقهن لأزواجهن المشركين ، وبعد استيرائكم لأرحامهن ، وعليكم أن تدفعن لهن مهورهن كاملاً غير منقوصة .

ونص على دفع المهر لهن - مع أنه أمر معلوم - ، لكي لا يتوهم متوهم ، أن رد المهر إلى الزوج الكافر ، يغنى عن دفع مهر جديد لهن إذا تزوجن بعد ذلك بأزواج مسلمين ، إذ المهر المردود للكفار ، لا يقوم مقام المهر الذي يجب على المسلم إذا ما تزوج بامرأة مسلمة فارت زوجاً الكافر .

والمراد بالإيتاء : ما يشمل الدفع العاجل ، والتزام الدفع في المستقبل . ثم نهي الله - تعالى - المسلمين عن إبقاء الزوجات المشركات في عصمتهم فقال : « ولا تنكروا بعصم الكوافر » .

والعصم : جمع عصمة ، والمراد بها هنا : عقد النكاح الذي يربط بين الزوج والزوجة ، والكوافر : جمع كافرة ، كضوارب جمع ضاربة .

أى : ولا يصح لكم - أيها المؤمنون - أن تبقوا في عصمتكم ، وزوجاتكم اللاتي آثرن الكفر على الإيمان ، وأبين الهجرة معكم من دار الكفر إلى دار الاسلام ، وقد بادر المسلمون بعد نزول هذه الآية بتطليق زوجاتهم الكافرات ، فطلق عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - امرأتين له كانتا مشركتين ، وطلق طلحة بن عبيد الله إحدى زوجاته وكانت مشركة ...

وهذه الجملة الكريمة تأكيد لقوله - تعالى - قبل ذلك : « لا هن حل لهم ولا هم يحلون لهن » .

ثم بين - سبحانه - حكماً آخر من الأحكام التي تدل على عدالة الإسلام في تشريعاته فقال : « واسألوا ما أنفقتم وليسألوا ما أنفقوا » والجملة الكريمة معطوفة على قوله - تعالى - قبل ذلك : « وآتوهم ما أنفقوا » .

أي : كما أني شرعت لكم أن تعطوا الأزواج المشركين ، مهور نسائهم المسلمات اللاتي فررن إليكم ، وتركن أزواجهن الكفار ... فكذلك شرعت لكم أن تطلبوا مهور نسائكم المشركات اللاتي انفصلن عنهن الكفرهن ، ولحقن بهؤلاء المشركين ، وليطلب المشركون منكم مهور نسائكم المؤمنات اللاتي انفصلن عنهم وهاجرن إليكم .

ثم ختم - سبحانه - هذه الآية الكريمة ببيان أن هذه الأحكام ، إنما هي من الله تعالى - العليم بأحوال النفوس ، الحكيم في أقواله وأفعاله ، فقال : « ذلكم حكم الله يحكم بينكم والله عليم حكيم » .

أي : ذلكم الذي ذكرناه لكم من تشريعات تتعلق بالمؤمنات المهاجرات هي أحكام من الله - تعالى - فاتبعوها ، فهو - سبحانه - صاحب الحكم المطلق بينكم ، وهو - سبحانه - عليم بأحوال عبادته ، حكيم في كل تصرفاته وتشريعاته .

وقوله - سبحانه - : « وإن فاتكم شيء من أزواجكم إلى الكفار فعاقبتهم ، بيان لحكم آخر يتعلق بالفساء اللاتي التحقن بالمشركين ، وتركن أزواجهن المسلمين ، وأبي المشركون أن يدفعوا للمسلمين مهور هؤلاء الزوجات . والجملة الكريمة معطوفة على قوله - تعالى - قبل ذلك : « واسألوا ما أنفقتم وليسألوا ما أنفقوا » .

وقد ذكروا أن المسلمين لما نزل قوله - تعالى - : « يا أيها الذين آمنوا إذا

جاءكم المؤمنات مهاجرات . . . الآية ، كتبوا إلى المشركين يعلمونهم بما تضمنته هذه الآية .

فامتنع المشركون عن دفع مهر النساء اللاتي ذهبن إليهم ، بعد أن تركن أزواجهن المسلمين ، فنزل قوله - تعالى - : « وإن فاتكم شيء من أزواجكم إلى الكفار فعاقبتهم » (١) .

قال ابن كثير : أقر المؤمنون بحكم الله ، فأدوا ما أمروا به من نفقات المشركين التي أنفقوها على نسايتهم ، وأبى المشركون أن يقرروا بحكم الله ، فيما فرض عليهم من أداء نفقات المسلمين ، فقال الله - تعالى - للمؤمنين به : « وإن فاتكم شيء من أزواجكم . . الآية » (٢) .

وقوله « فاتكم » ، من الفوت بمعنى الفراق والترك والهرب . . . يقال : فاتني هذا الشيء ، إذا لم أتمكن من الحصول عليه ، وعدى بحرف إلى لتضمنته معنى الفرار .

والفظ « شيء » ، هنا المراد به بعض . وقوله ، « من أزواجكم » ، بيان للفظ شيء .

وقوله : « فعاقبتهم » ، يرى بعضهم أنه من العقوبة . .

وعليه يكون المعنى : « وإن نفقت وفرت امرأة من أزواجكم - أي المؤمنون - إلى الكفار ، وامتنعوا عن دفع مهرها لكم ، فعاقبتهم ، أي : ففروتم أنتم بعد ذلك هؤلاء الكافرين وانتصرتهم عليهم وظفرتهم بمغانم منهم » .

فأتوا الذين ذهبت أزواجهم « منكم » إلى الكفار من هذه المغانم

(١) راجع تفسير القرطبي > ١٨ ص ٦٨

(٢) راجع تفسير ابن كثير > ٨ ص ١٢١

« مثل ما أنفقوا ، أى : مثل المهور التى أنفقوها على زوجاتهم اللاتى فررن إلى المشركين .

ويرى بعضهم أن قوله « فعاقبتم » صيغة تفاعل من العقبة - بضم العين وسكون القاف وهى النوبة ، بمعنى أن يصير الإنسان فى حالة تشبه حالة غيره ...

قال الألوسى : قوله : « فعاقبتم » من العقبة لامن العقاب ، وهى فى الأصل النوبة فى ركوب أحد الرقيقين على دابة لهما والآخر بعده : أى : نجّات عقبتكم أى نوبتكم من أداء المهر ...

شبه الحكم بالأداء المذكور ، بأمر يتعاقبون فيه كما يتعاقب فى الركوب . وحاصل المعنى : إن لحق أحد من أزواجكم بالكفار ، أوفاتكم شئ من مهورهن ...

« فأتوا الذين ذهبوا أزواجهن مثل ما أنفقوا » من مهر المهاجرة التى تزوجتموها ، ولا تعطوا شيئاً لزوجها الكفار ، لئلا يكون قصاصاً ... (١).

وعبر عن هؤلاء الزوجات اللاتى تركن أزواجهن المؤمنين ، وفررن إلى المشركين ، بلفظ « شئ » ، لتحقير هؤلاء الزوجات ، وتحويل أمرهن على المسلمين ، وبيان أنهم بمنزلة الشئ الضائع المفقود الذى لا قيمة له ...

قال صاحب الكشف : وجميع من لحق بالمشركين من نساء المؤمنين المهاجرين ست نسوة ...

وقد أعطى الرسول - صلى الله عليه وسلم - المؤمنين مهور نساءهم - اللاحقات بالمشركين - من الغنيمة ، (٢) .

ثم ختم - سبحانه - الآية السكينة بقوله : « واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون »

(١) تفسير الألوسى ٢٨ ص ٧٩ .

(٢) تفسير الكشف ٤ ص ٥١٩ .

أى : وانقروا الله تعالى - أيها المؤمنون - فى كل شئونكم ، ونفذوا ما أمركم به
أونهاكم عنه ، فإن الإيمان الحق به - عز وجل - يسئلم منكم ذلك .
فالمنصوص بهذا التذيل . الحضر على الوفاء بما أمر الله - تعالى - به ، بدون
تهاون أو تقاعس .

• • •

وبعد أن بين - سبحانه - حكم النساء المؤمنات المهاجرات من دار الكفر
إلى دار الإسلام ، أتبع ذلك بأمر النبي - صلى الله عليه وسلم - بمبايعتهن وغيرهن
على عدم الاشرار بالله - تعالى - ، وعلى اجتناب الفواحش مظهر منها وما
يطن ، فقال - تعالى - :

« يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ
شَيْئًا ، وَلَا يَسْرِقْنَ ، وَلَا يَزْنِينَ ، وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ ، وَلَا يَأْتِينَ
بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ ، وَلَا يَمْصِيَنَّكَ فِي مَعْرُوفٍ
فَبَايِعْنَهُنَّ ، وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ » (١٢) .

فهذه الآية الكريمة ، اشتملت على أحكام متممة للأحكام المشتملة عليها
الآيتان السابقتان عليها ..

فكان الله - تعالى - يقول : إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتنحنوهن ،
ولا ترجعهن إلى الكفار ... وبايعهن أيها الرسول الكريم على إخلاص
العبادة لله - تعالى - .

قال القرطبي ما ملخصه : وفى صحيح مسلم عن عائشة قالت : كانت
المؤمنات إذا هاجرن إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يمتحن بهذه
الآية ... وكان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إذا أقررن بذلك من قوهن ،
قال لهن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « انطلقن فقد بايعتمكن » .

ولا والله ما مست يد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يد امرأة قط ،
غير أنه بايعهم بالكلام ... وما مست كف رسول الله - صلى الله عليه وسلم -
كف امرأة قط ، وكان يقول لمن إذا أخذ عليهم : « قد بايعتكم -
كلاما ، (١) » .

والمعنى : « يا أيها النبي إذا جاءك المؤمنات يبأيعنك .. ، أى : مبايعات
لك ، أو : قاصدات مبايعتك ، ومعاهدتك على الطاعة لما تأمرهن به ، أو
تفهمهن عنه .

وأصل المبايعة : مقابلة شئ بشئ على سبيل المعاوضة . وسميت المعاهدة
مبايعة ، تشبيها لها بها ، فإن الناس إذا التزموا قبول ما شرط عليهم من التكليف
الشرعية ، - طمعا في الثواب : وخوفا من العقاب ، وضمن لهم - صلى الله عليه وسلم -
ذلك في مقابلة وفاتهم بالعهد - صار كأن كل واحد منهم باع ما عنده في
مقابل ما عند الآخر :

والمقتضى لهذه ومبايعة بعد الامتحان لمن ، أنهم دخلن في الاسلام ،
بعد أن شرع الله - تعالى - ما شرع من أحكام وآداب ، ... ، فكان من المناسبات
أن يأخذ النبي - صلى الله عليه وسلم - عليهن العهد ، بأن يلتزموا بالتكليف
التي كلفهن الله - تعالى - بها .

ثم بين - سبحانه - ما تمت عليه المبايعة فقال : « على أن لا يشركن بالله
شيئا ، أى : يبأيعنك ويعاهدنك على عدم الإشراك بالله - تعالى - في أى أمر
من الأمور التي تتعلق بالعقيدة أو بالعبادة أو بغيرهما .

ولا يسرقن ولا يزيفن . ، أى ويبأيعنك - أيضا - على عدم ارتكاب

(١) راجع تفسير القرطبي ١٨ ص ١٧ . وتفسير ابن كثير ٨

فاحشة السرقة ، أو فاحشة الزنا ، فإنهما من الكبائر التي نهى الله - تعالى عنها .

ولا يقتلن أولادهن ، أى : وبإيعنك كذلك ، على عدم قتلن لأولادهن .

والمراد به هنا : والنهى عن قتل البنات ، وكان ذلك فى الجاهلية يقع قارة من الرجال ، وأخرى من النساء . فكانت المرأة إذا حانت ولادتها حفرت حفرة ، فولدت بحافها ، فإذا ولدت بنتاً رمت بها فى الحفرة ، وسونها بالتراب ، وإذا ولدت غلاماً أبقتة .

قال ابن كثير : وقوله ولا يقتلن أولادهن ، وهذا يشمل قتله بهمد وجوده ، كما كان أهل الجاهلية يقتلون أولادهم خشية الإملاق ويعم قتله وهو جنين ، كما قد يفعله بعض الجاهلة من النساء . تطرح نفسها لئلا تحبل ، إما لغرض فاسد ، أو ما أشبهه ، (١) .

وقوله : ولا يأتين بهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ، معطوف على ما قبله ، وداخل تحت النهى .

والبهتان : الخبر الكاذب المصريح فى كذبه ، والذي يجعل من قيل فيه يقف مبهوتاً ومتحيراً من شدة أثر هذا الكذب السافر .

والافتراء : اختلاق الكذب واخراج الشخص له من عند نفسه .
وللمفسرين فى معنى هذه الجملة الكريمة أقوال منها : أن المرأة فى الجاهلية ، كانت تلتقط المولود وتقول لزوجها : هذا ولدى منك ، وذلك هو البهتان المفترى بين أيديهن وأرجلهن ، لأن الولد إذا وضعته الأم ، سقط بين يديها ورجليها .

ويرى بعض أن معنى الجملة الكريمة : ولا تأتوا بكذب شنيع تختلقونه من جهة أنفسكم ، فاليد والرجل كناية عن الذات ، لأن معظم الأفعال بهما ، ولذا قيل لمن ارتكب جنابة قولية أو فعلية : هذا جزاء ما كسبت يدك (١).

وقوله - سبحانه - : ولا يعصيتك في معروف ، من الأقوال الجامعة لكل ما يخبر به النبي - صلى الله عليه وسلم - ويأمر به - أو ينهى عن الاقتراب منه .

ويشمل ذلك النهي عن شق الجيوب ، ولطم الخدود ، ودعوى الجاهلية . وغير ذلك عن المنكرات التي نهى الإسلام عنها .

وقوله - سبحانه - : وفبايعن واستغفر لهن الله ... جواب : إذا ، التي في أول الآية .

أى : إذا جاءك المؤمنات قاصدات لمبايعتك على الالتزام بتعاليم الإسلام . فبايعن على ذلك . واستغفر لهن الله - تعالى - عما فرط منهن من ذنوب . وإن الله غفور رحيم ، أى : إن الله - تعالى - واسع المغفرة والرحمة لعباده المؤمنين .

وهذه المبايعة يبدو أنها وقعت منه - صلى الله عليه وسلم - للنساء أكثر من مرة ؛ إذ أمما ما وقع في أعقاب صلح الحديبية ، بعد أن جاءه بعض النساء المؤمنات مهاجرات من دار الكفر إلى دار الإسلام ، كما حدث من أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط ، ومن سبيعة الأسلمية ، ومن أميمة بنت بشر ، ومن غيرهن من النساء اللاتي تركن أزواجهن الكفار ، وهاجرن إلى دار الإسلام .

ومما ما وقع في أعقاب فتح مكة ، فقد جاء إليه - صلى الله عليه وسلم - بعد فتحها ، نساء من أهلها ليبايعنه على الإسلام .

قال الآلوسی : والمباينة وقعت غير مرة . ووقعت في مكة بعد الفتح ، وفي المدينة .

ومن بايعنه - صلى الله عليه وسلم - في مكة ، هند بنت عتبة ، زوج أبي سفيان ... فقرأ عليهن - صلى الله عليه وسلم - الآية ، فلما قال ... « ولا يسرقن » قالت : والله إني لأصيب الهتة من مال أبي سفيان ولا أدري أيجل لي ذلك ؟ فقال أبو سفيان : ما أصبت من شيء فيما مضى فهو حلال لك .. فلما قرأ - صلى الله عليه وسلم - « ولا يزنين » قالت : أو تزني الحرة ؟ ..

فلما قرأ « ولا يقتلن أولادهن » ، قالت : ربينا هم صغاراً ، وقتلهم كباراً ، وفي رواية أنها قالت . قتلن الآباء . وتوصينا بالآولاد ...

فلما قرأ - صلى الله عليه وسلم - : « ولا يأتين بهتان » ... قالت : والله إن البهتان لقبيح ، ولا يأمر الله - تعالى - إلا بالرشد ومكارم الأخلاق . فلما قرأ « ولا يعصينك في معروف » ، قالت : والله ما جلست مجلسنا هذا وفي أنفسنا أن نعصيك في شيء ...

والتقييد بالمعروف ، مع أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - لا يأمر إلا به ، للتنبيه على أنه لا يجوز طاعة مخلوق في معصية الخالق .

وتخصيص الأمور المعدودة بالذكر في حقهن ، لكثرة وقوعها فيما بينهن ... (١) ،

وقد ذكر الإمام ابن كثير ، جملة من الأحاديث التي تدل على أن هذه البيعة قد تمت في أوقات متعددة ، وفي أماكن مختلفة ، وأنها شملت الرجال والنساء ...

ومن هذه الأحاديث ما أخرجه الإمام أحمد عن سلمى بنت قيس - إحدى

نساء بنى عدى بن النجار - قالت : جئت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - نبأه ، فى نسوة من الأنصار ، فشرط علينا : ألا نشرك بالله شيئاً ، ولا نسرق ، ولا نزنى ، ولا نقتل أولادنا ، ولا نأتى بيهتان نفترقه بين أيدينا وأرجلنا ، ولا نعصيه فى معروف .. ثم قال - صلى الله عليه وسلم - : « ولا تفششن أزواجكن » . قالت : فبايعناه ، ثم انصرفنا .

فقلت لامرأة منهن : ارجعى إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فسله : ما غش أزواجنا ؟ فسأله فقال : « تأخذ ماله ، فتعاجى به غيره » .

وفى الصحيحين عن عباد بن الصامت قال : كنا عند رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فى مجلس فقال : يا معشر على أن لا تشرکوا بالله شيئاً ، ولا تسرقوا ، ولا تزنوا ، ولا تقتلوا أولادكم .. فن وفى منكم فأجره على الله ، ومن أصاب من ذلك شيئاً فعوقب به فى الدنيا ، فهو كفارة له ، ومن أصاب من ذلك شيئاً فستره الله عليه ، فهو إلى الله ، إن شاء غفر له ، وإن شاء عذبه . (١) .

• • •

وكما افتتح - سبحانه - السورة الكريمة ببدء المؤمنين ، نهام فيه عن موالاة أعدائه وأعدائهم ، اختتمها - أيضاً - ببدء لهم ، نهام فيه مرة أخرى عن مصافاة قوم قد غضب الله عليهم ، فقال - تعالى - :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ، قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ ، كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ (١٣) » .

والمراد بالقوم الذين غضب الله عليهم : المشركون : بصفة عامة . ويدخل فيهم دخولا أوليا اليهود ، لأن هذا الوصف كثيراً ما يطلق عليهم .

(١) راجع تفسير ابن كثير > ١٢٤ .

فقد ذكروا في سبب نزول هذه الآية ، أن قوما من فقراء المؤمنين ، كانوا يواصلون اليهود ، ليصيبوا من ثمارهم ، وربما أخبروهم عن شيء من أخبار المسلمين ، فنزلت هذه الآية لتنام عن ذلك .

أى : يا من آمنتم بالله - تعالى - حق الإيمان ، بها كم الله - تعالى - عن أن تتخذوا الأقوام الذين غضب الله عليهم أولياء ، وأصفياء ، بأن تفسدوا إليهم أسرار المسلمين . أو بأن تطلعوهم على ما لا يصح الإطلاع عليه ...
وقوله - تعالى - : قد يئسوا من الآخرة كما يئس الكفار من أصحاب القبور .
تعليل للنهي عن موالاتهم . وتنفير من الركون إليهم .

والإياس : فقدان الأمل في الحصول على الشيء ، أو في ترفع حدوته .
والكلام على حذف مضاف ، أى قد يئس هؤلاء اليهود من العمل للآخرة ، وما فيها من ثواب ، وآثروا عليها الحياة الفانية ... كما يئس الكفار من عودة موتهم إلى الحياة مرة أخرى للحساب والجزاء ، لا اعتقادهم بأنه لا يموت بعد الموت ، ولا ثواب ولا عقاب - كما حكى القرآن عنهم ذلك في آيات كثيرة منها قوله - تعالى - : وقالوا أئذنا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمنبوثون .

فالمقصود من الآية الكريمة . تشبيه حال هؤلاء اليهود في شدة إعراضهم عن العمل للآخرة ... بحال أولئك الكفار الذين أنكروا إنكارا تاما ، أن هناك ممعا للأموال الذين فارقوا الحياة ، ودفنوا في قبورهم .

وعلى هذا الوجه يكون قوله - تعالى - : من أصحاب القبور ، متعلق بقوله : يئسوا ، ودمن ، لا ابتداء الغاية .

ويصح أن يكون قوله - تعالى - : من أصحاب القبور ، بيانا للكفار ، فيكون المعنى : قد يئسوا من الآخرة ، وما فيها من جزاء ... كما يئس الكفار الذين ماتوا وسكنوا القبور ، من أن ينالوا شيئا - ولو قليلا - من الرحمة ، أو تخفيف العذاب عنهم ، أو العودة إلى الدنيا ليعملوا عملا صالحا غير الذى أرداموا ما لهم .

وعلى كلا القولين ، فالآية الكريمة تنهى المؤمنين عن موالاته قوم غضب الله عليهم ، بأبلغ أسلوب ، وأحكم بيان ...

حيث وصفت هؤلاء القوم ، بأنهم قد أحاط بهم غضب الله - تعالى - ، بسبب فسوقهم عن أمره ، وإعراضهم عن طاعته ، وإنكارهم للدار الآخرة وما فيها من جزاء .

وبعد فهذا تفسير لسورة ، الممتحنة ، نسال الله - تعالى - أن يجعله خالصاً لوجهه ، ونافعا لعباده ...

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ؟

كتبه الراجي عفوره

القاهرة - مدينة نصر

محمد سيد طنطاوى

صباح السبت : ٢ من رمضان ١٤٠٦ هـ

١٠ من مايو ١٩٨٦ م

تفسير
سُورَةُ الصَّافِّ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة وتمهيد

١ - سورة «الصف» من السور المدنية الخالصة ، وقد اشتهرت بهذا الاسم منذ عهد النبوة :

فقد أخرج الإمام أحمد عن عبد الله بن سلام قال : تذاكرنا : أيكم يأتي رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فيسأله عن أحب الأعمال إلى الله ؟ فلم يقيم أحد منا ، فأرسل إلينا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - رجلا . فجمعنا فقرا علينا هذه السورة ، يعني سورة الصف كلها ، (١) .

قال الألوسي : « ونسعى - أيضا - سورة الخواريين ، وسورة عيسى - عليه السلام - . »

وعدد آياتها أربع عشرة آية ، وكان نزولها بعد سورة «التغابن» وقبل سورة «الفتح» .

٢ - وقد افتتحت بتسبيح الله - تعالى - عن كل ما لا يليق به ، ثم وجهت نداء إلى المؤمنين نهتم فيه أن يقولوا قولاً لم تطابقه أفعالهم ، فقال - تعالى - « يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون . كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون » .

وبعد أن ذكر - سبحانه - جانباً مما قاله موسى - عليه السلام - لقومه ، وما قاله عيسى - عليه السلام - لقومه ، أتبع ذلك ببيان ما جبل عليه الكافرون من كذب على الحق ومن كراهية لظهور نوره ، فقال - تعالى - « ومن أظلم من افترى على الله الكذب ، وهو يدعى إلى الإسلام ، والله لا يهدي القوم

الظالمين ، يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم ، والله متم نوره ولو كره الكافرون . .

٣ - ثم وجه - سبحانه - نداء إلى المؤمنين ، دعاهم فيه - بأبلغ أسلوب - إلى الجهاد في سبيله ، بالأنفس والأموال ، وحضهم على أن يقتدوا بالحواريين فقال : « يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله كما قال عيسى ابن مريم للحواريين من أنصاري إلى الله ، قال الحواريون نحن أنصار الله ، فأمنت طائفة من بني إسرائيل وكفرت طائفة فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم ، فأصبحوا ظاهرين » .

٤ - وهكذا نجد السورة الكريمة . تفتتح بتزييه الله - تعالى - عن كل نقص ، وتنتهي عن أن تكون الأقوال مخالفة للأفعال ، وتبشر الذين يجاهدون في سبيل الله - تعالى - بحبته ورضوانه ، وتذم الذين آذوا رسل الله - تعالى - وأنكروا نبوتهم بعد أن جاءهم بالبينات ، وترشد إلى التجارة الربحية التي توصل إلى الفوز العظيم . . .

نسأل الله - تعالى - أن يجعلنا جميعا من الذين رضى الله عنهم ورضوا عنه وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

د . محمد سيد طنطاوى

القاهرة - مدينة نصر

٢ من رمضان ١٤٠٦ هـ - ١٠/٥/١٩٩٦ م

التفسير

قال الله - تعالى - سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ،
وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ (٢)
كِبْرًا مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ (٣) إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ
يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوعٌ (٤) .

افتتحت سورة الصنف - كما افتتحت قبلها سورة الحديد والحشر -
بتزويه الله - تعالى - عن كل ما لا يليق به .

أى : تزه الله - تعالى - وقدسه ، جميع ما فى السموات وجميع ما فى الأرض
من مخلوقات ، وهو - عز وجل - العزيز ، الذى لا يغلبه غالب ، الحكيم ، فى
كل أقواله وأفعاله .

ثم وجه - سبحانه - نداء إلى المؤمنين فقال : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ
مَا لَا تَفْعَلُونَ

وقد ذكرنا فى سبب نزول هذه الآيات روايات منها : ما روى عن ابن
عباس أنه قال : كان ناس من المؤمنين قبل أن يفرض الجهاد يقولون : لوددنا
أن الله - عز وجل - دلنا على أحب الأعمال إليه ، فنعمل به ، فأخبر الله نبيه
أن أحب الأعمال إليه . إيمان به لا شك فيه ، وجهاد أهل معصيته الذين
خالفوا الإيمان ولم يقرؤا به .

فلما نزل الجهاد كره ذلك أناس من المؤمنين ، وشق عليهم أمره ، فنزلت
هذه الآيات .

وقال قتادة والضحاك : نزلت توبيخاً لقوم كانوا يقولون : قَتَلْنَا ،
ضربنا طعنا ، وفعلنا ، ولم يكونوا فعلوا ذلك (١) .

(١) راجع تفسير ابن كثير ج ٨ ص ١٢٢ .

والاستفهام في قوله - تعالى - : « لم تقولون ... » ، للإسكار والتوبيخ ،
على أن يقول الإنسان قولاً لا يؤيده فعله ، لأن هذا القول إما أن يكون كذباً ،
وإما أن يكون خلقاً للوعد ، وكلاهما يبعضه الله - تعالى - .

و « لم » مركبة من اللام الجسارة ، وما الاستفهامية ، وحذفت ألفه
ما الاستفهامية مع حرف الجر ، تخفيفاً لكثرة إستعمالها معاً ، كما في قولهم :
بهم ، وفيم ، وعم ...

أى : يا من آمنتم بالله واليوم الآخر ... لماذا تقولون قولاً ، يخالفه
أفعالكم ، بأن زعموا بأنكم لو كلفتم بكذا لفعلتموه ، فلما كلفتم به قصرتم
فيه ، أو بأن تقولوا بأنكم قد فعلتم كذا وكذا ، مع أنكم لم تفعلوا ذلك .

وناداهم بصفة الإيمان ، لتحريك حرارة الإيمان في قلوبهم ، وللتعريض
بهم ، إذ من شأن الإيمان الحق أن يحمل المؤمن على أن يسكون قوله
مطابقاً لفعله .

وقوله - سبحانه - : « كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون » ، بيان
للآثار السيئة التي تترتب على القول الذي يخالفه الفعل .

وقوله « كبر » بمعنى عظم ، لأن الشئ الكبير ، لا يوصف بهذا الوصف ،
إلا إذا كان فيه كثرة وشدة في نوعية .

والمقت : البغض الشديد ، ومنه قوله - تعالى - : « ولا تقربوا الزنا لأنه
كان فاحشة ومقتاً وساء سبيلاً » . وهو منصوب على التمييز المحول عن الفاعل :
للإشعار بأن قولهم هذا مقت خالص لا تشوبه شائبة من الرضا .

أى : كبر وعظم المقت الناشئ عن قولكم قولاً لا تطابقه أفعالكم .

وقال - سبحانه - : « كبر مقتاً عند الله » ، للإشعار بشناعة هذا البغض
من الله - تعالى - لهم ، بسبب مخالفة قولهم لفعلهم ، لأنه إذا كانت هذه الصفة
عظيمة الشناعة عند الله ، فعلى كل عاقل أن يجتنبها ، ويتعد عنها .

قال صاحب الكشف ماملخصة : ونداؤهم بالإيمان تهكم بهم وبإيمانهم ، وهذا من أفصح الكلام وأبلغه في معناه . وقصد في : كبير ، التعجب من غير لفظه ... ومعنى التعجب : تعظيم الأمر في قلوب السامعين ، لأن التعجب لا يكون إلا من شيء خارج عن نظائره وأشكله .

وأُسند إلى : أن تقولوا ، ونصب ، مقتا ، على تفسيره ، للدلالة على أن قولهم مالا يفعلون مقتب خالص لاشوب فيه ، لفرط تمسك المقت منه . واختير لفظ المقت ، لأنه أشد البغض وأبلغه ، ومنه قبل تكاح المقت - وهو أن يتزوج الرجل امرأة أبيه - ...

وإذا ثبت كبر مقته عند الله ، فقد تم كبره وشدته ، وانزاحت عنه العكوك (١) .

فأنت ترى أن الله - تعالى - ، قد ذم الذين يقولون مالا يفعلون ذما شديدا ، ويندرج تحت هذا الذم ، الكذب في القول ، والخاف في الوعد ، وحب الشخص للأناء دون أن يكون قد قدم عملا يستحق من أجله الثناء .

وبعد أن وبخ - سبحانه - الذين يقولون مالا يفعلون ، أتبع ذلك ببيان من يحبهم الله - تعالى - فقال : **«إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفَا كَأَنَّهُمْ بَنِيَانٌ مَرْصُوعُونَ»** .

ومحبة الله - تعالى - لشخص ، معناها : رضاه عنه ، وإكرامه له . والصف يطلق على الأشياء التي تكون منتظمة في مظاهرها ، متناسقة في أركانها والمرصوص : هو المتلاصق الذي انضمت بعضه إلى بعض . يقال : رصعت البناء ، إذا ألزقت بعضه ببعض حتى صار كالقطعة الواحدة .

والمعنى : **«إِنَّ اللَّهَ - تعالى - يحب الذين يقاتلون في سبيل إعلائه دينه قتالا شديدا ، حتى لكانهم في ثباتهم ، واجتماع كلمتهم ، وصدق يقينهم ببنیان قد التصق ببعضه ببعض ، فلا يستطيع أحد أن ينفذ من بين صفوفه .»**

فالقصد بالآية الكريمة ، الثناء على المجاهدين الصادقين ، الذين يثبتون أمام الاعداء وهم يقاتلونهم ، ثباتاً لا اضطراب معه ولا تزلزل ...

قال الإمام الرازى : أخبر الله - تعالى - أنه يحب من يثبت في الجهاد ، ويلزم مكانه ، كثبت البناء المرصوص .

ويجوز أن يكون على أن يستوى أرم في حرب عدوم ، حتى يكونوا في اجتماع الكلمة : وموالاة بعضهم بعضاً ، كالبنان المرصوص ... (١)

• • • • •

ثم ساق سبحانه - جانباً بما قاله موسى - عليه السلام - لقومه ، وكيف أنهم عندما انصرفوا عن الحق ، عاقبهم - سبحانه - بما يستحقون من عقاب فقال :

« وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ ، يَا قَوْمِ لِمَ تُوذُّونَنِي وَقَدْ تَمْلَهُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ ، فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ، وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٥) » .

وموسى - عليه السلام - هو ابن عمران ، وهو واحد من أولى العزم من الرسل ، وينتهى نسبه إلى إبراهيم - عليه السلام - .

وقد أرسله الله - تعالى - إلى فرعون وقومه . وإلى بنى إسرائيل ، وقد لقي عليه السلام - من الجميع أذى كثير .

ومن ذلك أن فرعون وقومه وصفوه بأنه ساحر ، وبأنه مهين ولا يكاد يبين

وأن بنى إسرائيل قالوا له عندما أرم بطاعته سمعنا وعصينا ، وقالوا

له : « أرنا الله جهرة ، وقالوا له : « اجعل لنا إلهًا كما لهم آلهة ... » ، وقالوا له : اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون . »

وقالوا عنه بأنه مصاب في جسده بالأمراض ، فبرأه الله - تعالى - .
فما قالوا .

قال ابن كثير : وفي هذا تسلية لرسوله الله - صلى الله عليه وسلم - فيما أصابه من الكفار من قومه وغيرهم ، وأمر له بالصبر ، ولهذا قال : رحمة الله على موسى ، لقد أودى بأكثر من هذا فصبر .

وفيه نهى للمؤمنين عن أن ينالوا من النبي - صلى الله عليه وسلم - ، أو يوصلوا إليه أذى ، كما قال - تعالى - « يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا ، وكان عند الله وجيباً : » (١) .

أي واذكر - أيها الرسول الكريم - وذكر أتباعك ليعتظوا ويعتبروا ، وقت أن قال موسى - عليه السلام - لقومه على سبيل الإنكار والتعجيب من حالهم ...

« يا قوم لم تؤذوني ، أي ، قال لهم : يا أهلي ويا عشيرتي لماذا تلحقون الأذى بي ؟ »

و « وقد ، في قوله - تعالى - : « وقد تعلمون أني رسول الله إليكم » ، للتحقيق ، والجملة حالية ، وجىء بالمضارع بعد « قد » ، للدلالة على أن عليهم بصدقه متجدد بتجدد ما يأتيهم به من آيات ومعجزات .

قال الجمل . قوله : « وقد تعلمون أني رسول الله إليكم » ، قد للتحقيق .
أي : تحقيق عليهم .

أى : لا للتعذيب ولا للتقليل ، وفائدة ذكرها التأكيد ، والمضارع بمعنى الماضى .

أى : وقد علمتم . وعبر بالمضارع ليدل على استصحاب الحال ، وعلى أنها مقررة للإنكار ، فإن العلم برسائنه يوجب تعظيمه ، وينفع إبداءه ، لأن من عرف الله - تعالى - وعظمته ، عظم رسوله ، (١) .

ثم يبين - سبحانه - ما ترتب على إشارهم الغى على الهدى ، فقال : فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم ... ،

والزيع : هو الميل عن طريق الحق . يقال : زاغ يزيغ زيغا وزيغانا ، إذا مال عن الجادة ، وأزاغ فلان فلانا ، إذا حوله عن طريق الخير إلى طريق الشر .

أى : فلما أصرروا على الميل عن الحق مع علمهم به ، واستمروا على ذلك دون أن تؤثر المواعظ في قلوبهم ... أمال الله - تعالى - قلوبهم عن قبول الهدى ، لإشارهم الباطل على الحق ، والضلالة على الهداية ...

كما قال - تعالى - : « ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ، ويتبع غير سبيل المؤمنين ، نزل ما نولى ، ونصله جهنم وساءت مصيرا ، » (٢) .

وقوله سبحانه - : « والله لا يهدي القوم الفاسقين » تذييل قصد به التقرير لما قبله « من أن الزيع يؤدي إلى عدم الهداية ، وبيان سنة من سنن الله في خلقه ، وهى أن من استحب العمى على الهدى ، وأصر على ذلك ... كانت عاقبته الخسران .

أى : وقد اقتضت حكمة الله - تعالى - أن لا يهدي القوم الخارجين عن

(١) حاشية الجمل على الجلالين ج ٤ ص ٣٢٦ .

(٢) سورة النساء . الآية ١١٥ .

طريق الحق ، إلى ما يسعدهم في حياتهم وبعدئذ ، لأنهم هم الذين اختاروا طريق الشقاء ، وأصرروا على سلوكها .

• • • • •

ثم ذكر - سبحانه - جانباً مما قاله عيسى - عليه السلام - لبني إسرائيل ، فقال - تعالى - :

« وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ ، مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ ، وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ ، فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ » (٦) .

أي : واذكر - أيضاً - أيها الرسول الكريم - وذكر الناس ليعتبروا ويتعظوا ، وقت أن قال عيسى ابن مريم ، مخاطباً من أرسله الله إليهم بقوله : « يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم ، لكي أخرجكم من ظلمات الكفر والشرك ، إلى نور الإيمان والتوحيد .

ولم يقل لهم يا قوم - كما قال لهم موسى - عليه السلام - ، بل قال : يا بني إسرائيل ، ، لأنه لا أب له فيهم ، وإن كانت أمه منهم ، والأنسب إنما تكون من جهة الآباء ، لا من جهة الأمهات :

وفي قوله : إني رسول الله إليكم ، إخبار صريح منه لهم . بأنه ليس إلهاً وليس ابن إله - كما زعموا وإنما هو عبد الله ورسوله .

وقوله : « مصدقاً لما بين يدي من التوراة ، جملة حالية لإثبات حقيقة رسالته ، وحضهم على تأييده وتصديقه والإيمان به .

أي : إني رسول الله - تعالى - إليكم بالكتاب الذي أنزل الله على وهو الإنجيل ، حال كونى مصدقاً للكتاب الذي أنزله الله - تعالى - على نبيه

موسى - عليه السلام - ، وهذا الكتاب هو التوراة ، وما دام الأمر كذلك فمن حقى عليكم ، أن تؤمنوا به ، وأن تتبعوني ، لأنى لم آتكم بشئ يخالف التوراة ، بل هى مشتملة على ما يدل على صدقى ، فكيف تعرضون عن دعوى .

وقوله : مصداقاً لما بين يدى ، فيه نوع مجاز ، لأن ما بين يدى الإنسان هو ما أمامه ، فسمى ما مضى كذلك لغاية ظهوره واستهارة . واللام فى ولما ، لتقرية العامل . نحو قوله - تعالى - فقال لما يريد .

وقوله - سبحانه - : « ومبشرا برسول يأتي من بعدى اسمه أحمد ، معطوف على ما قبله .

والتبشير : الإخبار بما يسر النفس ويهيجها ، بحيث يظهر أثر ذلك على بشرة الإنسان ، وكان إخباره بأن نبيا سيأتى من بعده اسمه أحمد تبشيراً ، لأنه سيأتيهم بما يسعدهم ، ويرفع الأغلال عنهم ، كما قال - تعالى - : « ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم » .

ولفظ « أحمد » اسم من أسماء نبينا - صلى الله عليه وسلم - وهو علم منقول من الصفة ، وهذه الصفة يصح أن تكون مبالغة من الفاعل . فيكون معناها : أنه - صلى الله عليه وسلم - أكثر حمداً لله - تعالى - من غيره . ويصح أن تكون من المفعول ، فيكون معناها أنه يحمد الله الناس لأجل ما فيه من خصال الخير ، أكثر مما يحمدون غيره .

قال الألوسى : وهذا الاسم الجليل ، علم لنبينا محمد - صلى الله عليه وسلم - وصح من رواية مالك ، والبخارى ، ومسلم ... عن جبير بن مطعم قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « إن لى أسماء . أنا محمد ، وأنا أحمد ، وأنا الماهر الذى يحشر الناس على قدسى ، وأنا المحاسنى الذى يمجوا الله به الكفر ، وأنا العاقب ... » (١) .

وبشارة عيسى - عليه السلام - بنينا محمد - صلى الله عليه وسلم - ثابتة
ثبوتنا قطعيا بهذه الآية الكريمة ، وإذا كانت بعض الأناجيل قد خلت من
هذه البشارة ، فبسبب ما عتراها من تحريف وتبديل ، على أيدي علماء أهل الكتاب .
ومع ذلك فقد وجدت هذه البشارة في بعض الأناجيل ، كإنجيل يوحنا ،
في الباب الرابع عشر ، قال الإمام الرازي : في الإصحاح الرابع عشر من إنجيل
يوحنا هكذا : وأنا أطلب لكم إلى أبي ، حتى يمنحكم ويعطىكم الفارقليط حتى
يكون معكم إلى الأبد .

والفارقليط هو روح الحق واليقين ... ، (١) .

ومنهم من يرى أن لفظ فارقليط معناه باليونانية : أحمد أو محمد (٢) .

وإن أصرح الأدلة على أن صفات الرسول - صلى الله عليه وسلم -
موجودة في التوراة والإنجيل ، قوله - تعالى - : الذين يتبعون الرسول النبي
الأمي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل ... ، (٣) .

وقوله - سبحانه - : فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين ، بيان
لموقف بني إسرائيل الجحودي من أنبياء الله - تعالى - .

والضمير في قوله : جاءهم ، يرى بعضهم أنه يعود لعيسى ، ويرى آخرون
أنه يعود لمحمد - صلى الله عليه وسلم - ، أي : فلما جاء عيسى - عليه السلام -
أو محمد - صلى الله عليه وسلم - ، إل بني إسرائيل بالآيات البينات الدالة على
صدقه ، قالوا على سبيل العناد والجحود : هذا سحر واضح في بابه ، لا يخفى
على أي ناظر أو متأمل .

(١) راجع تفسير الفخر الرازي ج ٨ ص ١٣٩

(٢) راجع تفسير القاسمي ج ١٦ ص ٧٨٨

(٣) راجع تفسيرنا لسورة الأعراف الآية ١٥٧ ص ٢٠٥

ومن المعروف أن بنى إسرائيل قد كذبوا عيسى - عليه السلام - ، وكفروا به ، ونسبوا إلى أمه الطاهرة ، ما هي بريئة منه ، ومنزهة عنه . . .

كما كذبوا محمدا - صلى الله عليه وسلم - ، وكفروا به ، وصدق الله إذ يقول : ، فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به ، فلعنة الله على الكافرين ،

ووصفوا ما جاء به بأنه سحر مبين ، على سبيل المبالغة ، فكأنهم يقولون إن ما جاء به هو السحر بعينه ، مع أنهم يعرفون أن ما جاء به هو الحق كما يعرفون أبناءهم ، وإن ما جلبوا عليه من جحود وعناد ، حال بينهم وبين النطق بكلمة الحق .

• • •

ثم بين - سبحانه - أن هؤلاء المشركين هم أشد الناس ظلما للحق ، وأنه - سبحانه - سيظهره لاحالة ، رضوا بذلك أم كرهوا ، وأن هذا الدين سيظهره الله - تعالى - على بقية الأديان ، مهما كره الكارهون ، فقال - تعالى - :

« وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ ، وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٧) يريدون ليطفئوا نورَ اللَّهِ بأفواههم ، وَاللَّهُ مَتِّمٌ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (٨) هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ (٩) » .

والاستفهام في قوله : « ومن أظلم ممن افترى على الله الكذب . . . » ، للإيمكان والنفي . . . والافتراء : اختلاق الكذب واختراعه من جهة الشخص دون أن يكون له أساس من الصحة . وقوله : « وهو يدعى إلى الإسلام » ، حملة حالية .

أي : ولا أحد أشد ظلما من إنسان يختلق الكذب من عند نفسه على دين

الله - تعالى - وشريعته ، والحال أن هذا الإنسان يدعو الداعى الى الدخول
في دين الإسلام الذى لا يرتضى الله - تعالى - سواه ديناً .

، والله - تعالى - ، لا يهذى القوم الظالمين ، إلى ما فيه فلاحهم ، لسوء
استعدادهم ، وإيثارهم الباطل على الحق ...

ثم بين - سبحانه - ما يهدف إليه هؤلاء الظالمون من وراء افتراءهم الكذب
على الدين الحق ، فقال - تعالى - : . يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم . .
والمراد بنور الله : دين الإسلام الذى ارتضاه - سبحانه - لعباده ديناً ،
وبعث به رسوله - صلى الله عليه وسلم - وقيل المراد به : حججه الدالة على
وحدانيته - تعالى - . وقيل المراد به : القرآن . . وهى معان متقاربة .

والمراد بإطفاء نور الله : محاولة طمسه وإبطاله والقضاء عليه ، بكل وسيلة
يستطيعها أعداؤه ، كإثارتهم للشبهات من حول تعاليمه ، وكتحريضهم لمن كان
على شاكلتهم فى الضلال على محاربتة ...

والمراد بأفواههم : أفواههم الباطلة الخارجة عن تلك الأفواه ، التى تنطق
بما لا وزن له من الكلام ...

والمعنى : يريد هؤلاء الكافرون بالحق ، أن يقضوا على دين الإسلام ،
وأن يطمسوا تعاليمه السامية التى جاء بها النبى - صلى الله عليه وسلم - ، عن
طريق أقاويلهم الباطلة الصادرة عن أفواههم ، من غير أن يكون لها مصداق
من الواقع تنطبق عليه ، أو أصل تستند إليه ، وإنما هى أقوال من قبيل النغو
الساقط الماهل الذى لا وزن له ولا قيمة .

قال صاحب الكشف : مثل حالهم فى طلبهم لإبطال نبوة النبى - صلى الله
عليه وسلم - بالكذب ، بحال من يريد أن ينفخ فى نور عظيم منشق فى الآفاق
يريد الله أن يزيده ويبلغه الغاية القصوى فى الإشراق أو الإضاءة ، ليطفئه
بنفخه ويطمسه ... ، (١) .

والجملة الكريمة فيها ما فيها من التهكم والاستهزاء بهؤلاء الكافرين ، حيث شبههم - سبحانه - في جهالاتهم وغفلتهم ، بحال من يريد إطفاء نور الشمس الواج ، بنفخة من فم الذي لا يستطيع إطفاء ما هو دون ذلك بما لا يحصى من المرات .

وقوله - تعالى - : « والله متم نوره ولو كره الكافرون » ، بشارة للمؤمنين بأن مآلهم عليه من حق ، لا بد أن يعم الآفاق ..

أى : والله - تعالى - بقدرته التى لا يعجزها شئ ، متم نوره ، ومظهر دينه ومؤيد نبيه - صلى الله عليه وسلم - ولو كره الكافرون ذلك ، فإن كراهيتهم لظهور دين الله - تعالى - لا أثر لها ولا قيمة . فالآية الكريمة وعد من الله - تعالى - للمؤمنين ، بإظهار دينهم ، وإعلاء كلمتهم ، لى يزيد ذلك قبائلى على ثباتهم ، وقوة على قوتهم ...

ثم أكد - سبحانه - وعده بإتمام نوره ، وبين كيفية هذا الإنعام فقال : « هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله »

والمراد بالهدى : القرآن الكريم . المشتمل على الإرشادات السامية ، والتوجيهات القوية . والأخبار الصادقة ، والتشريعات الحكيمه .

والمراد بدين الحق : دين الإسلام الذى هو خاتم الأديان .

وقوله : « ليظهره على الدين كله » ، من الإظهار بمعنى الإعلاء والغلبة بالحجة والبرهان ، والسيادة والسلطان .

والجملة تعليلية لبيان سبب هذا الإرسال والغاية منه .

والضمير فى « ليظهره » ، يعود على الدين الحق ، أو على الرسول صلى الله عليه وسلم .
أى : هو الله - سبحانه - الذى أرسل رسوله محمدا . صلى الله عليه وسلم .
بالقرآن الهادى التى هى أقوم ، وبالدين الحق الثابت الذى لا ينسخه دين آخر ، وكان هذا الإرسال لإظهار هذا الدين الحق على سائر الأديان بالحجة والغلبة .

«ولو كره المشركون ، ذلك ، فإن كراهيتهم لا أثر لها في ظهوره ، وفي هلاكه على جميع الأديان .

ولقد أنجز الله - تعالى - وعده ، حيث جعل دين الإسلام ، هو الدين الغالب على جميع الأديان بحججه وبراهينه الدالة على أنه الدين الحق الذي لا يحوم حوله باطل . .

هذا ، وقد ساق الإمام ابن كثير بعض الأحاديث التي تؤيد ذلك ، ومنها : ما ثبت في الصحيح عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أنه قال : إن الله زوى على الأرض مشارقها ومغاربها ، وسيلبغ ملك أمي ما زوى لي منها ، (١) .

• • •

ثم وجه - سبحانه - فداء إلى المؤمنين ، أرشدهم فيه إلى ما يسعدهم ، وينجيهم من كل سوء ، فقال - تعالى - :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ (١٠) تَوْفِئُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ، وَتَجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ، ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (١١) يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ، وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ، وَمَسَاكِينَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ هَذِهِ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٢) وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشْرُ الْمُؤْمِنِينَ (١٣) »

وهذه الآيات الكريمة جواب عما قاله بعض المؤمنين لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - : لو تعلم أي الأعمال أحب إلى الله لعلناها ، كما سبق

أب ذكرنا في سبب قوله - تعالى - : يا أيها الذين آمنوا لم تقولون مالا تفعلون

فكأنه - سبحانه - بعد أن نهاهم عن أن يقولوا قولاً ، تخالفه أفعالهم ، وضرب لهم الأمثال بجانب من قصة موسى وعيسى - عليه السلام - ، وبشرهم بظهور دينهم على سائر الأديان . . .

بعد كل ذلك أرشدهم إلى أحب الأعمال إليه - سبحانه - فقال : يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة

والتجارة في الأصل معناها : التصرف في رأس المال ، وتقليبه في وجود المعاملات المختلفة ، طلباً للربح .

والمراد بها هنا : العقيدة السليمة ، والأعمال الصالحة ، التي فسرت بها بعد ذلك في قوله - تعالى - : تؤمنون بالله ورسوله . . .

والاستفهام في قوله - تعالى - : هل أدلكم . . . ، للتشويق والتخصيص إلى الأمر المدلول عليه .

والمعنى : يا من آمنتم بالله - تعالى - وبملائكته وكتبه ورسوله واليوم الآخر ألا تريدون أن أدلكم على نجارة رابحة ، تنجيكم مزاويلها ومباشرتها ، من عذاب شديد الألم ؟ إن كنتم تريدون ذلك ، فهاكم الطريق إليها ، وهي : تؤمنون بالله ورسوله ، وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم . .

فقوله - سبحانه - : تؤمنون بالله ورسوله . . . استئناف مفسر وموضح لقوله هل أدلكم . . . ، فكأن سائلاً قال : وما هذه التجارة ؟ دائماً عليها ، فكان الجواب : تؤمنون بالله ورسوله . . .

أي : تداومون مداومة تامة على الإيمان بالله - تعالى - ، ورسوله - صلى الله عليه وسلم - ، وتجاهدون في سبيل إعلاء كلمة الله ونصرة دينه بأموالكم وأنفسكم . .

قالوا : وقوله : تؤمنون . . . ، خبر في معنى الأمر ، وبدل عليه قراءة ابن مسعود : آمنوا بالله ورسوله ، وجاهدوا في سبيله . . .

وفائدة العدول إلى الخبر : الإشعار بأنهم قد امتثلوا لما أُرشدوا إليه ، فسكانه - سبحانه - يخبر عن هذا الامتثال الموجود عندهم .

وجه التعبير بقوله : « هل أدلكم » ، لإفادة أن ما يذكر بعد ذلك من الأشياء التي تحتاج إلى من يهدي إليها ، لأنها أمور مرد تحديدها إلى الله - تعالى - .

وتسكير لفظ التجارة ، للتحويل والتعظيم ، أي : هل أدلكم على تجارة عظيمة الشأن ؟

وأطلقت التجارة هنا على الإيمان والعمل الصالح ، لأنهما يتلاقيان ويتشابهان في أن كليهما المقصود من وراءه الربح العظيم ، والسمي من أجل الحصول على المنافع .

وقدم - سبحانه - هنا الجهاد بالأموال على الجهاد بالأنفس ، لأن المقام مقام تفسير وتوضيح لمعنى التجارة الربحية عن طريق الجهاد في سبيل الله ، ومن المعلوم أن التجارة تقوم على تبادل الأموال ، وهذه الأموال هي عصب الجهاد ، فمن طريقها تشتري الأسلحة والمعدات التي لا غنى للجهاديين عنها ، وفي الحديث الشريف : « من جهز غازيا فقد غزا » .

وقدم - سبحانه - في قوله : « إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة : . » (١) قدم الأنفس على الأموال ، لأن الحديث هناك ، كان في معرض الاستبدال والعرض والطلب ، والاختذ والعطاء . . . فقدم - سبحانه - الأنفس لأنها أعز ما يملكه الإنسان ، وجعل في مقابلها الجنة لأنها أعز ما يوهب ، وأسمى ما تتطلع إلى نياله النفوس . . .

واسم الإشارة في قوله : « ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون » يعود إلى ما سبق ذكره من الإيمان والجهاد .

أى : ذلكم الذى أُرشدناكم إلى التمسك به من الإيمان والجهاد فى سبيل الله ، هو خير لكم من كل شئ . إن كنتم من أهل العلم والفهم .

فقوله « تعلمون » ، منزل منزلة الفعل اللزم ، للإشعار بأن من يخالف ذلك ، لا يكون لا من أهل العلم ، ولا من أهل الإدراك .

وجعله بعضهم فعلا متعديا ، ومفعوله محذوف ، والتقدير : إن كنتم تعلمون أنه خير لكم فافعلوه ، ولا تتقاعسوا عن ذلك .

وقوله « سبحانه » : « يغفر لكم ذنوبكم » مجزوم على أنه جواب لشرط مقدر . أى : إن تمتثلوا أمره - تعالى - يغفر لكم ذنوبكم .

وبصح أن يكون مجزوما على أنه جواب للأمر المدلول عليه بلفظ الخبر فى قوله - تعالى - قبل ذلك ، « تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون ... » لأنهما - كما قلنا - وإن جاءا بلفظ الخبر ، إلا أنهما فى معنى الأمر ، أى : آمنوا وجاهدوا .

أى آمنوا بالله - تعالى - لإيماننا حقا ، وجاهدوا فى سبيل إعلاء كلمته بأموالكم وأنفسكم ، يغفر لكم - سبحانه - ذنوبكم ، بأن يزيلها عنكم ، ويستترها عليكم ..

« ويدخلكم » فضلا عن ذلك جنات ، عاليات ، تجري من تحتها الأنهار ، أى : تجري من تحت مساكنها وبساتينها الأنهار .

ويعطيكم « مساكن طيبة » ، أى : قصورا مشتملة على كل ما هو طيب ونافع وخصت المساكن الطيبة بالذكر ، لأن المجاهدين قد فارقوا مساكنهم ، ومنهم من استشهد بعيدا عنها ، وفيها أهله وماله ... فوعدهم - سبحانه - بما هو خير منها .

وقوله « فى جنات عدن » ، أى : هذه المساكن الطيبة كائنة فى جنات باقية

خالدة ، لا تزول ولا تنتهى ، بل أصحابها يقيمون فيها إقامة دائمة . يقال عدن فلان بالمكان ، إذا أقام فيه إقامة مؤبدة .

« ذلك الفوز العظيم ، أى : ذلك الذى منحناكم إياه من مغفرة لذنوبكم ، ومن خلودكم فى الجنة . . . هو الفوز العظيم الذى لا يقاربه فوز ، ولا يدانيه ظفر .

وقوله - سبحانه - : « وأخرى تحبونها . . » بيان لنعمة أخرى يعطيهم - سبحانه - إياها ، سوى ما تقدم من نعم عظمى .
ولفظ « أخرى » مبتدأ خبره محذوف دل عليه ما تقدم ، وقوله : « تحبونها » صفة للمبتدأ .

أى : ولكم - فضلا عن كل ما تقدم - نعمة أخرى تحبونها وتطلبون إليها .
وهذه النعمة هى : « نصر ، عظيم كائن من الله - تعالى - ولكم » ، وفتح ، قريب ، أى : عاجل ، وبشر المؤمنين ، أى : وبشر - أيها الرسول الكريم - المؤمنين بذلك ، حتى يزدادوا إيماناً على إيمانهم ، وحتى تزداد قلوبهم إنشراحاً وصوراً .

ويدخل فى هذا النصر والفتح القريب دخولا أولياً : فتح مكة ، ودخول الناس فى دين الله أفواجا . .

وهذه الآية الكريمة من معجزات القرآن الكريم ، الراجعة إلى الإخبار بالغيب ، حيث أخبر - سبحانه - بالنصر والفتح ، فتم ذلك للنبي - صلى الله عليه وسلم - ولأصحابه ، فى أكمل صورة ، وأقرب زمن .

ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة ببدء ثالث وجهه إلى المؤمنين ، دعاء فيه إلى التشبيه بالمصالحين الصادقين من عباده فقال :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لَلْعَوَارِينِ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ ، قَالَ الْخَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ

فَآمَنَتْ طَائِفَةٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرْتُ طَائِفَةٌ، فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ، فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ (١٤) .

والحواريون : جمع حواري . وهم أنصار عيسى - عليه السلام - الذين آمنوا به وصدقوه ، وأخلصوا له ولازموه ، وكانوا عوناً له في الدعوة إلى الحق . وكانوا اثني عشر رجلاً .

يقال : فلان حواري فلان ، أي : هو من خاصة أصحابه ، ومنه قول النبي - صلى الله عليه وسلم - في الزبير بن العوام : لكل نبي حواري ، وحواري الزبير .
وأصل الحور : شدة البياض والصفاء ، ومنه قولهم في خالص لباب الدقيق : الحواري . وفي النساء البيض الحسان : الحواريات والحواريات :
وسمى الله - تعالى - أصفياء عيسى وأنصاره بذلك لهدى إخلاصهم له ، وطهارة قلوبهم من الغش والنفاق ، فصاروا في نقاتهم وصفاتهم كالشمس الأبيض الخالص .

والأنصار : جمع نصير ، وهو من ينصر غيره نصراً شديداً مؤزراً .
والمراد بنصر الله - تعالى - : نصر دينه وشريعته ونبيه الذي أرسله بالهدى ودين الحق .

وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو : كونوا أنصار الله .

والمعنى : يا من آمنتم بالله - تعالى - حق الإيمان داوموا وواظبوا على أن على أن تكونوا أنصاراً لدين الله في كل حال ، كما كان الحواريون كذلك ، عندما دعاهم عيسى - عليه السلام - إلى نصرته والوقوف إلى جانبه .

فالكلام محمول على المعنى ، والمقصود منه حرض المؤمنين على طاعة الرسول - صلى الله عليه وسلم - وعلى الاستجابة التامة لما يدعوم إليه ، كما فعل الحواريون مع عيسى ، حيث ثبتوا على دينهم ، وصدقوا مع نبيهم ، دون أن تنال منهم الفتن أو المصائب .

قال صاحب المكشاف : فإن قلت : ما وجه صحة التشبيه - وظاهره تشبيه كونهم أنصارا بقول عيسى لهم : من أنصاري إلى الله .

قلت : التشبيه محمول على المعنى ، وعليه يصح . والمراد كونوا أنصار الله ، كما كان الحواريون أنصار عيسى كذلك حين قال لهم : من أنصاري إلى الله .

فإن قلت : فما معنى قوله : من أنصاري إلى الله ؟ قلت : يجب أن يكون معناه مطابقا لجواب الحواريين : نحن أنصار الله ، والذي يطابقه أن يكون المعنى : من جندى متوجها إلى نصرته دين الله (١) .

والاستفهام في قوله - تعالى - : من أنصاري إلى الله ، للحض على نصرته والوقوف إلى جانبه .

وأضافهم - عليه السلام - إليه ، باعتبارهم أنصار دعوته ودينه .

وقوله : إلى الله ، متعلق بأنصاري ، ومعنى : إلى ، الانتهاء المجازي .

أى : قال عيسى للحواريين على سبيل الامتحان لقوة إيمانهم : من الجند المخلصون الذين أعتمد عليهم بعد الله - تعالى - في نصرته دينه ، وفي التوجه إليه بالعبادة والطاعة وتبليغ رسالته . . . ؟

فأجابوه بقولهم : نحن أنصار دين الله - تعالى - ، ونحن الذين على استعداد أن نبذل نفوسنا وأموالنا في سبيل تبليغ دعوته - عز وجل - ، ومن أجل إعلاء كلمته .

وقوله - تعالى - : : فآمنت طائفة من بني إسرائيل وكفرت طائفة . . . ، مفرع على ما قبله ، لبيان موقف قومه منه .

أى : قال الحواريون لعيسى عندما دعاهم إلى أتباع الحق : نحن أنصار دين الله ، ونحن الذين سنثبت على العهد... أما بقية بنى إسرائيل فقد افرقوا إلى فرقتين : فرقة آمنّت بعيسى وبما جاء به من عند الله - تعالى - ، وفرقة أخرى كفرت به وبرسالته .

وقوله : « فأيدينا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين ، بيان للنتائج التي تحققت لكل طائفة من الطائفتين : المؤمنين والكافرين .

وقوله : « ظاهرين ، من الظهور بمعنى الغلبة . يقال : ظهر فلان على فلان إذا تغلب عليه وقهره .

أى : كان من قوم عيسى من آمن به ، ومنهم من كفر به ، فأيدنا وقوتنا ونصرنا الذين آمنوا به ، على الذين كفروا به ، فصار المؤمنون ظاهرين ومقتصرين على أعدائهم بفضل - تعالى - ومشيتته .

والمقصود من هذا الخبر حض المؤمنين في كل زمان ومكان ، على الإيمان والعمل الصالح ، لأن سنة الله - تعالى - قد اقتضت أن يجعل العاقبة لهم ، كما جعلها لأتباع عيسى المؤمنين ، على أعدائهم الكافرين .

قال بعض العلماء : وتأويل هذا النص يمكن أن ينصرف إلى أحد معنيين : إما أن الذين آمنوا برسالة عيسى - عليه السلام - ، هم المسيحيون إطلاقاً ، من استقام ، ومن دخلت في عقيدته الانحرافات ، وقد أيدهم الله - تعالى - على اليهود الذين لم يؤمنوا به أصلاً ، كما حدث في التاريخ .

وإما أن الذين آمنوا : هم الذين أصرروا على التوحيد في وجه المؤهلين لعيسى ، والمثلثين وسائر النحل التي انحرفت عن التوحيد .

ومعنى : أنهم أصبحوا ظاهرين ، أى : بالحجة والبرهان . أو أن التوحيد الذي هم عليه ، هو الذي أظهره الله بهذا الدين الأخير - أى : دين الإسلام - وجعل له الجولة الأخيرة في الأرض ، كما وقع في التاريخ .

وهذا المعنى الأخير هو الأرجح والأقرب في هذا السياق (١).
وبعد : فهذا تفسير لسورة الصف ، نسأل الله - تعالى - أن يجعله خالصا
لوجهه ، ونافعا لعباده ...
وصلّى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

القاهرة : مدينة نصر . مساء الخميس ٧ من رمضان سنة ١٤٠٦ هـ
الموافق ١٥/٥/١٩٨٦ م

(١) تفسير في ظلال القرآن ٢٨٠ ص ٨٩ .

تفسير
سُورَةُ الْجُمُعَةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة وتمهيد

١ - سورة الجمعة ، من السور المدنية الخالصة .

قال الألوسي : هي مدنية ، كما روى عن ابن عباس وابن الربيع ، والحسن ، ومجاهد . وعكرمة ، وقتادة ، وإليه ذهب الجمهور .

وقال ابن يسار : هي مكية ، وحكى ذلك عن ابن عباس ومجاهد : والاول هو الصحيح . لما رواه البخاري وغيره عن أبي هريرة قال : كنا جلوسا عند النبي - صلى الله عليه وسلم - حين أنزلت سورة الجمعة ، فتلاها ، فلما بلغ « وآخرين منهم لما يلحقوا بهم » . . . ، قال له رجل : يا رسول الله - من هؤلاء الذين لم يلحقوا بنا ؟ فوضع - صلى الله عليه وسلم - يده على سلمان الفارسي ، وقال : والذي نفسي بيده لو كان الإيمان بالثرثرا لثارت رجال من هؤلاء ومن المعروف أن إسلام أبي هريرة كان بعد الهجرة بمدة بالاتفاق . (١)

٢ - وهي عشر آيات ، وكان نزولها بعد سورة التحريم ، وقبل سورة التغابن .

وقد كان النبي - صلى الله عليه وسلم - كثيرا ما يقرأها في صلاة الجمعة ، فقد روى الإمام مسلم في صحيحه عن ابن عباس - رضي الله عنهما - أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كان يقرأ في صلاة الجمعة بسورة الجمعة والمنافقين . وأخرج ابن حبان والبيهقي عن جابر بن سمرة أنه قال : كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقرأ في صلاة المغرب ليلة الجمعة ، بسورة الكافرون ، وبسورة قل هو الله أحد . . . ، وكان يقرأ في صلاة العشاء الأخيرة من ليلة

(١) تفسير الألوسي ج ٢٨ ص ٩٢ .

الجمعة ، بسورة الجمعة ، وبسورة المنافقين ... ، وسميت بهذا الاسم لحديثها عن يوم الجمعة ، وعن وجوب السعي إلى صلاتها .

٣ - وقد اشتملت السورة المكرمة ، على الثناء على الله - عز وجل - ، وعلى مظاهر نعمه على عباده ، حيث أرسل فيهم رسولا كريما ، ليذكهم ويعلمهم الكتاب والحكمة . .

كما اشتملت على توبيخ اليهود وذهبهم ، لعدم عملهم بالكتاب الذي أنزله - سبحانه - لهدايتهم وإصلاح حالهم ...

كما اشتملت على دعوة المؤمنين ، إلى المحافظة على صلاة الجمعة ، وعلى المبادرة إليها دون أن يشغلهم عنها شغل ...

نسأل الله - تعالى أن يجعلنا من المحافظين على فرائضه وتكاليفه ، وصلى الله على سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه وسلم .

د محمد سيد طنطاوى

القاهرة ٥ من شوال ١٤٠٦ هـ

١٩٨٦/٦/١١ م

التفسير

قال الله - تعالى - : « يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (١) هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ ، يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ ، وَيُزَكِّيهِمْ ، وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ، وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٢) وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لِنَايِلَعْتُمُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٣) ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ ، وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٤) » .

افتتحت سورة « الجمعة » ، كغيرها من أخواتها « المسبحات » ، بالثناء على الله - تعالى - ، وببيان أن المخلوقات جميعها ، تسبح بحمده - تعالى - وتقدس له . والتسبيح : تنزيه الله - تعالى - عما لا يليق به ، اعتقاداً وقولاً وعملاً ، مأخوذ من السبح ، وهو المر السريع في الماء أو الهواء ، لأن المسبح لله - تعالى - مسرع في تنزيهه - تعالى - وتبرئته من كل سوء . وقوله : « القدوس » ، من التقديس بمعنى التعظيم والتطهير وغير ذلك من صفات الكمالات .

أى : أن التسبيح : نفي ما لا يليق بذاته - تعالى - ، والتقديس : إثبات ما يليق بجلاله - سبحانه - والمعنى : ينزه الله - تعالى - ويعمده عن كل نقص ، بجميع ما في السموات ، وجميع ما في الأرض من مخلوقات ، فهو - سبحانه - الملك ، أى : المدبر لشئون هذا الكون ، المتصرف فيه تصرف المالك فيما يملكه ...

« القدوس » ، أى : البليغ في الطهارة وفي التنزه عن كل نقص ، من القدس - بضم القاف وسكون الدال - بمعنى الطهر . وأصله القدس - بفتح القاف والدال - وهو الإناء الذى يكون فيه ما يتطهر به ، ومنه القادوس وهو إناء معروف .

العزیز ، الذی لا یغلبه غالب ، الحکیم ، فی کل أفواله وأفعاله
وتصرفاته .

هذا ، ومن الآیات النکثیرة الدالة علی أن جمیع من فی السموات ومن فی
الأرض ، یشیحون لله - تعالی - ، قوله - عز وجل - : : تسبیح له السموات
السبع والأرض ومن فیهن ، وإن من شیء إلا یسبح بحمده ولكن لا نفقهون
تسبیحهم . إنه کان حلیمًا غفورًا ، (١)

ثم بین - سبحانه - جانبًا من مظاهر فضله علی خلقه ، فقال وهو الذی
بعث فی الأمیین رسولًا منهم ، یتلو علیهم آیاته ، یرزقهم ویعلمهم الکتاب
والحکمة

وقوله : الأمیین ، جمع أمی ، وهو صفة لموصوف محذوف . أمی : فی
الناس أر فی القوم الأمیین : والمراد بهم العرب ، لأن معظمهم کانوا
لا یعرفون القراءة والكتابة .

وسمى من لا یعرف القراءة والكتابة بالأمی ، اقلية الامیة علیه ، حتی
لکمان حاله بعد تقدمه فی السن ، کحالہ یوم ولدتہ أمه فی عدم معرفته
للقراءة والكتابة .

و من ، فی قوله - تعالی - : : منهم ، للتبعیض ، باعتبار أنه واحد منهم
و یشارکهم فی بعض صفاتهم وهی الامیة .

وقوله - یتلو ... - من التلاوة ، وهی القراءة المتتابه المرتلة ، التی
یکون بعضها تلو بعض .

وقوله : : یرزقهم ، من التزکیة بمعنی التطهیر والتنقیة من السوء والقبائح .
والمراد بالکتاب : القرآن ، والمراد بتعلیمه : بیان معانیه وحقائقه ،
وشرح أحكامه وأوامره ونواهیة ...

والمراد بالحكمة : العلم النافع ، المصحوب بالعمل الصالح ، وفي وضعها إلى جانب الكتاب إشارة إلى أن المقصود بها ، السنة النبوية المطهرة ، إذ بها الكتاب والسنة ، يعرف الناس أصلح الأقوال والأفعال ، وأعدل الأحكام ، وأقوم الآداب ، وأسمى الفضائل ...

أى : هو سبحانه - وحده ، الذى ، بعث ، بفضلله وكرمه ، فى العرب والأميين ، رسولا ، كريما عظيما ، كائنا ، منهم ، أى : من جنسهم ويعرفون حسبته ونسبه وخلقه . هذا الرسول الكريم أرسلناه إليهم ، ليقرأ عليهم آيات الله - تعالى - التى أنزلها عليه لهدايتهم وسعادتهم ، متى آمنوا بها ، وعملوا بما اشتملت عليه من توجيهات سامية ...

وأرسلناه إليهم - أيضا ليذكهم ، أى وليطهرهم من الكفر والقبائح والمنكرات . وليعلمهم الكتاب ، بأن يحفظهم إياه ، ويشرح لهم أحكامه ، ويفسر لهم ما خفى عليهم من ألفاظ ومعانيه .

وليعلمهم - أيضا - الحكمة ، أى : العلم النافع المصحوب بالعمل الطيب وصدر - سبحانه - الآية الكريمة بضمير اسم الجلالة ، لتربية المهابة فى النفوس ، ولتقوية ما اشتملت عليه من نعم وأحكام ، إذ هو - سبحانه - وحده الذى فعل ذلك لا غيره .

وعبر - سبحانه - فى المفيدة للظرفية فى قوله - تعالى - : « فى الأميين » ، للإشعار بأن هذا الرسول الكريم الذى أرسله إليهم ، كان مقبلا فيهم ، وملازما لهم ، وحريصا على أن يبلّغهم رسالة الله - تعالى - فى كل الأوقات والأزمان .

والتعبير بقوله : « منهم » ، فيه ما فيه من دعوتهم إلى الإيمان به ، لأن هذا الرسول الكريم ، ليس غريبا عنهم ، بل هو واحد منهم شرفهم من شرفه ، وفضلهم من فضله ...

وهذه الآية الكريمة صريحة في أن الله - تعالى - قد استجاب دعوة نبيه إبراهيم - عليه السلام عندما دعاه بقوله : «ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم ، لإنسك أنت العزيز الحكيم» (١).

وقد جاء ترتيب هذه الآية الكريمة وأمثالها في أسنى درجات البلاغة والحكمة ، لأن أول مراحل تبليغ الرسالة ، يكون بتلاوة القرآن ، ثم تفي - سبحانه - بتزكية النفوس من الأرجاس ، ثم تلك بتعليم الكتاب والحكمة ، لأنهما يكونان بعد التبايع والتزكية للنفوس .

ولذا قالوا : أن تعليم الكتاب غير تلاوته ، لأن تلاوته معناها : قراءته قراءة مرقة ، أما تعليمه فعناه : بيان أحكامه ، وشرح ما خفي من ألفاظه وأحكامه .

فأنت ترى أن هذه الآية الكريمة ، قد اشتملت على جملة من الصفات الجليلة ، التي منحها - سبحانه - لنبيه محمد - صلى الله عليه وسلم .

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك حال الناس قبل بعثته - صلى الله عليه وسلم - فقال : « وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين ،

وهذه الجملة الكريمة في موضع الحال من قوله .. : « هو الذي بعث في الأميين ... » ، وإن ، في قواه ، وإن كانوا .. ، مخففة من الثقيلة ، واسمها ضمير الشأن محذوف ...

أي : هو .. سبحانه .. بفضلله وكرمه ، الذي بعث في الأميين رسولا منهم ، وحاطهم أنهم كانوا قبل إرسال هذا الرسول الكريم فيهم ، في ضلال واضح لا يخفى أمره على عاقل ، ولا يلتبس قبضه على ذي ذوق سليم . وحقا لقد كان

الناس قبل أن يبرز نور الإسلام ، الذي جاء به النبي - صلى الله عليه وسلم - من عند ربه ، في ضلال واضح ، وظلام دامس ، من حيث العقائد والعبادات ، والأخلاق والمعاملات

فكان من رحمة الله - تعالى - بهم ، أن أرسل فيهم رسوله محمدا - صلى الله عليه وسلم - ، لكي يخرجهم من ظلمات الكفر والفسوق والعصيان ، إلى نور الهداية والاستقامة والإيمان .

ثم بين - سبحانه - أن رسالة رسوله محمد - صلى الله عليه وسلم - لن يكون نفعها مقصورة على المعاصرين له ، والذين شاهدوه .. بل سيعم نفعها من سيجيئون من بعدهم ، فقال - تعالى - : « وآخرين » منهم لما يلحقوا بهم وهو العزيز الحكيم ..

وقوله : « وآخرين » جمع آخر بمعنى الغير ، والجملة معطوفة على قوله قبل ذلك ، في الآمين ... ، فيكون المعنى :

هو - سبحانه - الذي بعث في الأميين رسولا منهم ، كما بعث في آخرين منهم .
« لما يلحقوا بهم » أي : لم يجيئوا بعد ، وهم كل من يأتي بعد الصحابة من أهل الإسلام إلى يوم القيامة ، بدليل قوله - تعالى - : « وأوحى إلى هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ ... » (١)

أي : وأوحى إلى هذا القرآن لأنذركم به يا أهل مكة ، ولأنذر به جميع من بلغه هذا الكتاب . ووصلت إليه دعوته من العرب وغيرهم إلى يوم القيامة .

وفي الحديث الشريف : بلغوا عن الله - تعالى - فن بلغته آية من كتاب الله ، فقد بلغه أمر الله .

وعن محمد بن كعب قال : د من بلغه القرآن فسكأنما رأى النبي -
- صلى الله عليه وسلم - . . . (١)

ويصح أن يكون قوله : د وآخرين منهم لما يلحقوا بهم . . . معطوف
على الضمير المنصوب في قوله : د ويعلمهم . . . ، فيكون المعنى :

هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم
الكتاب والحكمة ، ويعلم آخرين منهم د لما يلحقوا بهم ، أى : لم يجيئوا بعد ،
وسيجيئون . . . وهم كل من آمن بالرسول من بعد الصحابة إلى يوم القيامة .

قال صاحب الكشف : وقوله : د وآخرين ، مجرور عطف على الأميين .
يعنى : أنه بعث في الأميين الذين على عهده ، وفي آخرين من الأميين الذين
لم يلحقوا بهم بعد ، وسيلحقون بهم ، وهم الذين بعد الصحابة .

وقبل : لما نزلت قيل : من هم يا رسول الله ، فوضع يده على سلمان ثم
قال : د لو كان الإيمان عند الثريا لتناوله رجال من هؤلاء . . .

وقيل : هم الذين يأتون من بعدهم إلى يوم القيامة .

ويجوز أن ينتصب عطفا على المنصوب في د ويعلمهم . . . أى : يعلمهم ويعلم
آخرين ؛ لأن التعليم إذا تناسق إلى آخر الزمان كان كله مستنداً إلى أدلة ،
فسكأنه هو الذي تولى كل ما وجد منه ، (٢) .

والماتمل في هذه الآية السكريمة براها تشير إلى أن دعوة النبي -
- صلى الله عليه وسلم - ، ستبلغ غير المعاصرين له - صلى الله عليه وسلم - ،
وأنهم سيتبعونها ، ويدافعون عنها . . .

وهذا ما أيده الواقع ، فقد دخل الناس في دين الله أفواجا من العرب ومن
غير العرب ، ومن أهل المشارق والمغارب . . .

(١) راجع تفسيرنا لسورة الأنعام ج ٧٣ .

(٢) تفسير الكشف ج ٤ ص ٥٣٠ .

قَالَ يَا الْكَرِيمَةَ تُخْبِرُ عَنْ مُعْجَزَةٍ مِنْ مُعْجَزَاتِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ ، أَلَا وَهِيَ
الْإِخْبَارُ عَنْ أُمُورٍ مُسْتَقْبَلَةٍ أَيْدِهَا الْوَاقِعُ الْمَشَاهِدُ .

وَقَوْلُهُ - تَعَالَى - : « وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ » ، تَذْيِيلُ الْمَقْصُودِ بِهِ بَيَانُ أَنَّ
قُدْرَتَهُ - تَعَالَى - لَا يَعْجِزُهَا شَيْءٌ ، وَأَنَّ حِكْمَتَهُ هِيَ أَسْمَى الْحِكْمِ وَأَسَدُّهَا .

أَيُّ : وَهُوَ - سُبْحَانَهُ - الْعَزِيزُ الَّذِي لَا يَغْلِبُ قُدْرَتُهُ شَيْءٌ ، الْحَكِيمُ فِيمَا
يُرِيدُهُ وَيَقْدِرُهُ وَيُوجِدُهُ .

وَأَسْمُ الْإِشَارَةِ فِي قَوْلِهِ : ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ ... ، يَعُودُ إِلَى
مَا تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ مِنْ كَرَمِهِ - تَعَالَى - عَلَى عِبَادِهِ ، حَيْثُ اخْتَصَّ رَسُولُهُ - مُحَمَّدًا
- صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بِهَذِهِ الرِّسَالَةِ الْجَامِعَةِ لِكُلِّ خَيْرٍ وَبَرَكَةٍ ، وَحَيْثُ وَفَّقَ
مَنْ وَفَّقَ مِنَ الْأَمِينِ وَغَيْرِهِمْ ، إِلَى اتِّبَاعِ هَذَا الرَّسُولِ الْكَرِيمِ ...

أَيُّ : ذَلِكَ الْبَعْثُ مِنَّا لِرَسُولِنَا مُحَمَّدٍ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لِكَيْ يَهْدِيَ النَّاسَ
بِإِذْنِنَا إِلَى الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ ، هُوَ فَضْلُنَا الَّذِي نُؤْتِيهِ وَنُخَصِّصُهُ لِمَنْ نَشَاءُ اخْتِصَاصَهُ
بِهِ مِنْ عِبَادِنَا ...

« وَاقِهِ » - تَعَالَى - هُوَ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ، الَّذِي لَا يَقَارِبُهُ فَضْلٌ ،
وَلَا يَدَانِيهِ كَرَمٌ .

كَأَيُّ قَالَ - سُبْحَانَهُ - : قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاقِهِ وَاسِعٌ
عَلِيمٌ . يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ، (١) .

ثُمَّ انْتَقَلَتِ السُّورَةُ الْكَرِيمَةُ - بَعْدَ هَذَا الْبَيَانِ لِفَضْلِ اللَّهِ - تَعَالَى - عَلَى
نَبِيِّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ، وَعَلَى مَنْ أَرْسَلَهُ لِهَدَايَتِهِمْ - إِلَى الْحَدِيثِ عَنْ
جَانِبٍ مِنَ رِذَائِلِ الْيَهُودِ ، وَأَمَرَتِ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَنْ يَتَّحِدَاهُمْ
وَأَنْ يَرُدَّ عَلَى أَكَاذِبِهِمْ ... فَقَالَ - تَعَالَى - :

(١) سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ . الْآيَتَانِ ٧٣ وَ ٧٤ .

« مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا
بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ ، وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ
الظَّالِمِينَ (٥) قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِن زِعْمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِن دُونِ
النَّاسِ ، فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٦) وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا
قَدَّمْت أَيْدِيهِمْ ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٧) قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ
مِنْهُ فَإِنَّهُ مَلَأَقِيكُمْ ، ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالَمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ، فَيَنْبَشُّكُمْ
بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٨) » .

والمراد بالمثّل في قوله - تعالى - « مثل الذين حملوا التوراة ... » : الصفة
والحال ...

والمراد بالذين حملوا التوراة : اليهود الذين كلفهم الله - تعالى - بالعمل
بما اشتملت عليه التوراة من هدايات وأحكام وآداب ... ولكنهم نبذوها
وتركوا العمل بها .

والأسفار : جمع سفر ، وهو الكتاب الكبير المشتمل على ألوان من
العلم النافع ، وسمى بذلك لأنه يسفر ويكشف عما فيه من المعاني المفيدة
للطالع عليها .

والمعنى : حال هؤلاء اليهود الذين أنزل الله - تعالى - إلهامهم التوراة
لهدايتهم ... ولكنهم لم ينتفعوا بها ... كحال الحمار الذي يحمل كتب العلم
النافع ، ولكنه لم يستفد من ذلك شيئاً ، لأنه لا يفقه شيئاً مما يحمله ...

ففي هذا المثل شبه الله - تعالى - اليهود الذين لم ينتفعوا بالتوراة التي فيها
الهداية والنور ، بحال الحمار الذي يحمل كتب العلوم النافعة دون أن
يستفيد بها .

ووجه الشبه بين الإثنين : هو عدم الانتفاع بما من شأنه أن ينتفع به
انتفاعا عظيما ، لسمو قيمته ، وجلال منزلته .

قال صاحب الكشف : شبه اليهود - في أنهم حملوا التوراة وقرواها
وحفاظوا ما فيها ، ثم لأنهم غير عاملين بها ، ولا منتفعين بآياتها ... بالحرار ، حمل
أسفارها ، أى : كتبها كبارا من كتب العلم ، فهو يمشى بها ، ولا يدري منها
إلا ما يمر بجنبيه وظهره من السكد والتعب . وكل من علم ولمن يعمل بعلمه فهذا
مثله ، وبئس المثل ... (١) .

وقال الإمام ابن كثير : يقول - تعالى - ذا ما لليهود الذين أعطوا التوراة
فلم يعملوا بها ، إن مثلهم في ذلك كمثل الحرار يحمل أسفارا ... فهو يحملها
حملا حسيا ولا يدري ما عليه ، وكذلك هؤلاء ... لم يعملوا بمقتضى ما في التوراة
بل أولوه وحرفوه ، فهم أسوأ من الحرار ، لأن الحرار لا فهم له ، وهؤلاء لهم
فهوم لم يستعملوها ، ولهذا قال - تعالى - في آية أخرى : أولئك كالأنعام
بل هم أضل ، أولئك هم الغافلون ، (٢) .

وقال القرطبي : وفي هذا المثل تنبيه من الله - تعالى - لمن حمل الكتاب ،
أن يتعلم معانيه ، ويعمل بما فيه ، لئلا يلحقه من الذم ما لحق هؤلاء اليهود ،
قال الشاعر :

زوامل للأسفار لا علم عندهم بجيدها ، إلا كعلم الأبرار
لعمرك ما يدري البعير إذا غدا بأوساقه ، أورا ح ما في الغرائر (٣)

وعبر - سبحانه - عن تكليفهم العمل بالتوراة وعن تركهم لذلك بقوله :

(١) تفسير الكشف ج ٤ ص ٥٣٠

(٢) تفسير ابن كثير ج ٨ ص ١٤٣

(٣) تفسير القرطبي ج ١٨ ص ٩٤

« حملوا التوراة ثم لم يحملوها ، للإشعار بأن هذا التكليف منه - تعالى - لهم ، كان عهدا مؤكدا عليهم ، حتى لسكانهم تحملوه كما يتحمل الإنسان شيئا قد وضع فوق ظهره أو كتفيه ، ولسكنهم نبذوا هذا العهد ، وألقوا بما فوق أكتافهم من أحمال ، وانقادوا لأهوائهم وشهواتهم انقياد الأعمى لقائده ..

ولفظ « ثم » ، في قوله « ثم لم يحملوها » ، للتراخي النسبي ، لأن عدم وفاتهم بما عهد لإيهم ، أشد عجباً من تحملهم لهذه العهود .

وشبههم ، بالحرار الذي هو مثل في البلادة والغباء ، لزيادة التشنيع عليهم ، والتقييح لخالهم . حيث زهدوا وأعرضوا عن الانتفاع بأئمن شيء نافع ، - وهو كتاب الله - ، كما هو شأن الحرار الذي لا يفرق فيما يحمله على ظهره بين الشيء النافع والشيء الضار .

وجملة « يحمل أسفاراً » ، في موضع الحال من الحرار ، أو في موضع جر على أنها صفة للحرار ، باعتبار أن المقصود به الجنس ، فهو معرفة لفظاً ، فكرة معنًى .

قال صاحب الكشف : فإن قلت : « يحمل » ، ما محله ؟ قلت : محله نصب على الحال ، أو الجر على الوصف ، لأن لفظ الحرار هنا ، كلفظ اللثم في قول الشاعر : ولقد أمر على اللثم يسبني (١)

ثم أضاف - سبحانه - إلى ذم هؤلاء اليهود ذماً آخر فقال : « بنس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله . . . »

و « بنس » ، فعل ذم ، وفاعله ما بعده وهو قوله : « مثل القوم » ، وقد أغنى هذا الفاعل عن ذكر المخصوص بالذم ، لحصول العلم بأن المذموم هو حال هؤلاء القوم الذين وصفهم - سبحانه - بأنهم قد كذبوا بآياته .

أى : بنس المثل مثل هؤلاء القوم الذين كذبوا بآيات الله - تعالى - الدالة على وحدانيته وقدرته ، وعلى صدق أنبيائه فيما يبلغونه عنه - تعالى - .

وقوله : « والله لا يهدى القوم الظالمين » ، تذييل قصد به بيان الأسباب التي أدت إلى عدم توفيق الله - تعالى - لهم إلى الهداية .

أى : والله - تعالى - قد اقتضت حكمته ، أن لا يهدى إلى طريق الخير ، من ظلم نفسه ، أو أثر الفنى على الرشد ، والعمى على الهدى ، والشقاوة على السعادة ، لسوء استعداده ، وانطماص بصيرته ...

ثم أمر الله - تعالى - نبيه - صلى الله عليه وسلم - أن يتحدى اليهود ، وأن يرد على مزاعمهم ردا يخرس ألسنتهم ، ويكشف عن أكاذيبهم ... فقال - سبحانه - : « قل يا أيها الذين هادوا إن زعمتم أنكم أولياء لله من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين » .

قال الألوسى : وأمر - صلى الله عليه وسلم - أن يقول لهم ذلك ، لإظهار أكاذيبهم ، فإنهم كانوا يقولون : « نحن أبناء الله وأحباؤه » ، ويدعون أن الآخرة خالصة لهم عند الله ...

وروى أنه لما ظهر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ، كتب يهود المدينة إلى يهود خيبر : إن اتبعتم محمدا أطعناه ، وإن خالفتموه خالفناه . فقالوا - أى : يهود خيبر - : نحن أبناء خليل الرحمن ، ومنا عزيز ابن الله ، ومنا الأنبياء ومتى كانت النبوة في العرب ؟ نحن أحق بها من محمد - صلى الله عليه وسلم - ، ولا سبيل إلى اتباعه ، فنزلت هذه الآيات ...^(١) :

والمقصود بالذين هادوا ، أى : الذين ادعوا أنهم على الديانة اليهودية ، يقال : هاد فلان وثمود ، إذا دخل في اليهودية ، نسبة إلى يهوذا أحد أبناء

بمغروب - عليه السلام - ، أو سموا بذلك حين تابوا عن عبادة العجل ، من هاد
يهود هودا بمعنى تاب ، ومنه قوله - تعالى - : ، واكتب لنا في هذه الدنيا
حسنة وفي الآخرة ، إنا هدنا إليك ... ، أى : أى تبنا إليك .

ومعنى أولياء الله ... مقربين منه ، كرماء عليه ، لهم منزلة خاصة عنده
- تعالى - وقوله : فتمنوا الموت .. جواب الشرط . والنفي معناه : إرتياح
النفوس ، ورغبتها القوية في الحصول على الشيء ..

ويستعمل النفي في المعنى القائم بالقلب ، بأن تتطلع نفس الشخص إلى
الحصول على الشيء .. كما يستعمل عن طريق النطق باللسان ، بأن يقول
الإنسان بلسانه ، ليتنى أحصل على كذا .

وهذا المعنى الثانى هو المراد هنا ، لأن المعنى البكائن في القلب لا يعمل به أحد
سوى الله - تعالى - .

ومعنى الآية السكريمة : قل يا محمد لهؤلاء اليهود الزاعمين أنهم أبناء الله
وأحباؤه ، وأنهم أولياء الله - تعالى - المقربون إليه من دون سائر
خلقه ...

قل لهم .. على سبيل التحدى والتعجيز والتبكيت .. إن كان الأمر كما زعمتم ،
فاذكروا أمام الناس بالسنتكم لفظا ، يدل على أنكم تحبون الموت وترغبون
فيه ، لىكى تظفروا بعد الموت بالحببة الكاملة من الله ، ولكى تفتقلوا من شقاء
الدنيا ومتاعها .. إلى النعيم الخالص بعد موتكم ...

وجواب الشرط في قوله : ، إن كنتم صادقين ، محذوف لدلالة ما قبله
عليه . ٤ .

أى : إن كنتم صادقين في دعواكم أنكم أولياء الله من دون الناس
فتمنوا الموت .

وافتححت الآية السكريمة بلفظ ، قل ، ، للاهتمام بشأن التحدى من الرسول

- صلى الله عليه وسلم - لهم ، وليبيان أنه أمر من الله - تعالى - وليس للرسول - صلى الله عليه وسلم - سوى التنفيذ .

وجيء بأن الشرطية المفيدة للشك ، مع أنهم قد زعموا أنهم أولياء الله فعلا ، للاشعار بأن زعمهم هذا وإن كانوا قد كرروا المنطق والتباهى به ... إلا أنه بمنزلة الشيء الذي تلوكه الآلة ، دون أن يكون له أساس من الواقع ، فهو لو موضوع بطلانه صار بمنزلة الشيء الذي يفترض وقوعه لفرضا على سبيل التوبيخ لهم ،

قال الألوسي ما ملخصه : قوله : « قل يا أيها الذين هادوا ... » أي : تهودوا ، وإن زعمتم أنكم أولياء الله ، أي : أحباء الله . ولم يصف - سبحانه - لفظ أولياء إليه ، كما في قوله : « ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ... » ليؤذن بالفرق بين مدعى الولاية ، ومن يخصه - تعالى - بها .

وقوله : « من دون الناس ... » ، حال من الضمير الراجع إلى اسم « إن » ، أي : متجاوزين عن الناس .

« فتمنوا الموت » ، أي : فتمنوا من الله أن يميتكم وينقلكم من دار البلية إلى محل الكرامة ... فإن من أيقن أنه من أهل الجنة ، أحب أن يخلص إليها من هذه الدنيا التي هي دار كدر وتعب ، (١) .

ثم أخبر - سبحانه - عن واقعهم وعن حالتهم المستقبلية فقال : « ولا يتمنونه أبدا بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين » .

أي : أن هؤلاء اليهود لا يتمنى أحدهم الموت أبدا ، بسبب ماقدمته أيديهم من آثام ، والله - تعالى - لا تخفى عليه خافية من سيئاتهم واعتداءاتهم وظلمهم ، بل هو .. سبحانه .. يسجل ذلك عليهم ، ويجازيهم بما يستحقونه من عقاب .

فآلاية الكريمة خبير من الله - تعالى - عن اليهود بأنهم يكرهون الموت ، ولا يتمنونه ، ولا يستطيعون قبول ما تقدم به - صلى الله عليه وسلم - من طلبهم نفي الموت ، لعلمهم بأنهم لو أجابوه إلى طلبه ، لحل بهم الموت الذي يكرهونه .

وقد صح من عدة طرق عن ابن عباس أنه قال : « لو تمنوا الموت لشرق أحدم بريقة » .

وقال ابن جرير : وبلغنا أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال : لو أن اليهود تمنوا الموت لماتوا ، ولرأوا مقادهم من النار . . . ، (١) .

وقال ابن كثير : وروى الإمام أحمد عن ابن عباس قال : « قال أبو جهل - لعنه الله - : إن رأيت محمدا عند الكعبة ، لآتين حتى أطأ عنقه . قال : فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « لو فعل لأخذته الملائكة عيانا ، ولو أن اليهود تمنوا الموت لماتوا ، ولرأوا مقادهم من النار . ولو خرج الذين يباهلون رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ارجعوا لا يجدون مالا ولا أهلاء » . (٢) .

وقال صاحب الكشف مملخصه : وقوله : « ولا يتمنونه أبدا » ، أي : بسبب ما قدموا من الكفر ، وقد قال لهم - صلى الله عليه وسلم - : « والذي نفسي بيده لا يقولها أحد منكم إلا غص بريقه » ، فلولا أنهم كانوا موقنين بصدق رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لتمنوا ، ولكنهم علموا أنهم لو تمنوا لماتوا من ساعته ، ولحقهم الوعيد ، فما تمالك أحد منهم أن يتمنى ، وهي إحدى المعجزات - لأنها لإخبار بالغيب وكانت كما أخبر - .

فإن قلت : ما أدراك أنهم لم يتمنوا الموت ؟ قلت : لو تمنوا لنقل ذلك عنهم ، كما نقلت سائر الحوادث ، ولكان ناقلوه من أهل الكتاب وغيرهم

(١) راجع تفسير ابن جرير ج ١ ص ٤٢٧

(٢) تفسير ابن كثير ج ٨ ص ١٤٤

من أولى المطاعن في الإسلام ، أكثر من الذر ، وليس أحد منهم نقل عنه ذلك ، (١) .

هذا ، ويكفي في تحقيق هذه المعجزة ، ألا يصدر تمنى الموت عن اليهود الذين نكدهم النبي - صلى الله عليه وسلم - بذلك ، وهم الذين كانوا يضعون راقيل في طريق دعوته ... ولا يقدح في هذه المعجزة ، أن ينطق يهودى بعد العهد النبوى بتمنى الموت ، وهو حريص على الحياة ، لأن المعنيين بالتحدى اليهود المعاصرون للعهد النبوى .

والمقصود بقوله - تعالى - : « واقه عليم بالظالمين ، التهديد والوعيد ، أى : واقه - تعالى - عليم علما تاما بأحوال هؤلاء الظالمين ، وسيعاقبهم العقاب الذى يتناسب مع ظلمهم وبغيتهم . فالمراد من العلم لازمه ، وهو الجزاء والحساب . وعبر - سبحانه - هنا بقوله : « ولا يتمنونه .. » وفى سورة البقرة بقوله : « ولن يتمنوه ... » .

للإشعار بأنهم يكرهون الموت فى الحال وفى المستقبل كراهة شديدة .

ثم أمر الله - تعالى - رسوله - صلى الله عليه وسلم - بأن يخبرهم بأنهم لا مفر لهم من الموت ، مهما حرصوا على الهروب منه ، فقال - تعالى - : « قل إن الموت الذى تفرون منه ، فإنه ملاقيكم » .

أى : قل - أيها الرسول الكريم - هؤلاء اليهود الذين يكرهون الموت ، ويدعون أنهم أحباب الله » .

قل لهم على سبيل التوبيخ والتبكيت : إن الموت الذى تكرهونه ، ونحرصون على الفرار منه ، لا مهرب لكم منه ، ولا محيص لكم عنه ، فهو نازل

(١) راجع تفهيم الكشاف ج ٤ ص ٥٣١ ، وج ١ ص ٢٢٥

بكم إن عاجلاً أو آجلاً كما قال - سبحانه - : « أينما تكونوا يد كحكم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة . . . »

فالمقصود بهذه الآية الكريمة ، إخبارهم بأن هلمهم من الموت مهما أشتد ، لن يفيدهم شيئاً ، لأن الموت نازل بهم لا محالة . . .

ثم بين - سبحانه - أنهم بعد الموت ، سيجدون الجزاء العادل فقال : « ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة ، فينبئكم بما كنتم تعملون » .

أى : قل لهم - أيها الرسول الكريم - : إن الموت نازل بكم لا محالة ، ثم بعد هلاككم سترجعون إلى الله - تعالى - الذى يعلم السر والعلانية . والجر والحق ، فيجازيكم على أعمالكم السيئة ، بما تستحقونه من عقاب .

فالمراد بالإنباء عما كانوا يعملونه ، الحساب على ذلك ، والمجازاة عليه .

وشبه هذه الآيات قوله - تعالى - في سورة البقرة :

« قل إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين . ولن يتمنوه أبداً بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين . ولتجدنهم أحرص الناس على حياة ، ومن الذين أشركوا ، يود أحدهم لو يعمر ألف سنة ، وما هو بمزحزحه من العذاب أن يعمر ، والله بصير بما يعملون » (١) .

• • •

وبعد هذا التوبيخ والتحدى لليهود الذين زعموا أنهم أولياء الله من دون الناس . . . وجه - سبحانه - للمؤمنين ، أمرهم فيه بالمسارعة إلى أداء فرائضهم ، ونهاهم عن أن تشغلهم دنياهم عن ذكره وطاعته ، فقال - تعالى - :

(١) راجع تفسيرنا لسورتي الفاتحة والبقرة ص ٢٦٨ وما بعدها .

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ ، فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ، ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٩) فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ ، وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٠) وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انْفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ ، وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (١١) » .

والمقصود بالنداء في قوله - سبحانه - : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ للصلاة » ، جميع المسكفين بها ، الذين يجب عليهم أدائها ..

وناداهم - سبحانه - بصفة الإيمان ، لتحريك حرارة الإيمان في قلوبهم ، ولتحريضهم على المسارعة إليها ، إذ من شأن المؤمن القوى ، أن يكون مطيعاً لما يأمره خالقه به .

والمراد بالنداء : الأذان والإعلام بوقت حلولها .

والمقصود بالصلاة المنادى لها هنا : صلاة الجمعة ، بدليل قوله - تعالى -
« مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ ، » .

واللام في قوله « للصلاة » ، للتعليل ، و « من » ، بمعنى في ، أو للبيان ، أو للتبويض ، لأن يوم الجمعة زمان ، تقع فيه أعمال ، منها الصلاة المبرورة فيه وهي صلاة الجمعة ، ولأن الأمر بترك البيع خاص بها ، لوجود الخطبة فيها .

وقوله : « فَاسْعَوْا ... » ، جواب الشرط ، من السعى ، وهو المشى السريع .

والمراد به هنا : المشى المتوسط بوقار وسكينة ، وحسن تهيز للصلاة
الجمعة .

قال الآلوسى ماملخصه : قوله : « فاسعوا إلى ذكر الله ، أى : امشوا إليه
بدون إفراط في السرعة ... »

فقد أخرج الستة في كتبهم عن أبي سلمة من حديث أبي هريرة قال : قال
رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « إذا أقيمت الصلاة فلا تأتوها وأنت
تسعون ، وأتوها وأنت تمشون ، وعليكم السكينة ، فما أدركتم فصلوا ،
وما فاتكم فاتموا ، . »

والمراد بذكر الله : الخطبة والصلاة جميعا ، لأشتمالهما عليه ، واستظهر
بعضهم أن المراد به الصلاة ، وقصره بعضهم على الخطبة ... ، (١) .

ولأنما عبر - سبحانه - بالسعى لتضمنه معنى زائدا على المشى ، وهو الجهد
والحرص على التكبير ، وعلى توقي التأخير .

والمعنى : يا من آمنتم بالله حق الإيمان ، إذا نادى المنادى لأجل الصلاة
في يوم الجمعة ، فامضوا إليها بحمد : وإخلاص نية ، وحرص على الانتفاع
لما تسمعون من خطبة الجمعة ، التي هي لون من ألوان ذكر الله - تعالى -
وطاعته .

والأمر في قوله - سبحانه - : « فاسعوا إلى ذكر الله ، وذروا البيع .. »
الظاهر أنه للوجوب ، لأن الأمر يقتضى الوجوب ، ما لم يوجد له صارف عن
ذلك ، ولا صارف له هنا .

والمراد من البيع هنا : المعاملة بجميع أنواعها ، فهو يعم البيع والشراء
وصائر أنواع المعاملات .

أى : إذ نودى الصلاة الجمعة ، فخرجوا إليها بحرص وسكينة ووقار ...
واتركوا المعاملات الدنيوية من بيع ، وشراء ، وإجارة ، وغيرها .

ولمّا قال - سبحانه - « وذروا البيع .. » لانه أهم أنواع المعاملات ، فهو
من باب التعبير عن الشيء بأهم أجزائه .

واسم الإشارة في قوله - سبحانه - : « ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون ، »
يعود إلى ما سبق ذكره من الأمر بالسعى إلى ذكر الله ، متى نودى للصلاة ،
وترك الاشتغال بالبيع وما يشبهه .

أى : ذلكم الذى أمرتكم به من السعى إلى ذكر الله عند النداء للصلاة من
يوم الجمعة ، ومن ترك أعمالكم الدنيوية ... ، خير لكم مما يحصل لكم من
رزق فى هذا ، الأوقات ، عن طريق البيع أو الشراء أو غيرهما .

فالمفضل عليه محذوف ، لدلالة الكلام عليه ، والمفضل هو السعى إلى
ذكر الله - تعالى - .

وهذا التفضيل باعتبار أن منافع السعى إلى ذكر الله تعالى - باقية دائمة ،
أما المنافع الدنيوية فهى زائلة فانية .

وجواب الشرط فى قوله « إن كنتم تعلمون ، محذوف أى : إن كنتم
تعلمون ما هو خير لكم ، فاسمعوا إلى ذكر الله عند النداء للصلاة ، واتركوا
البيع والشراء :

أو إن كنتم من أهل العالم والفقہ السليم للأمر ، عرفتكم أن امتثال أمر
الله - تعالى - بأن تسمعوا ، إلى ذكره عند النداء لصلاة الجمعة ، خير لكم من
الاشتغال فى هذا الوقت من البيع والشراء ...

إذ فى هذا الإمتثال سعادتكم ونجاتكم من خزي الدنيا وعذاب الآخرة .
تم بين - سبحانه - جانباً من مظاهر تيسيره عليهم فى تشريعاته فقال :
« فإذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض ، وابتغوا من فضل الله ... » .

أى : فإذا فرغتم من أداء الصلاة وأقمتموها على أكل وجه ، فانتشروا في الأرض ، وامهوا في مناكبها ، لأداء أعمالكم التي كنتم قد تركتموها عند النداء للصلاة ، واصلبوا الربح واكتساب المال والزرق ، من فضل الله - تعالى - . ومن فيض إنعامه والأمر هنا الإباحة ، لأنه وارد بعد حظر ، فهو كقوله - تعالى - : « وإذا حلتهم فاصطادوا » ...

أى : أن الانتشار في الأرض بعد الصلاة لطلب الرزق ، ليس واجبا عليه ، إذ طلب الرزق قد يكون في هذا الوقت ، وقد يكون في غيره ...

والمقصود من الآية إنما هو تنبيه الناس ، إلى أن لهم في غير وقت الصلاة ، سعة من الزمن في طلب الرزق ، وفي الاشتغال بالأمور الدنيوية ، فعليهم أن يسهوا إلى ذكر الله ، إذ ما نودى للصلاة من يوم الجمعة ، وأن يحرصوا على ذلك حرصا تاما ، مصحوبا بالنية الطيبة ، وبالهيئة الحسنة ، وبالمضي المبكر إلى المسجد .

وقوله - سبحانه - « واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون » تحذير لهم من الانتشار في الأرض لمصالحهم الدنيوية ، دون أن يعطوا طاعة الله - تعالى - . وعبادته ، ما تستحقه من عناية وموظبة .

أى : إذا قضيت الصلاة ، فانتشروا في الأرض لتحصيل معاشكم ، دون أن يشغلكم ذلك عن الإكثار من ذكر الله - تعالى - في كل أحوالكم ، فإن الفلاح كل الفلاح في تقديم ما يتعلق بأمور الدين ، على ما يتعلق بأمور الدنيا ، وفي تفضيل ما يبقى على ما يقضى .

والمأمل في هذه الآية الكريمة يراها ترسم للمسلم اتوازن السامى ، بين ما يقتضيه دينه ، وما تقتضيه دنياه .

لأنها تأمره بالسعى في الأرض ، ولكن في غير وقت النداء للصلاة من يوم الجمعة ، ودون أن يشغله هذا السعى عن الإكثار من ذكر الله ، فإن الفلاح

في الإقبال على الطاعات التي ترضيه - سبحانه - ، ومن بين هذه الطاعات أن يكثر الإنسان من ذكر الله - تعالى - ، حتى في حالة سعيه لتحصيل رزقه .

ثم ختم - سبحانه - السورة السكرية بعتاب يحمل في طياته ثوب التأديب والإرشاد والتأنيب ، لمن آثر مطالب الدنيا على مطالب الآخرة فقال - تعالى -
« وإذا رأوا تجارة أو لهوا انفضوا إليها وتركوك قائماً ... »

قال الإمام ابن كثير ما ملخصه : يعاتب - تبارك وتعالى - على ما كان وقع من الانصراف عن الخطبة يوم الجمعة إلى التجارة ، التي قدمت المدينة يومئذ ، فقال : « وإذا رأوا تجارة أو لهوا انفضوا إليها وتركوك قائماً ... »

فقد أخرج الشيخان وغيرهما عن جابر قال : قدمت عير^(١) - أي : تجارة - المدينة ، ورسول الله - صلى الله عليه وسلم - يخطب - يوم الجمعة - ، فخرج الناس ، وبقي اثنا عشر رجلاً ، فنزلت هذه الآية .

وفي رواية عن جابر - أيضاً - أنه قال : بينما النبي - صلى الله عليه وسلم - يخطب يوم الجمعة ، فقدمت عير إلى المدينة ، فابتدأ بها الناس ، حتى لم يبق مع الرسول - صلى الله عليه وسلم - إلا اثنا عشر رجلاً ، فقال - صلى الله عليه وسلم - : « والذي نفسي بيده ، لو تابعتهم حتى لم يبق منكم أحد ، لاسال بهم الوادي نارا ، ونزلت هذه الآية » (١) .

وفي رواية أن الذين بقوا في المسجد كانوا أربعين ، وأن العير كانت لعبد الرحمن بن عوف ، وكان قد أصاب أهل المدينة جوع وغلاء سعر^(٢) .

وفي رواية أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - كان يخطب ، فقدم دحية الكلبي بتجارة له ، فلتفاه أهله بالدفوف ، فخرج الناس ،

(١) راجع تفسير ابن كثير ج ٨ ص ١٤٩ .

(٢) راجع تفسير الألوسي ج ٢٨ ص ١٠٥ .

و ، إذا ، في قوله - تعالى - : « وإذا روأ تجارة ... » ، ظرف للزمان الماضي المجرد عن الشرط ، لأن هذه الآية نزلت على الرسول - صلى الله عليه وسلم - بعد أن انفض عنه من انفض وهو يخطب وقوله « انفضوا » ، من الانفضاض ، بمعنى التفرق . يقال : انفض فلان عن فلان إذا تركه وانصرف عنه . وهو من الفض . بمعنى كسر الشيء والتفريق بين أجزائه .

والضمير في قوله « إليها » ، يعود للتجارة ، وكانت عودته إليها دون الله ، لأن الانفضاض كان لها بالأصالة ، والمراد بالله هنا : فرحهم بمجيء التجارة ، واستقبالهم لها بالدفوف ، لأنهم كانوا في حالة شديدة من الفقر وغلاء الأسعار .

والتعبير بأو يشير إلى أن بعض المنفضين قد انفضوا من أجل التجارة ، وأن البعض الآخر قد انفض من أجل الله .

قال الجمل في حاشيته : والذي سوغ لهم الخروج وترك الرسول - صلى الله عليه وسلم - يخطب ، أنهم ظنوا أن الخروج بعد تمام الصلاة جائز ، لانفضاء المقصود وهو الصلاة ، لأنه كان - صلى الله عليه وسلم - في أول الإسلام يصلي الجمعة قبل الخطبة كالعيدين ، فلما وقعت هذه الواقعة ، ونزلت الآية ، قدم الخطبة وأخر الصلاة ،^(١) .

وقوله - سبحانه - : « وتركوك قائما » ، جملة حالية من فاعل « انفضوا » ، والمقصود بها توبيخهم على هذا التصرف ، حيث تركوا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - واقفا يخطب على المنبر ، وانصرفوا إلى التجارة والله . وقوله - سبحانه - : « قل ما عند الله خير من الله ومن التجارة » ، والله خير الرازقين ، إرشاد لهم إلى ما هو الأنفع والأبقى والأكرم لهم .

أي : قل - أيها الرسول الكريم - لهؤلاء الذين انفضوا عنك وأنت

تخطب... قل لهم : ما عند الله - تعالى - من ثواب ومن عطاء خير من اللّٰه
الذى يشغلكم عن ذكر الله ، ومن التجارة التى تبتغون من وراءها الربح
المادى ، والمنافع العاجلة...

واقره - تعالى - هو خير الرازقين ، لأنه - سبحانه - هو وحده الذى
يقسم الأرزاق ، وهو الذى يعطى ويمنع ، كما قال - سبحانه - : « ما يفتح
الله للناس من رحمة فلا ممسك لها ، وما يمسك فلا مرسل له من بعده ، وهو
العزیز الحكيم » .

وقدمت التجارة على اللّٰه فى صدر الآية ، لأن رؤيتها كانت الباعث
الاعظم على الانفضاض إليها ، وترك الرسول - صلى الله عليه وسلم - قائماً
بخطب على المنبر ، ولم يبق معه إلا عدد قليل من أصحابه .

وأخرت فى آخر الآية وقدم اللّٰه عليها ، ليكون ذمهم على انفضاضهم
أشد وأوجع ، حتى لا يعودوا إلى مثل ذلك .

هذا ، ومن الأحكام والآداب التى أخذها العلماء من هذه الآيات ما يأتى :

١ - فضل يوم الجمعة ، وفضل صلاة يوم الجمعة ، والتحذير من ترك أداؤها .

ومن الأحاديث التى وردت فى هذا المعنى ، ما رواه مسلم وأبو داود
والنسائى عن أبى هريرة ، أنه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : خير
يوم طلعت فيه الشمس يوم الجمعة ، فيه خلق آدم ، وفيه أدخل الجنة ، وفيه
أخرج منها ، ولا تقوم الساعة إلا فى يوم الجمعة .

وروى الشيخان عن أبى هريرة أنه سمع النبى - صلى الله عليه وسلم -
يقول : نحن الآخرون - أى : زمننا - السابقون يوم القيامة قبل غيرهم - ،
يبدأ بهم - أى : اليهود والنصارى - أوتوا الكتاب من قبلنا ، وأوتيناها من
بعدهم ، ثم هذا يومهم الذى فرض عليهم - أى : تعظيمه ، فاختلفوا فيه . فهدانا
الله ، فالتاس لنا فيه تبع : اليهود غدا - أى : السبت - ، والنصارى بعد غد -
أى : الاحد - .

وروى مسلم والنسائي عن ابن عمر أنه سمع النبي - صلى الله عليه وسلم - يقول على أعواد منبره : « ليتهم أقوام عن وديعهم الجمعة - أى تركهم صلاة الجمعة - ، أو ليختمن الله على قلوبهم ، ثم ليكونن من الغافلين » .

قال القرطبي ماملخصه : وإنما سميت الجمعة جمعة ، لأنها مشتقة من الجمع ، حيث يجتمع الناس فيها للصلاة وكان يقال ليوم الجمعة : العروبة

قال البيهقي : وروينا عن موسى بن عقبة ، عن ابن شهاب الزهري ، أن مصعب بن عمير ، كان أول من جمع الجمعة بالمدينة للمسلمين ، قبل أن يهاجر إليها الرسول - صلى الله عليه وسلم - ...

ثم قال القرطبي : وأما أول جمعة جمعها - صلى الله عليه وسلم - بأصحابه ، فقال أهل السير والتاريخ : قدم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - مهاجرا حتى نزل بقباء ، على بنى عمرو بن عوف ، يوم الإثنين ، لاثنتي عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول حين اشتد الضحى .

ومن تلك السنة بعد التاريخ . فأقام بقباء إلى يوم الخميس ، وأسس مبعدهم ثم خرج يوم الجمعة إلى المدينة ، فأدركته الجمعة في بنى سالم بن عوف ، في بطن وأدلم ، فجمع بهم وخطب . وهى أول خطبة خطبها بالمدينة ، وقال فيها : الحمد لله . أحده واستعينه ، وأستغفره وأستهديه ... (١) .

٢ - الآية الكريمة وإن كانت قد أمرت المؤمنين بالسعى إلى صلاة الجمعة عند النداء لها ، إلا أن هناك أحاديث متعددة تحض على التكبير بالحضور إليها ، وبالفصل لها ، وبمس الطيب ، وبالحضور إليها على أحسن حالة ...

ومن تلك الأحاديث ما رواه الشيخان وغيرهما عن أبي هريرة أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : « من أغتسل يوم الجمعة غسل الجنابة - أى :

كفعل الجنابة - ثم راح إلى المسجد ، فكأنما قرب بدنة - أى . ناقة ضخمة
ومن راح في الساعة الثانية فكأنما قرب بقرة ، ومن راح في الساعة الثالثة
فكأنما قرب كبشا أقرن - أى له قرون - ، ومن راح في الساعة الرابعة
فكأنما قرب دجاجة ، ومن راح في الساعة الخامسة فكأنما قرب بيضة ، فإذا
خرج الإمام حضرت الملائكة يستمعون الذكر ، .

وروى ابن ماجه عن ابن مسعود قال . سمعت النبی - صلى الله عليه وسلم
يقول : إن الناس يجلسون يوم القيامة على قدر ثرواتهم إلى الجمعات ، الأول
ثم الثاني ثم الثالث ثم الرابع ، وما رابع أربعة من الله ببعيد ، .
وروى الشيخان عن أبي سعيد الخدري ، عن النبي - صلى الله عليه وسلم -
أنه قال : « على كل مسلم الغسل يوم الجمعة ، ويلبس من صالح ثيابه ، وإن
كان له طيب مس منه » .

٣ - أخذ العلماء من قوله - تعالى - : « إذا نودى للصلاة من يوم الجمعة
فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع ... » ، أن صلاة الجمعة فريضة محكمة ، وأن
السمي لأدائها واجب ، وأن ترك ذلك محرم شرعا .
ومن المعروف بين العلماء أن الأمر يقتضى الوجوب ، ما لم يوجد له
صارف ، ولا صارف له هنا . .

قال الإمام القرطبي : فرض الله - تعالى - الجمعة على كل مسلم ، ردا على
على من يقول : إنها فرض على الكفاية . ونقل عن بعض الشافعية أنها سنة ..
وجمهور الأمة والأئمة أنها فرض على الأعيان ، لقوله - تعالى - : « إذا
نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع ... » .
وثبت عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أنه قال : ليهتبن أقوام عن
ودعهم الجمعات أو ليختمن الله على قلوبهم ثم ليسكون من الغافلين ، .
وهذا حجة واضحة في وجوب الجمعة وفرضيتها ... ، (١) .

قال بعض العلماء : جاء في الآية الكريمة الأمر بالسعى، والأمر للوجوب فيكون السعى واجبا ، وقد أخذ العلماء من ذلك أن الجمعة فريضة ، لأنه - سبحانه - قد رتب الأمر للذكر على النداء للصلاة ، فإذا كان المراد بالذكر هو الصلاة ، فالدلالة ظاهرة ، لأنه لا يكون السعى لشيء واجبا ، حتى يكون ذلك الشيء واجبا .

وأما إذا كان المراد بالذكر الخطبة فقط، فهو كذلك، لأن الخطبة شرط الصلاة ، وقد أمر بالسعى إليه ، والأمر للوجوب ، فإذا وجب السعى للمقصود تبعا ، فما ذلك إلا لأن المقصود بالذات واجب ...

كما أن الاشتغال بالبيع أو الشراء وقت النداء محرم ، لأن الأمر للوجوب . وقال بعضهم : هو مكروه كراهة تحريم ... (٢) .

وعما يدل على أن صلاة الجمعة فريضة محكمة ، وأن السعى إليها واجب ، وأن الاشتغال عنها بالبيع أو الشراء محرم ، ما جاء في الأحاديث من الأمر بالمحافظة عليها ، ومن التخدير من تركها ، مارواه أبو داود من حديث أبي الجعد ، أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : « من ترك ثلاث جمع تهاونا بها ، طبع الله على قلبه » .

٤ - قوله - تعالى - : فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض ... يدل دلالة واضحة ، على سمو شريعة الإسلام ، وعلى سماحتها ويسرها ، وجمعها بين مطالب الدنيا ومطالب الآخرة ...

ومع أن هذا الأمر بالانتشار بعد الصلاة للإباحة - كما سبق أن قلنا - ، إلا أن بعض السلف كان إذا أنهت الصلاة ، خرج من المسجد ، ودار في السوق ساعة ، ثم رجع إلى المسجد فصلى ما شاء أن يصلى ...

(١) راجع تفسير آيات الأحكام ج ٤ ص ١٥٢ لفضيلة الشيخ محمد علي السابيس .

قال الإمام ابن كثير: كان عراك بن مالك - أحد كبار التابعين - إذا صلى الجمعة ، انصرف فوقف على باب المسجد وقال: اللهم إني أجبته دعوتك واصلت فريضتك ، وانتشرت كما أمرتني ، فارزقني من فضلك وأنت خير الرازقين ، (١) .

هذا ، وهناك أحكام أخرى توسع المفسرون والفقهاء في الحديث عنها ، فليرجع إليها من شاء المزيد من معرفة هذه الأحكام والآداب ...
وبعد : فهذا تفسير لسورة الجمعة ، ، نسأل الله - تعالى - أن يجعله خالصاً لوجهه ، ونافعاً لعباده .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

القاهرة - مدينة نصر - صباح الثلاثاء ١٠ من شوال ١٤٠٦ هـ

١٧ / ٦ / ١٩٨٦ م

تفسير
سُورَةُ الْمَنَافِقِينَ

٣ - وسميت هذه السورة ، بسورة « المنافقون » ، لأنها فضحتهم ، ووصفتهم بما هم أهل له من صفات ذميمة ، ومن طباع قبيحة ، ومن مسالك سيئة ... ويكاد حديثها يكون مقصورا عليهم ، وعلى أكاذيبهم ودسائسهم . وحديث القرآن عن النفاق والمنافقين ، قد ورد في كثير من السور المدنية ، ففي سورة البقرة نجد حديثا مستفيضا عنهم ، يبدأ بقوله - تعالى - : « ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر ، وما هم بمؤمنين ... » ، وفي سورة آل عمران نجد توبيخا من الله - تعالى - لهم ، كما في قوله - عز وجل - : « الذين قالوا لإخواتهم وقعدوا ، لو أطاعونا ما قتلوا ، قل فادروا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين ... » ،

وفي سورة النساء نجد آيات متعددة تتحدث عن قبائحهم ، ومن ذلك قوله - تعالى - : (ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك ، وما أنزل من قبلك ، يريدون أن يتحاكوا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ، ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالا بعيدا . وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول ، رأيت المنافقين يصدرون عنك صدودا ...)

أما سورة (التوبة) فهي أكثر السور حديثا عنهم ، ولذا سميت بالفاضحة لأنها فضحتهم على رموس الأشهاد ، كما سميت بالمنقرة ، لأنها فقرت عما في قلوبهم ، وكشفت عنه . كما سميت بالمبعثرة ، لأنها بعثت أسرارهم ... (١)

والحق أنه لا تكاد تخلو سورة من السور المدنية ، من الحديث عن المنافقين وعن سوء سلوكهم وأخلاقهم ... ، وجوب إبتعاد المؤمنين عنهم .

٤ - والنفاق إنما يظمر ويفشو حيث تكون القوة ، لذا لم يكن المنافقين أثر في العهد المسكي ، لأن المؤمنين كانوا قلة مستضعفين في الأرض ، ومن كان هذا شأنه لا ينافقه الناس ، فضلا عن أن مشركي مكة كانوا بطبيعتهم

جبايرة ، وكانوا يعلنون حربهم على الدعوة الإسلامية لإعلاننا سافرا ،
لا التواء معه ولا مهادنة .

أما المزمعون في العهد المدني ، فقد كانوا أقوياء ، خصوصا بعد أن
أسسوا دولتهم ، ولانتصروا على المشركين في غزوة بدر ... كما انتصروا على
اليهود ... فظهرت حركة التفاق في المدينة ، لمهادنة المؤمنين ، وللحصول
على تصنيفهم من الغنائم التي يغنمها المؤمنون ... ولغير ذلك من الأسباب التي
ذكرها العلماء والمؤرخون ... (١)

وسورة (المنافقون) فضحت أحوالهم ، وكشفت عن دخالهم وعن
خسة نفوسهم ... وختمت بموعظة المؤمنين ، وبجشهم على الإنفاق في سبيل
الله ، وعلى تقديم العمل الصالح ، الذي ينفعهم في دنياهم وفي آخرتهم .
وصلى الله على سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه وسلم .

القاهرة - مدينة نصر

مساء الثلاثاء : ١ من شوال سنة ١٤٩٦ هـ

١٧/١/١٩٨٦ م

(١) راجع على سبيل المثال كتاب : (سيرة الرسول - صلى الله عليه وسلم -

التفسير

قال الله - تعالى - إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله ، والله يعلم إنك لرسوله ، والله يشهد إن المنافقين لكاذبون (١) اتخذوا أيمانهم جنة ، فصددوا عن سبيل الله ، إنهم ساء ما كانوا يعملون (٢) ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا ، فطُبع على قلوبهم فهم لا يفقهون (٣) وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم وإن يقولوا تسمع لقولهم كأنهم خشب مسندة ، يحسبون كل صيحة عليهم ، هم المدو ، فاحذرهم قائلهم الله أنى يؤفكون (٤) .

فتتح الله - تعالى - السورة الكريمة . بالحديث عن صفة من أبرز الصفات الذميمة للمنافقين ، ألا وهي صفة الكذب والخداع ، فقال - تعالى - وإذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله

و إذا ، هنا ظرف للزمان الماضي ، بقرينة كون جملتها ماضيتين ، وجواب إذا ، قوله : قالوا نشهد إنك لرسول الله . . . ، والخطاب للرسول - صلى الله عليه وسلم - .

و المنافقون ، جمع منافق ، وهو من يظهر الإسلام ويخفي الكفر ، أو من يظهر خلاف ما يبطن من أقوال وأفعال .

أى : إذا حضر المنافقون إلى مجلسك - أيها الرسول الكريم - قالوا لك على سبيل الكذب والخداع والمهانة . . . نشهد أنك رسول من عند الله - تعالى - ، وأنت صادق فيما قبله عن ربك .

وعبروا عن التظاهر بتصديقهم له - صلى الله عليه وسلم - بقولهم . نشهد ، المأخوذ من الشهادة التي هي إخبار عن أمر مقطوع به - وأكدوا هذه الشهادة

بأن واللام، للإيهام بأن شهادتهم صادقة، وأنهم لا يقصدون بها إلا وجه الحق .
وأن ما على ألسنتهم يوافق ما في قلوبهم .

قال الشوكاني : أكدوا شهادتهم بأن واللام . . للاشمار بأنها صادرة من
صميم قلوبهم ، مع خلوص نياتهم : والمراد بالمنافقين : عبد الله بن أبي
وأتباعه .

ومعنى تشهد : نخلف ، فهو يجرى مجرى القسم . ولذا يتلقى بما يتلقى به القسم ..
ومثل تشهد نعم ، فإنه يجرى مجرى القسم ، كما في قول الشاعر :

ولقد علمت لتأتين منيتي إن المنايا لا تطيش سهامها^(١)

وقوله : . والله يعلم إنك لرسوله ، جملة معترضة مقررة لمضمون ما قبلها ،
من كونه - صلى الله عليه وسلم - رسول من عند الله - تعالى - حقا .

وجملة : . والله يشهد إن المنافقين لكاذبون . معطوفة على قوله : . قالوا

نشهد . . .

أى . إذا حضر المنافقون إليك - أيها الرسول الكريم - قالوا كذبا
وخداعا : تشهد إنك لرسول الله . . والله . . تعالى - يعلم إنك لرسوله حقا
سواء شهدوا بذلك أم لم يشهدوا ، فأنت لست في حاجة إلى هذه الشهادة التي
تخالف بواطنهم ...

، والله . . تعالى - يشهد إن المنافقين لكاذبون ، في قولهم : تشهد إنك
لرسول الله ، لأن قولهم هذا يبين ما أخفته قلوبهم المريضة ، من كفرو نفاق
وعداوة لك وللحق الذي جئت به ...

والإيمان الحق لا يتم ، إلا إذا كان ما ينطق به اللسان ، يوافق ويوافق
ما أضمره القلب . وهذا قد قالوا بألسنتهم ما ليس في قلوبهم ، فثبت كذبهم
في قولهم : تشهد إنك لرسول الله ...

قال صاحب الكشف : فإن قلت . أى فائدة فى قوله - تعالى - : د والله يعلم إنك لرسوله ، ؟ قلت : لو قال : قالوا نشهد إنك لرسول الله ، والله يشهد إن المنافقين لكاذبون ، لكان يوم أن قولهم هذا كذب ، فوسط بينهما قوله : د والله يعلم إنك لرسوله ، ليميط هذا الإيمان ، (١) .

وجىء بالفعل د يشهد ، فى الإخبار عن كذبهم فيما قولوه ، للشاكلة ، حتى يكون لإبطال خبرهم مساويا لإخبارهم ولما نطقوا به .

ثم بين - سبحانه - جانباً من الوسائل التى كانوا يستعملونها لى يصدقهم من يسمعهم فقال - تعالى - : د اتخذوا أيمانهم جنة ، ...

والإيمان : - بفتح الهمزة - جمع يمين . والجنة - بضم الجيم - ما يستتر به المقاتل ليتقى ضربات السيوف والرماح والنبال ...

أى : أن هؤلاء المنافقين إذا ظهر كذبهم ، أو إذا جوبوا بما يدل على كفرهم ونفاقهم ، أقسموا بالإيمان المغلظة بأنهم ما قالوا أو فعلوا ما يسىء إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - ، أو إلى المؤمنين ...

فهم يستترون بالخاف الكاذب ، حتى لا يصيبهم أذى من المؤمنين ، كما يستتر المقاتل بترسه من الضربات .

وقد حكى القرآن كثيراً من أيمانهم الكاذبة ، ومن ذلك قوله - تعالى - : د ويحلفون بالله إنهم لمنكم وما هم منكم ، ولكنهم قوم يفرقون ، (٢) .

وقوله - سبحانه - : د يحلفون بالله ما قالوا ، ولقد قالوا كلمة الكفر ، وكفروا بعد إسلامهم وهموا بما لم ينالوا ... ، (٣) .

(١) تفسير الكشف - ج ٤ ص ٥٣٨

(٢) سورة التوبة . الآية ٥٦

(٣) سورة التوبة الآية ٧٤

وقوله - عز وجل - : « يخافون بالله لكم ليرضوكم ، والله ورسوله أحق أن يرضوه إن كانوا مؤمنين » (١) .

قال الألوسي : قال قتادة : كلما ظهر شيء منهم يوجب مؤاخذتهم ، حلفوا كاذبين ، عصمة لأموالهم ودمائهم (٢) .

والفاء في قوله - تعالى - : « فصدوا عن سبيل الله ... » للتفريع على ما تقدم .
 أى : اتخذوا أيمانهم الفاجرة ذريعة أمام المؤمنين لكي يصدقوهم . فتمكنوا عن طريق هذه الأيمان الكاذبة ، من صد بعض الناس عن الصراط المستقيم ، ومن تشكيكهم في صحة ما جاء به النبي - صلى الله عليه وسلم - .

فهم قد جمعوا بين رذيلتين كبيرتين : إحداهما : يهتم على الأيمان الكاذبة ، والثانية : لإعراضهم عن الحق ، ومحاولتهم صرف غيرهم عنه .

وقوله - سبحانه - : « إنهم ساء ما كانوا يعملون » تذييل قصد به بيان قبح أحوالهم ، وسوء عاقبتهم .

وساء فعل ماض بمعنى تمس في إفادة الذم . و ما ، موصولة والعائد محذوف .

أى : إن هؤلاء المنافقين بئس ما كانوا يقولونه من أقوال كاذبة ، وساء ما كانوا يفعلونه من أفعال قبيحة ، سيكونون بسببها يوم القيامة في الدرك الأسفل من النار .

واسم الإشارة في قوله - تعالى - بعد ذلك : « ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا » يعود إلى ما تقدم ذكره من الكذب ، ومن الصد عن سبيل الله ، ومن قبح الأقوال والأفعال .

(١) سورة التوبة الآية ٦٢

(٢) تفسير الألوسي ٢٨ ص ١٠٩

أى : ذلك الذى ذكر من حالهم الذى دأبوا عليه من الكذب والخداع والصد عن سبيل الله . . . سببه أنهم دأمنوا ، أى : نطقوا بكلمة الإسلام بالسنتهم دون أن يستقر الإيمان فى قلوبهم ، ثم كفروا ، أى : ثم ارتكسوا فى الكفر واستمروا عليه ، وظهر منهم ما يدل على رسوخهم فيه ظهورا جليا ، كقولهم : « أنؤمن كما آمن السفهاء . . » ، وكقولهم للمجاهدين : « لا تنفروا فى الحرب . . . » .

« فطبع على قلوبهم ، أى : فختم الله - تعالى - عليها بالكفر نتيجة لإصرارهم عليه ، فصاروا ، بحيث لا يصل إليه الإيمان . »

« فهم لا يفقهون ، أى : فهم لا يدركون حقيقة الإيمان أصلا ، ويشعرون به ، ولا يفهمون حقائقه لأنهم لم يلمسوا بصرهم . »

وقوله : « ذلك ، مبتدأ » ، وقوله « بأنهم آمنوا ثم كفروا . . » خبر : والباء للسببية .

و « ثم » ، للتراخى النسب ، لأن إبطان الكفر مع إظهار الإيمان أعظم من الكفر الصريح ، وأشد ضررا وقبحا .

قال صاحب الكشف : « فى قلت : المنافقون لم يكونوا إلا على الكفر الثابت الدائم ، فما معنى قوله . . آمنوا ثم كفروا ؟ »

قلت : فيه ثلاثة أوجه : أحدها : آمنوا ، أى نطقوا بكلمة الشهادة ، وفعلوا كما يفعل من يدخل فى الإسلام ، ثم كفروا . أى : ثم ظهر كفرهم بعد ذلك وتبين بما أطلع الله عليه المؤمنين من قولهم : « إن كان يقوله محمد - صلى الله عليه وسلم - حقا فنحن حمير . . . »

والثانى : آمنوا ، أى : نطقوا بالإيمان عند المؤمنين ، ثم نطقوا بالكفر عند شياطينهم استهزاء بالإسلام ، كقوله - تعالى - : « وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا ، وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم . »

الثالث : أن يراد أهل الردة منهم (١)

ثم رسم - سبحانه - لهم بعد ذلك صورة تجعل كل عاقل يستهزئ بهم ، ويحتقرهم ، ويسمو بنفسه عن الاقتراب منهم . . . فقال - تعالى - : وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم . وإن يقولوا تسمع لقولهم كأنهم خشب مسندة . . قال القرطبي : قال ابن عباس : كان عبد الله بن أبي ، وسببا جسيما صبيحا صبيحا ، ذلق اللسان ، فإذا قال ، سمع النبي - صلى الله عليه وسلم - مقالته . وقال الكلبي : المراد ابن أبي ، وجد بن قيس ، ومعتب بن قشير ، كانت لهم أجسام ومنظر ذو فصاحة . . .

و « خشب » - بضم الخاء والشين - جمع خشبة - بفتحهما - كثمرة وتمر . وقرأ ابن كثير وأبو عمرو والمكسائي : كأنهم خشب ، - بضم الخاء وسكون الشين - كبدة وُبدن .

أى : وإذا رأيت - أيها الرسول الكريم ، هؤلاء المنافقين ، أعجبك أجسامهم ، لكاملها وحسن تناسقها . وإن يقولوا قولا حسبت أنه صدق ، لفصاحته ، وأحببت الاستماع إليه لخلاوته ...

وعدى الفعل - « تسمع » باللام ، لتضمنه معنى تصغ لفعالهم .

وجملة : « كأنهم خشب مسندة » مستأنفة ، أو خبر لمبتدأ محذوف .

أى : كأنهم وهم جالسون في مجلسك ، مستقدين على الجدران ، وقد دخلت قلوبهم من الخير والإيمان . . . كأنهم وهم بهذه الحالة ، بمجموعة من الأخشاب الطويلة العريضة ، التى استندت إلى الحوائط ، دون أن يكون فيها حسن ، أو نفع ، أو عقل .

(١) تفسير الكشاف ١ ص ٥٣٩

(٢) تفسير القرطبي ١ ص ١٢٤

فهم اجسام تعجب ، وأقوال تغرى بالسماع لإيها ، واسكنهم قد خلت
قلوبهم من كل خير ، وإمتلأت نفوسهم بكل الصفات الذميمة ، فهم لما
قال القائل :

لاباس بالقوم من طول ومن غلظ جسم البغال وأحلام العصافير
وشبههم - سبحانه - الخشب المسندة على سبيل الذم لهم ، أى كأنهم فى
عدم الانتفاع بهم ، وخلودهم من الفائدة ، كالأخشاب المسندة إلى الحوائط
الخالية من أية فائدة .

ورحم الله صاحب الكشف فقد قال : فإن قلت : ما معنى : كأنهم خشب
مسندة ، ؟

قلت : شبهوا فى إسنادهم - وما هم إلا أجرام خالية عن الإيمان والخير
بالخشب المسندة إلى الحوائط لأن الخشب إذا انتفع به ، كان فى سقف أو
جدار أو غيرهما من مظان الإنتفاع . وما دام متروكا فارغا غير منتفع به ،
أسند إلى الحائط ، فشبهوا به فى عدم الانتفاع .

ويجوز أن يراد بالخشب المسندة : الأصنام المنجوتة من الخشب ، المسندة
إلى الحيطان ، شبهوا بها فى حسن صورتهم . وقلة جدواهم . والخطاب
لرسول - صلى الله صلى الله عليه وسلم - أو لكل من يخاطب .. (١)

فأنت ترى أن القرآن الكريم قد وصفهم بتلك الصفة البديعة فى التنفير
منهم ، وفى عدم الإغترار بمظهرهم ، لأنهم كما قال القائل :

لا تأخذ عنك اللعى ولا الصور تسعة أعشار من ترى بقر
تراهم كالسحاب منتشرا وليس فيه لظالب مطر
فى شجر السرو منهم شبه له رواء وما له ثمر

ثم وصفهم - سبحانه - بعد ذلك بالجبن والخور فقال : يحسبون كل
صيحة عليهم ...

والصيحة : المرة من الصياح ، والمراد بها ما يذمر ويخيف أى : يظنون
لجبن قلوبهم ولسوء نواياهم ، وخبت نفوسهم - أن كل صوت ينادى به
المنادى ، لنشدان ضالة ، أو لنفلات دابة ... إنما هو واقع عليهم ، ضاربهم
مهلك لهم ..

قال الألوسى : قوله : يحسبون كل صيحة عليهم ، أى : واقعة عليهم ،
ضارة لهم ، لجبنهم وطمعهم .

وقيل كانوا على وجل من أن ينزل الله - تعالى - فيهم ، ما يهلك
أستارهم ، ويبيح دماءهم وأموالهم .

والوقف على : عليهم ، الواقع مفعولا ثانيا ، يحسبون ، وهو وقف تام
وقوله - تعالى - : هم العدو ، يستثناف . أى : هم الكاملون في
العداوة ، والراسخون فيها ، فإن أعدى الأعداء ، العدو المداجى .
فاحذرهم ، لكونهم أعدى الأعداء ، ولا تغترن بطواهرهم . (١)

وقوله - سبحانه - : قاتلهم الله أنى يؤفكون ، دعاء عليهم بالطرد من
رحمة الله - تعالى - ، وتعجب لكل مخاطب من أحوالهم التى بلغت النهاية
فى السوء والقبح .

عن ابن عباس أن معنى : قاتلهم الله ، : طردهم من رحمته ولعنهم ، وكل
شيء فى القرآن قتل فهو آمن (٢)

و : أنى ، بمعنى كيف . ويؤفكون بمعنى يصرفون ، من الأفك - بفتح
الهمزة والفاء - بمعنى الإنصراف عن الشيء .

أى : لعن الله - تعالى - هؤلاء المنافقين ، وطردهم من رحمته ، لأنهم

(١) تفسير الألوسى ٢٦ ص ١١٢

(٢) تفسير ابن جرير ج ١٠ ص ١١٣

بسبب مساكنهم الخبيثة ، وأفعالهم القبيحة ، وصفاتهم السيئة ... صاوبوا عمل
مقت العقلاء ، وعجبهم ، إذ كيف ينصرفون عن الحق الواضح إلى الباطل
القاضح ، وكيف يتركون النور الساطع ، ويدخلون في الظلام الدامس ١١٤
وبذلك نرى أن هذه الآيات الكريمة ، قد فضحت المنافقين ، وحذرت
من شرورهم ، ووصفتهم بالصفات التي تخزيهم ، وتكشف عن دخالهم
المربضة .

• • •

ثم وصفهم - سبحانه - بصفات أخرى . لا تقل في قبحها وبشاعتها عن
ما سبقها ، فقال تعالى :

« وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ ، لَوَّا رُءُوسَهُمْ
وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ (٥) سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ
لَهُمْ ، أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ ، لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ، إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ
الْفَاسِقِينَ (٦) هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى
يَنْفَضُّوا ، وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ
لَا يَفْقَهُونَ (٧) يَقُولُونَ لَنْ نَرْجِعَنَّ إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا
الْأَذَلَّ ، وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ، وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ
لَا يَعْلَمُونَ (٨) » .

وقد ذكر المفسرون في سبب نزول هذه الآيات روايات متعددة ، فصلها
الإمام ابن كثير - رحمه الله ، فقال ما ملخصه :

وقد ذكر غير واحد من السلف أن هذا السياق كله نزل في عبد الله بن

أبي بن سلول وأتباعه ، فقد ذكر محمد بن إسحاق ، أنه لما قدم النبي - صلى الله عليه وسلم - المدينة بعد غزوة أحد ، قام عبد الله بن أبي ، والرسول - صلى الله عليه وسلم - يخطب للجمعة ، فقال : أيها الناس ، هذا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أكرمكم الله به فأخذ بعض المسلمين بقيابته من نواحيه ، وقالوا له : اجلس يا عدو الله ، لست لهذا المقام بأهل ، وقد صنعت ما صنعت - يعنون مرجعه ثلث الناس دون أن يشتركوا في غزوة أحد - .

فخرج يتخطى رقاب الناس وهو يقول - والله ليكأنما قلت بجرأ - أي : أمرا منكرا - أن قت أشدد أمره .

فلقيه رجال من الأنصار بباب المسجد ، فقالوا له ويلك . ما لك ؟ ... ارجع للنبي يستغفر لك رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال : والله ما أبغى أن يستغفر لي .

وفي رواية أنه قيل له : لو أنبت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ، فسألته أن يستغفر لك ، فجعل يلمو رأسه ويحركه استهزاء

ثم قال الإمام ابن كثير - رحمه الله - ماملخصه : وذكر ابن إسحاق في حديثه عن غزوة بني المصطلق - وكانت في شعبان من السنة الخامسة من الهجرة - أن غلاما لعمر بن الخطاب - رضى الله عنه - اسمه الجهمجاه بن سعيد الغفاري تواحم على ماء مع رجل من الأنصار اسمه سنان بن وبر ...

فقال سنان : يا معشر الأنصار ، وقال الجهمجاه : يا معشر المهاجرين . فغضب عبد الله بن أبي - وعنده رطل من قومه فيهم زيد بن أرقم - وقال : أوقد فعلوها ١١٤ قد نافرونا وكاثرونا في بلادنا . والله ما مثلنا وجلايب قريش - يعنى المهاجرين - إلا كما قال القائل « سمن كلبك ، والله لئن رجعنا إلى المدينة ، ليخرجن الأعز منها الأذل .

فذهب زيد إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فأخبره الخبر ...
فقال عمر بن الخطاب يا رسول الله ، مر عباد بن بشر فليضرب عنق عبد الله
ابن أبي ابن سلول .

فقال - صلى الله عليه وسلم - : فكيف إذا تحدث يا عمر ، أن محمدا يقتل
أصحابه ؟ لا ، ولكن ناد يا عمر في الناس بالرحيل .

فلما بلغ عبد الله بن أبي أن ذلك قد بلغ رسول الله - صلى الله عليه وسلم -
أتاه فاعتذر إليه ، وحلف بالله ما قال الذي قاله عنه زيد بن أرقم ...

وراح رسول الله - صلى الله عليه وسلم - مهجراً في ساعته كان لا يروح
فيه ، فلقبه أسيد بن الحضير ، فقال له : يا رسول الله ، لقد رحت في ساعة
ما كنت تروح فيها .

فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أما بلغك ما قال صاحبك ابن أبي؟
زعم أنه إذا قدم المدينة أنه سيخرج الأعرض منها الأذل .

فقال أسيد : فأنت يا رسول الله العزيز وهو الذليل ...

لأنما خرج رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في هذا الوقت الذي
لم يتعود السفر فيه ، ليشغل الناس عن الحديث ، الذي كان من عبد الله بن أبي .
قال ابن إسحاق : ونزلت سورة المنافقين في ابن أبي وأتباعه ، فلما نزلت
أخذ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بأذن زيد بن أرقم ثم قال : هذا الذي
أوفى الله بأذنه .

وفي رواية أنه - صلى الله عليه وسلم - بعث إلى زيد فقرأها عليه ثم قال :
« إن الله قد صدقك » ثم قال ابن إسحاق : وبلغني أن عبد الله بن عبد الله بن أبي
بلغه ما كان من أمر أبيه ، فأتى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال له :
يا رسول الله ، بلغني أنك تريد قتل أبي ... فإن كنت فاعلا ، فرني به ، فأنا
أحمل إليك رأسه ، فوافقه لقد علمت الخزرج ما كان لها من رجل أبر بوالده

بنى ، ولما أخشى أن تأمر غيرى بقتله ، فلا تدعى نفسى أن أرى قاتل أبى
بشى على الأرض ، فأقتله ، فأكون قد قتلت مؤمنا بكافر ، فأدخل النار .

فقال - صلى الله عليه وسلم - : دبل فترفق به ونحسن صحبته ، مابق معناه .
وذكر عكرمة وابن زيد وغيرهما : أن الناس لما قفلوا راجعين إلى المدينة ،
وقف عبد الله بن عبد الله ابن أبي على باب المدينة ، واستل سيفه ، فجعل الناس
يمرون عليه ، فلما جاء أبوه قال له : وراك ! فقال له أبوه : وبلك مالك ؟
فقال : والله لا تجوز من هاهنا حتى يأذن لك رسول الله - صلى الله عليه وسلم -
فإنه العزيز وأنت الذليل .

فلما جاء رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وكان يسير في مؤخرة الجيش
- شكأ إليه عبد الله بن أبي ما فعله ابنه عبد الله معه .

فقال ابنه : والله يا رسول الله لا يدخلها حتى تأذن له . فأذن له رسول الله
- صلى الله عليه وسلم - .

فقال عبد الله لأبيه : أما إذ أذن لك رسول الله - صلى الله عليه وسلم -
فجز الآن (١) .

والآن وبعد ذكر جانب من هذه الآثار التي وردت في سبب نزول هذه
الآيات ، نعود إلى تفسيرها فنقول وبالله التوفيق :

قوله - تعالى - : « وإذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله ، لو
اروسهم ... » بيان لصفة أخرى من صفات المنافقين ، تدل على عنادهم
وإصرارهم على كفرهم ونفاقهم .

والقائل لهم : « تعالوا يستغفر لكم رسول الله ، جماعة من المؤمنين ، على
سبيل النصيحة لولا المنافقين لعلهم يقلعون عن كفرهم وفجورهم .

(١) لمعرفة هذه الآثار بالتفصيل راجع تفسير ابن جرير - ٢٨ ص ٧١

وتفسير ابن كثير - ٨ ص ١٥٢

والمراد باستغفار رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لهم : توبتهم من ذنوبهم ، وتركهم لتفسيقهم ، وإعلان ذلك أمامه - صلى الله عليه وسلم - لكي يدعو الله - تعالى - لهم بقبول توبتهم .

وقوله . « لوواردهوسهم » من اللى بمعنى الإمالة من جانب إلى آخر ، يقال : لوى فلان رأسه إذا أمالها وحركها . وهو كناية عن التكبر والإعراض عن النصيحة .

أى : وإذا قال قائل هؤلاء المنافقين ، لقد نزل في شأنكم ما نزل من الآيات القرآنية التي تفضحكم ... فتوبوا إلى الله توبة نصوحا ، وأقلعوا عن تفقأكم ، وأقبلوا نحو رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بقلب سليم ، لكي يستغفر الله - تعالى - لكم ، بأن يلتبس منه قبول توبتكم ... ما كان من هؤلاء المنافقين ، إلا أن تكبروا ولجوا في طغيانهم ، وأمالوا رءوسهم استهزاء وسخرية من نصيحهم ..

« ورأيتم ، أيها المخاطب يهدون ، أى : يعرضون عن نصيحتهم » وهم مستكبرون ، عن قبولها ، لانطماس بصائرهم ، وإصرارهم على ما هم فيه من باطل وجحود للحق .

قال الآلوسى ما ملخصه : روى أنه لما صدق الله - تعالى - زيد بن أرقم فيما أخبر به عن ابن أبي ، مقت الناس ابن أبي ، وقال له بعضهم : ادض إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - واعترف بذنبك ، يستغفر لك ، فلوى رأسه إنكارا لهذا الرأى ، وقال لهم : لقد أشرتم على بالإيمان فآمنت ، وأشرتم على بأن أعطى زكاة مالى فأعطيت ... ولم يبق لكم إلا أن تأمرونى بالسجود لمحمد - صلى الله عليه وسلم - ...

وفي حديث أخرجه أحمد والشيخان .. أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - دعاهم ليستغفروا لهم ، فلو رأوهم ... ، (١)

وقوله : يستغفر لكم ... مجزوم في جواب الأمر - وهو قوله : تعالوا ، وقوله : لو رأوهم ، جواب : إذا ،

والتعبير بقوله : تعالوا ، تتضمن إرادة تخليص هؤلاء المناققين عما هم فيه من ضلال ، وإرادة إرتفاعهم من انحطاطهم فيه إلى علو يدعون إليه ، لأن الأصل في كلمة تعال ، أن يقولها من كان في مكان عال ، لمن هو أسفل منه

والتعبير بقوله - تعالى - : ورأيهم يصعدون وهم مستكبرون ، يرسم صورة بغيضة لهم وهم يتركون دعوة الناصح لهم ، بعناد وتكبر وغرور ، وبراهم الرأي بعينه وهم على تلك الصورة المنكرة ، التي تدل على جهالاتهم وإعراضهم عن كل خير .

وقوله - سبحانه - : (سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم) ... تبيّن له - صلى الله عليه وسلم - من إيمانهم ، ومن لبوهم للحق .

ولفظ (سواء) اسم مصدر بمعنى الاستواء ، والمراد به الفاعل . أى : سوا . ولذلك يوصف به كما يوصف بالمصدر ، كما في قوله - تعالى - : (قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ...) أى : توبة .

أى : إن هؤلاء الراسخين في الكفر والنفاق ، قد استوى عندهم إستغفارك لهم وعدم إستغفارك ، فهم لتأصل الجحود فيهم صاروا لا يفرقون بين الحق

والباطل ، ولا يؤمنون بثواب أو عقاب ... ولذلك فلن يغفر الله - تعالى - لهم ، مهما حرصت على هدايتهم وصلاتهم .

وقوله - سبحانه - : إن الله لا يهدي القوم الفاسقين (تعليل لانتفاء المغفرة من الله - تعالى - لهم .

أى : لن يغفر الله - تعالى - لهم ، لأن سنته - سبحانه - قد اقتضت أن لا يهدي إلى طاعته ، وأن لا يشمل بمغفرته ، من فسق عن أمره ، وأثر الباطل على الحق ، والكفر على الإيمان ، لسوء استعداده ، وإتباعه لخطوات الشيطان .

وقوله - سبحانه - : (هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا ..) كلام مستأنف جار مجرى التعليل لفسقهم ، وحكاية لحائب من أقوالهم الفاسدة .. والقاتل هو عبدالله بن أبى ، كما جاء فى روايات أسباب النزول لهذه الآيات ، والى سبق أن ذكرنا بعضها .

ونسب - سبحانه - القول إليهم جميعا ، لأنهم رضوا به . وقبلوه منه .

وسأدهم بمن عند رسول - صلى الله عليه وسلم - : المهاجرون الذين تركوا ديارهم فى مكة ، وأستقروا بالمدينة .

أى : إن هؤلاء المنافقين لن يغفر الله - تعالى - لهم ، لأنهم فسقوا عن أمره ، ومن مظاهر فسوقهم وفسادهم ، أنهم أيدوا زعيمهم فى النفاق ، عندما قال لهم (لا تنفقوا على من عند رسول الله من فقراء المهاجرين ، ولا تقدموا لأحد منهم عونا أو مساعدة ، (حتى ينفضوا من حوله) أى : حتى يتفرقوا من حوله . يقال : إنفض القوم : إذا فנית أزوادهم . يقال : نفى الرجل وعاءه من الزاد فانفض ، إذا انتهى زاده . وليس مرادهم حتى ينفضوا ويتفرقوا عنه ، فإذا فعلوا ذلك فانفقوا عليهم ، وإنما مرادهم ،

لستمروا على عدم مساعدتكم لهم ، حتى يتركوا المدينة ، وتكون مسكننا لكم وحدكم .

وقوله - سبحانه - : : والله خزائن السموات والأرض ولكن المنافقين لا يفقهون .

والخزائن : جمع خزانة ، وهى ما يخزن فيها المال والطعام وما يشبههما . والمراد بها أرزاق العباد التى يمنحها الله - تعالى - لعباده .

أى : والله - تعالى - وحده لا لأحد غيره ، ملك أرزاق العباد جميعا ، فيعطى من يشاء ، ويمنع من يشاء ، ولكن المنافقين لا يفقهون ذلك ولا يدركونه ، لجهلهم بقدرة الله - تعالى - ، ولاستيلاء الجحود والضلال على نفوسهم .

ثم حكى - سبحانه - قول آخر من أقوالهم القبيحة فقال : يقولون لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل . . .

والقاتل هو عبد الله بن سلول ، ولكن القرآن نسب القول إليهم جميعاً ، لأنهم رضوا بقوله ، ووافقوه عليه .

وجاء الأسلوب بصيغة المضارع ، لاستحضار هذه المقالة السيئة ، وتلك الصورة البغيضة لهؤلاء القوم .

والأعز : هو القوى العزة ، بمعنى أنه يغلب غيره ، والأذل هو الذى يغلبه غيره لذاته وضعفه .

وأراد سبحانه الله بن أبى الأعز ، نفسه وشيعته من المنافقين ، وأراد بالأذل . الرسول - صلى الله عليه وسلم - ومن معه من المهاجرين وغيرهم من المؤمنين الصادقين .

والمراد بالرجوع في قوله : لئن رجعنا ، الرجوع إلى المدينة بعد إتمام غزوة بنى المصطلق .

أى : يقول هؤلاء المنافقون - على سبيل التبجح وسوء الأدب - لئن رجعنا إلى المدينة بعد إتمام هذه الغزوة ، ليخرجن الفريق الأعز منا ، الفريق الأذل من المدينة ، حتى لا يبقى فيها أحد من هذا الفريق الأذل ، بل تصبح خالية الوجه لنا . وقد رداه - تعالى - على مقالهم الباطلة هذه بما يحرس ألسنتهم فقال : والله اعزة ورسوله والمؤمنين ، ولكن المنافقين لا يعلمون ،

أى : لقد كذب المنافقون فيما قالوه ، فإن الله - تعالى - وحده العزة المطلقة والقوة التي لا تقهر ، وهى - أيضا - لمن أفاضها عليه من رسوله ومن المؤمنين الصادقين ، وهى بعيدة كل البعد عن أولئك المنافقين .

وقال - سبحانه - : ورسوله والمؤمنين ، بإعادة حرف الجر ، لتأكيد أمر هذه العزة ، وأنها متمكنة منهم لأنها مستمدة من إيمانهم بالله - تعالى - وحده .

وقوله - تعالى - ، ولكن المنافقين لا يعلمون ، استدراك قصد به تجهيل هؤلاء المنافقين ، أى : ليست العزة لإلا الله - تعالى - ورسوله والمؤمنين ، ولكن المنافقين لا يعلمون ذلك ، ولا يعرفونه لاستيلاء الجهل والغباء عليهم ، لأنهم لو كانت لهم عقول تعقل لعلوا أن العزة لدعوة الحق ، بدليل إنتشارها في الآفاق يوما بعد يوم ، ولانتصار أصحابها على أعدائهم حيناً بعد حين ، ولإزدياد سلطانهم وقتاً بعد وقت .

قال صاحب الكشف قوله - تعالى - : والله العزة أى : الغلبة والقوة لله - تعالى - ، ولمن أعزه الله وأيده من رسوله ، ومن المؤمنين ، وهم الأخصاء ، بذلك ، كما أن المذلة والهوان ، للشيطان وذويه من الكافرين والمنافقين .

وعن الحسن بن علي - رضي الله عنهم - أن رجلا قال له : إن الناس يزعمون أن فيك تيمنا ، قال : ليس بتيمة ، ولكنه عزة ، وتلا هذه الآية ، (١) .

وقال الإمام الرازي : العزة غير الكبر ، ولا يحل للمؤمن أن يذل نفسه - لعير الله - فالعزة معرفة الإنسان بحقيقة نفسه ، وإكرامها عن أن يضعها في غير موضعها اللائق بها ، كما أن الكبر جهل الإنسان بنفسه ، وإنزالها فوق منزلتها . فالعزة تشبه الكبر من حيث الصدارة ، وتختلف من حيث الحقيقة ، كاشتباه التواضع بالضعف ، فالتواضع محمود ، والضعف مذموم . والكبر مذموم والعزة محمودة . . . (٢)

هذا ، وإن المتدبر لهذه الآيات الكريمة وفي أسباب نزولها ، يرى فيها ألوانا من العظائم والعبر .

يرى فيها التصرف الحكيم من الرسول - صلى الله عليه وسلم - إذ أنه - صلى الله عليه وسلم - بمجرد أن بلغته تلك الأقوال التي قالها عبد الله بن أبي ، لكي يشير الفتنه بين المسلمين ... ما كان منه إلا أن أمر عمر بن الخطاب ، بأن ينادي في الناس بالرحيل . . لكي يشغل الناس عما تفوه به ابن أبي ، حتى لا يقع بينهم ما لا تحمد عقباه .

كما يرى كيف أنه - صلى الله عليه وسلم - عالج تلك الأحداث بحكمة حكيمة فعند ما أشار عليه عمر - رضي الله عنه - بقتل ابن أبي ... ما كان منه - صلى الله عليه وسلم - إلا أن قال له : يا عمر : كيف إذا تحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه ؟ وأبى - صلى الله عليه وسلم - أن يأمر بقتله بل ترك لعشيرته من الأنصار تأديبه وتوبيخه .

(١) تفسير المكشافي ج ٤ ص ٥٤٣

(٢) تفسير الفخر الرازي ج ٨ ص ١٥١

ولقد بلغ الحال بابنه عبد الله - رضى الله عنه - وهو أقرب الناس إليه ، أن يمنعه من دخول المدينة حتى يأذن له رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بدخولها .

كما يرى المتدبر لهذه الآيات ، وللأحداث التي نزلت فيها ، أن النفوس إذا جعلت الحق ، واستولت عليها الأحقاد ، واستحوذ عليها الشيطان ... أبت أن تسلك الطريق المستقيم ، مهما كانت معاملته واضحة أمامها ..

فعبد الله بن أبي وجاعته ، وقفوا من الدعوة الإسلامية موقف المحارب لها ولأتباعها ، وسلكوا في إذاعة السوء حول الرسول - صلى الله عليه وسلم - وحول أصحابه كل مسلك ... مع أن آيات القرآن الكريم ، كانت تتلى على مسامعهم صباح مساء ، ومع أن إرشادات الرسول - صلى الله عليه وسلم - كانت تصل إليهم يوما بعد يوم ، ومع أن المؤمنين الصادقين كانوا لا يكفون عن نصيحهم ووعظهم ...

كما نرى أن الإيمان متى خالطت بشاشته القلوب ، ضحى الإنسان من أجله بكل شيء فعبد الله بن عبد الله بن أبي بن سلول ، يقول للرسول - صلى الله عليه وسلم - : يا رسول الله بلغنى أنك تريد قتل أبى ، فإن كنت لا بد فاعلا فمرنى به فأنا أحل إليك رأسه . . .

ثم يقف على باب المدينة شاهرا سيفه ، ثم يمنع أباه من دخولها حتى يأذن له الرسول - صلى الله عليه وسلم - بدخولها ، وحتى يقول : إن الرسول - صلى الله عليه وسلم - هو العزيز ، وأنه هو - أى عبد الله بن أبى - هو الذليل

وهكذا تعطينا هذه الآيات وأحداثها ماتعطينا من عبر وعظات ...

ثم تختتم السورة الكريمة بنداؤه توجّهه إلى المؤمنين ، تأمرهم فيه بالمواظبة على طاعة الله - تعالى - وتنهام عن أن يشغلهم عن ذلك شاغل ، وتحضهم على الإنفاق في سبيل إعلاء كلمته - سبحانه - ، وعلى تقديم العمل الصالح الذي ينفعهم قبل فوات الآوان ، قال - تعالى - :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٩) وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ ، مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ (١٠) وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا ، وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١١) » .

والمقصود من هذه الآيات الكريمة ، نهى المؤمنين عن التشبه بالمتأففين الذين سبق الحديث عنهم بصورة مفصلة ، وحضهم على الاستجابة لما كلفهم الله - تعالى - به . أى : باعن آمنتم بالله - تعالى - ليعامنا حقا ، « لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ... » . أى « لا تشغلكم أموالكم التي تهتمون بجمعها وتحصيلها ... ولا أولادكم الذين أشبهى نمرات حياتكم ... لا يشغلكم ذلك عن أداء ما كلفكم - سبحانه - بأدائه من طاعات ، فالمراد بذكر الله ، ما يشمل جميع التكاليف من صلاة وزكاة وصيام وحج ، وغير ذلك من الطاعات التي أمر الله - تعالى - بها .

وخص الأموال والأولاد بتوجه النهى عن الاشتغال بهما اشتغالا يلهى عن ذكر الله ، لأنهما أكثر الأشياء التي تلهى عن طاعة الله - تعالى - ... فمن أجل الاشتغال بجمع المال ، يقضى الإنسان معظم حياته ، وكثير من الناس من أجل جمع المال ، يضحون بما يفرضه عليهم دينهم من واجبات ، ومن أخلاق ، ومن سلوك ، وآداب

ومن أجل راحة الأولاد، قد يضحي الآباء براحتهم، وبما تقضى به المروءة
وصدق رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حيث يقول : « الولد مجبنة مبخلة » .

والتعبير بقوله - تعالى - : « لا تلمكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله » ، يشعر
بأن المسلم إذا اشتغل بجمع المال ، وبرعاية الأولاد ، دون أن يصرفه ذلك عن
طاعة الله ، أو عن أداء حق من حقوقه - تعالى - ، فإنه هذا الاشتغال لا يكون
مذموماً ، بل يكون مرضياً عنه من الله - تعالى - .

واسم الإشارة في قوله - سبحانه - : « ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون » ،
يعود إلى ما سبق ذكره من اللغو عن ذكر الله ، بسبب الأموال والأولاد .

أى : ومن يشغله حبه لما له وأولاده عن ذكر الله ، وعن أداء ما كلفه
- سبحانه - به ، فأولئك هم البالغون أقصى درجات الخسران والغفلة .. لأنهم
خالفوا ما أمرهم به ربهم ، وآثروا ما ينفعهم في عاجلتهم الفانية ، على ما ينفعهم
في آجالهم الباقية . ثم حضمهم - سبحانه - على الانفاق في سبيله فقال : « وأنفقوا
بما رزقناكم من قبل أن يأتي أحدكم الموت فيقول رب لولا أخرتني إلى أجل
قريب فأصدق وأكن من الصالحين » .

والمراد بالإنفاق : إنفاق المال في وجوه الخير والطاعات ، فيشمل الزكاة
المفروضة ، والصدقات المستحبة ، وغير ذلك من وجوه البر والخير .

و « من » في قوله - تعالى - « مما رزقناكم » ، للتبويض إذ المطلوب إنفاقه بعض
المال الذي يملكه الإنسان ؛ وليس كله ، وهذا من باب التوسعة منه - تعالى -
على عباده ، ومن مظاهر سماحة شريعته - عز وجل - ...

والمراد بالموت : علاماته وأماراته الدالة على قرب وقوعه .

وقوله « فيقول » معطوف على قوله « أن يأتي » ، ومسبب عنه .

و « لولا » بمعنى هلا فهى حرف تفضيض .

وقوله : (فأصدق) منصوب على أنه في جواب التمنى . وقوله (وأكن)

بالجزم ، لأنه معطوف على محمل ، فأصدق ، كأنه قيل : إن أخرتني إلى أجل قريب أنصدق وأكن من الصالحين .

والمعنى : يا من آمنتم بالله حق الإيمان ، لا تشغلكم أموالكم ولا أولادكم عن طاعة الله - تعالى - بل داوموا عليها كل المداومة ، وانفقوا بسخاء وسماحة نفس مما أعطيناكم من أرزاق كثيرة ، ومن نعم لا تحصى ، وليكن إنفاقكم من قبل أن تنزل بأحدكم أمارات الموت وعلاماته ...

وحينئذ يقول أحدكم يارب ، هلا أخرت وفاتي إلى وقت قريب من الزمان لكي أندارك ما فاتني من تقصير ، ولكي أنصدق بالكثير من مالى ، وأكون من عبادك الصالحين .

وقال - سبحانه - : « مما رزقناكم ، فأسند الرزق إليه ، لكي يكون أدعى إلى الامتنال والاستجابة . لأنه - سبحانه - مع أن الأرزاق جميعها منه ، إلا أنه - فضلا منه وكرما - اكتفى منهم بإنفاق جزء من تلك الأرزاق .

وقدم - سبحانه - المفعول وهو (أحدكم) على الفاعل وهو (الموت) ، للاهتمام بالمفعول ، وللإشعار بأن الموت نازل بكل إنسان لا محالة .

والتعبير بقوله : (لولا أخرتني إلى أجل قريب ...) يشعر بأن القائل قد قال ذلك زيادة في تأميل الاستجابة ، فكأنه يقول : يارب ألتمس منك أن تؤخر أجلى إلى وقت قريب لا إلى وقت بعيد ، لكي أندارك ما فاتني في هذا الوقت القريب الذى هو منتهى سؤلى ، وغاية أملى ...

وقد بين - سبحانه - بعد ذلك أنه لا فخير في الأجل متى أنهى لامن قريب ولا من بعيد ، فقال : (ولن يؤخر الله نفسا إذا جاء أجلها ...) .
أى : ولن يؤخر الله - تعالى - نفسا من النفوس ، متى أنهى أجلها في هذه الحياة ، وانقضى عمرها من هذه الدنيا ، كما قال - سبحانه - : (فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون) .

وقوله : والله خير بما تعملون ، أى : والله - تعالى - مطلع أطلاعا تاما على أعمالكم الظاهرة والباطنة ، وسيجازيكم عليها بما تستحقون من ثواب أو عقاب .

وبعد فمذا تفسير لسورة المنافقون ، نسأل الله - تعالى - أن يجعله خالصا لوجهه ، ونافعا لعباده .

والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

القاهرة : صباح الجمعة ١٣ من شوال سنة ١٤٠٦ هـ

كتبه الراجى عفوه

١٩٨٦/٦/٢٠ م

محمد سيد طنطاوى

تفسير
سُورَةُ التَّغَابُنِ

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة وتمهيد

١ - سورة التغابن هي السورة الرابعة والستون في ترتيب المصحف .
أما نزولها على النبي - صلى الله عليه وسلم - فكان - كما ذكره صاحب الإتيان
بعد سورة الجمعة ، وقبل سورة الصف . وعدد آياتها ثمان عشرة آية .

٢ - وجمهور المفسرين على أنها من السور المدنية .
قال الشوكاني : وهي مدنية في قول الأكثر . وقال الضحاك : هي مكية .
وقال الكلبي : هي مكية ومدنية .

أخرج ابن الضريس عن ابن عباس أنه قال : نزلت سورة التغابن
بالمدينة ...

وفي رواية أخرى عنه : أنها نزلت بمكة إلا آيات من آخرها نزلن بالمدينة
في عوف بن مالك الأشجعي . شكى إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم -
جفاء أهله وولده ، فأنزل الله - تعالى - يأيتها الذين آمنوا إن من أزواجكم
وأولادكم عدوا لكم فاحذروهم ... إلى آخر السورة ، (١) .

ويبدو لنا أن بعض آيات هذه السورة يغلب عليها طابع القرآن المكي ،
كآيات التي تتحدث عن مظاهر قدرة الله - تعالى - . وعن إنكار المشركين
للبعث والرد عليهم ...

لذا نرجح - والله أعلم - أن النصف الأول منها من القرآن المكي ، والنصف
الآخر من القرآن المدني .

٣ - والسورة الكريمة بعد ذلك من أهم مقاصدها : تنزيه الله - تعالى -

عن الشريك أو الولد ، وبيان ألوان من مظاهر قدرته ومنته على خلقه ، والرد
على المشركين الذين زعموا أنهم لن يبعثوا ، والمقارنة بين حسن عاقبة
الآشرار ، وبيان أن كل شيء يقع في هذا الكون هو بقضاء الله وقدره ،
وتحريض المؤمنين على تقوى الله - تعالى - ، وعلى إثارة ما عنده على كل شيء
مرشوات هذه الدنيا ...

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

القاهرة — مدينة نصر

مساء الجمعة ١٢ من شوال ١٤٠٦ هـ

١٩٨٦/٦/٢٠ م

التفسير

قال الله - تعالى - : « يَسْبِغُ اللَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحُدُودُ ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١) هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ ، وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢) خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِالْحَقِّ ، وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ (٣) يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ بَذَاتِ الصُّدُورِ (٤) أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٥) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْنِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ ، فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا ، فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا وَاسْتَغْنَى اللَّهُ ، وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (٦) » .

سورة التغابن ، هي آخر السور المفتوحة بالتسبيح ، فقد قال - سبحانه - في مطلعها :

« يَسْبِغُ اللَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ . . . ، أَيْ : يَنْزِعُ اللَّهُ - تعالى - عَنْ كُلِّ نَقْصٍ ، وَيَجْلَهُ عَنْ كُلِّ مَا لَا يَلِيقُ بِهِ ، جَمِيعَ الْكَائِنَاتِ الَّتِي فِي سَمَاوَاتِهِ - سبحانه - وَفِي أَرْضِهِ ، كَمَا قَالَ - عز وجل - : « تَسْبِغُ لَهُ السَّمَوَاتِ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ ، وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يَسْبِغُ بِحِمِّهِ ، وَلَكِنْ لَا تَنْفَعُهُمْ تَسْبِيحُهُمْ ، إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا » (١) .

وجيء هنا في سورة الجمعة بصيغة المضارع « يسبح » للدلالة على تجدد هذا التسبيح ، وحدوثه في كل وقت وأن .

وجيء في سور الحديد ، والحشر ، والصف ، بصيغة الماضي « سبح » ،

للدلالة على أن التسبيح قد استقر وثبت لله - تعالى - وحده ، من قديم الزمان .

وقوله - سبحانه - : له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير ، مؤكده لما قبله ، من بيان أن جميع هذه الكائنات تسبح لله - تعالى - لأنه مالئها وصاحب الفضل المطلق عليها .

وتقديم الجار والمجرور له ، لإفادة الاختصاص والقصر .

أى : له - سبحانه - وحده ملك هذا الكون ، وله وحده الحمد التام المطلق من جميع من مخلوقاته ، وليس لغيره شيء منهما ، وإذا وجد شيء منهما لغيره فهو من فيضه وعطائه ، إذ هو - سبحانه - القدير الذى لا يقف في وجه قدرته وإرادته شيء .

ثم بين - سبحانه - أقسام خلقه في هذه الحياة فقال : وهو الذى خلقكم فنعكم كافر ، ومنكم مؤمن

والخطاب في قوله : د خلقكم ، لجميع المكلفين من هذه الأمة .

والفاء في قوله : د فنعكم كافر ... ، للتفريع المشعر بالتعجب من وجود من هو كافر بالله - تعالى - مع أنه - سبحانه - هو الذى خلقه ، وخلق كل شيء ...

وقدم ذكر الكافر ، لأنه الأهم في هذا المقام ، ولأنه الأكثر عددا في هذه الحياة .

أى : هو - سبحانه - الذى خلقكم بقدرته ، دون أن يشاركه في ذلك مشارك ، وزودكم بالعقول التى تعينكم على معرفة الخير من الشر ، والمنافع من الضار لإيكم رسوله محمدا - صلى الله عليه وسلم - لئلا يخرجكم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان ، وأنزل معه الكتاب الذى يدلكم على أنه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - . صادق فيما يبله ، عن ربه ، وأمركم بهذا الرسول

الكريم بإخلاص العبادة لله - تعالى - وحده ، ولم يترك رسوانا - صلى الله عليه وسلم - وسيلة تهديكم إلى الحق إلا وأرشدكم إليها ...
ومع ذلك وجد منكم المختار للكفر بالحق ، المعرض عن الإيمان بوحداية الله - تعالى - ، وكان منكم المستجيب للحق باختياره المخلص في عقيدته لله - تعالى - ، المؤمن بوحدايته ، المؤدى لجميع التكاليف التي كلفه - سبحانه - بها .

قال القرطبي - بعد أن ذكر جملة من الأقوال في معنى هذه الآية - : وقال الزجاج - وقوله أحسن الأقوال ، والذي عليه الأئمة والجمهور من الأمة - : إن الله خلق الكافر ، وكفره فعل له وكسب ، مع أن الله خالق الكفر . وخلق المؤمن ، وإيمانه فعل له وكسب ، مع أن الله خالق الإيمان .
والكافر يكفر ويختار الكفر بعد خلق الله إياه ، لأن الله - تعالى - قدر ذلك عليه وعلمه منه . ولا يجوز أن يوجد من كل واحد منهما ، غير الذي قدر عليه ، وعلمه منه ... (١) .

وقوله : « والله » والله بما تعملون بصير ، أي : والله - تعالى - لا تخفى عليه غافية من أعمالكم ، وسيحاسبكم عاينها يوم القيامة ، وسيجازي الذين أساءوا بما عملوا ، ويجازي الذين أحسنوا بالحسنى .
« خلق السموات والأرض بالحق ... » أي : خلقهن خلقا ملتبسا بالحق الذي لا يحوم حوله باطل ، وبالحكمة التي لا يشوبها اضطراب أو عبث ، قاله في قوله « بالحق » للملابسة .

والمراد بالسموات والأرض : ذواتهن وأجرامهن التي هي أكبر من خلق الناس .

والمراد بالحق : المقصد الصحيح ، والغرض السليم ، الواقع على أتم الوجوه وأفضلها وأحكمها .

(١) راجع تفسير القرطبي ج ١٨ ص ١٢٢

ثم بين - سبحانه - بعض مظاهر نعمه على الناس فقال : « وصوركم فأحسن صوركم ... »

وقوله : « وصوركم » من التصوير ، وهو جعل الشيء على صورة لم يكن عليها ، وهو مأخوذ من مادة صار الشيء إلى كذا ، بمعنى تحول إليه . أو من صار به إلى كذا ، بمعنى أماله وحوله .

أى : وأوجدكم - سبحانه - يا بنى آدم على أحسن الصور وأكملها وأبدعها وأجملها ، بدليل أن الإنسان لا يتمنى أن يكون على غير صورته التى خلقه الله عليها ، كأن يكون على صورة حيوان أو غيره . .

وصدق الله إذ يقول : « لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم ... »
قال الألوسى : ولعمري إن الإنسان أعجب نسخة فى هذا العالم ، قد اشتملت على دقائق وأسرار شهدت ببعضها الآثار ، وعلم ما علم منها أولو الأبصار ، وكل ما يشاهد من الصور الإنسانية حسن ، لكن الحسن كثيرة من المعانى على طبقات ودرجات . . كما قال بعض الحكماء : شينان لا غاية لهما الجمال والبيان .

وقوله - تعالى - « وإليه المصير » معطوف على ما قبله ، لأن التصوير يقتضى الإيجاد ، فبين - سبحانه - أن هذا الإيجاد يعتمده الفناء لىكل شئ سوى وجهه الكريم .

أى : وإليه وحده - تعالى - مرجعكم بعد انتهاء آجالكم فى هذه الحياة ، لىكى يجازيكم على أعمالكم الدنيوية .

ثم بين - سبحانه - شمول علمه لىكل شئ فقال : « يعلم ما فى السموات والأرض ... » أى : هو - سبحانه - لا يخفى عليه شئ فى السموات والأرض .
« و يعلم ما تسرون وما يعلنون » - أبها الناس - ، والتصريح بذلك مع أندراجهم فيما قبله ، من علم ما فى السموات وما فى الأرض ، لمزيد التأكيد فى الوعد والوعيد .

« والله عليهم بذات الصدور ، والمراد بذات الصدر . النوايا والخواطر التي تخفيها الصدور ، وتكتنمها القلوب .

أى : والله - تعالى - عليهم علما تاما بالنوايا والخواطر التي اشتملت عليها الصدور ، فأنت ترى أن هذه الآية الكريمة قد اشتملت على ثلاث جمل ، كل جملة منها أخص من سابقتها ، . .

وجمع - سبحانه - بيننا للإشارة إلى أن علمه - تعالى - محيط بالجزئيات والكلديات ، دون أن يعزب عن علمه - تعالى - شيء منها .

وفي هذا رد على أولئك الكفاز الجاحدين ، الذين استبعدوا إعادتهم إلى الحياة . بعد أن أكلت الأرض أجسادهم ، وقالوا - كما حكى القرآن عنهم - « أنذا ضللنا في الأرض أننا لنى خلق جديد . . . » .

ثم وبخهم - سبحانه - على عدم اعتبارهم بالسابقين من قبلهم فقال : « ألم يأتكم نبا الذين كفروا من قبل ، فذاقوا وبال أمرهم ، ولهم عذاب أليم ، والاستفهام في قوله « ألم بأنكم . . » ، للتقرير والتبكي .

والمراد بالذين كفروا من قبل : قوم نوح وعاد وثمود وغيرهم ، من الأقوام الذين أعرضوا عن الحق ، فكانت عاقبتهم الدمار والهلاك .

والخطاب لمشركى قريش وأمثالهم ، ممن استحبوا العمى على الهدى . والوبال فى الأصل الثقل والشدة المترتبة على أمر من الأمور ، ومنه الوييل للطعام الثقيل على المعدة ، المضر لها . . والمراد به هنا : العقاب الشديد الذى نزل بهم فأهلكهم ، وعبر عن هذا العقاب بالوبال ، للإشارة إلى أنه كان عذابا ثقيلا جدا ، لم يستطيعوا الفرار أو الهرب منه .

والمراد بأمرهم : كفرهم وفسوقهم عن أمر ربهم ، ومخالفتهم لرسولهم . وقوله « فذاقوا ، معطوف على كفروا ، عطف المسبب على السبب ، والذوق مجاز فى مطلق الإحساس والوجدان .

شبه ما حل بهم من عقاب ، بشيء كرهه الطعم والمذاق .

وعبر عن كفرهم بالامر . للاشعار بأنه أمر قد بلغ النهاية في القبح والسوء .

والمعنى : لقد أناكم ووصل إلى عليكم - أيها المشركون - حال الذين كفروا من قبلكم من أمثال قوم نوح وعاد وثمود وغيرهم ، وعلمتم أن إصرارهم على كفرهم قد أدى بهم إلى الهلاك وإلى العذاب الاليم ، فعليكم أن تعتبروا بهم . وأن تفيئوا إلى رشدكم . وأن تتبعوا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - الذي أرسله الله - تعالى - لإخراجكم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان .

فالقصد من الآية الكريمة تحذير الكافرين الذين أرسل الرسول - صلى الله عليه وسلم - إليهم من سوء عاقبة إصرارهم على كفرهم .

ثم بين - سبحانه - الأسباب التي أدت إلى سوء عاقبة هؤلاء السابقين فقال : ذلك بأنهم كانت تأتيهم رسلهم بالبينات ، فقالوا : أبشر يهودنا ... ، .

أي : ذلك الذي أصاب الأقوام السابقين من هلاك ودمار ، سببه أنه كانت تأتيهم رسلهم بالآيات البينات ، وبالمعجزات الواضحات ، الدالة على صدقهم ...

فما كان من هؤلاء الأقوام إلا أن أعرضوا عن دعوة الرسل ، وقال كل قوم منهم لرسولهم على سبيل الإنكار والتكذيب والتعجيب : أبشر مثلنا يهودنا إلى الحق والرشد .

فالباء في قوله : بأنه ، للسببية ، والضمير ضمير الشأن لقصد التهويل والاستفهام في قوله : أبشر ، للإنكار ، والمراد بالبشر : الجنس ، وهو مرفوع على أنه مبتدأ وخبره جملة : يهودنا ، .

وشبه هذه الآية ما حكاه القرآن من قول قوم صالح له : : فقالوا : أبشرنا منا واحدا تتبعه إنا إذا لفي ضلال وسعر ألقى الذكر عليه من بيننا .

هل هو كذاب أشمر ... (١) ، والفاء في قوله : « فكفروا وتولوا واستغنى الله ... ، للسببية .

أى : فكفروا بسبب هذا القول الفاسد ، وتولوا ، أى : وأعرضوا عن الحق إعراضاً تاماً ، واستغنى الله ، أى : واستغنى الله - تعالى - عنهم وعن إيمانهم ، والسين والتاء للمبالغة في غناه - سبحانه - عنهم .

« والله غنى حميد ، أى : والله - تعالى - غنى عنهم وعن العالمين ، محمود من كل مخلوقاته بلسان الحال والمقال ، وهو - تعالى - يجازى الشاكرين له بما يستحقونه من جزاء كريم .

ثم حكي - سبحانه - مزاعم الجاحدين للبعث والحساب ، ورد عليهم بما يبطالها ، ودعاهم إلى الإيمان بالحق ، وحضهم على العمل الصالح الذى ينفعهم يوم القيامة ، وبشر المؤمنين بما يشرح صدورهم ، وبين أن كل شىء فى هذا الكون يسير بإذنه - تعالى - وإرادته ، فقال - سبحانه - :

« زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا ، قُلْ بلى وَرَبِّى ، لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبُّونَ بِمَا عَمِلْتُمْ ، وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (٧) فَأَمْنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِى أَنْزَلْنَا ، وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٨) يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ ، وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكْفَرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيَدْخُلْهُ جَنَّتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ، ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٩) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبئسَ المصيرُ (١٠) مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ

الله، وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ ذُنُوبَهُ، وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١١) وَأَطِيعُوا
اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (١٢)
اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١٣) .

قال صاحب الكشف : قوله : « زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا . . » :
الزعم : ادعاء العلم . ومنه قوله - صلى الله عليه وسلم - : (زعموا مطية
السكذب) وعن شريح : لكل شيء كنية وكنية السكذب زعموا . ويتعدى إلى
المفعولين تعدى العلم ، كما قال الشاعر :

ولأن الذي قد عاش يأثم ماله يموت ، ولم أزعك عن ذلك معزلا
وأن مع ما في خيرها قائم مقامهما . . . (١) .

و (بلى) حرف يذكر في الجواب لإثبات النفي في كلام سابق . والمراد
هنا : لإثبات مانفوه وهو البعث .

أى : زعم الذين كفروا من أهل مكة وأشباههم من المشركين ، أنهم لن
يبعثوا يوم القيامة ، لأن البعث وما يترتب عليه من حساب ، في زعمهم محال .

قل لهم - أيها الرسول الكريم - على سبيل الجزم واليقين ، كذبتكم فيما
تزعمنونه من أنه لا بعث ولا حساب . . . والله لتبعثن يوم القيامة . ثم لتنبؤن
بما عملتموه في الدنيا من أعمال سيئة ، ولتحاسبن عليها حسابا عسيرا ، يترتب
عليه الإلقاء بكم في النار . . .

وجيء في نفى زعمهم بالجللة القسمية ، لتأكيد أمر البعث الذي نفوه بحرف
(لن) ، وليبين أن البعث وما يترتب عليه من ثواب وعقاب ، أمر ثابت ثبوتاً

قطعيًا وجملة ، ثم لتنبيؤن بما علمتم ، ارتقاء في الإبطال . و ، ثم ، للتراخي النسبي .

أى : قل لهم إنكم لا تبعثون فحسب ، بل ستبعثون ، ثم تجدون بعد ذلك ما هو أشد من البعث ، ألا وهو إخباركم بأعمالكم السيئة ، ثم الإلقاء بكم في النار بعد ذلك .

فالمراد بالإنباء لازمه ، وهو ما يترتب عليه من حساب وعقاب .

واسم الإشارة في قوله : « وذلك على الله يسير » ، يعود إلى البعث وما يترتب عليه من حساب .

أى : وذلك البعث والحساب ، يسير وهين على الله - تعالى - ، لأنه سبحانه - لا يعجزه شيء ، ولا يحول دون تنفيذ قدرته حائل .

فهذا التذييل المقصود به إزالة ما توهموه وزعموه من أن البعث أمر محال ، كما قالوا : « أنذا ضللنا في الأرض أننا لفى خلق جديد ... » .

والقاء في قوله - تعالى - : « وآمنوا بالله ورسوله والنور الذي أنزلنا ... » ، هي الفصيحة ، أى : التى تفصح عن شرط مقدر .

والمراد بالنور : القرآن الكريم ، كما قال - تعالى - : « وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ، ولكن جعلناه نورا نهدي به من نشاء من عبادنا » (١) .

والمعنى : إذا علمتم ما ذكرناه لكم - أيها المنركون - فاتركوا العناد ، وآمنوا بالله - تعالى - ورسوله - صلى الله عليه وسلم - إيمانا حقا ، وآمنوا - أيضا - بالقرآن الكريم الذى أنزلناه على عبدنا ورسولنا محمد - صلى الله عليه وسلم - ، ليكون هذا القرآن معجزة ناطقة بصدقه - صلى الله عليه وسلم - .

وجملة د والله بما تعملون خير ، تذييل قصد به الوعد والوعيد . أى : والله - تعالى - مطلع أطلاعاً تاماً على كل تصرفاتكم ، وسيمنحكم الخير إن آمنتم ، وسيطقي بكم في النار إن بقيتم على كفركم .

ثم حذرهم - سبحانه - من أهوال يوم القيامة فقال - تعالى - : « يوم يجمعكم ليوم الجمع ذلك يوم التغابن . . . » .

والظرف « يوم » متعلق بقوله - تعالى - قبل ذلك « ثم لتنبؤن بما عملتم » .

والمراد بيوم الجمع : يوم القيامة . سمي بذلك لأنه اليوم الذى يجتمع فيه الأولون والآخرون ، فى مكان واحد للحساب والجزاء .

وسمى - أيضاً - بيوم التغابن ، لأنه اليوم الذى يفين فيه أهل الحق أهل الباطل .

والتغابن تفاعل من الغبن بمعنى الخسران والنقص . يقال : غبن فلان فلاناً إذا بخسه حقه ، بأن أخذ منه سلعة بثمن أقل من ثمنها المعتاد . وأكثر ما يستعمل الغبن فى البيع والشراء ، وفعله من باب ضرب . ويطلق الغبن على مطلق الخسران أى : قل - أيها الرسول الكريم - لهؤلاء الجاحدين للبعث : لتبعضن يوم القيامة ثم لتنبؤن بما عملتم يوم القيامة . يوم يجتمع الخلائق للحساب ، فيفبن فيه أهل الحق أهل الباطل ، ويفبن فيه المؤمنون الكافرين ، لأن أهل الإيمان ظفروا بالجنة ، وبالمقاعد التى كان سيظفرونها الكافرون لو أنهم آمنوا ، ولكن الكافرين استمروا على كفرهم نخسروا مقاعدهم فى الجنة ، وفاز بها المؤمنون .

قال القرطبى : (يوم التغابن) أى : يوم القيامة . . . وسمى يوم القيامة بيوم التغابن ، لأنه غبن فيه أهل الجنة أهل النار .

أى : أن أهل الجنة أخذوا الجنة ، وأهل النار أخذوا النار على طريق

المبادلة. فوقع الغبن على الكافرين لأجل مبادلتهم الخير بالشر، والنعيم بالمذاب.

يقال: غبنت فلانا، إذا بايعته أو شاربته، فكان النقص عليه، والغلبة لك...

فإن قيل: فأى معاملة وقعت بينهما حتى يقع الغبن فيها؟ قيل له: هو تمثيل الغبن في الشراء والبيع، (١)....

وقال الألوسى ماملاخصه: «ذلك يوم التغابن، أى: يوم غبن فيه أهل الجنة أهل النار، فالتفاعل ليس على ظاهره، كما فى التواضع والتجامل لوقوعه من جانب واحد. واختير للمبالغة.

وقد ورد هذا التفسير عن ابن عباس ومجاهد وقتادة. واختاره الواحدى. وقال غير واحد: (ذلك يوم التغابن) أى: اليوم الذى غبن فيه بعض الناس بعضا. ينزل السعداء منازل الأشقياء لو كانوا سعداء، وبالعكس، ففى الحديث الصحيح: ما من عبد يدخل الجنة إلا أرى مقعده من النار - لو أساء ليزداد شكرا، وما من عبد يدخل النار إلا أرى مقعده من الجنة - لو أحسن - ليزداد حسرة، وهو مستعار من تغابن القوم فى التجارة، وفيه تمك بالأشقياء لأنهم لا يفتنون حقيقة السعداء، ينزلونهم فى منازلهم من النار...» (٢).

تم فصل - سبحانه - أحوال الناس فى هذا اليوم المائل الشديد فقال: (ومن يؤمن بالله ويعمل صالحا، يكفر عنه سيئاته، ويدخله جنات تجري من تحتها الأنهار...).

أى: ومن يؤمن بالله - تعالى - إيمانا حقا، ويعمل عملا صالحا، يكفر الله

(١) راجع تفسير القرطبى > ١٨ ص ١٣٦.

(٢) تفسير الألوسى > ٢٨ ص ١٢٣.

- تعالى - عنه سيئاته التي عملها في الدنيا ، بأن يزيلها من صحيفة عمله - فضلا منه - تعالى - وكرما - ، وفوق ذلك يدخله بفضلته وإحسانه جنات تجري من تحت أنهارها الأنهار ، خالدين فيها أبدا ، أى . خلودا أبديا ...

وذلك ، الذي ذكرناه لكم من تكفير السيئات ، ومن دخول الجنات .. هو « الفوز العظيم » ، الذي لا فوز يقاربه أو يدانيه .

والذين كفروا ، برهم بأن أشركوا معه في العبادة آلهة أخرى ...

« وكذبوا بآياتنا » الدالة على وحدانيتنا ، وعلى صدق نبينا - صلى الله عليه وسلم - .

« أولئك ، الكافرون المكذبون ، هم أصحاب النار خالدين فيها ، خلودا أبديا ، وبئس المصير ، مصيرهم النار .

ففى هاتين الآيتين الكريمتين ، بيان للتغابن ، وتفصيل له ، لاحتوائهما على بيان منازل السعداء والأشقياء ، وهو ما وقع فيه التغابن .

ثم بين - سبحانه - أن كل شيء بقضائه وقدره فقال : (ما أصاب من مصيبة إلا بإذن الله ...) .

والمراد بالمصيبة : الرزية والنكبة ، وكل ما يسوء الإنسان في نفسه أو ماله أو ولده ... والمفعول محذوف ، و (من) للتأكيد ، و (مصيبة) فاعل .

أى : ما أصاب أحدا مصيبة في نفسه أو ماله أو ولده ... إلا بإذن الله - تعالى - وأمره وإرادته ، لأن كل شيء بقضائه - سبحانه - وقدره .

قال القرطبي : قيل : سبب نزولها أن الكفار قالوا : لو كان ما عليه المسلمون حقا لصانهم الله - تعالى - عن المصائب .

فأنزل الله - تعالى - هذه الآية المرد على المشركين ، وبيان أن كل شيء بإرادته - سبحانه - .

ثم بين - سبحانه - أن الإيمان الحق يعين على استقبال المصائب بصبر جميل فقال : « ومن يؤمن بالله يهد قلبه والله بكل شيء عليم » أى : ومن يؤمن بالله - تعالى - إيمانا حقا يهد قلبه إلى الصبر الجميل ، وإلى الاستسلام لقضائه - تعالى - لأن إيمانه الصادق يجعله يعتقد أن ما أصابه لم يكن ليخطئه ، وما أخطأه لم يمكن ليصيبه ، والله - تعالى - عليم بكل شيء ، لا تخفى عليه خافية فى الأرض ولا فى السماء .

قال الإمام ابن كثير : قوله - تعالى - : « ومن يؤمن بالله يهد قلبه ... » أى : ومن أصابته مصيبة فعمل أنها بقضاء الله وقدره ، فصبر واحتسب واستسلم لقضائه - تعالى - ، هدى الله قلبه ، وعوضه عما فاته من الدنيا

وفى الحديث المتفق عليه : عجبا للؤمن ، لا يقضى الله له قضاء إلا كان خيرا له ، إن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له ، وإن أصابته سرأه شكر فكان خيرا له ، وليس ذلك لأحد إلا للؤمن ، (١) .

ثم ختم - سبحانه - هذه الآيات الكريمة بحض الناس على الطاعة والإخلاص فى العبادة ، وحذرهم من اقتراف المعاصي فقال : « وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول ، فإن توليتم فإنما على رسولنا البلاغ المبين » .

أى : وعليكم - أيها الناس - أن تطيعوا الله - تعالى - طاعة تامة ، وأن تطيعوا رسوله فى كل ما يأمركم به أو نهيناكم عنه .

فإن أعرضتم عن ذلك ، وانصرفتم عما أمرناكم به أو نهيناكم عنه ، فلا ضرر على رسولنا بسبب إعراضكم لأن حسابكم وجزاءكم علينا يوم القيامة ، وليس على رسولنا - صلى الله عليه وسلم - بالنسبة لكم سوى البلاغ الواضح البين ،

بحيث لا يترك باباً من أبواب الخير إلا ويبينه لكم ، ولا يترك باباً من أبواب الشر إلا وحذركم منه .

« الله ، - تعالى - لا إله إلا هو ، أى : هو المستحق للعبادة دون غيره ، فأخلصوا له هذه العبادة والطاعة « وعلى الله ، - تعالى - وحده » فليترك كل المؤمنون ، أى : فليغفروا أمورهم إليه ، وليعقدوا رجاءهم عليه . فهو - سبحانه - صاحب الخلق والأمر ، تبارك الله رب العالمين .

• • • • •

وفي نهاية السورة الكريمة ، وجه - سبحانه - نداء إلى المؤمنين ، حذرهم فيه من فتنة الأزواج والأولاد والأموال ، وحضهم على مراقبته وتقواه ، وحذرهم من البخل والشح ، ووعدهم بالأجر العظيم متى أطاعوه ... فقال - تعالى - :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنِّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ ، وَإِن تَعَفَّوْا وَتَصَفَّحُوا وَتَغْفِرُوا ، فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٤) إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ ، وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (١٥) فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ، وَأَطِيعُوا وَأَطِيعُوا خَيْرًا لِّأَنْفُسِكُمْ ، وَمَنْ يَوْقَ شَحٍّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمَفْلِحُونَ (١٦) إِن تَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُّضَاعِفْهُ لَكُمْ ، وَيَغْفِرْ لَكُمْ ، وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ (١٧) عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١٨) » .

ذكر المفسرون في سبب نزول هذه الآيات روايات منها ما روى عن ابن عباس - رضى الله عنهما - أن رجلاً سأل عن هذه الآيات فقال : هؤلاء رجال أسلموا من مكة ، فأرادوا أن يأتوا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فأبى أولادهم وأزواجهم أن يتركوه - لهاجروا - .

فلما أتوا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أى بالمدينة - رأوا الناس قد تفقهوا فى الدين ، فهموا أن يعاقبهم - أى : ليعاقبوا أولادهم وأزواجهم - فأنزل الله - تعالى - هذه الآيات . . . (١) .

وفى رواية أخرى عن ابن عباس أن هذه الآيات نزلت بالمدينة فى عوف ابن مالك الأشجعى ، شكى إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - جفاء أهله وولده فنزلت (٢) . . .

وصدرت الآيات الكريمة بالنداء بصفة الإيمان ، لحضهم على الاستجابة لما اشتملت عليه هذه الآيات من توجيهات سامية وإرشادات عالية . . . فإن من شأن الإيمان الحق ، أن يحمل صاحبه على طاعة الله - عز وجل - .

و من ، فى قوله : إن من أزواجكم وأولادكم . . . للتبعيض .

والمراد بالعداوة : ما يشمل العداوة الدينية والدنيوية ، بأن يكون هؤلاء الأولاد والأزواج يضمرون لأبائهم وأزواجهم العداوة والبغضاء وسوء النية ، بسبب الاختلاف فى الطباع أو فى العقيدة والأخلاق .

والعفو : ترك المعاقبة على الذنب بعد العزم على هذه المعاقبة .

والصفح : الإعراض عن الذنب ، وعن العزم على عقابه .

والغفران : ستر الذنب وإخفاؤه ، وعدم إشاعته .

أى : يا من آمنتم بالله حق الإيمان ، إن بعض أزواجكم وأولادكم ، يعادونكم ويخالفونكم فى أمور دينكم ، وفى أمور دنياكم ، فاحذروهم ، أى : فاحذروا أن تطيعوهم فى أمر يتعارض مع تعاليم دينكم ، فإنه لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق . . .

(١) تفسير ابن كثير ٨٥ ص ١٦٥

(٢) تفسير القرطبي ١٨ ص ١٤٠

« وإن تعفوا » - أيها المؤمنون - عنهم ، بأن تتركوا عقابهم بعد التصميم عليه ، وتصفحوا ، عنهم ، بأن تتركوا عقابهم بدون عزم عليه . . . وتغفروا ، ما فرط منهم من أخطاء ، بأن تحفوها عليهم .

وقوله : « فإن الله غفور رحيم » قائم مقام جواب الشرط . أى : وإن تفعلوا ذلك من العفو والصفح والمغفرة ، يكافئكم الله - تعالى - على ذلك مكافأة حسنة ، فإن الله - تعالى - واسع المغفرة والرحمة لمن يعفون ويصفحون ويغفرون .

وقوله - تعالى - « إنما أموالكم وأولادكم فتنة . . . » تعميم بعد تخصيص ، وتأكيدهم للتذكير الذى اشتملت عليه الآية السابقة .

والمراد بالفتنة هنا : ما يفتن الإنسان ويشغله ويلهبه عن المداومة على طاعة الله - تعالى - .

أى : إن أموالكم وأولادكم - أيها المؤمنون - على رأس الأمور التى تؤدى المبالغة والمغالاة فى الاشتغال بها ، إلى التقصير فى طاعة الله - تعالى - ، وإلى مخالفة أمره ، والإخبار عنهم بأنهم « فتنة » للمبالغة . والمراد أنهم سبب للفتنة ، أى : لما يشغل عن رضاه الله وضاعته ، إذا ما جاوز الإنسان الحد المشروع فى الاشتغال بهما .

قال الألوسى : قوله - تعالى - : « إنما أموالكم وأولادكم فتنة » ، أى : بلاء ومحنة ، لأنهم يترتب عليهم الوقوع فى الإثم والشذائد الدنيوية وغير ذلك . وفى الحديث : « يؤتى بالرجل يوم القيامة ، فيقال : أكل عياله حسناته » .

وأخرج الإمام أحمد وأبو داود والترمذى . . . عن بريدة قال : كان النبى - صلى الله عليه وسلم - يخطب ، فأقبل الحسن والحسين عليهما قيصان أحمران يمشيان ويمثران ، فنزل - صلى الله عليه وسلم - من فوق المنبر ، فحملهما . . .

ثم صعد المنبر فقال : صدق الله إذ يقول : « إنما أموالكم وأولادكم فتنة » ، إنى لما نظرت إلى هذين الغلامين يشيان ويعثران ، لم أصبر أن قطعت كلامي ، ونظرت إليهما ، (١) .

وقال الجبل . قال الحسن في قوله - تعالى : « إن من أزورجكم وأولادكم عدوا لكم .. » أدخل - سبحانه - « من » للتبويض ، لأنهم كلهم لبسوا بأعداء ، ولم يذكر « من » في قوله ، إنما أموالكم وأولادكم فتنة ، ، لأنهما لا يخلوان من الفتنة ، واشتغال تقلب بهما ، وقدم الأموال على الأولاد ، لأن الفتنة بالمال أكثر . وترك ذكر الأزواج في الفتنة ، لأن منهن من يكن صلاحا و عونا على الآخرة ... (٢)

وقوله - سبحانه - : « والله عنده أجر عظيم ، معطوف على جملة « إنما أموالكم وأولادكم فتنة » ،

أى : والله - تعالى - عنده أجر عظيم ، لمن أثر محبة الله - تعالى - وطاعته ، على محبة الأزواج والأولاد والأموال .

والفاء في قوله - سبحانه : « فاتقوا الله ما استطعتم ... للإفصاح والتفريع على ما تقدم .

و « ما » في قوله : « ما استطعتم » مصدرية ظرفية .

والمراد بالاستطاعة : نهاية الطاقة والجهد .

أى : إذا كان الأمر كما ذكرت لكم من أن المؤمن الصادق في إيمانه ، هو الذى لا يشغله ماله أو ولده أو زوجه عن ذكر الله .. تعالى .. فأبذلوا نهاية

(١) تفسير الألوسى ج ٢٨ ص ١٢٧ .

(٢) حاشية الجبل على الجلالين ج ٤ ص ٢٥٣ .

قدرتكم واستطاعتكم في طاعة الله - تعالى - ، وداموا على ذلك في جميع الأوقات والأزمان .

وليس بين هذه الآية ، وبين قوله - تعالى - : « اتقوا الله حق تقاته ، تعارض ، لأن كلا الآيتين تأمران المسلم بأن يبذل قصارى جهده ، ونهاية طاقته ، في المواظبة على أداء ما كلفه الله به ، ولذلك فلا نرى ما يدعو إلى قول من قال : إن الآية التي معنا نسخت الآية التي تقول : « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ... » ،

قال الألوسي : أخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير قال : لما نزلت : « اتقوا الله حق تقاته ، اشتد على القوم العمل ، فقاموا حتى ورمت أقدامهم . فأنزل الله هذه الآية « فاتقوا الله ما استطعتم ، تخفيفاً على المسلمين ، (١) .

وحذف متعلق التقوى ، لقصد التعميم ، أى : فاتقوا الله مدة استطاعتكم في كل ما تأتون وما تذكرون ، واعلموا أنه - تعالى - « يريد بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ، و « ما جعل عليكم في الدين من حرج ، ومن الأحاديث التي وردت في معنى الآية الكريمة ، ما رواه البخاري عن جابر بن عبد الله قال ، بايعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - على السمع والطاعة ، فلقنني « فيها استطعت ، .

وعطف قوله - تعالى - : « واسمعوا وأطيعوا ، على قوله « فاتقوا الله ، من باب عطف الخاص على العام ، للاهتمام به .

أى : فاتقوا الله - تعالى - في كل ما تأتون وما تذكرون ، واسمعوا ما يبلغكم لإياه رسولنا عنا سماع تدبر وتفكر ، وأطيعوه في كل ما يأمركم به أو ينهاكم عنه .

« وأنفقوا ، مما رزقكم الله - تعالى - من خير ، يكن ذلك الإنفاق « خيراً لأنفسكم ، في دنياكم وفي آخرتكم .

«ومن يوق شح نفسه ، أى : ومن يستطيع أن يبعد نفسه عن الشح والبخل .
 « فاولئك هم المفلحون ، أى : الفائزون فوزا تاما لانقص معه .
 ثم ختم - سبحانه - السورة السكريمة بالخص على الإنفاق فى سبيله فقال :
 « إن تقرضوا الله قرضا حسنا ، يضاعفه لكم . . . » .

أى : إن تبذلوا أموالكم فى وجوه الخير التى يحبها الله - تعالى - ، بذلا
 مصحوبا بالإخلاص وطيب النفس ، يضاعف الله - تعالى - لكم ثواب هذا
 الإنفاق والإقراض . بأن يجعل لكم الحسنات بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف ،
 « ويغفر لكم ، فضلا عن ذلك ذنوبكم - بركة هذا الإنفاق الخالص
 لوجه الكريم .

« والله شكور ، أى : كثير الشكر لمن أطاعه وحليم ، لا يعاجل بالعقوبة
 المذنبين .

« عالم الغيب والشهادة العزيز الحكيم ، أى هو - سبحانه - يعلم علما تاما
 ما كان خافيا عليكم وما كان ظاهرا لكم ، وهو - عز وجل - القوى الذى
 لا يظلمه غالب ، الحكيم فى كل أقواله وأفعاله ...
 وبعد فهذا تفسير لسورة التغابن ، ، نسال الله - تعالى - أن يجعله خالصا
 لوجه ونافعنا لعباده .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

كتبه الراجى عفوره

الإسكندرية - العجمى

محمد سيد طنطاوى

صباح الخميس ٢٠ من شوال ١٤٠٦ هـ

٢٦ من يونيو ١٩٨٦ م

تفسير
سُورَةُ الطَّلَاقِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١ - سورة الطلاق ، من السور المدنية الخالصة ، وقد سماها عبد الله ابن مسعود يسورة النساء القصوى . أما سورة النساء الكبرى فهي التي بعد سورة آل عمران .

وكان نزولها بعد سورة الإنسان ، وقبل سورة البقرة ، وترتيبها بالنسبة للنزول : السادسة والتسعون ، أما ترتيبها بالنسبة لترتيب المصحف ، فهي السورة الخامسة والستون .

٢ - وعدد آياتها إحدى عشرة آية في المصحف البصري ، وفيما عداه اثنتا عشرة آية .

٣ - ومعظم آياتها يدور حول تحديد أحكام الطلاق ، وما يترتب عليه من أحكام العدة ، والإرضاع ، والإنفاق ، والسكن ، والإشهاد على الطلاق ، وعلى المراجعة ...

وخلال ذلك تحدثت السورة الكريمة حديثا عاما عن وجوب تقوى الله - تعالى - ، وعن مظاهر قدرته ، وعن حسن عاقبة التوكل عليه ، وعن رحمته بهذه الأمة حيث أرسل فيها رسوله - صلى الله عليه وسلم - ليتلو على الناس آيات الله - تعالى - ، ويخرجهم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان بإذنه - سبحانه .

وقد لفتتحت السورة الكريمة بقوله - تعالى :

« يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ
 وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا تَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ
 بِفَاحِشَةٍ مَبِينَةٍ ، وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ
 نَفْسَهُ ، لَا تَدْرِي لَعْنُ اللَّهِ يَحْدُثُ بِسَبْدِ ذَلِكَ أَمْرًا (١) فَإِذَا بَلَغْنَ
 أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ، أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا
 ذَوَى عَدْلٍ مِنْكُمْ ، وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ، ذَلِكَ يُوَعِّظُ بِهِ مَنْ كَانَ
 مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا (٢)
 وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ، وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ،
 إِنَّ اللَّهَ بِالْأَمْرِ أَعْلَمُ ، قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا (٣) » .

افتتح الله - تعالى السورة الكريمة بتوجيه النداء إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - فقال : يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ ، فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا
 العدة

وأحكام الطلاق التي وردت في هذه الآية ، تشمل النبي - صلى الله عليه وسلم -
 وسلم - ، كما تشمل جميع المكلفين من أمته - صلى الله عليه وسلم - .
 وإنما كان النداء له - صلى الله عليه وسلم - ، وكان الخطاب بالحكم عاما له
 ولأمته ، تشريفا وتكريما له - صلى الله عليه وسلم - ، لأنه هو المبلغ للناس ،
 وهو إمامهم وقودتهم والمنفذ لأحكام الله - تعالى - فيهم .

قال صاحب الكشاف : خص النبي - صلى الله عليه وسلم - بالنداء ، وهم
 بالخطاب ، لأن النبي - صلى الله عليه وسلم - إمام أمته وقودتهم ، كما يقال
 لرئيس القوم وكبيرهم : يَا فُلَانُ : افْعَلُوا كَيْتَ وَكَيْتَ ، لإظهارا لتقدمه ،
 واعتبارا لرؤسهِ ، وأنه مدبِّرُ قومه وإسائهم - والدة : القرية .

أى: أنه بمنزلة القرية لقومه - وأنه الذى يصدر عن رأيه ، ولا يستبدون بأمر دونه ، فكان هو وحده فى حكم كلهم ، وساد مسد جميعهم ... (١) .

وهذا التفسير الذى اقتصر عليه صاحب الكشف . هو المعول عليه ، وهو الذى يناسب بلاغة القرآن وفصاحته ، ويناسب مقام النبى - صلى الله عليه وسلم - .

وقيل : الخطاب له ولأئمة ، والتقدير : يا أيها النبى وأئمة إذا طلقتم ، فحذف المعطوف لدلالة ما بعده عليه .

وقيل : هو خطاب لأئمة فقط ، بعد ندائه - عليه السلام - وهو من تلوين الخطاب ، خاطب أئمة بعد أن خاطبه .

وقيل : إن الكلام على إضمار قول . أى : يا أيها النبى قل لأمتك إذا طلقتم (٢) .

والحق أن الذى يتدبر القرآن الكريم ، يرى أن الخطاب والأحكام المترتبة عليه ، تارة تكون خاصة به - صلى الله عليه وسلم - كما فى قوله - تعالى - : « يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك ، وإن لم تفعل فما بلغت رسالته ... » .

وتارة يكون شاملا له - صلى الله عليه وسلم - ولأئمة كما فى هذه الآية التى معنا ، وكما فى قوله - تعالى - : « يا أيها النبى جاهد الكفار والمنافقين واغلب عليهم ... » .

وتارة يكون - صلى الله عليه وسلم - خارجا عنه كما فى قوله - تعالى - : « إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ، ولا تنهرهما ، » .

(١) تفسير الكشف ج ٤ ص ٥٥٢ .

(٢) راجع حاشية الجمل على الجلالين ج ٤ ص ٣٥٥ .

وقل لها قولاً كريماً . واخفض لهما جناح الذل من الرحمة ، وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيراً .

فصيغة الخطاب هنا وإن كانت موجهة إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - إلا أنه ليس داخلها فيها ، لأن والديه لم يكرها موجودين عند نزول هاتين الآيتين .

والمراد بقوله : « إذا طلقتم النساء ... » أى : إذا أردتم تطليقهن ، لأن طلاق المطلقة من باب تحصيل الحاصل .

وهذا الأسلوب يرد كثيراً في القرآن الكريم ، ومنه قوله - تعالى - : « يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم ... » أى : إذا أردتم القيام للصلاة فاغسلوا ...

والمراد بالنساء هنا : الزوجات المدخول بهن ، لأن غير المدخول بهن خرجن بقوله - تعالى - : « يا أيها الذين آمنوا إذا نسكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن من قبل أن تمسوهن ، فلا لكم عليهن من عدة تعتدونها ... »

واللام في قوله - سبحانه - : « فطلقوهن لعدتهن » هى التى تسمى بلام التوقيت ، وهى بمعنى عند ، أو بمعنى فى ، كما يقول القائل : كتبت هذا الكتاب لعشر مضين من شهر كذا ...

ومنه قوله - تعالى - : « أقم الصلاة لذلوك الشمس ... » أى : عند أوفى وقت ذلوكلها ...

وقوله : « وأحصوا العدة » من الإحصاء بمعنى العد والضبط ، وهو مشتق من الحصى ، وهى صغار الحجارة ، لأن العرب كانوا إذا كثر عدد الشيء ، جعلوا لكل واحد من المعداد حصاة ، ثم عدوا بمجموع ذلك الحصى ...

والمراد به هنا : شدة الضبط ، والعناية بشأن العد ، حتى لا يحصل خطأ في وقت العدة .

والمعنى : يا أيها النبي ، أخبر المؤمنين ومرم ، إذا أرادوا تطليق نسايتهم المدخول بهن ، من المعتدات بالحيض ، فعليهم أن يطلقوهن في وقت عدتهن . أى : في طهر لم يجامعهن فيه ، ثم يتركوهن حتى تنقضى عدتهن ... وعليهم كذلك أن يضبطوا أيام العدة ضبطاً تاماً حتى لا يقع في شأنها خطأ أو لبس .

قال الإمام ابن كثير ما ملخصه : خوطب النبي - صلى الله عليه وسلم - أولاً تشریفاً وتكريماً ، ثم خاطب الأمة تبعاً ، فقال : يا أيها النبي إذا طلقت النساء فطلقوهن لعدتهن وأحصوا العدة ... ،

روى ابن أبي حاتم عن أنس قال : طلق النبي - صلى الله عليه وسلم - حفصة ، فأنت أهلها ، فأنزل الله - تعالى - هذه الآية . وقيل له : راجعها فإنها صوامة قوامة ، وهى من أزواجك فى الجنة . ،

وروى البخارى أن عبد الله بن عمر ، طلق امرأة له وهى حائض ، فذكر عمر لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - ذلك ، فتغيظ - صلى الله عليه وسلم - ثم قال : فليراجعها ، ثم يمسكها حتى تطهر ، ثم تحيض فتطهر ، فإن بداله أن يطلقها فليطلقها طاهراً قبل أن يمسه ، فذلك العدة التى أمر الله - تعالى - .

ثم قال - رحمه الله - : ومن ما هنا أخذ الفقهاء أحكام الطلاق ، وقسموه إلى طلاق سنة ، وطلاق بدعة .

فطلاق السنة : أن يطلقها طاهراً من غير جماع ، أو حاملاً قد استبان حملها .

والبدعى : هو أن يطلقها فى حال الحيض ، - وما يشبهه كالنفاس - ،

أو في طهر قد جامعها فيه ، ولا يدري أحملت ألا ؟ (١)

وتعليق ، طلقتم ، إذا الشرطية ، يشعر بأن الطلاق خلاف الأصل ،
إذ الأصل في الحياة الزوجية أن تقوم على المودة والرحمة ، وعلى الدوام
والاستقرار .

قال - تعالى - : « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا
إليها ، وجعل بينكم مودة ورحمة ... » .

قال القرطبي : روى الثعلبي من حديث ابن عمر قال : قال رسول الله
- صلى الله عليه وسلم - : « إن من أبغض الحلال إلى الله الطلاق ، ... » .

وعن أبي موسى قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « لا تطلقوا
النساء إلا من رغبة . فإن الله - عز وجل - لا يحب الذواقين ولا الذواقات ، .
وعن أنس قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « ما حلف
بالطلاق ، ولا استحلف به إلا منافق » . (٢)

والمراد بالأمر في قوله - تعالى - « فطلقوهن لعدتهن .. » ، إرشاد المؤمنين
إلى ما يجب عليهم اتباعه إذا ما أرادوا مفارقة أزواجهم ، ونهيهم عن إيقاع
الطلاق في حالة الحيض أو ما يشبهها كالنفاس ... لأن ذلك يكون طلاقاً بدعياً
محرمًا ، إذ يؤدي إلى تطويل عدة المرأة لأن بقيه أيام الحيض لا تحسب من
العدة ، ويؤدي - أيضاً - إلى عدم الوفاء لها ، حيث طلقها في وقت رغبته
فيها فآثمة ...

ولكن الطلاق مع ذلك يعتبر واقعا وفاقذا عند جمهور العلماء .

قال القرطبي : من طلق في طهر لم يجامع فيه ، نفذ طلاقه وأصاب السنة .
وإن طلقها وهي حائض نفذ طلاقه وأخطأ السنة .

(١) راجع تفسير ابن كثير ج ٨ ص ١٦٩

(٢) راجع تفسير القرطبي ج ١٨ ص ١٤٩

وقال سعيد بن المسيب : لا يقع الطلاق في الحيض لأنه خلاف السنة وإليه ذهب الشيعه .

وفي الصحيحين عن عبد الله بن عمر قال : طلق امرأتى وهي حائض ، فذكر ذلك لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - فتغيظ ، وقال : فليراجعها ثم فليمسكها حتى تحيض حيضة مستقبلة سوى حيضتها التي طلقها فيها ...

وكان عبد الله بن عمر قد طلقها تطليقة ، فحسبت من طلاقها ، وراجعها عبد الله بن عمر ، كما أمره رسول الله - صلى الله عليه وسلم - .

وفي رواية أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - قال له : دهي واحدة ، وهذا نص . وهو يرد على الشيعة قولهم ، (١) .

وقد بسط الفقهاء وبعض المفسرين الكلام في هذه المسألة فليرجع إليها من شاء . (٢)

والمخاطب بقوله : أحصوا العدة ، الأزواج على سبيل الإصالة ، لأنهم هم المخاطبون بقوله : طلقتم ، وبقوله : فطلقوهن ، ، ويدخل معهم الزوجات على سبيل التبع ، وكذلك كل من له صلة بهذا الحكم ، وهو إحصاء العدة .

ثم أمر - سبحانه - بتقواه فقال : واتقوا الله ربكم ، أي . واتقوا الله ربكم ، بأن تصونوا أنفسكم عن مصيئته ، التي من مظاهرها إلحاق الضرر بأزواجكم ، بتطليقهم في وقت حيضهم ، أو في غير ذلك من الأوقات المنهى عن وقوع الطلاق فيها .

فالمقصود بهذه الجملة الكريمة : التحذير من التساهل في أحكام الطلاق والعدة ، كما كان أهل الجاهلية يفعلون .

(١) راجع تفسير القرطبي ج ١٨ ص ١٥١

(٢) راجع تفسير الألوسي ج ٢٨ ص ١٢٠ . وتفسير آيات الأحكام ج ٤

ص ١٥٦ . للشيخ السائس .

وجمع - سبحانه - بين لفظ الجلالة ، وبين الوصف بربكم ، لتأكيد الأمر بالتقوى ، وللبالغة في وجوب المحافظة على هذه الأحكام .

ثم بين - سبحانه - حكما آخر يتعلق بالأزواج والزوجات فقال :
 • لا تخرجوهن من بيوتهن ، ولا يخرجن ، إلا أن يأتين بفاحشة مبينة ، ..
 والجملة الكريمة مستأنفة ، أحوال من ضمير • وأحصوا العدة • أى : حالة كون العدة في بيوتهن . والخطاب للأزواج والزوجات . والاستثناء مفرغ من أعم الأحوال والأسباب ...

والفاحشة : الفعل البالغة الغاية في القبح والسوء ، وأكثر إطلاقها على الزنا .

والمراد بها هنا : ما يشمل الزنا وغيره من سوء الأخلاق ، وكثرة الخصام .
 وقوله : • مبينة • صفة للفاحشة . وقراءة الجمهور - بكسر الياء - أى : بفاحشة توضح لمن تبلغه أنها فاحشة أشدة قبحها .

وقرأ ابن كثير • مبينة • بفتح الياء - أى : بفاحشة قامت الحجة على مرتكبها قايما لا مجال معه للمناقشة أو المجادلة .

أى : واتقوا الله ربكم - أيها المؤمنون - فيما تأتون وتذرون ، ومن مظاهر هذه التقوى ، أنكم لا تخرجون زوجاتكم المطلقات من مساكنهن إلى أن تنقضى عدتهن ، وهن - أيضا - لا يخرجن منها بأنفسهن في حال من الأحوال ، إلا في حال إتيانهن بفاحشة عظيمة ثبتت عليهن ثبوتا واضحا .

فالمقصود بالجملة الكريمة نهي الأزواج عن إخراج المطلقات المعتدات من مساكنهن عند الطلاق إلى أن تنقضى عدتهن ، ونهي المعتدات عن الخروج منها إلا عند إرتكابهن الفاحشة الشديدة القبح .

وأضاف - سبحانه - البيوت إلى ضمير النساء فقال : لا تخرجوهن من بيوتهن ، للإشعار بأن إستحقاقهن للسكن في بيوت أزواجهن مدة

عدتهن ، كاستحقاق المالك لما يملكه ، ولتأكيد النهى عن الإخراج والخروج .

وقد أخذ العلماء من هذه الآية الكريمة ، أن المطلقة لا يصح إخراجها أو خروجها من بيت الزوجية مادامت في عدتها ، إلا لأمر ضرورى ...

قال الآلوسى ما ملخصه : وقوله : « لا تخرجوهن من بيوتهن ، أى : من مساكنهن عند الطلاق إلى أن تنقضى عدتهن وعدم العطف للإيدان باستقلاله بالطلب اعتناء به . والنهى عن الإخراج يتناول بمنطوقه عدم إخراجهن غضبا عليهن ، أو كراهة لمساكنتهن . . . ويتناول بإشارته عدم الإذن لهن بالخروج ، لأن خروجهن محرم ، لقوله - تعالى - : « ولا يخرجن ، فكأنه قيل : لا تخرجوهن ، ولا تأذنوا لهن فى الخروج إذا طلبن ذلك ، ولا يخرجن بأنفسهن إن أردن ، فهناك دلالة على أن سكنهن فى البيوت حق للشرع مؤكدا ، فلا يسقط بالإذن . . . وهذا رأى الأحناف .

ومذهب الشافعية أنهما لو اتفقا على الانتقال جاز ، إذ الحق لا يعدوهما ، فيكون المعنى : لا تخرجوهن ولا يخرجن باسقبادهن .

والاستثناء فى قوله « إلا أن يأتين بفاحشة مبينة » ، يرى بعضهم أنه راجع إلى « ولا يخرجن » ، فتسكون الفاحشة المبينة هى نفس الخروج قبل انقضاء العدة . أى : لا يطلق لهن فى الخروج ، إلا فى الخروج الذى هو فاحشة ، ومن المعلوم أنه لا يطلق لهن فيه ، فيسكون ذلك متما من الخروج على أبلغ وجه . . . كما يقال : لا تزن إلا أن تسكون فاسقا ، (١) .

وقال بعض العلماء : والذى تخلص لى أن حكمة السكنى المطلقة ، أنها حفظ للأعراض ، فإن المطلقة يكثر التفات العيون لها ، وقد يتسرب سوء الظن إليها ، فيكثر الاختلاف عليها ، ولا تجد ذاعصمة يذب عنها ، فذلك شرعت لها السكنى ، فلا تخرج إلا لحاجياتها الضرورية

ومن الحكم - أيضا - في ذلك أن المطلقة قد لا تجد مسكنا ، لأن غالب النساء لم تكن لهن أموال ، وإنما هن عيال على الرجال ...

ويزاد في المطلقة الرجعية ، قصد استبقاء الصلة بينها وبين مطلقها ، لعله يشوب إليه رشده فيراجعها ...

فهذا مجموع علل ، فإذا تخلفت واحدة منها لم يتخلف الحكم ، لأن الحكم الملل بعلمتين فأكثر لا يبطله سقوط بعضها (١) .

واسم الإشارة في قوله : وذلك حدود الله ، يعود إلى الأحكام التي سبق الحديث عنها والحدود : جمع حد ، وهو ما لا يصح تجاوزه أو الخروج عنه .

أى : وتلك الأحكام التي بينها لكم ، هي حدود الله - تعالى - التي لا يصح لكم تعديها أو تجاوزها ، وإنما يجب عليكم الوقوف عندها ، وتنفيذ ما اشتملت عليه من آداب وهدايات .

ثم بين - سبحانه - سوء عاقبة من يتجاوز حدوده فقال : ومن تعد حدود الله فقد ظلم نفسه ، أى : ومن يتجاوز حدود الله إلى حدها لعباده ، بأن أخل بشئ منها ، فقد حمل نفسه وزرا ، أكسبها إثمها ، وعرضها للعقوبة والعذاب .

وقوله - سبحانه - : لا تدرى أمل الله يحدث بعد ذلك أمرا ، ترغيب في امتثال الأحكام السابقة ، بعد أن سلك في شأها مسلك الترهيب من مخالفتها ، ودعوة إلى فتح باب المصالحة بين الرجل وزوجه ، وعدم السير في طريق المفارقة حتى النهاية .

(١) تفسير التحرير والتنوير ج ٢٨ ص ٣٠٤ لفضيلة الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور .

والخطاب لكل من يصلح له ، أو هو الممتد بطريق الالتفات ، والجملة
الكريمة مستأنفة ، مسوقة لتعليل مضمون ما قبلها ، وتفصيل لأحواله .

أى : اسلك - أيها المسلم - الطريق الذى أرشدناك إليه فى حياتك الزوجية ،
وامتثل ما أمرك به ، فلا تطلق امرأتك وهى حائض ، ولا تخرجها من بيتها
قبل تمام عدتها ولا تقفل باب المصالحة بينك وبينها ، بل اجعل باب
المصالحة مفتوحا ، فإنك لا تدري لعل الله - تعالى - يحث بعد ذلك النزاع
الذى نشب بينك وبين زوجك أمرا نافعا لك ولها ، بأن يحول البغض إلى
حب ، والخصام إلى وفاق ، والغضب إلى رضا . . .

فالجملة الكريمة قد اشتملت على أسمى الوان الإرشاد لحل النفوس
المنجبة نحو الطلاق . . . إلى التريث والتأمل ، وفتح باب المواصلة بعد المقاطعة
والتقارب بعد التباعد ، لأن قلبب القلوب بيد الله - عز وجل - وليس بعيدا
عن قدرته - تعالى - تحويل القلوب إلى الحب بعد البغض .

قال القرطبي : الأمر الذى يحدثه الله أن يقرب قلبه من بغضها إلى محبتها ،
ومن الرغبة عنها إلى الرغبة فيها ، ومن عزيمة الطلاق إلى الندم عليه ،
فيراجعها .

وقال جميع المفسرين : أراد بالامر هنا الرغبة فى الرجعة ، (١) .

ثم بين - سبحانه - حكما آخر يتعلق بما بين الزوجين عن حقوق فقال
- تعالى - : « فإذا بلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف ، أو فارقوهن
بمعروف »

والفاء فى قوله - « فإذا بلغن . . . » للتفريع على ما تقدم من أحكام تتعلق بالعدة .
والمراد ببلوغ أجلهن . مقارنة نهاية مدة العدة بقرينة ما بعده ، لأن الرجل
لا يؤمر بامساك زوجته بعد انقضاء عدتها ، لأن الإمساك يكون قبل انقضائها .

فالكلام من باب المجاز ، لمشابهة مقارنة الشيء ، بالحصول فيه ، والتلبس به .

والمراد بالإمساك : المراجعة وعدم السير في طريق مفارقتها .

والمعروف : ما أمر به الشرع من حسن المعاملة بين الزوجين ، وحرص كل واحد منهما على أداء ما عليه لصاحبه من حقوق .

والمعنى : لقد بينت لكم جانباً من الأحكام التي تتعلق بعدة النساء ، فإذا قاربن وشارفن آخر عدتهن ، فأمسكوهن وراجعوهن بحسن معاشره ، أو فارقوهن بمعروف بأن تعطوهن حقوقهن كاملة غير منقوصة ، وبأن تكفوا أنفسكم عن ذكرهن بسوء ...

والأمر في قوله : « فأمسكوهن وفارقوهن » الإباحة ، و « أو » للتخيير . والتعبير بالإمساك للإشعار بأن المطلقة طلاقاً رجعياً لها حكم الزوجة ، ماعدا الاستمتاع بها ، فعليه أن يستمسك بها ، ولا يتسرع في فراقها ، فهي ما زالت في عصمته .

وقدم - سبحانه - الإمساك على الفراق ، للإشارة إلى أنه هو الأولى ورعاية لحق الزوجية ، وإبقاء للدودة والرحمة .

وشبهه بهذه الآية قوله - تعالى - : « وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن ، فأمسكوهن بمعروف ، أو فارقوهن بمعروف ، ... »

ثم قال - سبحانه - « وأشهدوا ذوى عدل منكم ، أى : وأشهدوا عند المراجعة لأزواجكم وعند مفارقتكم لهن ، رجلين تتوفر فيهما العدالة والاستقامة ، لأن الإشهار يقطع التنازع ، ويدفع الريبة ، وينفي التهمة .

والأمر في قوله « وأشهدوا » للنذب والاستحباب في حالتي المراجعة والمفارقة ، فهو كقوله - تعالى - : « وأشهدوا إذا تباعتم ، وهذا رأى جمهور العلماء .

قال الألوسي : قوله : « وأنهدوا ذوى عدل منكم ، أى : عند الرجعة إن اخترتموها ، أو الفرقة إن اخترتموها ، تبرأ عن الريبة ، وقطعا للنزاع . وهذا أمر ندب كما في قوله - تعالى - « وأشهدوا إذا تبايعتم » .

وقال الشافعى فى القديم : إنه للوجوب فى الرجعة . وزعم الطبرسى أن أمر بالإشهاد على الطلاق ، وأنه مروي عن أئمة أهل البيت ، وأنه للوجوب ، وشرط فى صحة الطلاق ، (١) .

وقوله : « وأقيموا الشهادة لله ، معطوف على ما قبله . والخطاب لكل من تعلق به الشهادة .

والمراد بإقامة الشهادة : أداؤها بالعدل والصدق ...

أى : وعليكم - أيها المؤمنون - عند أدائكم للشهادة . أن تؤدوها بالعدل والأمانة ، وأن تجعلوها خالصة لوجه الله - تعالى - وامتناعا لأمره .

والجملـة الكريمة دليل على أن أداء الشهادة على وجهها الصحيح عند المحكام وغيرهم ، أمر واجب ، لأن الشهادة هنا اسم للجنس ، ولأن الله - تعالى - يقول فى آية أخرى : « ولا تكتموا الشهادة ومن يكتتمها فإنه آثم قلبه ... » ،

والإشارة فى قوله - سبحانه - : « ذلكم يوعظ به من كان يؤمن بالله واليوم الآخر » ، تعود إلى جميع ما تقدم من أحكام ، كإحصاء العدة ، وعدم إخراج المطلقة من بيت الزوجية حتى تنتهى عدتها ، والحث على أداء الشهادة بالحق والعدل ...

والوعظ معناه : التحذير مما يؤذى بطريقة تؤثر فى القلوب . وتهـدى النفوس إلى الرشـد .

أى : ذلك الذى ذكرناه لكم من أحكام ، إنما يتأثر به ، ويعمل بمقتضاه الذين يؤمنون بالله - تعالى - وباليوم الآخر إيماناً حقيقياً .

(١) تفسير الألوسى ج ٢٨ ص ١٣٥

وخص - سبحانه - الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر بالذكر : لأنهم هم
المنفعون بهذه الأحكام ، وهم المنفذون لها تنفيذا صحيحا ...

ثم بشر - سبحانه - عباده الذين يتقونه ويراقبونه ببشارات متعددة
فقال : « ومن يتق الله يجعل له مخرجا . ويرزقه من حيث لا يحتسب » .

والجملة الكريمة اعترض بين قوله - تعالى - : « وأقيموا الشهادة لله ، وبين
قوله - سبحانه - بعد ذلك : « واللأني يئسن من المحيض » ..

وجىء بهذا الاعتراض بين هذه الأحكام لحل النفوس على تقبل تشريعاته
- تعالى - وآدابه ، ولخص الزوجين على مراقبته - سبحانه - وتقواه .

أى : « ومن يتق الله - تعالى - فى كل أقواله وأفعاله وتصرفاته .. يجعل له
- سبحانه - مخرجا من هموم الدنيا وضوائقها ومتاعبها ، وشدة أئد الموت
وغمراته ، ومن أهوال الآخرة وعذابها ... ويرزقه الفوز بخير الدارين ، من
طرق لا تخطر له على بال ، ولا ترد له على خاطر ، فإن أبواب رزقه - سبحانه -
لا يعلمها أحد إلا هو - عز وجل - .

وفى هذه الجملة الكريمة ما فيها من البشارة للمؤمن ، حتى يثبت فؤاده ،
ويستقيم قلبه ، ويحرص على طاعة الله - تعالى - فى كل أحواله .

قال القرطبي : قال أبو ذر - ، قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « لئن
لأعلم آية لو أخذ الناس بها لكفهم ، ثم قلا : « ومن يتق الله يجعل له مخرجا .
ويرزقه من حيث لا يحتسب » .

وعن جابر بن عبد الله قال : نزلت هذه الآية فى عوف بن مالك الأشجعي ،
أمر المشركون ابنه له ، فأتى النبي - صلى الله عليه وسلم - وأخبره بذلك ...
فقال له - صلى الله عليه وسلم - : « اتق الله واصبر ، وأمرك وزوجك أن
تستكثر من قول : لا حول ولا قوة إلا بالله .

فعاد إلى بيته وقال لامرأته : « إن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أمرني
وإياك أن تستكثر من قول : لا حول ولا قوة إلا بالله . فقالت نعم ما أمرنا ، فجعلنا

يتولان ذلك . ففعل العدو عن إبنه ، فساق غنمهم وجاء بها إلى أبيه عوف ،
فزلت الآية ... ، (١)

ثم قال - تعالى - : « ومن يتوكل على الله فهو حسبه ، إن الله بالغ أمره . قد جعل الله لكل شيء قدرا ،

ولفظ « حسب » بمعنى كاف . وأصله اسم مصدر أو مصدر . ومعنى « بالغ أمره » ، بإضافة الوصف إلى مفعوله ، أى : يبلغ ما يريد - سبحانه - ، وقرأ الجمهور « بالغ أمره » ، بفتحين الوصف ونصب أمره على المفعولية . والمراد بأمره شأنه ومراده . وهذه الجملة تعليل لما قبلها .

أى : « ومن يفوض أمره إلى الله - تعالى - ويتوكل عليه وحده ، فهو - سبحانه - كافية في جميع أموره ، لأنه - سبحانه - يبلغ ما يريد ، ولا يفوته مراد ، ولا يعجزه شيء ، ولا يحول دون أمره حائل ... ومن مظاهر حكمه في خلقه ، أنه - عز وجل - قد جعل لكل شيء تقديرا قبل وجوده ، وعلم علما تاما مقاديرها وأوقاتها وأحوالها .

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : « إنا كل شيء خلقناه بقدر » .

وقوله - سبحانه - : « وخلق كل شيء فقدره تقديرا » . وقوله - عز وجل - « وكل شيء عنده بمقدار » .

قال بعض العلماء ما ملخصه : وهذه الجملة - وهي قوله - تعالى - : « قد جعل الله لكل شيء قدرا » - موقع تتجلى فيه صورة من صور إعجاز القرآن ، في ترتيب مواقع الجمل بعضها بعد بعض .. فهذه الجملة لها موقع الاستئناف اليباني الناشئ عما إشتملت عليه جل : « ومن يتق الله يجعل له مخرجا ... » على قوله « إن الله بالغ أمره » ، لأن إستمعاد السامعين لليقين بما تضمنته تلك الجمل متفاوت ، فقد يستبعد بعض السامعين تحقق الوعد لأمثاله ، فيقول : أين أنا

من تحصيل هذا الشيء... ويتملكه اليأس... فيقول الله - تعالى - له : قد جعل الله لكل شيء قدرا أى : فلا تيأس أيها الإنسان .

ولها موقع التعليل الجملة « وأحصوا العدة » ، فإن العدة من الأشياء التي تعد ، فلما أمر الله بإحصائها علم ذلك فقال : « قد جعل الله لكل شيء قدرا » .

ولها موقع التذييل الجملة « وتلك حدود الله » ، ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه ، أى : الذى وضع تلك الحدود . قد جعل الله لكل شيء قدرا لا يعبده ، كما جعل الحدود .

ولها موقع لتعليل الجملة « فإذا بلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف أو فارقوهن بمعروف » ، لأن المعنى إذا بلغن القدر الذى جعله الله لمدة العدة ، فقد حصل المقصد الشرعى ، الذى أشار إليه بقوله - تعالى - « لا تدرى لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا » .

ولها موقع التعليل الجملة « وأقيموا الشهادة لله » ، فإن الله تعالى - جعل الشهادة قدرا لرفع النزاع .

فهذه الجملة جزء آية ، وهى تحتوى على حقائق من الحكمة ، ... ، (١)

ثم ذكر - سبحانه - أحكاما أخرى تتعلق بعدة أنواع أخرى من النساء وأكد الأمر بتقواه - عز وجل - وأمر برعاية النساء والإتفاق عليهن .. فقال - تعالى - :

« وَاللَّائِي يَلْسَنْنَ مِنَ الْحَيْضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنْ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ ، وَاللَّائِي لَمْ يَحْضَنْ ، وَأُولَاتِ الْأَنْحَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ

تَحْمِلْنَ ، وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا (٤) ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ ، وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَكْفُرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمَ لَهُ أَجْرًا (٥) أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وَجْدِكُمْ ، وَلَا تُضَارُوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ ، وَإِنْ كُنَّ أُولَاتٍ حَمِلَ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى بَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ، فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ وَآتَوهُنَّ أَجُورَهُنَّ ، وَأُعْمِرُوا بِئِنَّكُمْ بِعَمْرُوفٍ ، وَإِنْ تَعَاسَرْتُمْ ، فَسْتَزْصِغْ لَهُ أُخْرَى (٦) لِيُنْفِقَ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ ، وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ ، لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا (٧) .

قال القرطبي : قوله - تعالى - : « واللاتي يئسن من المحيض من نسائكم » لما بين سبحانه - أمر الطلاق والرجعة في التي تحيض ، وكافوا قد عرفوا عدة ذوات الأقران ، عرفهم - سبحانه - في هذه السورة عدة التي لازى الدم .

وقال أبو عثمان عمر بن سالم : لما نزلت هذه النساء في سورة (البقرة) في المطلقة والمتوفى عنها زوجها ، قال أبي بن كعب : يا رسول الله ، إن ناسا يقولون قد بقي من النساء من لم يذكر فيهن شيء ، الصغار وذوات الحمل ، فنزلت هذه الآية .

وقال مقاتل : لما ذكر - سبحانه - قوله : (والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء ...)

قال خلاد بن النعمان : يا رسول الله فإعدة التي لم تحض ، وما عدة التي لا تقطع حيضها ، وعدة الحمل ، فنزلت هذه الآية ... (١)

وجملة : (واللاتي يئسن من المحيض ...) معطوفة على قوله - تعالى -

قبل ذلك : (فطلقوهن لعدتهن ...) لبيان أحكام أخرى تتعلق بعدة نوع آخر من النساء ذوات الأقراء .

والمراد باللائى يئسن من الحيض : النساء اللاتى تقصدن فى السن ، وإنقطع عنهن دم الحيض .

وقوله : (يئسن) من اليأس ، وهو فقدان الأمل من الحصول على الثوم

والمراد بالحيض : دم الحيض الذى يلفظه رحم المرأة فى وقت معين ، وفى حال معينة ...

وقوله : (إن إرتبتم) من الرتبة بمعنى الشك .

قوله : (واللائى) إسم موصول مبتدأ ، وقوله (يئسن) صلته ، وجمله الشرط والجزاء وهى قوله (إن إرتبتم فعدتهن ثلاثة أشهر) خبره .

والمعنى : لقد بينت لكم - أيها المؤمنون - عدة النساء المعتدات بالحيض ، أما النساء المتقدمات فى السن واللائى فقدن الأمل فى رؤية دم الحيض ، فعليكم إن إرتبتم ، وشككنم فى عدتهن أو جهلتموها ، أن تقدروها بثلاثة أشهر .

هكذا ، وقد قدر بعضهم سن اليأس بالنسبة للمرأة بستين سنة . وبعضهم قدره بخمس وخمسين سنة .

وبعضهم لم يحدده بسن معينة ، بل قال : إن هذا السن يختلف باختلاف الذوات والأقطار والبيئات ... كاختلاف سن إبتداء الحيض

وقوله - تعالى - (واللائى لم يحضن معطوف على قوله : (واللائى يئسن) وهو مبتدأ وخبره محذوف لدلالة ما قبله عليه .

والتقدير : واللائى يئسن من الحيض من نساءكم ، إن إرتبتم فى عدتهن ، فعدتهن ثلاثة أشهر ، واللائى لم يحضن بعدد لصغرهن ، وعدم بلوغهن سن الحيض ... فعدتهن - أيضا - ثلاثة أشهر .

ثم إنتقلت السورة الكريمة إلى بيان عدة المرأة ذات الحمل ، فقال - تعالى -
 ، وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن ... ،

وقوله : « وأولات » : لاسم جمع للفظ ذات ، بمعنى صاحبه ، لأنه لا مفرد
 لكلمة « أولات » ، من لفظها ، كما أنه لا مفرد من لفظها لكلمة « أولو » ، التي هي
 بمعنى أصحاب ، وإنما مفرد لها « ذو » .

والأحمال : جمع حمل - بفتح الحاء - كصحب وأصحاب . والمراد به
 الجنين الذي يكون في بطن المرأة .

والأجل : إنتهاء المدة المقدرة للشيء .

وقوله : « وأولات .. » مبتدأ . و « أجلهن » ، مبتدأ ثان . وقوله « أن
 يضعن حملهن » ، خبر المبتدأ الثاني ، والمبتدأ الثاني وخبره ، خبر الأول .

والمعنى : والنساء ذوات الأحمال « أجلهن » ، أى : نهاية عدتهن ، أن يضعن
 ما في بطونهن من حمل ، فتي وضعت المرأة ما في بطنها ، فقد إنقضت عدتها ،
 لأنه ليس هناك ما هو أدل على براة الرحم ، من وضع الحمل .
 وهذا الحكم عام في كل ذوات الأحمال ، سواء أكن مطلقات ، أم كن قد
 توفي عنهن أزواجهن .

وقد ساق الإمام ابن كثير جملة من الأحاديث التي تؤيد ذلك ، ومن
 تلك الأحاديث ما رواه الشيخان ، من أن سبيعة الأسلمية ، وضعت بعد موت
 زوجها بأربعين ليلة ، فخطبت فأنكحها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لأحد
 أصحابه ...

وعن أبى بن كعب قال قلت للنبي - صلى الله عليه وسلم - : « وأولات
 الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن » : للمطلقة ثلاثا والمتوفى عنها زوجها ؟ فقال :
 هي للمطلقة ثلاثا وللتوفى عنها ... ، (١) .

قالوا . ولا تعارض بين هذه الآية ، وبين قوله - تعالى - في سورة البقرة
 » والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر
 وعشرا ... « لأن آية سورة البقرة ، خاصة بالنساء اللاتي توفى عنهن أزواجهن
 ولم يكن هؤلاء النساء من ذوات الأحمال .

وفي هذه المسألة أقوال أخرى مبسطة في مظانها (١)

ثم كرر - سبحانه - الأمر بتمواه ، وبشر المتقين بالخير العقيم فقال :
 (ومن يتق الله) - تعالى - فينفذ ما كلف به ، ويبتعد عما نهى عنه .

(يجعل له) - سبحانه - (من أمره يسرا) أى : يجعل له من الأمر اليسر
 أمرا ميسورا ، ويحول له الأمر الصعب إلى أمر سهل ، لأنه - سبحانه - له
 الخلق والأمر .

(ذلك) الذى ذكرناه لكم من أحكام (أمر الله) أى : حكمه وشرعه
 وشرعه (أنزله إليكم) لتعملوا به ، وتسيروا على هديه .

(ومن يتق الله) - تعالى - فى كل شئونه وأحواله .. يكفر عنه سيئاته
 أى : يمح عنه ذنوبه ، ولا يؤاخذ به . (ويعظم له أجرا) أى : ويضاعف
 له حسناته ، ويجزل له العطاء والمثوبة يوم القيامة .

ثم أمر - سبحانه - الرجال بأن يحسنوا معاملة النساء المطلقات ، ونهى
 عن الإساءة اليهن بأى لون من ألوان الإساءة فقال : (أسكنوهن من حيث
 سكتن من وجعكم . .) والخطاب للرجال الذين يريدون فراق أزواجهن ،
 والضمير المنصوب فى قوله (أسكنوهن) يعود إلى النساء المطلقات .
 و (من) للتبويض . والوجد : السعة والقدرة .

(١) راجع تفسير آيات الأحكام ج ٤ ص ١٦٦ . وتفسير الألوسى

أى : أسكنوا المطلقات فى بعض البيوت التى تسكنونها . والى هى فى وسعكم وطاقتكم إسكانهن فيها .

قال صاحب الكشف : قوله « أسكنوهن » ، وما بعده : بيان لما شرط من التقوى فى قوله : « ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ... » ، كأنه قيل : كيف نفعل بالتقوى فى شأن المعتدات ؟ فقيل « أسكنوهن » .

فإن قلت : « من » فى قوله « حيث سكنتم » ، ما هى ؟ قلت : تبعيضية . .
أى : أسكنوهن مكانا من حيث سكنتم . أى بعض مكان سكنناكم .

فإن قلت : فقوله : « من وجدكم » ، ما موقعه ؟ قلت : هو عطف بيان لقوله « من حيث سكنتم » ، وتفسر له ، كأنه قيل : أسكنوهن مكانا من مسكنكم بما تطيقونه .

والسكنى والنفقة : واجبتان لكل مالقة . وعند مالك والشافعى : ليس للبيوتنة إلا السكن ولا نفقة لها . وعن الحسن وحماد : لا نفقة لها ولا سكنى ، لحديث فاطمة بنت قيس : أن زوجها أبت طلاقها ، فقال لها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : لا سكنى لك ولا نفقة ... (١)

ثم أتبع - سبحانه - الأمر بالإحسان إلى المطلقات ، بالنهى عن إلحاق الأذى بهن فقال : « ولا تضاروهن لتضييقا عليهن ... »

أى : ولا تستعملوا معهن ما يؤذيهن ويضرهن ، لىكن تضييقوا عليهن ما منحه الله - تعالى - لهن من حقوق ، بأن تطيلوا عليهن مدة العدة ، فتصبح الواحدة منهن كالمعلقة ، أو بأن تضييقوا عليهن فى السكنى ، حتى يلجأن إلى الخروج ، والتنازل عن حقوقهن .

وقوله - تعالى - : « وإن كن أولات حمل فأنفقوا عليهن حتى يضعن

حملن ... ، أى . وإن كن المطلقات أصحاب حمل ، فعليكم - يامعشر الأزواج - أن تقدموا لهن النفقة المناسبة ، حتى يرضعن حملن .

قال الإمام ابن كثير : قال كثير من العلماء منهم ابن عباس ، وطائفة من السلف ... هذه فى البائن ، إن كانت حاملا أنفق عليها حتى تضع حملها . قالوا : بدليل أن الرجعية نجب نفقتها سواء أكانت حاملا أم غير حامل .

وقال آخرون : يل السياق كله فى الرجعيات ، وإنما نص على الإنفاق على الحامل - وإن كانت رجعية - لأن الحمل تطول مدته غالبا ، فاحتيج إلى النص على وجوب الإنفاق إلى الوضع ، لئلا يتوهم أنه إنما تجب النفقة بمقدار مدة العدة ... (١)

ولما كان الحمل ينتهى بالوضع ، إنتقلت السورة الكريمة إلى بيان ما يجب للمطلقات بعد الوضع ، فقال - تعالى - : **وَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ ...**

أى : عليكم - أيها المؤمنون - أن تقدموا للنساء كن ذوات الحمل اللائى طلقتموهن طلاقا بائنا . عليكم أن تقدموا لهن النفقة حتى يرضعن حملن ، فإذا ما ورضعن حملن وأرادوا أن يرضعن لكم أولادكم منهن ، فعليكم - أيضا - أن تعطوهن أجورهن على هذا الإرضاع ، وأن تلتزموا بذلك لهن .

وقد أخذ العلماء من هذه الآية أن الأم المطلقة طلاقا بائنا ، إذا أرادت أن ترضع ولدها بأجر المثل ، فليس لأحد أن يمنعها من ذلك ، لأنها أحق به من غيرها ، لشدة شفتها عليه ... وليس للأب أن يسترضع غيرها حينئذ كما أخذوا منها - أيضا - أن نفقة الولد الصغير على أبيه ، لأنه إذا لزمته أجره الرضاع ، فبقية النفقات الخاصة بالصغير تقاس على ذلك .

وقوله - سبحانه - : : وأتمروا بينكم بمعروف - حض منسه - سبحانه -
للآباء والأمهات على التعاون والتناصر في وجوه الخير والبر .

والإتيار معناه : التشاور وتبادل الرأي ، وسمى التشاور بذلك لأن
المتشاورين في مسألة ، يأمر أحدهما الآخر بشيء فيستجيب لأمره . ويقال :
أتمم القوم وتآمروا بمعنى واحد .

أى : عليكم - أيها الآباء والأمهات - أن تتشاوروا فيما ينفع أولادكم ،
وليأمر بعضكم بعضا بما هو حسن ، فيما يتعلق بالارضاع والاجر وذيرهما .
وقوله - تعالى - : : إن تعاسرتم فسترضع له أخرى ، إرشاد إلى ما يجب
عليهما في حالة عدم التراضى على الإرضاع أو الإجر

والتعاسر مأخوذ من العسر الذى هو ضد اليسر والسماحة ، يقال تعاسر
المتبايعان ، إذا تمسك كل واحد منهما برأيه ، دون أن يتفقا على شيء .

أى : وإن اشتد الخلاف بينكم ، ولم تصلوا إلى حل ، بأن لا تمتنع الأب
عن دفع الأجرة للأم ، أو لا تمتنع الأم عن الإرضاع إلا بأجر معين . ،
فليس معنى ذلك أن يبقى المولود جائعا بدون رضاعة ، بل على الأب أن
يبحث عن مرضعة أخرى ، لكي ترضع له ولده ، فالضمير فى قوله ، له ،
يعود على الأب

قال صاحب الكشف : قوله : : وإن تعاسرتم فسترضع له أخرى ، أى
فستوجد ولا تعوز مرضعة غير الأم ترضعه ، وفيه طرف من معاتبة الأم
على المعاصرة ، كما تقول لمن تستفضيه حاجة فيتوانى : سيقضيها غيرك . تريد
أن تبقى غير مقضية وأنت ملوم ،

وقد علق المحشى على الكشف بقوله : وخص الأم بالمعاتبة ، لأن المبدول
من جهتها هو لبنها وهو غير متمول ولا مضمون به فى العرف ، وخصوصا

فى الأم على الولد ، ولا كذلك المبذول من جهة الأب ، فإنه المال المضمون به عادة ، فالأم إذا أجدى باللوم ، وأحق بالعتب ، (١)

قالوا : وفى هذه الجملة - أيضا - طرف من معاتبة الأب ، لأنه كان من الواجب عليه أن يسترضى الأم ، ولا يكون مصدر عسر بالنسبة لها ، حرصا على مصلحة الولد .

ثم رسم - سبحانه - لعباده المنهج الذى لو إتبعوه لعاشوا آمنين مطمئنين فقال : **د لينفق ذو سعة من سعته .**

والإنفاق : بذل المال فى المصالح المتنوعة التى أحلها الله - تعالى - ، كلما أكل والمشرب ، والملبس ، والمسكن ، وإعطاء كل ذى حق حقه .

والسعة : البسطة فى المال والرزق

أى : على كل من أعطاه الله - تعالى - سعة وبسطة فى المال والرزق ، أن ينفق بما أعطاه الله - تعالى - وأن لا يبخل ، فإن البخل صفة قبيحة ، ولا سيما فى الأغنياء .

فعلَيْكُمْ - أيها الآباء - أن تعطوا بسخاء كل من يستحقون العطاء ، وعلى رأسهم الأمهات لأولادكم ، اللاتى يقمن بإرضاعهم بعد مفارقتكم لهن ، وأن لا تبخلوا عليهن فى أجره الرضاع ، أو فى النفقة على الأولاد .

ثم قال - تعالى - : **د ومن قدر عليه رزقه فلينفق بما آتاه الله ..** أى : ومن كان رزقه ضيقا وليس واسعا . . . فلينفق على قدر ماله ورزقه وطاقته ، بما آتاه الله - تعالى - من رزق .

وقوله : **د لا يكلف الله نفسا إلا ما آتاها ..** تعليل لما قبله . أى : فلينفق كل إنسان على نفسه وعلى زوجته ، وعلى أولاده ، وعلى أقاربه ، وعلى غيرهم .

على حسب حاله ، فإن كان موسرا أنفق على حسب يسره ، وإن كان معسرا أنفق على حسب عسره ... لأن الله - تعالى - لا يكلف نفسا إلا بقدر ما أعطاها من طاقة أو رزق ...

روى ابن جرير أن عمر بن الخطاب سأل عن أبي عبيدة فقيل له : إنه يلبس الغليظ من الثياب ، ويأكل الخشن من الطعام ، فيبحث إليه بألف دينار ، وقال للرسول : انظر ماذا يصنع إذا أخذها ، فلما أخذها ، ما لبث أن لبس **لبين الثياب** ، وأكل أطيب الطعام ... فجاء الرسول فأخبره فقال عمر : رحم الله أبا عبيدة ، لقد عمل بهذه الآية : لينفق ذو سعة من سعته ، ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله ، (١) .

ثم ختم - سبحانه - الآية السكرمة ببشارة لمن يتبع أمره فقال : **سيجعل الله بعد عسر يسرا** ، أى : **سيجعل الله - تعالى - بفضله وإحسانه - اليسر بعد العسر** ، **والسعة بعد الضيق** ، **والغنى بعد الفقر** ... لمن شاء من عباده ، **لأنه - سبحانه - هو الذى يسطر الرزق لمن يشاء ويقدر** ، وهو بمعباده خير بصير .

قال الإمام ابن كثير : وقد روى الإمام أحمد عن أبي هريرة قال : دخل رجل على أهله ، فلما رأى ما بهم من الفاقة خرج إلى البيرة ، فلما رأت امرأته ذلك قامت إلى الرحى فوضعتها ، وإلى التنور فسجرتة - أى أوقدته - ، ثم قالت : اللهم ارزقنا . فنظرت ، فإذا الجفنة قد امتلأت ..

قال : وذهبت إلى التنور فوجدته ممتلئا ، قال : فرجع الزوج فقال لأهله . **أصبتم بعدى شيئا ؟** فقالت امرأته : نعم من ربنا ..

فذكر الرجل ذلك للنبي - صلى الله عليه وسلم - فقال أما إنه لو لم ترفعها ،
لم نزل تدور إلى يوم القيامة ، (١) .

• • •

وبعد هذه التشريعات الحكيمية التي تتعاقب بالطلاق وما يقرب عليه من
آثار ، وبعد هذا التذكير المتكرر بوجوب تقوى الله - تعالى - والمحافظة
على أداء تكاليفه ، وبعد هذا الوعظ المؤثر في قلوب الذين يؤمنون بالله
واليوم الآخر

بعد كل ذلك ساق - سبحانه - جانباً من سوء عاقبة الأقوام الذين فسقوا
عن أمر ربهم ، وخالفوا رسله ، وكرر الأمر بتقواه ، وذكر الناس بجانب
من نعمه ، حيث أرسل إليهم رسوله - صلى الله عليه وسلم - ليتلو عليهم
آياته ... كما ذكرهم بعظيم قدرته - تعالى - وشمول علمه ، فقال - سبحانه - .

« وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ ، فَخَاسَبْنَاهَا
حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُكَرًا (٨) فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ
عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا (٩) أَعِدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ، فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولَى
الْأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا (١٠) رَسُولًا يَتْلُو
عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ، وَمَنْ يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ
جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ
رِزْقًا (١١) اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ ، وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ
يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لَتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ، وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ
أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا (١٢) » .

وكلمة « كآين » اسم لعدد كثير مبهم ، يفسره ما بعده ، فهو بمعنى « كم » ،
الخبرية التي تفيد التأكيد ، وهي مبتدأ ، وقوله « من قرية » تمييز لها .

وجملة « عنت عن أمر ربها » خبر للمبتدأ . والعنو : الخروج عن الطاعة .
يقال : عتا فلان يعتو عتوا وعتيا ، إذا تجبر وطغى وتجاوز الحدود في
الاستكبار والعناد .

والمراد بالقرية : أهلها ، على سبيل المجاز المرسل ، من إطلاق المحل
وإرادة الحال ، فهو كقوله - تعالى - : « وأسأل القرية التي كنا فيها » .
والقرينة على أن المراد بالقرية أهلها ، قوله - تعالى - بعد ذلك : « أعد الله
لهم عذابا شديدا » ..

والمراد بالمحاسبة في قوله « فحاسبناها ... » المجازاة والمعاقبة الدنيوية
على أعمالهم ، بدليل قوله - تعالى - عن العذاب الآخروي بعد ذلك
« أعد الله لهم عذابا شديدا » .

ويجوز أن يراد بالمحاسبة هنا . العذاب الآخروي ، وجيء بلفظ الماضي
على سبيل التأكيد وتحقيق الوقوع ، كما في قوله - تعالى - : « ونادى أصحاب
الجنة أصحاب النار .. »

ويكون قوله - سبحانه - : « أعد الله لهم عذابا شديدا »
تكريرا للوعيد .

والمعنى : وكثير من أهل القرى الماضية ، خرجوا عن طاعة ربهم ،
وعصوا رسله ، فكانت نتيجة ذلك أن سجلنا عليهم أفعالهم تسجيلا دقيقا ،
وجازيناهم عليها جزاء عادلا ، بأن عذبناهم عذابا فظيما . وعاقبناهم عقابا
نكرا ..

والشيء النكسر - بضم تين وبهم فسكون - ما ينكره العقل من شدة كيفية
حدوثه لإنكارا عظيما .

والفاء في قوله - تعالى - : فذاقت وبال أمرها . . . ، للتفريع على ما تقدم .

والوبال : الثقل ، ومنه الطعام الوبيل أى : الوخيم الثقيل على المعدة فيكون سببا في فسادها ومرضها . والذوق : الإحساس بالشيء . إحساسا واضحا . . .

أى : فترتب على هذا الحساب والعقاب ، أن ذاق أهل تلك الذرى سوء عاقبة حالهم وأمرهم وجحودهم لنعم الله . ،

وكان عاقبة أمرها خسرا ، أى : وكانت نهايتهم نهاية خاسرة عظيمة ، كما يخسر التاجر صفقته التجارية التى عليها قوام حياته .

ثم بين - سبحانه - ما أعد له فى الآخرة من عذاب ، بعد بيان ما حل بهم فى الدنيا فقال : « أعد الله لهم عذابا شديدا . . . »

أى : أن ما أصابهم فى الدنيا بسبب فسوقهم عن أمر ربهم ، ليس نهاية المطاف ، بل هيا الله - تعالى - لهم عذابا أشد من ذلك وأبقى فى الآخرة .. وما دام الأمر كذلك ، فاتقوا الله يا أولى الألباب ، الذين آمنوا قد أنزل الله إليكم ذكرا . . .

والألباب جمع لب ، وهو العقل السليم الذى يرشد صاحبه إلى الخير والبر .

وقوله « الذين آمنوا » منصوب بإضمار أعنى على سبيل البيان للنهادى ، أو عطف بيان له .

والمراد بالذكر : القرآن الكريم ، وقد سمي بذلك فى آيات كثيرة منها قوله - تعالى - (لقد أنزلنا إليكم كتابا فيه ذكركم . . .) أى : فيه شرفكم وعزكم ، وفيه ما يذكركم بالحق ، وينهاكم عن الباطل
أى : فاتقوا الله - تعالى - يا أصحاب العقول السليمة ، ويا من آمنتم بالله

- تعالى - حق الإيمان ، فهو - سبحانه - الذى أنزل عليكم القرآن الكريم ،
الذى فيه ما يذكركم عما غفلتم عنه من عقيدة - لمية ، ومن أخلاق كريمة ،
ومن آداب قويمه ...

وفى نداءهم بوصف : أولى الألباب ، ، إشعار بأن العقول الراجحة ،
هى التى تدعو أصحابها إلى تقوى الله وطاعته ، وإلى كل كمال فى الطباع والسلوك .

والمراد بالرسول فى قوله - تعالى - : رسولاً يتلو عليكم آيات الله مبينات .
محمد - صلى الله عليه وسلم - والمفسرين جملة من الأقوال فى إعرابه ، فمنهم
من يرى أنه منصوب بفعله مقدر ، ومنهم من يرى أنه بدل من
ذكره (١) .

والمعنى : فانقروا الله - أيها المؤمنون - فقد أنزلنا إليكم قرآن فيه ما يذكركم
بغير الدنيا والآخرة ... وأرسلنا إليكم رسولاً هو عبدنا محمد - صلى الله عليه
وسلم - لىكى يتلو عليكم آياتنا تلاوة تدبر وفهم ، يعقبهما تنفيذ ما اشتملت
عليه هذه الآيات من أحكام وآداب وهدايات ...

ولىكى يخرج الذين آمنوا وعملوا الصالحات من ظلمات الشرك الذى كانوا
واقعين فيه ، إلى نور الإيمان الذى صاروا إليه .

ومنهم من فسر الذكر بالرسول - صلى الله عليه وسلم - ...

قال الألوسى ما ملخصه : وقوله : قد أنزل الله إليكم ذكراً ، هو النبى
- صلى الله عليه وسلم - ، وعبر عنه بالذكر ، لمواظبته على تلاوة القرآن الذى
هو ذكر ...

وقوله - تعالى - : رسولاً ، بدل من ذكره ، وعبر عن إرساله
بالإنزال ، لأن الإرسال مسبب عنه ...

(١) راجع حاشية الجمل على الجلالين ج ٤ ص ٣٦١

والظاهر أن الذكر هو القرآن . والرسول هو محمد - صلى الله عليه وسلم -
ورسولا منصوب بمقدر ، أى : وأرسل رسولا (١) .

ثم بين - سبحانه - حسن عاقبة المؤمنين الصادقين فقال : « ومن يؤمن
بآله ، إيماناً حقاً ، ويعمل ، عملاً ، صالحاً ، يدخله ، - سبحانه - بفضله
وإحسانه ، جنات تجري من تحتها الأنهار ، خالدين فيها ، خلوداً أبدياً ... »

وقوله : « قد أحسن الله له رزقاً ، حال من الضمير المنصوب في قوله
« يدخله ، » والجمع في الضمائر باعتبار معنى « من ، » كما أن الأفراد في الضمائر
الثلاثة باعتبار لفظها : « والرزق ، كل ما ينتفع به الإنسان ، وتنكيره للتعظيم .
أى : قد وسع الله - تعالى - لهذا المؤمن الصادق في إيمانه رزقه في الجنة ،
وأعطاه من الخير والنعم ، ما يشرح صدره ، ويدخل السرور على نفسه ،
ويصلح بآله ... »

ثم ختم - سبحانه - السورة السكرية بما يدل على كمال قدرته ، وسعة علمه .
فقال : « الله الذى خلق سبع سماوات ومن الأرض مثلهن ... »

أى : الله - تعالى - وحده هو الذى خلق سبع سماوات طباقاً ، وخلق من
الأرض مثلهن ، أى : فى العدد ، فهى سبع كالسماوات .

والتعدد قد يكون باعتبار أصول الطبقات الطينية والصخرية والمائية
والمعدنية ، وغير ذلك من الاعتبارات التى لا يعلمها إلا الله - تعالى - .

قال الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية : يقول - تعالى - مخبراً عن
قدرته التامة ، وسلطانه العظيم ، ليكون ذلك باعثاً على تعظيم ما شرع من
الدين القويم : « الله الذى خلق سبع سماوات : كقوله - تعالى - لإخباراً عن
روح أنه قال أقومه : « ألم تروا كيف خلق الله سبع سماوات طباقاً ... »
وقال - تعالى - « تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن ، »

وقوله : « ومن الأرض مثلن ، أى : سبعا . أيضا - كما ثبت في الصحيحين : « من ظلم قيد شبر من الأرض طوقه من سبع أرضين » .

وفي صحيح البخارى : « خسف به إلى سبع أرضين ، ... »

ومن حمل ذلك على سبعة أقاليم ، فقد أبعد النجعة ، وأغرق في الزرع ، وخالف القرآن والحديث بلا مستند ... ، (١) .

وقال الألومى : « الله الذي خلق سبع سموات ، مبتدأ أو خبر . ومن الأرض مثلن ، أى : وخلق من الأرض مثلن . على أن « مثلن » مفعول لفعل محذوف ، والجملة معطوفة على الجملة قبلها ... »

والمثلية تصدق بالاشتراك في بعض الأوصاف ، فقال الجمهور : « هي هنا في كونها سبعا وكونها طباقا بعضها فوق بعض ، بين كل أرض وأرض مسافة كما بين السماء والأرض ، وفي كل أرض سكان من خلق الله ، لا يعلم حقيقةتهم أحد إلا الله - تعالى - . »

وقيل : المثلية في الخلق لا في العدد ولا في غيره ، فهي أرض واحدة مخلوقة كالسموات السبع ... »

ورد هذا القيل بأنه قد صح من رواية البخارى وغيره ، قوله - صلى الله عليه وسلم - : « اللهم رب السموات السبع وما أظللن ، ورب الأرضين السبع وما أقللن ... » ، (٢) .

والذى نراه أن كون المثلية في العدد ، هو المعمول عليه ، لورود الأحاديث الصحيحة التى صرحت بأن الأرضين سبع ، فعلمنا أن تؤمن بذلك ، وأن ترد كيفية تكوينها ، وهيئاتها ، وأبعادها ، ومساحتها ، وخصائصها ... إل علم الله - تعالى - .

(١) تفسير ابن كثير ج ٨ ص ١٨٢

(٢) تفسير الألومى ج ٢٨ ص ١٤٣

وقوله : « يتنزل الأمر بينهن ، أي : يجرى أمر الله - تعالى - وقضاؤه وقدره بينهن ، وينفذ حكمه فيهن . فالمراد بالأمر : قضاؤه وقدره ووجبه . واللام في قوله - تعالى - : « لتعلموا أن الله على كل شيء قدير ، وأن الله قد أحاط بكل شيء علما ، متعلقة بقوله « خلق » ... »

أي : خلق - سبحانه - سبع سماوات ومن الأرض مثلن ، وأخبركم بذلك ، لتعلموا علما تاما أن الله - تعالى - على كل شيء قدير ، وأن علمه - تعالى - قد أحاط بكل شيء ، سواء أكان هذا الشيء جليلا أم حقيرا ، صغيرا أم كبيرا ... »

وبعد : فهذا تفسير لسورة الطلاق ، نسأل الله - تعالى - أن يجعله خالصا لوجهه ونافعا لعباده ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ؟

الاسكندرية - المجمعى : ٢٤ من شوال سنة ١٤٠٦ هـ

٣٠ من يونيو سنة ١٩٨٦ م

تفسير
سُورَةُ التَّحِيْمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١ - سورة «التحریم» من السور المدنية الخاصة ، وتسمى - أيضا - بسورة «لم تحرم» ، وسورة «النبي» - صلى الله عليه وسلم - وعدد آياتها اثنتا عشرة آية .

٢ - وكان نزولها بعد سورة «الحجرات» ، وقبل سورة «الجمعة» ، فهي السورة الخامسة بعد المائة بالنسبة لترتيب نزول السور انقرآنية ، أما ترتيبها في المصحف ، فهي السورة السادسة والستون .

٣ - والسورة الكريمة في مطلعها تحكي جانباً مما دار بين النبي - صلى الله عليه وسلم - وبين بعض زوجاته ، فتمرض صفحة من حياته - صلى الله عليه وسلم - في بيته ، ومن عتاب الله - تعالى - له - ومن فضله عليه ، ودفاعه عنه ..

٤ - ثم وجهت نداء إلى المؤمنين أمرتهم فيه بأن يداوموا على العمل الصالح الذي ينجيهم من عذاب الله - تعالى - ، وحرصتهم على التسليح بالتوبة النصوح لأنها على رأس الأسباب التي تزدهم إلى تكفير سيئاتهم ...

٥ - ثم ختمت السورة الكريمة بضرب مثلين أحدهما للذين آمنوا ، ويتمثل في امرأة فرعون وفي مريم ابنة عمران ، والآخر للذين كفروا ويتمثل في امرأة نوح وامرأة لوط - عليهما السلام - والفرص من ذلك العظة والاعتبار .

وقد افتتح - سبحانه - السورة الكريمة - بقوله - تعالى - :

« يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ ، تَتَّبِعِي مَرْضَاةَ أَزْوَاجِكَ
وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١) قد فرض الله عليكم تحلةً أيمانكم والله مولاكم
وهو العليم الحكيم (٢) وإذ أسر النبي إلى بعض أزواجه حديثاً ،

فَلَمْ تَبَيِّنْ بِهِ وَأَظْهَرَ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ
 فَلَمَّا تَبَيَّنَ بِهَا بِهِ قَالَتْ مِنْ أَنْبَاكَ هَذَا ، قَالَ نَبَأَنِي الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ (٣) إِنَّ
 تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ، وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ
 مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ ، وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ (٤)
 عَمَى رَبُّهُ إِنْ طَلِقْتُكَ أَنْ يُبَدِّلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكَ مُسْلِمَاتٍ
 مُؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ، تَبَيَّنَتْ وَأُنْكَرَ (٥) .

وقد ذكر المفسرون في سبب نزول هذه الآيات روايات متعددة ، منها
 ما رواه الشيخان وغيرهما عن عائشة - رضى الله عنها - قالت : كان رسول الله
 - صلى الله عليه وسلم - يشرب عسلا عند زينب بنت جحش ، ويمكث عندها
 فتواطأت أنا وحفصة على أنبتنا دخل عليها فلتقل له : أكلت مغافير ؟ -
 والمغافير : صمغ حلولة رائحة كريهة - إني أجد منك ريح مغافير ...

فدخل على إحداهما فقالت له ذلك ، فقال : بل شربت عسلا عند زينب
 بنت جحش وإن أعود إليه ، وقد حلقت ، فلا تخبري بذلك أحدا ، فزلت
 هذه الآيات .

وفي رواية أن النى شرب عندها العسل : حفصة بنت عمر ، وأن القائلة
 له ذلك : سودة بنت زمعة ، وصفية بنت حيى ...

قالوا : والاشتباه في الاسم لا يضر ، بعد ثبوت أصل القصة .

وأخرج النسائي والحاكم ومصححه ، وابن مردويه عن أنس ، أن رسول
 - صلى الله عليه وسلم - كانت له أمة يطؤها ، فلم تزل به عائشة وحفصة حتى
 جعلها على نفسه حراما ، فأنزل الله - تعالى - : يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ
 لَكَ ... الآيات ...

وزوى ابن جرير عن زيد بن أسلم : أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أصاب أم إبراهيم مارية ، في بيت بعض نسائه - وفي رواية في بيت حفصة فقالت : يا رسول في يدي وعلى فراشي ؟ فجعلها - أى مارية - عليه حراما . وحلف بهذا ... فأنزل الله هذه الآيات (١) .

قال القرطبي ما ملخصه : وأصبح هذه الأقوال أولها ... والصحيح أن التحريم كان في الغسل ، وأنه شربه عند زينب . وتظاهرت عليه عائشة وحفصة فيه ، فجرى ما جرى لحلف أن لا يشربه وأمر ذلك ونزلت الآية في الجميع (٢) .

وقال الإمام ابن كثير - بعد أن ساق عددا من الروايات في هذا الشأن - : والصحيح أن ذلك كان في تحريمه - صلى الله عليه وسلم للغسل (٣) .

وقال الألوسي : قال النووي في شرح مسلم : الصحيح أن الآية في قصة الغسل ، لا في قصة مارية المروية في غير الصحيحين ، ولم تأت قصة مارية من طريق صحيح ...

والصواب أن شرب الغسل كان عند زينب بنت جحش ... (٤) .

وقد افتتح - سبحانه - السورة السكرية بتوجيه النداء إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - فقال : يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك ... ، وفي توجيه النداء إليه - صلى الله عليه وسلم - ، تنبيه إلى أن ما سيذكر بعد النداء ، شيء مهم بالنسبة له ، ولسائر المسلمين .

(١) راجع تفسير القرطبي ١٨ ص ١٧٧ ، وتفسير ابن كثير ٨ ص

ص ١٨٥ وتفسير الألوسي ٢٨ ص ١٤٦ .

(٢) راجع تفسير القرطبي ١٨ ص ١٧٩ .

(٣) راجع تفسير ابن كثير ٨ ص ١٨٧ .

(٤) راجع تفسير الألوسي ٢٨ ص ١٤٧ .

والاستفهام في قوله - تعالى - : لم تحريم ما أحل الله لك للنفي
المصحوب بالعتاب منه - سبحانه - لنبيه - صلى الله عليه وسلم - .

وجملة : تبتغي مرضاة أزواجك ، حال من فاعل تحرم ، ، والعتاب
واقع على مضمون هذه الجملة والتي قبلها ، وهي قوله : لم تحرم ما أحل الله لك ، .
والمعنى : يا أيها الرسول الكريم ، لماذا حرمت على نفسك ما أحله الله
- تعالى - لك من شراب أو غيره ؟ أفعلت ذلك من أجل إرضاء أزواجك ؟
لأنه لا ينبغي لك أن تفعل ذلك ، لأن ما أباحه الله - تعالى - لك ، لا يصح
أن تحرمه على نفسك ، أو أن تمتنع عن تعاطيه ، فتشق على نفسك من أجل
إرضاء غيرك .

قال بعض العلماء : ناداه بلفظ : النبي ، إشعاراً بأنه الذي نبي . بأمرار
التحليل والتحريم الإلهي . والمراد بتحريمه ما أحل له . امتناعه منه ،
وحظره لإياءه على نفسه .

وهذا المقدار مباح ، ليس في ارتكابه جناح . وإنما قبل له ، لم تحرم
ما أحل الله لك ، رفقاً به ، وشفقة عليه ، وتنوياً لقدره ولمنصبه - صلى الله
عليه وسلم - أن يراعى مرضاة أزواجه بما يشق عليه ، جرياً على ما ألف من
لطف الله - تعالى - به ، ورفعاً عن أن يخرج بسبب أحد من البشر الذين هم
أتباعه . . . (١) .

وقوله - سبحانه - : والله غفور رحيم ، تسلية للرسول - صلى الله عليه
وسلم - عما أصابه من وقع هذا اليوم ، ومن أثر هذا العتاب ، وإرشاد له
- صلى الله عليه وسلم - بأن ما فعله . داخل تحت مغفرة الله - تعالى -
ورحمته .

أى : والله - تعالى - واسع المغفرة والرحمة وقد غفر لك - بفضلته وكرمه - ما فعلته بسبب بعض أزواجك ، وجعلك على رأس من تظلمهم رحمة .

ثم بين - سبحانه - جانباً من مظاهر رحمة فقال : وقد فرض الله عليكم تحلة أيمانكم ..

وقوله فرض ، هنا بمعنى شرع . والتحله : مصدر بمعنى التحليل ، والمراد بها الكفارة . وهي مصدر حلل كالتكريمة مصدر كرم ، من الحل الذى هو ضد العقد ...

أى : قد شرع الله - تعالى - لكم تحليل الإيمان التى عقدتموها ، عن طريق الكفارة ، لأن اليمين إذا كانت فى أمر لا يحبه الله - تعالى - ، فالعدول عنها أولى وأفضل .

وفى الحديث الشريف يقول - صلى الله عليه وسلم - : إني والله لأحلف على يمين فأرى غيرها خيراً منها إلا كفرت عن يميني وفعلت الذى هو خير ، وقد اختلف العلماء فى التحريم الذى كان من النبى - صلى الله عليه وسلم - أكان يمين أم لا ؟

وظاهر الآية يؤيد القول بالإيجاب ، لقوله - تعالى - : وقد فرض الله لكم تحلة أيمانكم ، لأن هذه الجملة الكريمة تشعر بأن هناك يميناً نحتاج إلى كفارة .

وقد جاء فى بعض الروايات الصحيحة أنه قال : دبل شربت عسلاً عند زينب بنت جحش ، فلن أعود له ، وقد حلفت . لا تخبرى بذلك أحداً قال الألوسى مالم يخلصه : واختلفوا هل كفر النبى - صلى الله عليه وسلم - عن يمينه هذه أم لا ؟

فمن الحسن أنه - صلى الله عليه وسلم - لم يكفر لأنه كان مغفوراً له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، وإنما هو تعليم للدومنين ...

وعن مقاتل : أنه - صلى الله عليه وسلم - أعتق رقبة . . . ونقل مالك عن زيد بن أسلم أنه - صلى الله عليه وسلم - أعطى الكفارة . . . (١)

وقوله - سبحانه - : **و الله مولاكم ، أى : وهو - سبحانه - سيدكم ومتولى أموركم وناصركم . وهو - تعالى - : العالم الحكيم ، أى : العالم بجميع أحوالكم وشؤونكم ، الحكيم فى كل أقواله وأفعاله وتدابير شئون عباده .**

والظرف فى قوله - تعالى - : وإذ أسر النبي إلى بعض أزواجه حديثا . . . متعلق بمحذوف تقديره أذكر . وقوله : : أسر ، من الإسرار بالشئ . بمعنى كتمانها وعدم إشاعته .

والمراد ببعض أزواجه : حفصة - رضى الله عنهما -

والمراد بالحديث قوله لها - كما جاء فى بعض الروايات - : : بل شربت عسلا عند زينب ، وإن أعود ، وقد حلفت فلا تخبرى بذلك أحدا . . . ، أو قوله لها فى شأن مارية : إني قد حرمتها على نفسي ، فاكتمى ذلك . . . فأخبرت بذلك عائشة ،

أى : وأذكر - أيها العاقل لتعتبر وتتعظ - وقت أن أسر النبي - صلى الله عليه وسلم - إلى زوجته حفصة حديثا ، يتعلق بشربه العسل فى بيت زينب بذات جحش ، وقوله - صلى الله عليه وسلم - لحفصة لا تخبرى بذلك أحدا .

فلما نبأت به ، أى : فلما أخبرت حفصة عائشة بهذا الحديث الذى أمرت بكتمانها - وأظهره الله عليه ، أى : وأطلع الله - تعالى - نبيه - صلى الله عليه وسلم - على ما قالته حفصة لعائشة .

فأراد بالإظهار : الإطلاع ، وهو مشتق من الظهور بمعنى التغلب .
وعبر بالإظهار عن الإطلاع ، لأن حفصة وعائشة كانتا حريصتين على

عدم معرفة ما دار بينهما في هذا الشأن ، فلما أطلع الله - تعالى - نبيه على ذلك كانتا بمنزلة من غلبتا على أمرهما .

وقوله - سبحانه - : « عرف بعضه أعرض عن بعض » ، وإن للمسالكة السامى الذى سلكه - صلى الله عليه وسلم - فى مما نبته حفصة على إنشائها لها أمرها أن تكتمه . والمفعول الأول لعرف مخذوف . أى : أعرفها بعضه .

أى : حين خاطب - صلى الله عليه وسلم - حفصة فى شأن الحديث الذى أفشته ، إكتفى بالإشارة إلى جانب منه ، ولم يذكر لها تفاصيل ما قاله لها سابقا ... لسمو أخلاقه - صلى الله عليه وسلم - إذ فى ذكر التفاصيل مزيد من الخجل والإحراج لها .

قال بعضهم : ما زال التغافل من فعل الكرام ، وما لاستقصى كريم قط وقال الشاعر :

ليس الغي بسيد فى قومه لكن سيد قومه المتغابى

ولمّا عرفها - صلى الله عليه وسلم - ببعض الحديث ، ليوقفها على خطئها وعلى أنه كان من الواجب عليها أن تحفظ سره - صلى الله عليه وسلم -

قالوا : ولعل حفصة - رضى الله عنها - قد فعلت ذلك ، ظنّا منها أنه لا حرج فى إخبار عائشة بذلك ، أو أنها إجتهدت فأخطأت ، ثم تاب وتندمت على خطئها ...

ثم حكى - سبحانه - ما قالته حفصة لرسول - صلى الله عليه وسلم - وما رد به عليها فقال : « فلما نبأها به قالت من أنبأك هذا ، قال نبأنى العليم الخبير » ،

أى : فلما سمعت من الرسول - صلى الله عليه وسلم - ما يدل على أنه قد أطلع على ما قالته لعائشة ، قالت له : من أخبرك بما دار بينى وبينها ؟ فأجابها - صلى الله عليه وسلم - بقوله : أخبرنى بذلك الله - تعالى - العليم بجميع

أحوال عباده وتصرفاتهم... الخبير بما تكنه الصدور . وبما يدور في النفوس من هواجس وخواطر .

إما قالت له - صلى الله عليه وسلم - : « من أتاك هذا ، لتتأكد من أن عائشة لم تحبره - صلى الله عليه وسلم - بما دار بينهما في هذا الشأن - . . فلما قال لها - صلى الله عليه وسلم - : « نبأني العليم الخبير ، تحقق ظنها في كتمان عائشة لما قالت له ، وتيقنت أن الذي أخبره بذلك هو الله - عز وجل - . .

وفي تدبيل الآية الكريمة بقوله : « العليم الخبير » إشارة حكيمة وتنبية بليغ ، إلى أن من الواجب على كل عاقل ، أن يكون ملتزماً لكتمان الأسرار التي يؤمن عليها ، وأن إذاعتها - ولو أضيق الحدود - لا تخفى على الله - عز وجل - لأنه - سبحانه - عليم بكل معلوم ، ومحيط بخبايا النفوس وخلقاتها . ثم وجه - سبحانه - بعد ذلك خطابه إلى حفصة وعائشة ، فأمرهما بالتوبة عما صدر منهما .

قال : « إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما . .

والفظ « صغت » بمعنى مالت وإنحرفت عن الواجب عليهما . يقال : صفا فلان يصغو ويصفى صفوا . . . إذا مال نحوشي . معين . ويقال صغت الشمس إذا مالت نحو الغروب ، ومنه قوله - تعالى - : « لتصفى إليه أئمة الذين لا يؤمنون بالآخرة . .

وجواب الشرط محذوف ، والتقدير : إن تتوبا إلى الله ، فلتوبتكما موجب أو سبب ، فقد مالت قلوبكما عن الحق ، وإنحرفت عما يجب عليكما نحو الرسول - صلى الله عليه وسلم - من كتمان لسره ، ومن حرص على راحته ، ومن إحترام لكل تصرف من تصرفاته . . . وجاء الخطاب لهما على سبيل الالتفات من الغيبة إلى الخطاب ، مبالغة في المعاقبة ، فإن المبالغ في ذلك ، يوجه الخطاب إلى من يريد معاقبته مباشرة .

وقال - سبحانه - « فقد صفت قلوبكما ، بصيغة الجمع للقلوب ، ولم يقل قلباً بالثنية ، لكرهه لاجتماع تثنييتين فيها هو كالكلمة الواحدة ، مع ظهور المراد ، وأمن الملبس .

ثم ساق - سبحانه - ما هو أشد في التخذير والتأديب فقال : « وإن تظاهرا عليه فإن الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين ، والملائكة بعد ذلك ظهير ،

وقوله « تظاهرا » أصله تظاهرا فحذفت إحدى التامين تخفيفاً . والمراد بالتظاهر : التعاون والتآزر . يقال : ظاهر فلان فلانا إذا أعانه على ما يريد . وأصله من الظاهر ، لأن من يعين غيره فكأنه يشد ظهره ، ويقوى أمره ... قال - تعالى - : « إلا الذين عاهدتم من المشركين ، ثم لم ينقصوكم شيئاً ، ولم يظاهروا عليكم أحداً ، فأتوا إليهم مودعين إلى مدتهم ... » (١)

وجواب الشرط - أيضاً - محذوف . أى : وإن تعاونا عليه بما يزعجه ، ويقضيه ، من الإفراط في الغيرة ، وإفشاء سره ... فلا يعدم ناصر ولا معيناً بل سيجد الناصر الذى ينصره عليهما ... فإن الله - تعالى - « هو مولاه ، أى : ناصره ومعينه ، وجبريل ، كذلك ناصره ومعينه عليهما .

« وصالح المؤمنين ، أى : وكذلك الصالحون من المؤمنين من أنصاره وأعوانه .

« والملائكة بعد ذلك ظهير ، أى : والملائكة بعد نصر الله - تعالى - له ، وبعد نصر جبريل وصالح المؤمنين له ، « يؤيدونه وناصرونه وواقفون فى صفه ضدك .

وفى هذه الآية الكريمة أقوى ألوان النصر والتأييد للرسول - صلى الله

عليه وسلم - ، وأسمى ما يتصوره الإنسان من تكريم الله - تعالى - لنيبيه - صلى الله عليه وسلم - ، ومن غيرته - عز وجل - عليه ، ومن دقاعه عنه - صلى الله عليه وسلم - .

وفيها تعريض بأن من يحاول لإغضاب الرسول - صلى الله عليه وسلم - ، فإنه لا يكون من صالح المؤمنين .

وقوله : ، وجبريل ، مبتدأ ، وقوله : ، وصالح المؤمنين والملائكة ، معطوف عليه .

وقوله : بعد ذلك ، متعلق بقوله : ظهير ، الذي هو خبر عن الجميع وقد جاء بلفظ المفرد ، لأن صيغة فاعيل يستوى فيها الواحد وغيره . فكانه - تعالى - قال : والجميع بعد ذلك مظاهرون له . واختير الأفراد للأشعار بأنهم جميعا كالشيء الواحد في تأييده ونصرته ، وبأنهم كأنهم يد واحدة على من يعاديه .

قال صاحب الكشف : فإن قلت : قوله : ، بعد ذلك ، تعظيم للملائكة ومظاهرتهم ، وقد تقدمت نصره الله وجبريل وصالح المؤمنين ، ونصرة الله - تعالى - أعظم وأعظم ؟

قلت : مظهرة الملائكة من جملة نصره الله ، فكانه فضل نصرته - تعالى - بهم وبمظاهرتهم على غير ما من وجوه نصرته لفضلهم ... ، (١)

وخص جبريل بالذكر مع أنه من الملائكة ، للتبوية بمنزلة فضله ، فهو أمين الوحي ، والمبلغ عن الله - تعالى - إلى رسوله .

هذا ، وبما يدل على أن الخطاب في قوله - تعالى - : ، إن تتوبا إلى الله ، لحفصة وعائشة ، ما أخرجه الشيخان وغيرهما عن ابن عباس أنه قال : لم أزل حريضا على أن أسأل عمر عن المرأتين من أزواج رسول الله - صلى الله عليه وسلم - اللتين قال الله - تعالى - فيهما : إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما . حتى حج عمر ، وحججت معه .

فلما كان ببعض الطريق . . . قلت : يا أمير المؤمنين ، من المرأمان من أزواج النبی - صلى الله عليه وسلم - اللتان قال الله - تعالى - فيهما : « أن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما . . . »

فقال عمر : وأعجبا لك يا بن عباس . . . هما حفصة وعائشة . . . (١)

ثم أضاف - سبحانه - إلى تكميمه لغيره تكميمه آخر ، وإلى تهديده لمن تسمى إليه من أزواجه تهديدا آخر فقال - تعالى - : « عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجا خيرا منكن . . . »

قال الجمل ما ملخصه : سبب نزولها أنه - صلى الله عليه وسلم - لما أشاعت حفصة ما أسرها به ، أغتم - صلى الله عليه وسلم - ، وحلف أن لا يدخل عليهن شهرا مؤاخذاً لهن . . .

ولما بلغ عمر - رضى الله عنه - أن النبی - صلى الله عليه وسلم - قد اعتزل نساءه . . . قال له يارسول الله : لا يشق عليك أمر النساء ، فإن كنت طلقتهن فإن الله معك وملائكته وجبريل وميكائيل ، وأنا وأبو بكر والمؤمنون معك .

قال عمر : وقبلما تكلمت بكلام إلا رجوت أن الله يصدق قولى الذى أقوله فنزلت هذه الآية .

فاستأذن عمر النبی - صلى الله عليه وسلم - أن ينهر الناس أنه لم يطلق نساءه فأذن له ، فقام على باب المسجد ، ونادى بأعلى صوته : لم يطلق النبی - صلى الله عليه وسلم - نساءه ، (٢) ودعى ، كلية تستعمل فى الرجاء ، والمراد بها هنا التحقيق ، لأنها صادرة عن - عز وجل -

(١) راجع الحديث بنماه فى تفسير ابن كثير ج ٨ ص ١٨٨ فهو حديث متع وطويل .

(٢) حاشية الجمل على الجلالين ج ٤ ص ٣٦٧ ، مع ما فى المسألة (١)

(٣٩ - سورة التحريم)

قال الآلوسى : عسى ، فى كلامه - تعالى - للوجوب ، وأن الوجوب هنا إنما هو بعد تحقق الشرط . وقيل : هى كذلك إلا هنا . والشرط معترض بين اسم ، عسى ، وخبرها .

والجواب مخذوف . أى : إن طلقتم فعى ... و . أزواجا ، مفعول ثان ، ليبدل ، و ، خيرا ، صفته ... ، (١) .

أى : عسى إن طلقتم رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم - بإذن ربه ومشيتته ، أن يبدله - سبحانه - أزواجا خيرا ممكن .

ثم وصف - سبحانه - هؤلاء الأزواج بقوله : مسلمات ، مطلقات ومطيعات لله ولرسوله ، ومتصفات بكل الصفات التى أمر بها الإسلام .

، مؤمنات ، أى : مدعنات ومصدقات بقلوبهن لكل ما جاء به النبي - صلى الله عليه وسلم - من عنده .

، قانتات ، أى : قائمات بالطاعة لله ولرسوله على أكل وجه .

، تائبات ، أى : مقلعات عن الذنوب والمعاصى ، وإذا مسهن شيء منها ندمن وتبن إلى الله - تعالى - توبة صادقة نصوحا .

، عابدات ، أى : مقبلات على عبادته - تعالى - إقبالا عظيما ...

، سائحات ، أى : ذاهبات فى طاعة الله أى مذهب ، من ساح الماء : إذا سال فى أنحاء متعددة . وقيل معناه : مهاجرات . وقيل : صائمات . تشبيها لهن بالسائح الذى لا يصحب معه الزاد غالبا ، فلا يزال ممسكا عن الطعام حتى يجده .

، نيبات ، جمع نيب - بوزن سيد - وهى المرأة التى سبق لها الزواج ، من نأب يشوب ثوبا ، إذا رجع . وسميت المرأة التى سبق لها الزواج بذلك ، لأنها ثابت إلى بيت أبيها بعد زواجها ، أو رجعت إلى زوج آخر غير زوجها الأول .

«وأبكارا، جمع بكر، وهى الفتاة العذراء التى لم يسبق لها الزواج، وسميت بذلك لأنها لا تزال على أول حالتها التى خلقت عليها.

وهذه الصفات جاءت منصوبة على أنها نعت لقوله «أزواجاً، أو حال. ولم يعطف بعضها على بعض بالواو، لأجل التنصيص على ثبوت جميع تلك الصفات لكل واحدة منهم.

وعطف - سبحانه - «وأبكارا» على ما قبله لتنافى الوصفين، إذ الثيبات لا يوصفن بالأبكار، وكذلك الأبكار لا يوصفن بالثيبات، ولا يجتمع الوصفان فى ذات واحدة.

قال صاحب الكشف: فإن قلت: كيف تكون المبدلات خيرا منهم، ولم يكن على وجه الأرض نساء خير من أمهات المؤمنين؟

قلت: إذا طلقهن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لعصيانهن له، وإذائهن إياه، لم يبقين على تلك الصفة، وكان غيرهن من الموصوفات بهذه الأوصاف مع الطاعة لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - والنزول على هداه ورضاه خيرا منهم...

فإن قلت: لم أخلت الصفات كلها عن العاطف، ووسط بين الثيبات والأبكار؟ قلت: لأنهما صفتان متنافيتان لا يجتمعان فيهن اجتماع سائر الصفات فيهن، فلم يكن بد من الواو..... (١).

هذا، والمتأمل فى هذه الآيات الكريمة يراها ترسم جانباً من حياة الرسول - صلى الله عليه وسلم - مع أزواجه، وهذا الجانب فيه ما فيه من العظات التى من أبرزها تسكريم الله - تعالى - لنبيه، - صلى الله عليه وسلم -

وإرشاده إلى ما هو أهدى وأقوم ، وسمو أخلاقه - صلى الله عليه وسلم - في معاملته لأهله ، وتحذير أزواجه من أن يتصرفن أى تصرف لا يرغب فيه ، ولا يميل إليه ، وتعليم المؤمنين والمؤمنات - في كل زمان ومكان - كيف تكون العلاقة الطيبة بين الرجال والنساء . . .

• • •

ثم وجه - سبحانه - بعد ذلك نداءين إلى المؤمنين ، أمرهم في أولهما أن يؤدوا واجبهم نحو أنفسهم ونحو أهليهم ، حتى ينجو من عذاب النار ، وأمرهم في ثانيهما بالمداومة على التوبة الصادقة النصوح . . . ، ووجه نداء إلى الكافرين بين لهم فيه سوء عاقبة كفرهم ، ثم وجه - سبحانه - نداء إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - أمره فيه بأن يجاهد الكفار والمنافقين جهادا مصحوبا بالغلظة والخشونة . . . فقال - تعالى - :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ، عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غُلَاظٌ شِدَادٌ ، لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ (٦) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٧) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تَوْبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يَكْفُرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ، يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ ، يَقُولُونَ رَبَّنَا آتِنَا نُورَنَا ، وَافْعَرْ لَنَا ، إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٨) يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاعْلِظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبُئْسَ الْمَصِيرُ (٩) » .

وقوله - تعالى - : « قوا ، فعل أمر من الوقاية ، يقال : وقى بقی ، كضرب يضرب ... »

والمعنى : يا من آمنتم بالله - تعالى - حق الإيمان ، أبعادوا أنفسكم عن ، عن طريق فعل الحسنات ، واجتنبوا السيئات ، وأبعادوا أهليكم - أيضاً - عنها ، عن طريق نصيحتهم وإرشادهم وأمرهم بالمعروف ، ونهيهم عن المنكر .. قال القرطبي : قال قتادة ومجاهد : قوا أنفسكم بأفعالكم . وقوا أهليكم بوصيتكم ...

ففي الحديث الصحيح أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال : كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته ، فالإمام الذي على الناس راع وهو مسئول عنهم ، والرجل راع على أهل بيته وهو مسئول عنهم ، وقال - صلى الله عليه وسلم - : « ما نحمل والد ولدا ، أفضل من أدب حسن ، »

وقال - صلى الله عليه وسلم - : « مروا أبناءكم بالصلاة لسبع . واضربوهم عليها لعشر ، وفرقوا بينهم في المضاجع ، ... »

وقد روى مسلم في صحيحه أن النبي - صلى الله عليه وسلم - كان إذا أوتر يقول : قومي فأوترى يا مائشة ، ...

وذكر القشيري أن عمر - رضي الله عنه - لما نزلت هذه الآية قال يا رسول الله : نقي أنفسنا فكيف بأهلينا ؟

فقال : تنهونهم عما نهاكم الله عنه ، وتأمرونهم بما أمركم الله به ، ... (١) وجاء لفظ النار منكرا ، للتحويل . أي : نارا عظيمة لا يعلم مقدار حرها إلا الله - تعالى - .

وقوله : « وقودها الناس والحجارة ، أي : هذه النار لا توقد كما يوقد هيرها بالخطب وما يشبهها ، وإنما مادة اشتعالها تتكون من الناس الذين كانوا

في الدنيا يشركون مع الله - تعالى - آلهة أخرى في العبادة ، ومن الحجارة التي كانت تعبد من دونه - تعالى - .

ثم أضاف - سبحانه - إلى تهويلها أمرا آخر وصفة أخرى فقال : وعليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ،

والغلاظ : جمع غليظ ، وهو المتصف بالضخامة والغلظة ، التي هي ضد الرقة . وهذا اللفظ صفة مشبهة ، وفعله غلظ ككرم . .

وشداد : جمع شديد ، وهو المتصف بالقوة والشدّة . يقال : فلان شديد على فلان ، أى : قوى عليه ، بحيث يستطيع أن ينزل به ما يريد من الأدنى والعقاب .

أى : هذه النار من صفاتها - أيضا - أن الموكلين بإلقاء الكفار والفساق فيها ، ملائكة قساة في أخدم أهل النار ، أقوياء عليهم ، بحيث لا يستطيع أهل النار أن يفلتوا منهم ، أو أن يعصوا لهم أمرا . . .

وهؤلاء الملائكة من صفاتهم كذلك أنهم لا يعصون الله - تعالى - أمرا ، وإنما ينفذون ما يكلفهم - سبحانه - به تنفيذا تاما .

قال صاحب الكشف : فإن قلت أليس الجلماتان - لا يعصون . . ويفعلون - في معنى واحد ؟

قلت : لا ، فإن معنى الأولى أنهم يتقبلون أوامره ويلتزمون بها ولا يأبونها ولا ينكرونها . ومعنى الثانية : أنهم يؤدون ما يؤمرون به ، ولا يتشاقلون عنه ، ولا يتوانون فيه .

ثم بين - سبحانه - ما تقوله الملائكة لأهل النار عند ما يرضون عليها ، فقال : يا أيها الذين كفروا لا تعتذروا اليوم . . . ، والمراد باليوم ، يوم القيامة فال فيه للعهد .

أى : تقول الملائكة لهم فى هذا اليوم العسير - على سبيل التبكيت والتوبيخ - لا تعتذروا - أيها الكافرون عن كفركم ، بأن تقولوا ما جاءنا من بشير ولا فذير . أو بأن غيرنا أضلنا ، أو بأننا ما كنا مشركين .. فإن هذه الأعذار لن تنفعكم ، وأنتم فى هذا اليوم إنما تعاقبون على كفركم فى الدنيا ، وعلى إصراركم على ذلك حتى أدر كحكم الموات ...

فآية الكريمة توبيخ للكافرين ، وتنبئ لهم من قبل أعذارهم الكاذبة .

ثم يرشد - سبحانه - المؤمنين ، إلى ما يعينهم على الوقاية من النار فيقول :

يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحا

والتوبة : العزم الصادق على عدم العودة إلى المعصية ، والندم على ما فعله منها فى الماضى ، والنصح صيغة مبالغة من النصيح ، وصفت بها التوبة على سبيل الاستناد المجازى ، والمقصود وصف التائبين بها ، من نصيح فلان الثوب إذا خاطه ، فكأن التائب يرقع ما مزقه بالمعصية . أو من قولهم : عسل ناصح ، إذا كان خالصا من الشمع وغيره .

وقد ذكروا فى معنى هذه الجملة أكثر من عشرين وجها ..

قال الفرطى : اختلفت عبارة العلماء ، وأرباب القلوب ، فى التوبة النصوح على ثلاثة وعشرين قولاً ، فقليل : هى التى لا عودة بعدها ، كما لا يعود اللبن إلى الضرع ...

وقال قتادة : النصوح الصادقة الناضجة .. الخالصة ...

وقال القرطبى : التوبة النصوح يجمعها أربعة أشياء : الاستغفار باللسان ، والاقلاع بالأبدان ، وإضمار ترك العود بالجنان ، ومهاجرة سب الإخوان . وقال الفقهاء : التوبة لا تعلق لحق آدمى فيها لها ثلاثة شروط : أحدها أن يقطع عن المعصية ، وثانيها : أن يندم على ما فعله ، وثالثها : أن يعزم على أن لا يعود إليها ..

فإذا اجتمعت هذه الشروط في التوبة كانت نصوحا...

وإن كانت تتعلق بحق آدمي ، فشروطها أربعة . هذه الثلاثة المتقدمة ، والرابع أن يبرأ من حق صاحبها ، فإن كانت المعصية مالا أو نحوه رده إليه ، وإن كانت حد قذف ونحوه ممكنه من نفسه ، أو طلب العفو منه ، وإن كانت غيبة استحله منها ...

وهي واجبة من كل معصية على الفور ، ولا يجوز تأخيرها (١)

وقوله - سبحانه - : عسى ربكم أن يكفر عنكم سيئاتكم ، ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار ،

والرجاء المستفاد من فعل عسى ، مستعمل هنا في الوعد الصادق منه - تعالى - على سبيل المكرم والفضل ، فقد قالوا إن كل ترج في القرآن واقع منه - تعالى - فضلا منه وكرما

أى : يا من آمنتم بالله حق الإيمان ، توبوا إلى الله - تعالى - توبة صادقة ، بحيث تندمون على ما فرط منكم من ذنوب ، وتعزمون على عدم العودة إليها ، وتستتمرون على توبتكم طوال حياتكم ، فإناسكم متى فعلتم ذلك غفر الله - تعالى - لبيكم ذنوبكم ، وكفر عنكم سيئاتكم ، وأدخلكم جنات تجري من تحت أشجارها ونهارها الأنهار

قال صاحب الكشاف : قوله : عسى ربكم ، : إطماع من الله لعباده ، وفيه وجهان : أحدهما أن يكون على ما جرت به عادة الجبارة من الإجابة بعسى ولعل . ووقوع ذلك منهم موقع القطع والبت . والثاني : أن يحى به تعلبا للعباد وجوب الترجيح بين الخوف والرجاء ... (٢) ،

(١) راجع تفسير القرطبي ج ١٨ ص ١٩٤ :

(٢) تفسير الكشاف ج ٤ ص ٥٧٠ .

والظرف في قوله - سبحانه - : « يوم لا يخزي الله النبي والذين آمنوا معه ، نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم » منصوب بقوله - تعالى - قبل ذلك : « يدخلكم » ، أو بفعل مضمر تقديره : اذ كر ...

وقوله : « يخزي » من الخزي بمعنى الافتضاح : يقال : أخزى الله فلانا إذا فضحه . والمراد به هنا : عذاب النار .

وقوله : « والذين آمنوا معه » معطوف على النبي ، وجملة « نورهم يسعى » مستأنفة .

أى : يدخلكم الله - بفضل وكرمه .. جنات تجري من تحتها الأنهار ، يوم القيامة ، يوم ينجي - سبحانه - النبي - صلى الله عليه وسلم .. وينجي الذين آمنوا معه من عذاب النار ، ومن خزي هذا اليوم العصيب ..

وهم جميعا .. وعلى رأسهم الرسول صلى الله عليه وسلم .. نورهم وهم على الصراط ، يسعى ويمتد وينتشر « بين أيديهم »

أى : أمامهم « وبأيمانهم » ، أى : وعن أيمانهم ...

ويقولون .. على سبيل الحمد والشكر لله .. تعالى .. ياربنا « أتمم لنا نورنا » بأن تزيده ولا تنقصه حتى ندخل جنتك ...

« واغفر لنا ، ياربنا ذنوبنا » لك ، ياربنا « على كل شيء قدير » .

وفى عطف الذين آمنوا على النبي - صلى الله عليه وسلم - ، إشعار بأن سبب انتفاء خزيهم ، هو إيمانهم الصادق ، وعملهم الصالح ، وصحبتهم الكريمة للنبي - صلى الله عليه وسلم - .

والضمير في قوله « نورهم » : يعود إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - والذين آمنوا معه .

وخص - سبحانه - الأمام واليمين بالذكر ، لفضل هذين المكانين ، إذ النور عندما يكون من الأمام يستمتع الإنسان بمشاهدته ، وعندما يكون عن جهة اليمين يزداد تفاؤلا وانشراحا به ...

والتخصيص بذلك لا ينبغي أن يكون النور محيطاً بهم من كل جوانبهم ،
وهو نور حقيقى يكرم الله - تعالى - به عباده الصالحين .

وختموا دعاءهم بقولهم - كما حكى القرآن عنهم - : « إنك على كل شيء
قدير » ، الإشارة إلى أنهم كانوا على جانب كبير من رجاء تحقق دعائهم ،
لأنهم يسألون ويدعون الله - تعالى - ، الذى لا يقف أمام قدرته شيء
ثم أمر - سبحانه - نبيه - صلى الله عليه وسلم - أن يجاهد الكفار
والمنافقين جهاداً كبيراً فقال : يا أيها النبی جاهد الکفار والمنافقین وأغلظ
عليهم

وخص النبي - صلى الله عليه وسلم - بالأمر بالجهاد ، مع أن الأمر به
يشمل المؤمنين معه ، لأنه - صلى الله عليه وسلم - هو قائدهم ورائدهم . . .
وجهاده - صلى الله عليه وسلم - للكفار يكون بدعوتهم إلى الحق حتى
يسلموا ، فإذا لم يستجيبوا جاهدكم بالسيف والسلاح حتى يزهق باطلهم .
وجهاده للمنافقين يسكون بتأديبهم وزجرهم وإلقاء الرعب في قلوبهم ، حتى
يأمن المؤمنون شرهم ، وحتى يشعروا بأن النبي والمؤمنين لهم بالمرصاد . . .
والغلاظة في الأصل : تطلق على الشيء الصلب الغليظ . والمراد بها هنا :
معاملتهم بالشدّة والخشونة والقسوة . . . حتى يأمن المؤمنون جانبيهم ،
ويتقوا شرهم . .

أى : يا أيها النبي للكریم جاهد أنت ومن معك من المؤمنین ، الکفار
والمنافقین ، وعاملهم جميعاً بالخشونة والغلاظة . . . حتى يهابوك أنت ومن
معك ، وحتى تكونوا في مأمن منهم ومن أذاهم إذ الحق لا بد له من قوة تحميّه
وتدفع عنه كيد أعدائه .

وقوله - تعالى - : « وما وأمّ جهنم وبئس المصير » ، بيان لسوء مصيرهم
في الآخرة .

أى : أن هؤلاء الكافرين والمنافقين ، حالهم في الدنيا المجاهدة والمعاملة التي لا تسامح معها ولا تساهل ، حتى تكون كلمتهم السفلى ، وكلمة الله - تعالى - هي العليا ...

أما حالهم في الآخرة ، فالإلقاء بهم في جهنم ، وبئس المأوى والمسكن جهنم . فالخصوص بالذم محذوف ، وهو جهنم ، أو المأوى ...

وبذلك نرى الآيات الكريمة قد أرشد النبي - صلى الله عليه وسلم - والمؤمنين ، إلى ما يسعدهم في دنياهم وآخرتهم .

• • • • •

وبعد هذه التذارات ، للمؤمنين ، وللكافرين وللنبي - صلى الله عليه وسلم - ، ضرب - سبحانه - مثلين لنساء كافرات في بيوت أنبياء ، ولنساء مؤمنات في بيوت كفار ، لتزداد المرعظة وضوحاً ، ولتزداد المؤمنون إيماناً على إيمانهم . وليشعر الجميع - ولا سيما أزواج النبي - صلى الله عليه وسلم - أنهم مسئولون أمام الله - تعالى - عن أعمالهم فقال - تعالى - :

« ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأةَ نُوحٍ وامْرَأةَ لُوطٍ ، كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحِينَ ، فَخَفَّتَاهُمَا ، فَلَمْ يَغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ، وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاهِلِينَ (١٠) وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأةَ فِرْعَوْنَ ، إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي هُنكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ ، وَنَجِّنِي مِنَ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (١١) وَمَرْيَمَ ابْنَةَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا ، فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا ، وَصَدَّقْتَ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ ، وَكَانَتْ مِنَ الْقَائِمِينَ (١٢) » .

والمراد بضرب المثل . لإبراد حالة غريبة ، ليعرف بها حالة أخرى مشابهة

لها في الغرابة . وقوله . مثلا ، مفعول ثان لضرب ، والمفعول الاول
 « امرأة نوح » .

والمقصد للقرآن الكريم ، يراه قد أكثر من ضرب الأمثال ، لأن فيها
 تقريبا للبعيد ، وتوضيحا للغريب ، وتشبيه الأمر بالمعقول بالأمر المحسوس ،
 حتى يرسخ في الأذهان

أى : جعل الله - تعالى - مثلا لحال الكافرين ، وأنه لا يغنى أحد عن أحد
 « امرأة نوح وامرأة لوط ، عليهما السلام . »

وعدى الفعل « ضرب » ، باللام ، للإشعار بأن هذا المثل إنما سبق من
 أجل أن يعتبر به الذين كفروا ، وأن يقلعوا عن جهالاتهم التي جعلتهم
 يعتقدون أن أصنامهم ستشفع لهم يوم القيامة .

وقوله - تعالى - : « كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحِينَ نَفَاتَاهُمَا ... »
 بيان لحال هاتين المراتين ، ولما قامت به من أفعال شائنة ، تنافى مع صلتها
 بهذين النبيين الكريمين ..

والمراد بالتحية هنا : كونهما زوجين لهذين النبيين الكريمين ، وتحت
 عصمتهم وصيانتهم ، وأشد الناس التصاقا بهما .

وقال - سبحانه - « كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ ... » ، للتعظيم . أى : كَانَتَا فِي
 عصمة نبيين لهما من سمو المنزلة مالهما عند الله - تعالى - .

ووصفهما - سبحانه - بالصلاح ، - مع أنهما نبيان والنبوة أعظم هبة من
 الله لعبده - ، للتفويه بشأن الصالحين من الناس ، حتى يحرصوا على
 هذه الصفة ، ويتمسكوا بها ، فقد مدح الله - تعالى - من هذه صفته في آيات
 كثيرة ، منها قوله - تعالى - : « وَبَشَرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ » .

وخيانة امرأة نوح له ، كانت عن طريق إفشاء أسراره ، وقولها لقومه :
 إنه مجنون ...

وخيانة امرأة لوط له ، كانت عن طريق إرشاد قومه إلى ضيوفة ...
مع استمرار هاتين المرأتين على كفرهما ...

قال الإمام ابن كثير : قوله : « فخاتاهما ، أى : فى الإيمان ، لم يوافقاهما
على الإيمان ، ولا صدقاهما فى الرسالة ...

وليس المراد بقوله : « فخاتاهما ، فى فاحشة ، بل فى الدين ، فإن نساء
الأنبياء معصومات عن الوقوع فى الفاحشة ...

عن ابن عباس : قال : ما زلتا ، أما امرأة نوح ، فكانت تخبر أنه مجنون ،
وأما خيانة امرأة لوط ، فكانت تدل قومها على أضيافه .

وفى رواية عنه قال : كانت خيانتهم أن امرأة نوح ، كانت تنشى سره ،
فإذا آمن مع نوح أحد أخبرته الجبارة من قوم نوح به ، وأما امرأة لوط
فكانت إذا أضاف لوط أحدا ، أخبرته به أهل المدينة بمن يعمل سوء ،^(١)
وقوله - تعالى - : « فلم يغنيا عنهما من الله شيئا وقيل ادخلا النار مع
الداخلين ، بيان لما أصابهما من سوء العاقبة بسبب خيانتهم .

أى : أن نوحا ولوطا - عليهما السلام - مع جلالة قدرهما ، لم يستطيعا أن
يدفعا شيئا من العذاب عن زوجتيهما الخائنتين لهما ، وإنما قيل لهاتين المرأتين
عند موتهم ، أو يوم القيامة ، ادخلا النار مع سائر الداخلين من الكفرة
الفجرة ...

وقوله « شيئا ، منصوب على أنه مفعول مطلق لقوله : « يغنيا ، وجاء
منكرا للتقليل والتحقيق ، أى : فلم يغنيا عنهما شيئا من الإغناء حتى ولو كان
قليلا ...

وقوله : « مع الداخلين ، بعد قوله : « ادخلا النار ، ازيادة تبيكيتهم ،

ولتأكيد مساواتهما في العذاب مع غيرهما من الكافرين الخائنين، الذين لاصلة لهم بالأنبياء من حيث القرابة أو ما يشبهها .

ثم ضرب - سبحانه - مثلاً للمؤمنين فقال: « وضرب الله مثلاً للذين آمنوا امرأة فرعون، وهي آسية ابنة مزاحم، التي لم يمنعها طوفان الكفر الذي كانت تعيش فيه في بيت فرعون، ولم يشغلها ما كانت فيه من متاع الحياة الدنيا وزينتها... عن أن تطلب الحق، وتعرض عن الباطل، وأن تكفر بكل ما يدعيه زوجها من كذب وطغيان... »

قال الجمل: آمنت بموسى - عليه السلام - لما غلب السحرة، وتبين لها أنه على الحق، ولم تضرها الوصلة بالكافر، وهي الزوجية التي هي من أعظم الوصل ولا نفعه لإيمانها، لأن كل امرئ بما كسب رهين... »

وروى الشيخان عن أنى موسى الأشعري أنه قال: كل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلا أربع: مريم ابنة عمران، وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد - صلى الله عليه وسلم -، وآسية بنت مزاحم، امرأة فرعون... »

قيل: لأنها إسرائيلية وأنها عمة موسى. وقيل لأنها ابنة عم فرعون... ومن فضائلها أنها اختارت القتل على الملك، وعذاب الدنيا على النعيم الذي كانت فيه، - بعد أن خالط الإيمان قلبها، (١) -

أى . وجعل الله - تعالى - حال امرأة فرعون، مثلاً للمؤمنين، حيث آمنت بالحق بعد أن تبين لها، دون أن يصرفها عن ذلك أى صارف، فكان ما فعلته في أسنى درجات الإخلاص وصدق اليقين... »

والظرف في قوله: « إذ قالت... » متعلق بمحذوف، أو بقوله: « مثلاً... »

أى: وضرب الله - تعالى - مثلاً للذين آمنوا، حال امرأة فرعون، وقت

أن قالت ، رب ابن لى عندك بيتا فى الجنة ، أى : ابن لى بيتا فى مستقر
رحمتك ، أو فى جنتك التى لا يستطيع أحد التصرف فيها إلا بإذنك .

وقوله : د فى الجنة ، بدل أو عطف بيان لقوله - تعالى - د عندك ، وقدم
عندك ، للإشعار بأن محبتها للقرب من رحمة - تعالى - أهم من أى شىء آخر .

د ونجنى من فرعون وعمله ، أى : ونجنى من طغيان فرعون ، ومن عمله
الذى بلغ النهاية فى السوء والقيح ...

د ونجنى ، - أيضا - د من القوم الظالمين ، وهم أتباع فرعون وحاشيته
وملأؤه ، وشيعته ...

وفى هذا الدعاء أسمى ألوان الأدب ، فهى تسأل الله - تعالى - أن يعرضها
من دار فرعون ، دارا فى أعلى درجات الجنة ...

وهذا الدعاء يشهد بأن فرعون وقومه ، قد صدوها عن الإيمان ، وهددوها
بأنهم إن آمنتم ... حرموها من قصر فرعون ، وزيفته وفخامته ...

كما أنها سألت ربها - عز وجل - أن ينجيها من ذات فرعون ، ومن عمله
الذى ، ومن كل من حام حول فرعون ، واتبعه فى طغيانه وكفره ...

وقوله - سبحانه - : د ومريم ابنة عمران ... معطوف على د امرأة
فرعون

أى : وضرب الله - تعالى - مثلا آخر للدؤمنين . مريم ابنة عمران ...

د التى أحصنت فرجها ، أى : حفظته وصانته ، إذ الإحسان جعل الشىء
حصينا ، بحيث لا يتوصل إليه ، وهو كناية عن عفتها وطهارتها وبعدها عن
كل فاحشة ...

وقوله د فننخنا فيه من روحنا ، مفرع على ما قبله .

قال الآلوسى : قوله ، فنفتحنا فيه ، النافخ رسول جبريل - عليه السلام -
فالإسناد مجازى . وقيل الكلام على حذف مضاف ، أى : فنفتح رسولنا ،
وضمير ، فيه ، للفرج .

واشتهر أن جبريل - عليه السلام - نفخ في جيبها فوصل أثر ذلك
إلى الفرج .

وقال الفراء : ذكر المفسرون أن الفرج جيب درعها ، وهو محتمل لأن
الفرج معناه فى اللغة ، كل فرجة بين شيئين ، وموضع جيب درع المرأة
مشقوق فهو فرج ، وهذا أبلغ فى الثناء عليها ، لأنها إذا منعت جيب درعها ،
فهى للنفس أمتع ... (١) .

أى : فنفتح رسولنا جبريل فى فرجها أو فى جيب درعها ، روحاً من
أرواحنا هى روح عبدنا ونبيينا عيسى - عليه السلام - .

وإضافة الروح إلى ذاته - تعالى - ، لأنه هو الخالق والموجد والإشارة
إلى أن تكون المخلوق الحى فى رحمها ، كان على غير الأسباب المعتادة .

وقوله - تعالى - : « وصدقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين » .
زيادة فى مدحها ، وفى الثناء عليها ..

أى : وكان من صفات مريم ابنة عمران أنها آمنت بإيماناً حقاً بكلمات
ربها ، أى : بشرائه التى شرعها لعباده ، وبما ألقاه إليها من إرشادات عن
طريق وحيه .

« وكتبه » ، أى : وصدقت بكتبه التى أنزلها على أنبيائه . وقرأ الجمهور
« وكتبته » ، بالإنفراد ، على أن المراد به جنس الكتب ، أو الإنجيل الذى
أنزله - سبحانه - على ابنها عيسى .

و من ، في قوله - تعالى - : : وكانت من القانتين ، للإبتداء . أي :
وكانت من نسل الرجال القانتين ، الذين بذلوا أقصى جهدهم في طاعة الله - تعالى - ،
وفي إخلاص العباداة له .

ويصح أن تكون « من » ، للتبعض . أي : وكانت من عداد الموابطين
على الطاعة ، وجيء بجمع الذكور على سبيل التغليب ، والإشعار بأن طاعتها
لا تقل عن طاعة الرجال ، الذين بلغوا الغاية في الموابطة على طاعة
الله - تعالى - .

وبذلك نرى أن هذه الآيات الكريمة ، قد اشتملت على ثلاثة أمثال :
مثل للكافرين ، ومثليين للمؤمنين .

وقد تضمن مثل الكفار ، أن الكافر يعاقب على كفره ، دون أن ينفعه
ما بينه وبين المؤمنين من قرابة أو نسب .. كما حدث لامرأة نوح وامرأة لوط .
وأما المثالان اللذان للمؤمنين ، فقد تضمننا أن اتصال المؤمن بالكافر ،
لا يضره شيئاً إذا فارقه في كفره وعمله ...

وقد وضح صاحب الكشف هذا المعنى فقال : ما ملخصه مثل الله - تعالى -
حال الكفار - في أنهم يعاقبون على كفرهم وعداوتهم للمؤمنين .. دون أن
ينفعهم ما بينهم وبينهم من صلة أو قرابة - بحال امرأة نوح وامرأة لوط :
فإنهما لما ناققتا وخانتا الرسولين ، لم يغن عنهما ما بينهما وبينهما من وصلة
الزواج شيئاً ...

ومثل حال المؤمنين - في أن وصلة الكافرين لا تضرهم . ولا تنقص
شيئاً من ثوابهم وزلفاهم عند الله - بحال امرأة فرعون ، فإنها مع كونها
زوجة أعدى أعداء الله ، فإنها بسبب إيمانها قد رفع منزلتها عنده ..

وبحال مريم ابنة عمران ، فقد أعطاه الله ما أعطاه من الكرامة ...

وفي طي هذين التمثيلين تعريض بأى المؤمنين المذكورتين فى أول
السورة ، وما فرط منهما من التظاهر على رسول الله - صلى الله عليه وسلم -
بما كرمه ، وتحذير لهما على أغلظ وجه وأشده ...

وإشارة إلى أن من حققهما أن تكونا فى الإخلاص والسكال فيه ، كمثل
هاتين المؤمتين ، وأن لا تتكلا على أنهما زوجا رسول الله - صلى الله عليه وسلم -
فإن ذلك الفضل لا ينفعهما إلا مع كونهما مخلصتين . .

وأسرار التنزيل وموزة فى كل باب ، بالغة من اللطف والخفاء ، حذا
يدق عن تفتن العالم ، ويزل عن تبصره

وبعد : فهذا تفسير لسورة التحريم ، . نسأل الله - تعالى - أن يجعله
خالصاً لوجهه ، ونافعاً لعباده . وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه
وسلم .

الإسكندرية - العجمى

مساء ٢٦ من شوال ١٤٠٦ هـ

٤ من يوليو ١٩٨٦ م

التفسير الوسيط للقرآن الكريم

فهرس المجلد الرابع عشر

صفحة

١	١ - تفسير سورة « الذاريات »
٢٩	٢ - تفسير سورة « الطور »
٦٥	٣ - تفسير سورة « النجم »
١١٥	٤ - تفسير سورة « القمر »
١٦٠	٥ - تفسير سورة « الرحمن »
١٩٦	٦ - تفسير سورة « الواقعة »
٢٤٨	٧ - تفسير سورة « الحديد »
٢٥٧	٩ - تفسير سورة « الحشر »
٤٠	١٠ - تفسير سورة « الممتحنة »
٤٥٥	١١ - تفسير سورة « الصف »
٤٨٠	١٢ - تفسير سورة « الجمعة »
٥١٠	١٣ - تفسير سورة « المنافقون »
٥٤١	١٤ - تفسير سورة « التغابن »
٥٦٤	١٥ - تفسير سورة « الطلاق »
٥٩٩	١٦ - تفسير سورة « التحريم »

